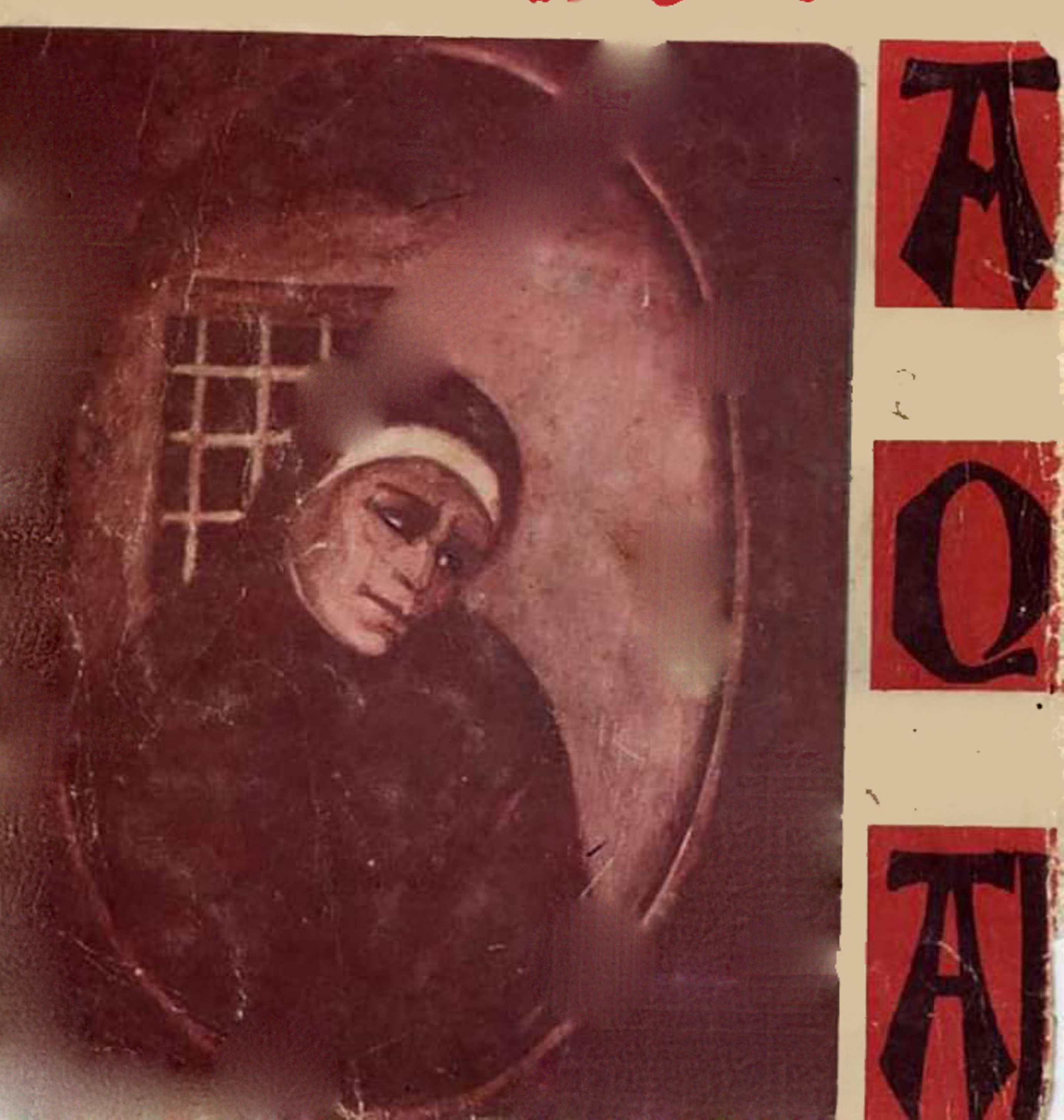
الدكتور إسحق عبيد

# من آلارك إلى چستنيان

## دراسة في حوليات العصور المظلمة






# من الارك إلى جستنيان

## (قراءة فى حوليات العصور المظلمة)


الدكتور اسحق عبيد

أستاذ العصور الوسطى المساعد

كلية الآداب – جامعة عين شمس



الطبعة الأولى

١٩٧٧





دار المعارف

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. م. ع.

"Cesare fui,e son Giustiniano...

A Dio per grazia piacque di spirami

L'altro lavoro".

(DANTE)

# فهرس

## اللوحات

# تقديم

كنت قد عرضت فى كتاب سابق بعنوان « الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية » ( دار المعارف القاهرة ( ١٩٧٢ ) لمشكلة الغزوات الجرمانية لولايات الإمبراطورية الرومانية. غير أننى فى ذلك الوقت لم أتناول سيرة الجرمان بالتفصيل ، واكتفيت بإجمال الخطوط العامة لتحركاتهم ، لكى أمهد لمعالجة تاريخ الإمبراطورية الكارولنجية وعصر شرلمان، بما يستوجبه من إفاضة. وكان على فى نفس المقام أن أفسح المجال أيضاً لمناقشة المشكلات الدينية والمذهبية من هرطقات ومجامع مسكونية متعددة فيما بين القرنين الرابع والتاسع للميلاد .

ولكن الأمر هنا مختلف تماماً ، ففكرة هذا البحث الجديد تعالج صورة من صور التحدى والاستجابة ، ففيه نعنى بسيرة الشعوب الجرمانية من واقع سجلات العصر وحولياته وآدابه وفلسفته ، محاولين أن نمس روح العصر أكثر من اللهث وراء أحداثه ، وذلك من خلال معايشة الأحداث وأبطالها مع التنقيب عن حال الشعوب فى ذلك العصر الدامس الظلام للعثور على تفسيراتهم لتلك الأحداث وردود أفعالهم إزاءها . كما أننا بعد عرض ذلكم التحدى « المتبربر » فى ثوبه الأصيل الذى اعتمدنا فيه كلية على المصادر الأولى وشهادة شهود العيان ، ننتقل إلى قصة الاستجابة . ولقد وجدت فى جهود الإمبراطور جستنيان العظيم آخر الأباطرة الرومان ، رد الفعل الرومانى ، الذى يشير إلى بقية باقية من العزم الرومانى التليد ، وإن جاء الرد هذه المرة من على ضفاف البسفور ، من القسطنطينية (روما الجديدة) . والواقع أن استجابة جستنيان وأهل عصره فى القرن السادس للتحديات التى هزت كيان الإمبراطورية الرومانية فى القرن الخامس ، كانت من حجم التحديات التى اكتوت بها روما سنة ٤٧٦م ، ولذا فقد كتب النجاح لتلك الجهود الجستنيانية . من هنا كان اهتمامنا بعصر جستنيان وبسيرته وبكتاب القرن السادس على وجه الخصوص .

كما أن هذا الكتاب الحالى يفرد ملاحق خاصة تحوى سجلا بمؤرخى العصور الوسطى ، ونصوصاً كاملة نقلناها إلى اللغة العربية مع نشر نصوصها اللاتينية إلى جوارها وهى تضم فكراً وشعراً وفلسفة وسياسة وتعزية بين جنباتها . ويقينى أن تلك النصوص التاريخية الأصلية هى خير ما يلقى الضوء على عصر شديد الاضطراب والغموض مما جعل الكثيرين من الكتاب يدمغونه بعصر « الظلام » . والله الموفق .

المؤلف

# الفصل الأول

## مقدمات الصدام بين الرومان والجرمان

ظلت الفكرة عن شعوب الجرمان لدى الرومان لفترة طويلة أقرب ما تكون إلى الأسطورة منها إلى الواقع ، وكان أول من قام بزيارة لبلاد الجرمان وترك لنا شهادته هو الكاتب الإغريقي بثياس من مرسيليا وذلك فى سنة ٣٤٥ م.[١] وقد تواتر عن جرمانيا فى سجلات الرومان أن غاباتها غاصة بحيوانات شقراء اللون لا توجد مثيلات لها فى أية بقعة أخرى على وجه الأرض[٢] ، كما قيل إن رجالها من عود عملاق ، وبأنهم ذوو بأس غير عادى[٣] .

بدأ أول احتكاك بين الإمبراطورية الرومانية وبين الجرمان فى نهاية القرن الثانى ق.م. لأسباب نجهلها : فقد تحركت قبائل الكمبرى والتيوتون من جوانب بحر الشمال قبالة البحر المتوسط ، مهددة فى زحفها ولايات الإمبراطورية الرومانية ، عبر بلاد الشمال ثم غالة فيما بعد . وقد التحم الطرفان مرات أربع فى القرن الثانى ق.م . وكان النصر فى ثلاث منها للجرمان على الرومان ، غير أن الجرمان لم يستغلوا نجاحهم المتكرر فى تحقيق مكاسب أبعد من مجرد إحراز النصر . وجاء الصدام الرابع بين الطرفين ليهدد كيان روما ذاتها ؛ إذ زحف الجرمان عبر نهر الرون ونهبوا كل ما صادفوه فى طريقهم . غير أن القائد الرومانى ماريوس تصدى برجاله لقبائل الكمبرى والتحم بهم عند بلدة اكس أن — بروفانس سنة ١٠٢ ق.م. ، وأباد منهم عدداً وافرا . ثم التقى بفريق آخر من الجرمان عند ڤرسيل (Versil) سنة ١٠١ ق.م. وأوقع بهم من الهزيمة ما حل ببنى جلدتهم قبل ذلك بعام واحد[٤] .

وفى القرن التالى أقام الزعيم الجرمانى أريوڤست (Arioviste) إمبراطورية قوية ، تركزت

(١) Julian, C. Histoire de la Gaule, t. 1, pp. 420 - 22.

(٢) Gesar, De bello Gallico, 22,5; IV, 1.

(٣) Ibid., IV, 1.

(٤) Julian, C., Op., Cit., t. III, pp. 56 - 91.

قوتها فى المنطقة العليا من الألزاس ، وراح من هناك يتحرش بالأراضى المجاورة فى الغرب . ولذا فإن عدداً من زعماء غالة استنجدوا بيوليوس قيصر سنة ٥٨ ق . م. لمغالبة تهديدات أريوڤست . وقد انتهز قيصر تلك الفرصة فى تبرير حملاته على غالة لضمها إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية . وقد برر قيصر هذه السياسة بأنه لو تركت غالة لسقطت فريسة فى أيدى الجرمان (٥) .

ومنذ ذلك التاريخ أصبح الراين نقطة حدود طبيعية تفصل بين البرابرة الجرمان وبين العالم الرومانى (٦) .

وتوالت بعد ذلك حملات رومانية على شواطئ الراين لإرهاب الجرمان : فقام قيصر بحملة لهذا الغرض سنة ٥٥ ق. م. وقام اغريبا بحملة لنفس الغرض سنة ٣٨ق.م. وبين العام الثانى عشر والتاسع ق.م. تولى القائد الرومانى دروسوس ، وهو زوج ابنة أغسطس ، إخضاع المناطق الواقعة بين الراين ونهر ألب . وبعد مصرع دروسوس اضطلع شقيقه طيبيريوس بإكمال المهمة من بعده ، وقد حقق فى ذلك نجاحاً ملحوظاً ، إذ أنه عبر نهر الدانوب زاحفا على بوهيميا . وبدا وكأن جرمانيا كلها سوف تصبح ولاية خاضعة لروما ، مثلما حدث من قبل لغالة . غير أن ظهور الزعيم الجرمانى المرموق أرمنيوس ثم إلحاقه هزيمة ساحقة بجيوش القائد الرومانى فاروس سنة ٩ق.م. فى موقعة تيوتوبرجر فالد ، أجبر السلطات الرومانية على إخلاء الشط الأيمن لنهر الراين ، ولم تفلح حملات جرمانيكوس

---

(٥) Cf. Tacitus, Historiarum, Lib. IV, 73, pp. 142 - 144 : "Mox treviros ac Lingonas ad contionem vocatos ita adloquitur : „neque ego unquam facudiam exrcuii, et populus Romanus virtutem armis adfirmavit : sed quoniam apud vos verba plurimum valent bonaque ac mala non sua natura, sed vocibus seditiosorum aestimantur, statui pauca disserere quae profligato bello utilius sit vobis audisse quam nobis dixisse. Terram vestram ceterorumque Gauorum ingressi sunt duces imperatoresque Romani nulla cupidine, sed maioribus vestris invocantibus, quos discordiae usque ad eitium fatigabant, et acciti auxilio Germani sociis pariter atque hostibus servitutem imposuerant. Quot proeliis adversus Cimbros Tevtonosque, quantis exercitum nostrorum laboribus quove eventu Germanica bella tractavrimus, satis clarum. Nec ideo Rhenum insedimus ut Italiam tueremeurs,ed ne quis alius Ariovistus regno Galliarum patiretur. An vos cariores civili Batavisque et transchenanis gentibus creditis quam maioribus eorum patres avique vestri fuerreunt ? Eadem semper causa Germanis transcendendi in Gallias, libido atque avaritia et mutandae sedis amor, ut relictis paludibus et solitudinibus suis fecundissimum hoc solum vosque ipsos possiderent ..."

(٦) Ciceron, In Pisonem, XXXIII, 81.

فى تلك المنطقة ، ولذا فقد قرر الإمبراطور الجديد طيبيريوس أن تكون سياسة روما فى تلك المناطق سياسة دفاعية لا هجومية .

إن تلك الأحداث الخطيرة التى شهدها عصر دروسوس وطيبيريوس قد شغلت اهتمام كتاب العصر وعلى رأسهم أوفيديوس باسوس وبلينى الأكبر . وأخذ المفكرون يبحثون فى أسباب الهزائم المتكررة التى لحقت بالجيوش الرومانية على أيدى الجرمان ، وقد نسبوا تلك الكوارث إلى تدهور أخلاق المجتمع الرومانى ، كما أنهم تنبأوا بأن قبائل الجرمان سوف تهدد ذات يوم وجود روما نفسها . ونجد الكاتب سنيكا يتساءل قائلا « هل يوجد على ظهر الأرض شعب أكثر شجاعة من الجرمان ، وهل هناك من هم أشد منهم فى الإغارة والهجوم ؟ إنهم شعب يعيش على الحرب ، ويشب أبناؤهم على حب القتال ، فالحرب هى حرفتهم الوحيدة ، وهم لا يبالون بشىء غير الحرب .. وأنه ليكفى لهذا الشعب الجرمانى شىء من النظام لكى يجتاح الدولة الرومانية ويجبر الرومان على التقهقر إلى أحوالهم البدائية » .[٧] وإننا لنجد نفس الفكرة التى عبر عنها سنيكا فى كتاب تاكيتوس بعنوان «جرمانيا» ، فالكاتب يشير صراحة إلى الفساد الخلقى الذى أصاب المجتمع الرومانى فى عصره ، وهو يقيم مقابلة بين وفاء وعفة النساء الجرمانيات من ناحية وبين الفساد الذى استشرى بين السيدات الرومانيات وفاحت رائحته[٨] ويؤكد تاكيتوس ، وذلك على خلاف

---

(٧) Seneca, De ira, Lib. 1, 10, pp. 132 - 34 : "Quid Cimbrorum Teutonarumque tot milia superfusa Alpibusita sustulit, ut tantae cladis notitiam ad suos non nuntius sed fama pertulerit, nisi quod erat illis ira pro virtute ? Quae ut aliqundo propulit stravitque obvia, ita saepius sibi exitio est. Germanis quid est animosius ? Quid ad incursum acrius ? Quid armorum cupidius, quibus innascuntur innutriunturque, quorum unica illis cura est in alia neglegentibus ? Quid induratius ad omnem potientiam, ut quibus magna ex parte non tegimenta corporum provisa sint, non suffugia adversus prpetuum caeli rigerem?... Agedum illis corporibus, illis animis delicias, luxum, opes ignorantibus da rationem, da disciplinam : ut nil amplius dicam, necesse erit certe nobis mores Romanos repetere..."

(٨) Tacitus,Germania;XIX,1,pp. 290-92: "quamquam severa illic matrimonia, nec ullam morum partem magis laudaveris-nam prope soli barbarorum singulis uxoribus contenti sunt, exceptis admodum paucis, qui non libidine, sed ob nobilitaem pluribus nuptiis ambiuntur... Ergo saepta pudicitia agunt, nullis spectaculorum inlecebris, nullis conviviorum irritationibus corruptae. Litterarum secreta viri pariter ac feminae ignorant. Paucissima in tam numerosa gente adulteria, quorum poena praesens et maritis permissa : abscisis crinibus nudatam coram propinquis expellit domo maritus ac per omnem vicum verbere agit; publicatae enim pudicitiae nulla venia : non=

ما قاله كل من قيصر [٩] وفلليوس باتركولوس [١٠] على أن الجرمان لا يعرفون المكر ولا التصنع . وهو يبدى إعجابا زائداً بشجاعة الجرمان ، ولكنه يأسف لأنهم لا يعرفون معنى السلام ، وهو يرجع ذلك إلى سيطرة رؤساء القبائل عليهم وحثهم إياهم على الحرب طمعاً فى الغنائم ومن هنا فإن نشاطهم قد اتسم دواما بالتخريب . والجرمان — كما يقول تاكيتوس — يفضلون الحرب وجراحها على زراعة الأرض والسهر على حصادها ، والرأى عندهم أن ما يمكن كسبه فى الحرب أشرف وأوفر مما يمكن جنيه بالعرق فى فلاحة الأرض . وعندما تهدأ الحروب ينصرف الجرمان كلية إلى الصيد وموائد الخمر [١٢] . ويقرر تاكيتوس أن الجرمان يمثلون تهديداً مستمراً للإمبراطورية الرومانية ، لأن الراين لم يعد كحاجز قوى أمام تلك القبائل ، كما وأن كل الجهود التى بذلت ضدهم منيت فى أغلبها بالفشل : «إن روما وهى فى عامها الستمائة والأربعين سمعت للمرة الأولى عن قبائل الكمبرى على زمن قنصلية كيكليوس ميتللوس وبابريوس كاربو . ومنذ تلك الفترة حتى القنصلية الثانية لتراجان ، أى على مدى ٢١٠ عام لم يكف الرومان عن بذل الجهود ضد الجرمان ، فكم من الوقت نحتاج لمغالبة هذه القبائل الجرمانية ؟» [١٣] .

=forma, non aetate, non opibus maritum invenerit. nemo enim illicvitiaridet, nec corrumpere et corrumpi saeculum vocatur... plusque ibi boni mores valent quam alibi bonae leges".

(٩) Cesar, De bello Gallico, IV, 13, 4.

(١٠) Velleius Paterculus, Hist. Rom., II, 118, ed. Halm, p. 119, 18.

(١١) Tacitus, Germania, XXII, 4.

(١٢) Ibid., XIV, 5, XV,1 : "Cum ventum in aciem, turpe principi virtute vinci, turpe combitatui virtuem principis non adaequare. iam vero infame in omnem vitam ac probrosum superstitem principi suo ex acie recessise : illum defendere, tueri, sua quoque fortia facta gloriae eius adsignare praecipuum sacramentum est: principes pro victoria pugnant, comites pro principe. Si civitas, in qua orti sunt, longa pace et otio torpeat, plerique nobilium adulescentium petunt ultro eas nationes, quae tum bellum aliqod gerunt, quia et ingrata genti quies et facilius inter ancipitia clarescunt magnumque comitatum non nisi vi belloque tueare : exigunt enim a principis sul liberalitate illum bellatorem equum, illam cruentam victricemque frameam; nam epulae et quamquam incompti, largi tamen apparatus pro stipendio cedunt. materia munificentiae per bella et raptus. nec arare terram aut exspectare annum tam facile persuaseris quam vocare hostem et vualnera mereri. Pigrum quin immo et iners videtur sudore adquirere quod possis sanguine parare".

(١٣) Ibid., XXXVII, passim, pp. 314 - 316 : "Sescentesimum et quadragesimum annum urbs nostra agebat, cum primum Cimbrorum audita sunt arma Caecilio Metello et Papirio Carbone consulibus - ex quo si ad alterum imperatoris Triani consulatum computemus,ducenti =

ويقلب تاكيتوس في أحداث الماضي الحزين ، مبينا كيف أن قبيلة الباتاف الجرمانية قد قامت بالثورة سنة ٦٩ق.م. مستغلة قيام الحرب الأهلية في روما لكي تستولي على بلاد غالة . ورغم الجهود التي بذلها دومتيان للسيطرة على سوابيا وبقاع مجاورة لها ؛ إلا أن تاكيتوس ينظر إلى المستقبل في قلق شديد ، فهو يرى في تحركات الجرمان خطراً أشد على الرومان من خطر مملكة بارثيا ذاتها(١٤) .

إذا نحن نظرنا إلى الأحداث التالية مباشرة لعصر تاكيتوس ، فلربما نظن أن تشاؤمه كان مبالغاً فيه ،غير أن حكم الرجل يصدق على ما تلا ذلك من أحداث جسام . والواقع أن القرن الثاني م . كان بحق عهد السلام الروماني ، فلقد نجح الإمبراطور تراجان في إخضاع داكيا وفي إرساء دعائم السلام الروماني . وفي عهد الإمبراطور انطونينوس بيوس وقف الخطيب اليوس ارستيدس يمتدح حصافة الإمبراطور الروماني ، مؤكدا أن روما قد أعطت العالم كله سلاماً ، وبأن الإمبراطورية باتت أصلب عودا من كل النظم الملكية التي سبقتها ، ذلك لأن الرومان يملكون ناصية المعرفة بنظم الحكم والقانون ، وهم يضمنون الحرية لكل فرد ولذا فإن كل مواطن في الولايات يرى في روما وطنا له ، كما وأن كل من سولت له نفسه بالتطاول على روما قد تم عقابه(١٥) :

« إن روما قد حققت المثل السائر القديم الذي تواتر على مر السنين بأن أرضها هي الأم والموطن لجميع البشر . واليوم أصبح بوسع الإغريق والمتبربرين أيضًا أن يتنقلوا في كل ربوع الإمبراطورية ، سواء بأملاكهم أو بدونها دون ما عناء ، ولكأنهم يعبرون من ولاية إلى أخرى في بلادهم الأصلية(١٦) .

=ferme et decem anni colliguntur:tam diu Germania vincitur. medio tam longi aevi spatio multa in vicem damna. non Samnis, non Poeni, non Hispaniae Galliseve, ne Parthi quidem saepius admonuere : quippe regno Arsacis acrior est Germanorum libertas. quid enim aliud nobis quam caedem Crassi, amisso et ipse Pacoro, infra Ventidium deiectus Oriens obiecerit ? at Germani Carbone et Cassio et Scauro Aurelio et Servilio Caepione Gnaeeoque Mallio fusis vel captis quinque simul consulares exercitus populo Romano, Varum trisuqe cum eo legiones etiam Caesari abst ulerunt, nec impune C. Marius in Italia, divus Iulius in Gallia, Drusus ac Nero et Germanicus in suis eos sedibus perculerunt : mox ingentes Gai Caesaris minae in ludibrium versae. inde otium, donec occasione discordiae nostrae et civilium armorum expugnatis legionum hibernis etiam Gallias adfectavere; ac rursus inde pulsi proximis temporibus triumphati magis quam victi sunt".

(١٤) Ibid., XXIX, 4.

(١٥) Elius Aristide, Disc· XXVI, ed. Keil Berlin, 1898, t. II, p. 91.

(١٦) Ibid., p. 108.

غير أن مجرى الأحداث يبين أن السلام الرومانى لم يعد فى حقيقة أمره أكثر من واجهة تعتمل من خلفها عوامل القلق والاضطراب ، فلقد قويت شوكة جرمانيا وتحفزت قبائلها لتحطيم حدود الدولة الرومانية ، التى توهم الكثيرون أنها لا زالت آمنة . فمنذ أن هاجرت مملكة القوط من ضفاف نهر الفستولا قبالة شواطئ البحر الأسود ، أخذت عناصر مختلطة الهوية فى الزحف جنوبا حتى شارفت خطوط نهر الدانوب . وفى سنة ١٦٦ نجحت قبيلتا القوادى والماكرومان فى عبور الدانوب وفى إخضاع الأراضى الرومانية الواقعة على الضفة اليمنى للنهر ، ثم عبرت تلك الشعوب منطقة برنر وضربت حصاراً حول مدينة اقويليا . ولقد كانت تلك هى المرة الأولى بعد تهديد قبائل الكمبرى ، التى تجد روما نفسها فيها مهددة تهديداً مباشراً . وقد أصيب الناس فى روما بالذعر ، إلى حد أن بعض الأصوات راحت تولول بأن نهاية العالم قد قربت . غير أن الإمبراطور ماركوس أوريليوس قد نجح فى سنين قلائل فى أن يرد الغزاة ، كما أنه قد عزز من مناطق الدفاع عن الإمبراطورية على حدود الدانوب (١٧) .

ولكن تحرشات الجرمان بحدود الراين والدانوب لم تنقطع ، ففى منتصف القرن الثالث على عهد الإمبراطورين ڤاليريان وجاليان تمكنت جماعات فرنجية من تحطيم حواجز الراين وعبرت إلى غالة ومنها إلى إسبانيا ، حيث استولت على بعض السفن الراسية فى البحر المتوسط وعبرت بها إلى شواطئ موريتانيا . وفى نفس الوقت نجحت جماعات من الألمان فى التوغل إلى وادى نهر الرون . ولم تكن القوات الرومانية المرابطة فى غالة كافية للتصدى لهذه الهجمات الجرمانية ، فاتحد أهل غالة تحت لواء القائد بوستوموس للدفاع عن أرضهم . كذلك تعرضت إيطاليا لهجمات من جانب الألمان عبر ممرات الألب ، وقد خرب المغيرون الشمال الإيطالى ونهبوا مدنه حتى وصلوا إلى مدينة رافنا . ولذا فقد سارع الإمبراطور جاليان للتصدى لهم وأوقع بهم الهزيمة عند بلدة ميلانو .

ثم جاء دور القوط لتهديد أراضى الدولة الرومانية ، ففى سنة ٢٦٩ هجموا على أراضى الدانوب ، ولكن الإمبراطور كلوديوس الثانى تصدى لهم وأوقع بهم هزيمة ساحقة عند بلدة نيش ، وبعدها ركن القوط إلى الهدوء لمدة قرن كامل .

كان الخطر الأشد على الدولة الرومانية فى القرن الثالث متمثلا فى تحرشات الفرنجة

---

(١٧) See Besnier, L'Empire romain de l'avenement des Sévéres au concile de Nicée, p. 176.

والألمان : فى سنة ٢٧٦ عبر هؤلاء حدود الراين من جديد ودمروا كل المدن التى وطئتها حوافر خيولهم فى غالة ، وقد بلغ عدد المدن التى خربت قرابة الستين ، كان من بينها باريس وبواتييه وبوردوه . وقد بذل الإمبراطور بروبوس جهودا طائلة لصد هؤلاء الغزاة ، ولكن رغم ذلك بقيت مدن غالة فى حالة يرثى لها ، وقد عمت فيها المجاعات ، وبدا ولكأن أيام الرخاء فى غالة قد ولت إلى الأبد . حقيقة أن غالة قد صمدت لمدة قرن آخر ، ولكن الألمان نجحوا فى السيطرة الكاملة على أراضى شان دكيومات .

لقد بذل أباطرة القرنين الثالث والرابع جهودا جبارة لردع غزوات الجرمان على حدود الراين ، وإنا لنلمس صدى تلك الجهود فى كتابات المعاصرين من أهل غالة ، الذين امتدحوا جهود ماكسيميان هرقل ، وكونستانس كلوروس ، وقسطنطين الكبير .

هذا وقد شهد القرن الرابع انتصارات متلاحقة أحرزها الرومان على الجرمان . وذلك على عهود الأباطرة جوليان المرتد وڤالنتنيان ثم جراتيان .

غير أن جبهة الدانوب كانت أكثر حرجاً للسلطات الرومانية من جبهة الراين : فرغم جهود كلوديان الثانى وقسطنطين الكبير هنالك ، إلا أن جماعات القوط أخذت تنتشر فى أراضى داكيا ، وإن ظلت هذ الأراضى نظريا « أرضا رومانية » .

وفى عهد الإمبراطور قسطنطين الثانى ، نجحت القوات الرومانية فى السيطرة على هؤلاء القوط ، وصاروا بموجب اتفاق سنة ٣٣٢ « معاهدين » للدولة الرومانية . ومنذ ذلك التاريخ أخذت الديانة المسيحية فى الانتشار بين القوط ، على المذهب الأريوسى على يد المبشرين البيزنطيين .

غير أن هجمات قبائل الهون الآسيوية على شرق أو ربا قد أجبرت القوط الغربيين على التضرع للسلطات الرومانية لكى تسمح لهم بعبور الدانوب ، فراراً من ضغوط تلك القبائل المغولية عليهم . ولقد سمح الإمبراطور ڤالنس للقوط الغربيين بالعبور فى سنة ٣٧٦ ، غير أننا نلمس انزعاجاً شديداً بين الرأى العام من هذا الإجراء ، كما يتضح ذلك فيما كتبه المؤرخ أميانوس مارسللينوس فى الآتى : « إن مطلبهم ( القوط الغربيين ) لا ينم عن خطر يتهددهم بقدر ما يفصح عن أمل يراودهم . إن رجال البلاط قد أسرفوا فى ريائهم وتملقهم لشخص الإمبراطور فامتدحوا اجراءه هذا بأن صوروا له أن شعوب الأرض قد أتت تستصرخه طلباً فى الرحمة والسماح لها بالاستقرار ( فى أرض الرومان ) . كما صوروا له أن

استخدام هذه العناصر الأجنبية فى الجيش الرومانى سوف يجعله جيشا لايقهر . ولكن بعض هؤلاء المنافقين كانوا بنفاقهم يحققون آمال تلك الشعوب المتوحشة . إن هذه القبائل التى تهدد الإمبراطورية ، لم تكن لتبقى مستقرة هادئة على ضفاف النهر ( الدانوب ) . . فلقد استغل البرابرة التفويض الإمبراطورى وركبوا القوارب وسبحوا كما يريدون فى عرض النهر . ولما كان هذا النهر شديد الخطر بسبب الأمطار الغزيرة التى تفجر الفيضانات المدمرة ، فإن أعداداً كبيرة من القوط راحت تسبح وهى تصارع التيار لكى تصل إلى بر الأمان . حقيقة أن كثيرين منهم قد هلكوا غرقا ، ولكن تلك الزحوف المهولة سوف تساهم يوما فى تحطيم الإمبراطورية الرومانية(١٨) .

ويقارن المؤرخ اميانوس مارسلينوس عبور القبائل الجرمانية لنهر الدانوب بعبور الميديين ، فى القديم ، لمضيق الدردنيل ، ولايخفى الكاتب سخطه الشديد على السلطات المسئولة فى الدولة بسبب تقاعسها عن ردع الخطر قبل فوات الأوان .

وعلى عكس هذا المؤرخ النابه ، نجد جماعة المنافقين من حملة المباخر وخصيان القصر يكيلون المديح لشخص الإمبراطور ڤالنس فيصورون سماحه للجرمان بعبور الدانوب على أنه بعد فى النظر ، حتى أن الفيلسوف ثيمستيوس يخلع على ڤالنس لقب « أب الجميع من رومان وسكيزيين » وهو بصنيعه هذا يحمل سمات الربوبية ، بل ، إنه عند

---

(١٨) Ammianus Marcellinus, Res Gestae, XXXI, 4 - 8, III, 37 seq. : "Itaque, duce Alvavio ripasoccupavere Danubii, missisque oratoribus ad Valentem, suscipi se humili prece poscebant, et quiete victuros se pollicentes, et daturos (si res flagitasset) auxilia... Verum pubescente fide gestorum, cui robur adventus gentilium addiderat legatorum, precibus et obtestatione petentium, citra flumen suscipi plebem extorrem : negotium laetitiae fuit potius quam timori, eruditis adulatoribus in maius fortunam principis extollentibus quae ex ultimis terris tot tirocinia trahens, ei nec opinanti offerret, ut collatis in unum suis et alienigenis viribus, invictum haberet exercitum, et pro militari supplemento, quod provinciatim annuum pendebatur, thesauris accederet auri cumulus magnus. Hacque spem mittuntur diversi, qui cum vehiculis plebem transferant truculentam. Et navabatur oprea diligens, nequi Romanam rem eversurus relinqueretur, vel quassatus morbo letali. Proinde permissu imperatoris, transeundi Danubium copiam, colendique adepti Thraciae partes... Ita turbido instantium studio orbis Romani pernicies ducebatur. Illud sane neque obscurum est neque incertum, infaustos transvehendi barbaram plebem ministros, numerum eius comprehendere calculo saepe temptantes, conquievisse frustratos, ut eminentissimus memorat vates.

"Quem qui scire Velit, Libyci velit aequoris idem
Diserere, quam multae Zephyro trudunur habernae."..

نفس القلم، منبع العقل والحكمة، التى تحكم طبائع الناس على اختلاف أجناسها . ومن ثم فإن الكاتب يلقبه «بالقوطى»، لأنه بدلا من العمل على هلاك هذا الجنس فإنه لم يدخر وسعا فى سبيل إنقاذهم —» [١٩] .

وتقدر حوليات العصر عدد الذين عبروا نهر الدانوب إلى قلب الأراضى الرومانية بحوالى ٢٠٠ ألف، وذلك دون حساب عدد ذويهم وعبيدهم — . [٢٠] وكان من ضرب المستحيل أن تزود هذه الأعداد بما يسد رمقها ، ولذا فقد أخذت على التو فى مهاجمة السكان الأصليين فى الأراضى الرومانية بغية النهب والسلب . وخربت بذلك كل من مؤيزيا وتراقيا ، وضج الأهاون من وطأة القوط . وكان لزاماً على الإمبراطور ڤالنس أن يفعل شيئاً لمعالجة الموقف المتدهور ، فقاد حملة ضد القوط ، والتقى الطرفان عند مدينة ادريانوبل فى ٩ أغسطس سنة ٣٧٨ ، وانتهت المعركة بكارثة مهولة : فقد حلت الهزيمة كاملة بالجيش الرومانى ، وقتل الإمبراطور ڤالنس نفسه فى أرض المعركة . وأصبح القوط سادة على البلقان بعد تلك الضربة، وبات فى وسعهم نهب الأراضى دون خوف ، بل إن أعداداً منهم قد زحفت حتى أطلت على أسوار القسطنطينية نفسها [٢١] .

عندما سقط إمبراطور الجزء الشرقى من الإمبراطورية الرومانية ، تحرك إمبراطور النصف الغربى، جراتيان ، للانتقام من القوط . ولقد خاطب القديس امبروز أسقف ميلان الشهير ، الإمبراطور جراتيان فى تلك المناسبة يبشره بالنصر الأكيد ، ويذكره بأن الهزيمة التى لحقت بالإمبراطور ڤالنس إن هى إلا عقاب السماء له بسبب تمسكه بالمذهب الأريوسى المهرطق والمناهض للقوامة الأرثوذكسية [٢٢] .

غير أن جهود جراتيان الأرثوذكسى العقيدة ضد القوط قد باءت هى الأخرى بالفشل الذريع ، ومع تلك الهزائم الجديدة خابت آمال القديس إمبروز وتضرعاته ، وعلت أصوات فى الغرب اللاتينى بالضجر وأحاديث الرعب . ولم يكن القديس جيروم عندما هاجم أقوال القديس امبروز بعيداً عن أسلوب السخرية منه ، لأن تنبؤات الأخير قد ذهبت مع

---

(١٩) Themistius, Oratio, I, X.

(٢٠) Courcelle, P., Histoire Litteraire des grandes Invasions Germaniques, p. 21.

(٢١) Schmidt, L., Die Ostgermanen, pp. 409 - 12.

(٢٢) Ambrose, De Fide, II, 16.

أدراج الرياح[٢٣] . وتخون القديس امبروز شجاعته ، فيصرخ متسائلا : «أليست هذه علامة من علامات الساعة ، التي وردت فيها رؤى الأقدمين ونبوءات القديسين ؟ : أو أليس صوت السماء أصدق من أقوال أهل الأرض ، اللذين يقتربون من نهاية العالم ؟ ألا ترون الحروب الضارية ، وتسمعون صليل السيوف في كل مكان ؟ لقد انقضت الهون على شعوب الآلان ، وهجمت الآلان على القوط ، ومالت القوط على السرمات ، وانقضت القوط على أرضنا فاغتصبوا الليريا . وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد »[٢٤] .

هذا وتجمع المصادر الكاثوليكية المعاصرة واللاحقة على أن الهزيمة المنكرة التي لحقت بالإمبراطور ڤالنس في واقعة ادريانوبل إنما ترجع في الدرجة الأولى إلى تعصبه للمذهب الأريوسي المهرطق ، وفي رأيها أن السماء قد أذنت بعقابه بالحديد والنار جميعاً[٢٥] .

بعد مصرع ڤالنس اختار الإمبراطور الغربي ، جراتيان ، جندياً مرموقاً ليحكم النصف الشرقي للإمبراطورية ، وذلكم هو ثيودوسيوس ، الذي لمع نجمه بعد أن حقق عدة انتصارات على قبائل السرماتيين واتفق على أن يتولى جراتيان مهمة الدفاع عن حدود الراين ، وأن يقوم ثيودوسيوس بتجميع فلول الجيوش المنهارة في الشرق لطرد القوط من سالونكا وأراضي مؤيزيا العليا . ولما جدد القوط هجماتهم على البلقان ، تصدت لهم تعزيزات وافدة من الغرب وأوقفت زحوفهم . هذا وقد رحب الإمبراطور ثيودوسيوس بملك القوط المدعو أثانارك ، بعد أن خلعه شعبه عن العرش ، ومنحه حق اللجوء إلى القسطنطينية ، لعله يفيد به في معالجة المشكلة القوطية التي باتت تهدد كيان الإمبراطورية في الشرق والغرب على حد سواء . غير أن بعض المعاصرين قد جاهروا باحتجاجهم على تلك السياسة ، لأنهم استهجنوا أن ترحب القسطنطينية بعدوها اللدود الذي كان يتوعدها بالغزو في الأمس . ومن بين

---

(٢٣) Jerome, Quaest. hebr. in Gen., in P.L., Vol. XXIII, 950.

(٢٤) Ambrose, Expos. in Luc., x, 10 : "Verborum caelestium nulli magis quam nos testes sumus, quos mundi finis inuenit. Quanta enim proelia et quas opiniones accepimus proeliorum ? Chuni in Alanos, Halani in Gothos, Gothi in Taifalos et Sarmatias, insurrexerunt, nos quoque in Illyrico exculses patriae Gothorum exilia fecerunt et nondum est finis. Quae omnium fames lues pariter boum atque hominum ceterique pecoris, ut etiam qui bellum non pertulimus, debellatis tamen pares nos fecerit pestilentia !"

(٢٥) Cf. Rufinu, Hist. eccl., XI, 13, in P.L., vol. XXI, 522; Orosius, Historia, VII, 23, 15; Jordanés, Getica, XXVI, 138 (ed. Mommsen, in M.G.H.S., vol. v, 1, p. 94, 9.).

الأصوات التى عات صوت القديس امبروز أسقف ميلان[٢٦] . ولكن سياسة ثيودوسيوس سرعان ما أتت أكلها ، ففى العام التالى لإيواء اثانارك طلب الأمراء القوط التفاوض مع الإمبراطور ثيودوسيوس على أساس أن يسمح لهم بالاستقرار فى منطقة تراقيا مقابل تزويده بعدة كتائب من رجالهم للخدمة فى صفوف الجيش الرومانى . وهنا نجد صوت الفيلسوف ثيمستيوس يعاو من جديد بقصيدة فى مديح حكمة الإمبراطور ثيودوسيوس ، حيث يخلع عليه لقب « الإمبراطور المحب لجنس البشر — فيلانثروبوس بازيليوس » . ثم إنه يقول بأن الإمبراطور على حق فى أن يستخدم القوط فى فلاحة أرض تراقيا ، بدلا من أن يتركهم يقتلون أهلها ويجمعون أكواماً من عظام الضحايا . ونجد أقلاماً فى الغرب تشارك ثيمستيوس فى رأيه هذا ، ففى سنة ٣٨٩ عبر الخطيب الوثنى باكاتوس عن إعجابه الشديد بحصافة ثيودوسيوس ، نظراً لنجاحه فى تحويل أعداء روما القدامى إلى خدم للإمبراطورية ، وعمال فى أرضها ، وجنود فى صفوفها[٢٧] .

إن الخطر الذى بات يهدد العالم الرومانى قد ولد شعوراً غريباً فى وجدان مفكرى العصر ، فلقد ظهرت آراء تنكر على روما فكرة الخلود ، بل إن البعض راح يتوقع للمدينة وقوع مكروه شديد من قبل السماء . وقد أكد هذا الاتجاه الشاعر يوفنقوس فى قوله بأن لا خلود لشىء على الأرض لا للممالك ولا للإمبراطوريات ولا حتى لروما نفسها ، الذهبية المراد . وقد عرفت هذه الأشعار ، التى تزعم مدرستها الشاعر يوفنقوس ، باسم الأناشيد « السبلاينية » . كما أن الرهبان راحوا بدورهم يجهرون من قيمة السلاح والحروب ، لأنها لا تتوافق مع حياة الزهد التى أخذوا بمسوحها على أنفسهم . ولكن القديس امبروز ، فى مقالة بعنوان « الواجبات » التى كتبها سنة ٣٨٩ ، يحث على مناهضة « أعداء الإنسانية الذين يعذبون الأسرى الرومان » . وعليه فإن أسقف ميلان يرى فى المبادرة لحماية الوطن من الدمار الذى يتهدده أعلى الفضائل الإنسانية . كما وإنه يحث الناس على افتداء الأسرى بأموالهم لإنقاذهم من هوان العبودية على يد القوط[٢٨] . ولم يعد الأمر عند القديس امبروز مجرد دفاع عن مدينة روما فحسب وإنما تعداه إلى مراتب الدفاع ضد قوى الشر والعدوان التى باتت تهدد الإنسانية جمعاء كان ذلك فى القسطنطينية أو فى روما أو على حدود الدانوب أو عند حوض الراين .

---

(٢٦) Ambrose, De Spiritu Sancto, in P.L., vol. XVI, 708 B.

(٢٧) Boissier, G., La fin du Pag nisme, t. II, pp. 26 - 42.

(٢٨) Ambrose, De officiis, in P.L., vol. XVI, 121, 140, 151.

كان الإمبراطور ثيودوسيوس قد استخدم جماعة من القوط فى صراعه ضد خصمه يوجينوس مغتصب العرش ، ولكنه بعد ذلك قام بإبعادهم إلى أراضى الدانوب حيث كانت بقية قبائلهم تستقر . ولكن هذا الإجراء أغضب القوط ، فتجمعوا حول زعيم جديد لهم هو آلارك ، وراحوا يقومون بالإغارات على أراضى تراقيا وتساليا واتيكا والبلوبونيز .

ولقد رأى المؤرخون الوثنيون المعاصرون فى هذا النشاط القوطى خطوة مدبرة بالاتفاق مع رهبان بيزنطة للقضاء على الحضارة الهلينية الوثنية القديمة(٢٩) . ولقد قامت أثينا بفتح بواباتها لآلارك ، ولذا فإنه قد أمر بعدم تخريب المدينة ، ويعزو مؤرخو الوثنية المعاصرون ذلك إلى أن آلارك قد أصيب بذعر شديد عندما وجد نفسه فجأة أمام الربة أثينا والبطل أكليس فقرر عدم المساس بالمدينة . أما اليوسيس وميغارة وكورنثة ، فقد دمرت جميعاً ، ونهبت ثرواتها ، كما لحق بمدن البلوبونيس نفس المصير(٣٠) . أما مدينة تيجايا ، فقد قاومت قوات آلارك مقاومة عنيدة ، ونجحت فى صد هجوم القوط ، وذلك بفضل شجاعة حاكمها القنصل روفوس . ولذا فإن أهالى البلدة قد كرموا ذكراه بنقش يقول : «أنت ولى نعمتنا ، أنت الشجاع والمنقذ للمدينة ، يا قنصل روفوس ، لقد قاومت العدو ، أنت الذى أعطيت قوة لتيجايا الغالية أنت البطل المغوار الذى قاوم كل الأعداء دون خوف . لك أن تفخر بحق بهذا التمثال الذى أقيم لتخليد ذكراك وبطولاتك ، ولن ينساك نبلاء المدينة لحسن صنيعك »(٣١) .

لقد فزع المعاصرون أمام ذلك الخراب الذى حل بأرض هيلاس على أيدى المتبربرين ، ولقد كتب القديس جيروم فى سنة ٣٩٦ رسالة تفيض أحزانا ، ينعى فيها بلاد الإغريق فى الآتى : « إنى لا أستطيع أن أعدد المآسى التى وقعت فى زماننا دون أن ينتابنى شعور بالأسى العميق . فعلى مدى عشرين عاماً متتالية راحت دماء الرومان تسفك بين القسطنطينية والألب اليوليانية . وسقطت مدائن سكيزيا وتراقيا ومقدونيا وتساليا ودردانيا وداكيا وأخايا وابيروس ودلماشيا وبانونيا فى أيدى جحافل القوط والسرماتيين والقوادى والآلان والهون والوندال والماكرومان . لقد دمروا خيرة المدائن ومزقوا شملها . لهفى على أمهات

(٢٩) Zosimus, Historia, V, 6, pp. 253 - 54.
(٣٠) Ibid., p. 253.
(٣١) Ibid., p. 253.
Quoted from Courcelle, P., op. cit., p. 25.

الأديرة وعذارى السماء، وكم من نبيل أصيل ومواطن حر صاروا ألعوبة يتلهى بهم هؤلاء البرابرة الشقر . لقد قيد الأساقفة بأغلال القوط ، وذبح القسيسون ومن على شاكلتهم من رجال الأكليروس . لقد دمرت الكنائس، وحولت مذابح الرب إلى إسطبلات للخيول ودنست أيقونات الرسل والقديسين . لقد عمت الأحزان فى كل مكان ، وعلا النحيب فى سائر الأركان ، ورانت على الكل صورة الموت . إن العالم الرومانى ينهار أمام عيوننا ، ولا تجرؤ هاماتنا اليوم أن ترتفع بشجاعة الماضى . أين شجاعة أهل كورنثا ، والأثينيين والاركاديين ؟ لقد سقطوا تحت أنياب المتبربرين ، هؤلاء كانوا فى القديم سادة على إمبراطوريات »[٣٢]

إن كتابات المعاصرين تنم عن أسى بالغ ، فلقد كانت الأوقات جد عصيبة إلى حد أن الشعور العام عند التماس العزاء على سوء الحال بات يدور حول فكرة أن الإنسان بعد موته لن يكون عليه أن يموت مرة أخرى . ولكن الناس راحوا يتساءلون عن أسباب توالى الكوارث على الرومان، فهمست بعض الأصوات بأن هناك خيانة، بينما راح الآباء الباكرون يتلمسون الأسباب فى الآثام التى ارتكبها الرومان فجلبت عليهم نقمة السماء . يقول القديس جيروم فى هذا : « إن خطايانا هى التى أمدت البرابرة بالبطش ، إن رذائلنا هى التى جعلت من الجيش الرومانى ألعوبة فى أيدى الجرمان . . يالسوء مصيرنا ، إن شراسة الجرمان إن هى إلا سوط السماء للقصاص منا ، وكما أننا عندما نهاجم جرثومة المرض لا نقصد قتل جسم المريض كذلك فإننا عندما نثير الحماس ضد الجرمان فإننا لا نقصد تمزيق أجسادهم على أسنة رماحنا أو رفع رؤوسهم مهشمة على خوذاتنا ، ولا نبغى أن

(٣٢) Jerome, Epist. ad Heliod., LX, 16, (ed. Labourt, J.), t. III, p. 106 :

"Non calamitates miserorum, sed fragilem humanae condicionis narro statum-horret animus temporum nostrorum ruines prosequi — : uiginti et eo amplius anni sunt, quod inter Constantinopolim et Alpes Iulias cotidie Romanus sanguis effunditur. Scythiam, Thraciam, Macedoniam Thessaliam, Dardaniam, Daciam, Epiros, Dalmatiam cunctasque Pannonias Gothus, Sarmata Quadus, Alanus, Huni, Vandali, Marcomanni uastant, trahunt, rapiunt. Quot matronae, quot uirgines Dei et ingenua nobiliaque corpora his beluis fuere ludibrio ! Capti episcopi, interfecti presbyteri et diuersorum officia clericorum, suburersae ecclesia, te ad altaria Christi stalsulati equi, martyrum effossae reliquiae : „ubique luctus, ubique gemitus et plurima mortis imago". Romanus orbsi ruit et tamen ceruix nostra erecta non flectitur. Quid putas nunc animi habere Corinthios, Athcienses, Lacedaemonios, Arcadas cunctamque Graeciam, quibus imperant barbari ? et certe paucas urbes nominaui, in quibus olim fuere regna non modica..."

نرى خيولهم شاردة أمام جيادنا »[٣٣] .

إن مقولة القديس جيروم تعبر عن الرأى السائد لدى آباء الكنيسة ، ولكن كتاب الوثنية لهم رأى آخر : فالفيلسوف الوثنى ليبانيوس يرجع البلاء كله إلى غضب الآلهة الوثنية التى أهينت على يد المسيحية ، والتى قتل تلميذها المخلص ( جوليان المرتد ) على يد واحد من المسيحيين . فلو أنه قد انتقم من فاعلى هذا الجرم ، ولو أن الكهان استخاروا وحى الآلهة فى المعابد القديمة لاستعادت روما قوتها ومجدها ، لأنه لا زال من بين أبناء الرومان قواد وجند صناديد[٣٤] . ويهاجم ليبانيوس حجج آباء الكنيسة ويستنكر إيلامهم للشعب الرومانى بأنه شعب رخو جبان[٣٥] .

وفى القسطنطينية استفحل الخطر ، فقد فرضت جماعة القوط التى كانت تخدم فى الجيش سلطتها على القصر ، وأصبح الزعيم القوطى غايناس يقيل ويعين الوزراء كما يشاء . وثار الرأى العام فى بيزنطة على تلكم الحال من المهانة . وتحرك سنسيوس أسقف قورينا لكى يوقظ الإمبراطور أركاديوس من ثباته العميق ، وألقى أمامه ورجال بلاطه مقولة رائعة هاجم فيها تسلط القوط على الدولة الرومانية . كما أن هذا « المانفيستو » القوريني عن « الحكم » يسخر من الترف والدعة التى تردى فيها البلاط الإمبراطورى حيث يعيش حامل التاج داخل برج زجاجى مغلق محوط من كل جانب بالدسائس والمؤامرات ، بدلا من أن يتحرك لتأدية واجباته نحو الوطن .

إن الحاكم بهذا الأسلوب يجافى الصورة المثلى للحكم التى وردت عند حكماء الأفلاطونية . إنه خليق بالإمبراطور أن يكون راعياً صالحاً لا يسمح للذئاب بأن تندس بين قطعان خرافه لتؤدى دور كلاب الحراسة . كما أنه لا ينبغى للحاكم أن يقدم السلاح إلا للمواطنين الشرفاء . إن البرابرة باتوا يكونون دولة داخل الدولة ، ويجب تطهير البلاد منهم ، كما يستأصل الجراح خلية خبيثة من الجسد . . إن أمن البلاد يتطلب وعياً من الحاكم والمحكومين ، فليحمل المواطنون السلاح بدلا من التردى فى فجور وعبث المسرح والمضمار . ويحذر سنسيوس من أن ذلك الجنس المتبربر الغريب سوف ينقض على

(٣٣) Ibid., p. 107.

(٣٤) Libanius, Oratio, XXIV, 1 - 5, (ed. Forester), t. II, pp. 515 - 16.

(٣٥) Ibid., 5, pp. 516 - 18.

الأهلين و يفتكون بهم وهم نيام. ولذا فإنه يدعو أركاديوس إلى ضرورة طردهم من مناصب الحكم فى الدولة . « إن هؤلاء الجرمان » يقول الكاتب « ربما يبرحون مجلس السيناتو يرتدون ملابسهم الأصلية من الفراء، ثم يأخذون فى السخرية من التوجا ( الحلة — الشملة ) الرومانية ؛ لأنها — فى رأيهم — لا تسمح لهم بحرية الحركة عندما يستلون سيوفهم للقتل الفجائى . هذا كما أن العبيد فى المجتمع الرومانى يمثلون خطراً داهماً على الدولة ، لأن كل عبد إن هو إلا عدو طبيعى لسيده ، والعبيد على استعداد للانضواء تحت لواء أى زعيم جرمانى يشق عصا الطاعة على الحاكم الرومانى». و يطلق الأسقف القورينى على سائر الشعوب المتبربرة لفظة « سكيثريين » ، والمعروف أن الشاعر اسخيلوس قد اختار منطقة سكيثريا لكى يجعل البطل بروميثوس فيها أسيراً مقيداً على صخورها بمسامير زيوس . ويذكرنا الكاتب سنسيوس بأن الشاعر هوميروس قد أوحى بضرورة مطاردة البرابرة كما تطارد الكلاب الضالة . ويحث سنسيوس الإمبراطور على ضرورة نزع السلاح من أيدى المتبربرين ، وإجبارهم على فلاحة الأرض لصالح الشعب الرومانى . وإن هم رفضوا الامتثال لتلك « العبودية » فإنه يتحتم على الجيش الرومانى والأهالى أن يقوموا بمطاردتهم عبر الدانوب دون رحمة ولا هوادة[٣٦] .

كان هذا الشعور الساخط على النفوذ المتزايد للقوط فى بلاط أركاديوس مدعاة لأن يتخذ زعماؤهم الحذر ، وسعى غايناس لكى يسيطر كلية على الإمبراطور أركاديوس ، ولكى تصبح كلمته هى العليا فى القسطنطينية . ولكن الرأى العام قد ثار على مؤامرات غايناس ، وهجم المتظاهرون على فرقة قوطية كانت تعسكر داخل القسطنطينية وأجبروا أفرادها على الخروج من المدينة ( يوليو سنة ٤٠٠ ) . وفى نهاية ذلك العام دبرت السلطات الرومانية فى بيزنطة مؤامرة تم فيها اغتيال غايناس . وقد كتب الشعراء فى تلك المناسبة قصائد طويلة للابتهاج بمقتل ذلك القوطى الجبار ، ونقشت أشعار تلك القصائد على عمود أقيم خصيصاً لتمجيد انتصار أركاديوس على خصمه غايناس[٣٧] . وتصور الناس أن الغمة قد انقشعت ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون أنه بعد غايناس سوف تبتلى الدولة الرومانية بقوطى آخر اسمه آلارك .

---

(٣٦) Synesius, Peri Basileias, in P.G., Vol. 66; cf. H. Druon, Oeuvres de Synesius, Evêque de Ptolemais, dans la Cyrenaique au commencement du ve Siécle, Paris, 1878, pp. 199-235
راجع النص الكامل لمقولة سنسيوس بالملاحق وترجمته .

(٣٧) Themistius, Oratio, XVI, ed. Petau, Paris, 1684, p. 211 D.

# الفصل الثانى

## سقوط روما

لقد جاهد النصف الشرقى من الإمبراطورية الرومانية ، فى القرن الرابع ، لكى يعايش الخطر القوطى دون أن يصاب بالانهيار ، وساعد على ذلك الصمود موقع بيزنطة الاستراتيجى الممتاز ، إلى جانب أسوار المدينة العالية . ولا نغفل أيضاً فعل الدبلوماسية البيزنطية التى نجحت فى التخفيف من غلظة الزعماء الجرمان تارة بالهدايا وحفلات الاستقبال فى القصر الإمبراطورى وأخرى بالتلويح بالتهديد .

ونحن نعلم أنه بعد وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس العظيم ( ٣٩٥ م ) ، قسمت الإمبراطورية إلى نصفين : شرقى يحكمه أركاديوس ، وغربى يحكمه شقيقه هونوريوس ، ولسنا نبالغ إن قلنا بأن السلطات الحاكمة فى بيزنطة قد سعت بطريق أو بآخر لكى تحول أنظار القوط عن القسطنطينية قبالة النصف الغربى من الدولة الرومانية . ولعل ذلك يرجع إلى أن ستيليكون ، قائد القوات الرومانية فى الغرب ، وهو من أصل جرمانى هرولى ، كان يخطط لضم إقليم إلليريا إلى حظيرة الإمبراطورية الغربية على حساب مصالح النصف الشرقى . وعليه فقد سعت السلطات فى بيزنطة إلى استنفاز الزعيم القوطى آلارك ضد الغرب ، بدافع الانتقام من مخططات ستيليكون .

كان آلارك ، كما لاحظنا ، قد خرب بلدان البلقان ، ولما أن أذنت له السلطات البيزنطية بالتحرك غرباً ، قرر الزحف للاستيلاء على إيطاليا نفسها . وكان آلارك يرى فى نفسه أداة للقدر ، وراح يدعى بأنه يلبى نداء سماوياً يطالب إليه الاستيلاء على مدينة روما . ويحدثنا الشاعر كلوديان بأن أحد الرهبان كان قد التقى فى طريقه بآلارك أثناء زحفه قبالة روما ، فتوسل إليه ألا يمس المدينة بسوء ولكن آلارك رد عليه بأنه إنما ينفذ أمراً علوياً ، يلح عليه بضرورة دخول روما[٣٨] .

(٣٨) Socrate, Hist. eccl., VII, (ed. Hussey), Vo. II, p. 749, 37; cf. Sozominus, Hist. eccl., IX, 6, ibid., Vol. II, p. 896, 24; Claudian, De bello Getico, vs. 545 - 550 : =

أعد آلارك عدته ، مستغلاً ظروف انشغال الجيش الرومانى ، فى الغرب فى مواجهة تحديات الوندال فى رائيتيا ، ثم تحرك على رأس رجاله بطريق إيمونة ، ومنها عبر جبال الألب اليوليانية ، ثم نزل على مدينة أقويليا وضرب حولها حصاراً فى نوفمبر ٤٠١ م . وقد بادرت عدة مدائن مجاورة ففتحت بواباتها للزعيم القوطى تجنباً لعناء الحصار والمجاعات .

ويصاب الناس فى روما بالفزع ، ويسارع القائد ستيليكون فى ترميم سور أوريليان وعدة حوائط أخرى ، ويعد قلاع المدينة وأبراجها وبواباتها لحالة قصوى من الطوارئ . غير أن هذه الإجراءات الدفاعية زادت من حدة الهلع بين صفوف الشعب ، وبخاصة فى مدن الشمال الإيطالى . ويجمع الموسرون كنوزهم ويهربون وذويهم إلى جزر سردينيا وصقلية ، للاحتماء بالبحر من غائلة المتبربرين[٣٩] .

ولقد نشطت فى هذا الجو المخيف كل صنوف الأراجيف ، فهرع الكهان لاستشارة آلهة المعابد ، ولكن وحيها نطق بسوء المصير ، وأكدت على ذلك أيضاً الأسفار السيبللينية كما واكبت ذلك المناخ المرعب علامات نذير بالتوجس والمخافة : فخسف القمر ، وفسر المعاصرون ذلكم الخسوف على أنه من فعل سحرة تساليا ، لخدمة قضية المتبربرين .
بل إن الأحداث التى وقعت فى مواسم سابقة وجدت الآن من يفسرها كعلامات على المصير المظلم الذى ينتظر روما . من قبيل ذلك ما كان قد وقع بالأمس من حرائق أو حوادث غرق أو سيول ، ولكأنها جميعاً كانت تشير إلى مسار القوط الغربيين المدمر

---

= "non somnia nobis
nec volucres, sed clara palam vox edita luco :
"rumpe omnes, Alarice, moras hoc impiger anno
Alpibus Italiae ruptis penetrabis ad urbem"
huc iter usque datur. quis iam post talia segnis
ambigat aut caelo dubitet parere vocanti ?".

(٣٩) Claudian' De bello Getico, vs. 209 - 226 :
"utque sub occidua inactatis pleiade nautis
Commendat placidum maris inclementia portum,
sic mihi tunc maior Stilicho, cum laeta periculis
metior atque illi rederunt in corda tumultus.
Nonne videbantur, quamvis adamante rigentes,
turribus invalidis fragiles procum bere muri
ferrataeque Getis ultro se pandere portae ?..."

قبالة المدينة الخالدة (٤٠) .

أما أهل العلم والعرافة فقد راحوا يحسبون عمر الدولة الرومانية ، وانتهوا إلى القول بأنها قد بلغت اثنى عشر قرنا من العمر ، وهو ما كان قد قدره لحياتها مؤسسها روميلوس يوم أن شاهد اثنى عشر من النسور تحوم حول الپالاتين (٤١) .

عندما أتت الأنباء عن قرب وصول القوط ، أعدت مدينة تورينو العدة للدفاع عن نفسها على أمل أن تصمد لحصار طويل . غير أن حالة من الفزع انتابت أهل المدينة على حين فجأة ، ربما بفعل الإشاعات عن أهوال القوط ، فهجر بعض الجند أماكنهم على أبراج سور المدينة ، بينما جمع عدد من الأهالى أموالهم وفروا من البلدة ، خوفاً من السقوط عبيداً فى أيدى من لا يرحم . غير أن أسقف المدينة ، ماكسيموس ، راح يحث الشعب على الثبات والدفاع عن الديار ، كما أهاب بالرعية أن تتمسك بالإيمان فى قوة السماء ، ودعاهم إلى الصوم والصلاة حتى تتدخل العناية العلوية بمعجزة تنجيهم مثلما فعلت مع داود ضد جولياث (٤٢) .

وانتقلت حمى الفزع إلى بلاط القصر الإمبراطورى فى ميلانو ، وفكر أفراد الحاشية

---

(٤٠) Ibid', vs. 227 - 34 :

"utque est ingenioque loquax et plurima fingi
permittens credique timor, tunc somnia vulgo
narrari, tunc monstra deum montiusque sinistri :
quid meditentur aves, quid cum mortalibus aether
fulmineo velit igne loqui' quid carmine poscat
fatidico custos Romani carbasus aevi.
territat adsiduus lunae labor atraque Phoebe
noctibus aerisonas crebris ululata per urbes".

(٤١) Ibid. vs. 265 - 69 :

"tunc reputant annos interceptoque volatu
vulturis incidunt properatis saecula metis.
Solus erat Stilicho, qui desperantibus augur
spenderet meliora manu dubiaque salutis
dux idem vatesque fuit".

(٤٢) Maxime de Turin, Sermo LXXXV, 2, De tumultis bellicosio, ed. A. Mutzenbecher, Vol. XXIII, pp. 348, 27.

فى الهرب إلى مدينة ليون ، خوفاً على حياة الأميرات والأطفال من النسل الملكى[٤٣] . غير أن القائد ستيليكون أقنع الإمبراطور هونوريوس بضرورة البقاء فى ميلانو ، لرفع معنويات الشعب . ثم روج أتباع ستيليكون رواية بأن علامة قد ظهرت تبشر بالنصر على القوط والوندال ، ومؤدى تلك العلامة أن ذئبين قد هاجما الإمبراطور هونوريوس وهو يتجول فى إحدى ضواحى ميلانو ، ولكن الذئبين قد قتلا ، وعندما بقرت بطن الذئبين عثر بهما على يدين آدميتين . وقد فسر حكماء القصر ذلك بأنه إشارة إلى أن زعيمى القوط والوندال سوف يهلكان كما هلك الذئبان ، أما اليدان الآدميتان فهما علامة على نصر الرومان على جنس الذئاب . غير أن فريقا من المتشائمين ، وبخاصة من الحزب الوثنى ، فسروا هذه الرواية كعلامة على سوء المصير ، وأرجعوا السبب فى تلك الكوارث إلى التخلى عن الديانة الوثنية[٤٤] .

(٤٣) Claudian, Op. ct., vs. 296 - 315 :

"Quid turpes iam mente fugas, quid Gallica rura
respicitis Latioque libet post terga relicto
longinumque profugis Ararim parecingere castris ?
Scilicet Arcteis concessa gentibus urbe
considet regnum Rhodano capitique superstes
truncus erit ? vestras stimulant si pignora sensus,
me quoque non impar naturae cura remordet,
nec ferro sic corda rigent ut nosse recusem
quam sanctum soceri nomen, quam dulce mariti,
quantus prolis amor....
accipe tu nostrae, tellus Oenotria, mentis
vincula communes tecum subeuntia casus,
exiguamque moram muris impende tuendis,
dum redeo lectum referens in classica robur".

(٤٤) Ibid., vs. 249 - 270 :

"Sed gravius mentes caesorum ostenta luporum
horrificant. duo quippe lupi sub principis ora,
dum campis exercet equos, violenter adorti
agmen et excepti telis inmane relatu
prodigium miramque notam duxere futuri.
nam simul humano geminas de corpore palmas
utraque professis emisit belua costis :
illo laeva tremens, hoc dextera ventre latebat
intentis ambae digitis et sanguine vivo.

أما عن آباء الكنيسة فإنهم باتوا يلحون على أن يتمسك المؤمنون بحبل الإيمان مهما بلغت بهم الصعاب . ولم يخف الراهب بولين من نولى ، فى قصيدته فى ذكرى ميلاد [ القديس فيلكس من نولى ، أن الفزع قد تملك من قلوب الناس ، غير أنه يعظ بألا يسمح المرء لهذا القلق أن يعصف بالروح ، ولا ينبغى للخوف أيضاً أن يعطل ابتهاجات الشعب بعيد مولد قديسهم ووليهم فيلكس : « إنى ولو أن سلاح القوط قد يدهمنى ، أو تصيبنى مكاره الآلان ، فإنى برغم هذا أحتفل بذلكم اليوم المجيد . ولو أن أغلالا ثقيلة تغل عنقى ، وقيوداً تشل جسدى فالعدو لن يتمكن من تقييد روحى الطليقة ، ولن يكون القلب لأحد أسيراً . إن إيمانى أقوى من القيود ، وإن الحب الكبير — من تحت أغلال التبربر — سوف يحرك وجدان النفس فتبتهج بالعيد .

واليوم ، برغم تواتر الأنباء المزعجة من كل فج على الآذان ، فإن الإيمان خليق بأن يمدنا بالقوة والثبات . ها هى أرواحنا تتطلع بنور الإيمان قبالة رب المكرمات »[٤٥] .

ولا ينكر بولين خطورة الموقف ، ولكن هذا لا يبرر قنوط النفوس ، وعلى الشعب أن يرفع من معنويات الجند ، وعليهم أيضاً أن يقيموا المتاريس للمقاومة الشعبية ، فهذا

=

Scrutari si vera velis, fera nuntia Martis
ora sub Augusti casurum prodidit hostem,
utque manus utero virides pature retecto,
Romula post ruptas virtus sic emicat Alpes.
Sed malus interpres rerummetus omne trahebat
augurium peiore via, truncataque membra
nunticemque lupam Romae regnoque minari -
tunc repirtant annos interceptoque volatu
vulturis incidunt properatis saecula metis..."

(٤٥) Paulin de Nole, Carm. XXVI, v. 22 - 32 ed. Hartel, vol. XXX, pp. 246 - 7 :

"Hunc ego, si Geticis agerem male subditus armis,
inter et inmites celebrarem laetus Alanos,
et si multiugae premerent mea colla catenae,
captivis animum membris non iungeret hostis;
pectore non vincto calcaret tritte superba
Servitium pietas-Licet inter barbara vincla
liber amor placitis caneret mea vota loquellis.
Nunc igitur quamvis varias vaga fama per oras
terrificis pavidas ferint rumoribus aures,
nos tamen in domino stabilis fiducia Christo
roboret et recto fixis pede mentibus armet."

السلاح « الأرضى » ضرورى لمن يهتز إيمانهم فى قوة السماء . ولما كان عدد الفرق العسكرية هزيلا لا يكفى لإحكام الدفاع عن أسوار المدينة، فإنه على الكل أن يضرعوا إلى القديسين للذود عن المواقع الخالية من الدفاع ، وعلى رأس هؤلاء القديسين — بطبيعة الحال — ولى المدينة فيلكس ، الذى سوف يؤتى المعجزات ، مثلما صنع يشوع بن نون عندما تحكم فى مسار الشمس(٤٦) » .

وإلى جانب تضرعات بولين ، علت فى أرجاء متفرقة من ولايات الإمبراطورية صلوات تطلب لروما النجاة ، من بينها على سبيل المثال لا الحصر تضرعات أحد الوعاظ فى الرها إلى القديس توما ، لكى يشفع لروما ضد غدر الآارك(٤٧) .

غير أن هذا الموقف النسكى من جانب آباء الكنيسة ، الذى ينحصر فى مجرد الصلاة وطلب الشفاعة لدى الأخيار من القديسين لدرء الخطر عن روما ، أثار اشمئزاز رجالات الوثنية ، الذين رأوا فى موقف الكنيسة وإكليروسها إتكالية تثير مشاعر اليأس والسأم : ولذا فإننا نجد الشاعر كلوديان يهاجم فى عنف أحد القادة الرومان المسيحيين ممن كانوا يهزأون بقصائد كلوديان لما تحتويه من عناصر من ميتولوغيا الوثنية ، بينما كان هذا القائد متعاطفاً مع الشعراء والكتاب المسيحيين الذين فسروا الأحداث بالرجوع إلى أسفار وأصحاحات العهدين القديم والجديد . ولذا فإن كلوديان يستنفر هذا القائد للقتال بدلا من تواكله وسيره وراء تفسيرات الأناجيل ، ثم إنه يوبخه على تقاعسه فى مؤخرة الجيش ليتلو صلواته وليتضرع إلى القديسين ، « وقد كان أجدى به أن يمشق حسامه ليمزق به شرايين الغزاة » : « أستحلفك برماد بولس وبقدس أقداس بطرس يا جنرال يعقوب ، ألا تمزق أشعارى ! قل لى بحق ، هل يمكن للقديس توما أن يتمنطق على صدرك مجناً للدفاع عنك ، وهل وافق القديس بارتولوميو على المضى معك إلى ساحة الوغى ، وهل فى مقدور القديسين جميعاً أن يذودوا عن الألب ضد المتبربرين ، وهل وعدتك القديسة سوزان بأن تعيرك قوتها ، وهل يمكن لجليد الدانوب ومياهه أن تبتلع فجأة « ذلكم العدو المتوحش وهو يعبر النهر ، مثلما كان لجياد فرعون مصر مع البحر الأحمر ؟ متى يتأتى للسيف الأصيل أن يمزق دابر قطعان القوط ، لينقذ فتية

(٤٦) Ibid., V. 196 - 225.

(٤٧) Pseudo-Chrysostome, In sanctum Thomam, in P.G., vol. 59, col. 500.

تساليا وليمجد هامات الرومان ؟ ليس لنديم ثمل أن يحقق النصر النبيل ، ولا كان انسياب النبيذ على سطح البحر من ثقب برميل يطفئ الظمأ ! هل أقنعت يمناك بأن تفلت من دنس دم العدو المتجبر . بالله عليك ، ياجنرال يعقوب ، لا تمزق أشعارى (٤٨) » .

لما أن تواصل زحف القوط ، هرع ستيليكون إلى منطقة رائيتيا لمفاوضة قبائل الآلان للخدمة مع الجيش الرومانى ضد آلارك ، كما استنجد أيضاً بتعزيزات رومانية من فرق حوض الراين . وفى أثناء ذلك كان آلارك قد نجح فى الاستيلاء على مدينة البندقية ، ودخل بعدها إلى منطقة ليجوريا وقد عقد العزم على محاصرة ميلانو للإيقاع بالإمبراطور هونوريوس فى قلب عاصمته . وفى فبراير ٤٠٢م قطع آلارك طريق بليزانس المؤدى إلى ميلانو ليعزلها عن الاتصال ببلدة باڤيا . غير أن ستيليكون قفل راجعاً من رائيتيا ، وشق طريقه عبر نهر أده (Adda) التى كانت قنطراته قد وقعت فى أيدى رجال آلارك . ونجح ستيليكون فى إجبار آلارك على رفع الحصار عن ميلانو . واضطر آلارك بعد هذا الفشل ، و بعد وصول تعزيزات رومانية من الراين إلى تغيير مساره قبالة الجنوب الإيطالى ، فهجم على بلدة آتسى ولكنه لم ينجح فى هجومه ، فضرب معسكره فى ربيع سنة ٤٠٢ م عند بلدة بوللنتيا ، وهى الشريان الأكبر لطرق الشمال الإيطالى . تعقب الجيش الرومانى مؤخرة القوط ، ثم ضرب معسكره على مقربة من معسكرهم وهجم ضابط رومانى اسمه شاول على فرقة من فرسان القوط فمزق شملهم وقتل رئيسها . ثم اشتبكت مشاة الجانبين فى معركة حامية ، انتهت بانتصار الرومان وباستيلائهم على معسكر القوط . أما آلارك فقد آثر الانسحاب بعد أن لاحت فى الأفق علامات الهزيمة . لقد دحر آلارك فى واقعة بوللنتيا ، وقد خلد الشاعر كلوديان ذلك اليوم فى الآتى : « تلكم الزينات الأرجوانية التى جرد منها جسد الإمبراطور ڤالنس بعد مصرعه على يد القوط ، وتلكم التماثيل من آيات الفن القديم ، التى تنطق بالحياة ، والتى نهبها البرابرة يوم اشتعال النار فى كورنثا ، كل تلكم الكنوز قد تركها الجرمان تحت أقدام المنتصرين . ولكن تلك المقدسات التى استردها الرومان ، وهى ذكريات لأحداث حزينة ، لا توقف الرجال عن تعقب العدو ... إن نصرنا قد حرر العديد من الأسرى من مختلف الأجناس والأقطار من مذلة الرق . وها هم بعد فك إسارهم يقبلون أيادى الجند المخضبة بدم القوط فى شكر وامتنان . . وها هم يعودون

(٤٨) Claudian, Epigr. XXV (LXXVII).

إلى دورهم وأولادهم ، ليقص كلٌ على ذويه مأساته ، وهو لا يكف عن التسبيح بحسن صنيع أصحاب ذلكم النصر العظيم . أما أنت يا آلارك ، فما أشد حزنك ، وقد جردتك المعركة من كل الثروات التى قد نهبت . إنك تسمع بأذنيك أنين زوجك التى كانت تحصى فى خيالها غنائم زوجها الذى لا يقهر . لكم كانت تتمنى ، تلك الفاقدة للشعور ، أن تنزع بجشعها قلائد الجواهر من أعناق نسوة أوزونيا ، ولكم كانت تود أن تجعل من نبيلات روما لها عبيداً . أو لعلها قد ضاقت من فتيات أرغوس وكورنثا ومن صبايا لاكيدومينيا . . . ؟ مرحى بك يا بوللنيتا ! يجب على نفسى أن أشيد بيومك الأغر ، وأن يخلد قريضى ذكراك للأجيال . . . لقد كانت شمسك على موعد مع القدر ، فكنت مسرحاً لتأكيد عزنا ، ومقبرة لعدونا . . . هنا يرقد صرعى رجال القوط والكامبرى من ضربة ستيليكون . إن تراب إيطاليا يعرف كيف يمتص دماء الغرباء ... هيا أسمعى أيتها الأمم الغافلة ، وتعلمى الدرس كيف يكون الوقار لروما(٤٩) .

---

(٤٩) Ibid., vs. 610 - 648 :

"purpureos cultus absumptique igne Valentis
exuvias miserisque graves crateras ab Argis
raptaque flagranti spirantia signa Corintho
callidus ante pede venientibus obicit hostis
incassum; neque enim feralis praeda moratur,
sed iustos praebent stimulos monumenta doloris...
Quis tibi tunc, Alarice, dolor, cum Marte perirent
divitiae spoliisque diu quaesita supellex
pulsaretque tuas ululatus coniugis aures,
coniugis, invicto dudum quae freta marito
demens Ausonidum gemmata monilia matrum
"Romanasque alta famulas ceruice petebat !...
O celebranda mihi cunctis Pollentia saeclis !
o meritum nomen ! felicibus apta triumphis !
virtutis fatale solum, memorabile bustum
barbariae ! nam saepe locis ac finibu illis
plena lacessito rediit vindicta Quirino.
illic Oceani stagnis excita supremis
Cimbrica tempestas alias emissa per Alpes
isdem procubuit campis. iam protinus aetas
adveniens geminae gentis permisceat ossa
et duplices signet titulos commune tropaeum :
"hic Cimbros fortesque Getas, Stilichone peremptor

بهذه المعانى الجياشة امتدح الشاعر كلوديان نتائج واقعة بوللنتيا ، التى رأى فيها انتفاضة رومانية وطنية ، يرجع الفضل فيها إلى حكمة سيده ستيليكون . وفى نفس الوقت نجد الشاعر المسيحى برودنتيوس يشيد بشجاعة الرومان فى تلك المعركة ، التى بذل فيها الجند دماءهم لفداء أرض الوطن ومجد العالم الرومانى (٥٠) . ويؤكد برودنتيوس أن راية الكاثوليكية هى التى انتصرت فى بوللنتيا على قوى الهرطقة والتبربر ، ولذا فإن النصر على آلارك أعظم من الانتصار على هانيبال نفسه (٥١) . كما أن هذا الانتصار — عند نفس الشاعر — يمثل أيضاً انتصاراً للحضارة ، فكما أن الإنسان أرقى من الحيوان ، فإن الرومان أرقى من البرابرة والوثنيين (٥٢) .

لقد أسكرت نشوة الانتصار رؤوس المعاصرين ، رغم أن الموقف لم يكن يبشر بالخير على روما . كما وأن الولايات التى كانت تحت أيدى القوط قد نهبت من كل ثرواتها وخيراتها ، ورحل سكانها ، وبخاصة فى منطقة أقويليا . أضف إلى هذا أن آلارك قد نجح فى تجميع فلول جيشه وتقهقر بهم ليستعد لجولة أخرى على روما نفسها . وكان الجند الرومان

---

et Mario claris ducibus, tegit Itala tellus.
discite vesanae Romam non temnere gentes'.

(٥٠) Aurelius Prudentins Clemens (Prudentius), Contra Symmachum, vs. 696 - 707 :
"...Depulit hos nimbos equitum non pervigil anser,
Proditor occulti tenebrosa nocte pericli,
Sed vis cruda virum perfractaque conjredientum
Pectora nec trepidans animus subcumbere leto
Pro Patria et pulchram per vulnera quaerere laudem."

(٥١) Ibid., vs. 743 - 49 :
"At noster Stilico, congressus comminus, ipsa
Ex acie ferrata virum dare terga coegit.
Hic Christus nobis Deus adfuit et mera virtus,
Illic lascivum, Campania fertilis, hostem
Deliciae vicere tuae, non Iuppiter acrem
Protexit Fabium, sed iuvit amonea Tarentus,
Quae dedit inlecebris domitum calcare tyrannum".

(٥٢) Ibid', vs. 816 - 819 :
"Sed tantum distant Romana et barbera, quantum
Quadrupes abiuncta est bipedi, vel muta loquenti.
Tantum etiam, qui rite Dei praecepta sequuntur,
Cultibus a stolidis et eorum erroribus absunt."

قد أرهقوا من عنت الحروب المتواصلة ، فاضطرت السلطات الرومانية إلى عقد معاهدة مع آلارك بأن يسترد جميع النسوة القوطيات اللائى وقعن فى الأسر مقابل الجلاء عن التراب الإيطالى . وانسحب آلارك من إيطاليا ، ولكن المناوشات تجددت بين الطرفين فى صيف ٤٠٣ م . وعبر آلارك منطقة تيماف متجهاً قبالة ڤيرونا ، ولكن قوات ستيليكون كانت تقف بالمرصاد . واضطر الزعيم القوطى إلى التراجع نحو رائيتيا ، وفى الطريق تفشى الوباء فى معسكره ، وأخذ بعض رجاله فى الهروب من بين صفوفه . استغل ستيليكون الفرصة للهجوم على إقليم إلليريا والاستيلاء عليه ، ونحن نعلم أن الإمبراطور الشرقى أركاديوس كان قد أنعم من قبل على آلارك بلقب « سيد إلليريا » ، نكاية فى أطماع ستيليكون فى تلك المنطقة بالذات .

فى خريف ٤٠٣م وصل ستيليكون والإمبراطور هونوريوس إلى مدينة روما ، للاحتفال بالقنصلية السادسة للإمبراطور . وهلل شعب روما فرحاً بقدوم الإمبراطور الشاب ، وعلت المدائح تنعم عليه بلقب « قاهر القوط » . وقال الشاعر كاوديان فى تلك المناسبة الآتى :

« لقد غصت الطريق بين الپالاتين والقنطرة الملفية بالجماهير ، من رجال ونساء ، وتزاحمت أمواج من البشر على الطرقات وأعالى البيوت ، وراحت النسوة فى ترديد الأناشيد والأغانى من شرفات بيوتهن . وكان الشباب فرحين بقدوم أمير شاب فى ربيع العمر مثلهم ، بينما بارك المسنون القدر الذى حفظ لهم العيش حتى يشهدوا بعيونهم ذلكم اليوم المجيد » .(٥٣) وفى غمرة تلك الاحتفالات اقترح أهل روما أن تنقل العاصمة من ميلانو إلى مدينتهم ، ولكن ستيليكون رفض ذلك ، ونصح بأن يستقر البلاط الإمبراطورى فى بلدة راڤنا فى الشمال الإيطالى ، نظراً لحصانة موقعها العسكرى .

(٥٣) Claudian, vl Cons. Hon., vs. 543 - 49 :

"Omne Palatino quod pons a colle recedit
Mulvius et quantum licuit consurgere tectis,
una replet turbae facies; undare videres
ima viris, altas effulgere matribus aedes.
exultant iuvenes aequaevi principis annis;
temnunt prisca senes et in hunc sibi pro perea fati
gratantur durasse diem moderutaque laudant
tempora, quod clemens aditu, quod pectore solus..."

فى أثناء ذلك كانت الأنباء تشير إلى زحف متبربر جديد اشعب مغولى من الهون قبالة غرب أوربا . وقد أثارت أهوال الهون فزعاً جديداً فى قلوب الناس . كما وأن القبائل الجرمانية الهائمة على وجهها بادرت إلى الفرار من وجه الهون ، واضطرت إلى الضغط على الأراضى التابعة للدولة الرومانية . ومن بين تلك القبائل الهاربة كانت جماعة القوط الشرقيين بقيادة زعيمهم رداغاز ، الذى اتخذ مسار آلارك نحو إيطاليا . ولقد هرب الكثيرون من وجه رداغاز وأتوا يطلبون الحماية والمأوى فى إيطاليا . ولكن الإيطاليين قابلوا هؤلاء اللاجئين فى فتور شديد بسبب ما أذاعوه من فوضى ، ولذا فإن عدداً كبيراً منهم قد تحولوا إلى عبيد . وقد كان من بينهم بعض نبلاء القوم ، ونستدل على ذلك من رسالة موجهة من القديس جيروم إلى واحد منهم اسمه يوليانوس ، الذى كان يملك أراض شاسعة ، ولكنه فقد ثروته وذويه بسبب الغزو القوطى الشرقى للأرض (٥٤) .

خرب رداغاز شمالى إيطاليا ، ثم ضرب حصاراً حول فلورنسا ، وبذلك قطع سبل الاتصال مع غالة ، « لأن الفزع أغلق فى وجوه الناس كل المسالك » (٥٥). ولقد كان لانتصارات رداغاز المتتالية أثر سئ على معنويات الرومان ، وعلت أصوات الحزب الوثنى تنادى بأن الآلهة تظلل رداغاز بالحماية لأنه ينحر لها كل يوم الأضحيات ، وتنبأوا بهزيمة الرومان بسبب غضب تلك الآلهة عليهم . وفى نفس الوقت ظهر من بين الحزب المسيحى من يزعم بأن القديس امبروز قد زاره فى المنام وطلب إليه أن يصمد الفلورنسيون يوماً آخر على حصار رداغاز . وفى خلال ذلك كان القائد ستيليكون قد جمع فرقاً مرتزقة من القوط الغربيين والآلان والهون وهجم على رداغاز وأجبره على رفع الحصار عن فلورنسا . ونجت المدينة ، بينما تفرقت قوة رداغاز ، وانتشرت الأوبئة بين رجاله ، ثم قتل رداغاز نفسه ، ووقع عدد كبير من رجاله فى الأسر ، وبيعوا فى أسواق النخاسة . وابتهج الرأى العام فى روما بهذا النصر الجديد ، وأقام السيناتو قوساً للنصر وزينوه بنصب للإمبراطور ، كما أقيم نصب آخر فى الفورم Forum لتخليد ذكرى هزيمة رداغاز ولإحياء شجاعة ستيليكون . ونظم الشاعر بولين دى نولى قصيدة يمجد فيها صنيع القديسين وعلى رأسهم وليه فيلكس : « إن فيلكس المنتصر يدعونا اليوم إلى أن نبتهج فى تعقل ، بعد

(٥٤) Jerome, Epist. ad Iulianicum, CXVIII, 2, in P.L., vol. XXII, 961.

(٥٥) Paulin de Nole, Epist. ad Desiderium, XLIII, 1(ed. P. Hartel), vol., XXIX, p. 364.

أن تبددت ظلمات الحرب الشرسة . إنه ، كولى للسلام ، وبرفقته إخوته بطرس وبولس وسائر الشهداء الأبرار ، قد تضرعوا إلى ملك الملوك لكى يبقى على حياة الإمبراطورية ، ولكى يحول دون القوط ومداخل روما ، ولكى يبدد شملهم ويكتب عليهم الأسر أو الهلاك (٥٦) .
وتتجلى العناية الربانية للشاعر بولين فى تتابع ما وقع من أحداث : فإن كان غضب السماء قد قدر لعدة مدن رومانية أن تقع فى أيدى العدو ، فإن عدالة السماء هى أيضاً التى حطمت كيان العدو رداغاز ، ووهبت النصر لأمير صغير هو هونوريوس .

ومن هذا المنطلق نفسه سوف يكتب القديس اغسطينوس فى « مدينة الله » ، فى صدد حديثه عن الملك الوثنى رداغاز ، وعن العناية الربانية (٥٧) .

بعد أن زال خطر القوط الشرقيين عن إيطاليا ، أعد ستيليكون العدة للاستيلاء على إلليريا ، فجهز أسطولا ليحمل حملة إلى ابيروس . وأحس الإمبراطور الشرقى بتلك الاستعدادات ، فقام بتقوية معاقله فى إلليريا استعداداً للصدام المرتقب بين النصفين الشرقى والغربى للإمبراطورية . ولكن الأحداث أحبطت خطة ستيليكون ، فلقد هجم الوندال على بلاد الغال ، وفى نفس الوقت ظهر مغتصب للعرش هو قسطنطين الثالث الذى كان يتحفز للانقضاض على روما . كان من نتيجة تعاقب تلك الأحداث فى الغرب أن أصبح آلارك القوطى الغربى طليق اليد ، فهجم على منطقة نوريكا وجمع منها كمية وافرة من الذهب . وكان ستيليكون قد اتفق مع آلارك أن يعملا سوياً فى إلليريا ، على أن يساعده آلارك ضد المغتصب قسطنطين الثالث ، خاصة بعد وفاة الإمبراطور الشرقى أركاديوس .

غير أن موقف ستيليكون فى التحالف مع آلارك قد قوبل بمعارضة شديدة من السيناتو

(٥٦) Ibid., Carm., XXI, vs. 4 - 12.

(٥٧) Augustine, Civitas Dei, v, 23 : "Et non agunt miseri gratias tantae misericordiae Dei, qui cum statuisset inruptione barbarica graviora pati dignos mores hominum castigare, in dignationem suam tanta mansuetudine tempravit ut illum primo feceret mirabiliter vinci, ne ad infirmorum animos evertendos gloria daretur daemonibus quibus eum "supplicare constablat; deinde ab his barbaris Roma caperetur, qui contra omnem consuetndinem gestorum ante bellorum ad loca sancta confugientes Christianae religionis reverentia tuerentur ipsisque daemonibus atque impiorum sacrificiorum ritibus, de quibus ille praesumpserat, sic adversarentur nomine Christiano ut longo atrocius bellum cum eis quam cum hominibus gerere viderentur..."

الرومانى ، خاصة بعد فشل جهوده ضد الوندال فى غالة وضد قسطنطين الثالث ، وعلت الأصوات بأن حلف ستيليكون مع آلارك إنما ينم عن خيانة كبرى ضد قضية الرومان المشتركة . وقد ضاعف من شكوك الرومان فى نوايا ستيليكون تلك الأعداد المتزايدة من الجرمان التى ضمها للخدمة فى الجيش الرومانى .

ويحاول الشاعر كلوديان ، الذى كان وفياً لستيليكون ، أن يبرر موقف سيده بأنه إنما لجأ إلى تجنيد المرتزقة من البرابرة عندما وجد تراخياً فى صفوف الرومان للحرب ، وبأنه كان حكيماً عندما واجه البرابرة ببرابرة مثلهم ، يقتل واحدهم الآخر ، ليكتب لروما النجاة من غدر الاثنين معاً (٥٨) . ويتصدى كلوديان للإجابة عن تساؤل هام : لماذا ترك ستيليكون العدو آلارك ليهرب بحياته بعد هزيمته فى واقعة بولنتيا ، فيقول : « إن هذا قد تم لخيرك يا روما ، فقد فتح ستيليكون لآلارك ثغرة ليفر منها ، لأنه لو شعر آلارك بدنو هلاكه لصب جام تبر بره على أسوار روما وشعبها بأذى بالغ قبل أن يهلك » (٥٩) .

إن كلوديان ، وهو صنيعة القائد المتبربر ستيليكون ، لا يعرف إلا أن يمتدح كل سياسات سيده ، بغض النظر عن صوابها أو عدمه . ولكن القديس جيروم ، عندما يتطرق إلى سياسة ستيليكون ، يكتب صراحة ليشارك أعضاء السيناتو فى مخاوفهم من تلك

---

(٥٨) Claudian, VI Cons. Hon., vs. 216 - 223 :

"ipse manu metuendus adest inopinaque cunctis
instruit arma locis et qua vocat usus ab omni
parte venit. fesso si deficit agmine miles,
utitur auxilis damni securus, et astu
debilitat saevum cognatis viribus Histrum
et duplici lucro committens proelia verti
in se barbariem nobis utrimque cadentem".

(٥٩) Claudian, De bello Getico, vs. 95 - 103 :

"Sed magis ex aliis fluxit clementia causis
"consulitur dum, Roma tibi. tua cura coegit
inclusis aperire fugam, ne peior in arto
saeviret rabies venturae conscia mortis;
nec tanti nomen stirpemque abolere Getarum,
ut propius peterere, fuit. procul arceat altus
Iuppiter, ut delubra Numae sedesque Quirini
barbaries oculis saltem temerare profanis
possit et arcanum tanti deprendere regni."

السياسة ، فهو عندما يتعرض لتفسير رؤيا دنيال عن الملك نبوخذ نصر ، حيث يرد وصف لتمثال عظيم برأس من الذهب وقدمين من الحديد والخزف ، يفسر ذلك على أنه رمز لقوة العالم وللإمبراطوريات المتعاقبة : فرأس الذهب يشير إلى الإمبراطورية البابلية وهى أولى الممالك القوية ، أما القوة التالية بعد مجد بابل فهى الإمبراطورية الرومانية ؛ غير أن قدمى التمثال اللتين من الخزف فهما يشيران إلى الضعف الذى أصاب كيان الإمبراطورية الرومانية إلى حد أنها « باتت تعتمد فى وجودها على عناصر أجنبية متبربرة[٦٠] ولكن حزب ستيليكون راحوا يهاجمون القديس جيروم لتلميحه بالنقد ضد سياسة القائد . ولذا فإن جيروم يرد منفعلا بأن تفسير تلك الرؤيا ليس من عنده ، وإنما هو تفسير دانيال نفسه ، وبأنه « لا ينبغى علينا أن نترك رذيلة النفاق للحاكم تطوينا ، فنغفل حقيقة ما ورد فى الكتب المقدسة من مواعظ وحكم »[٦١] .

إن جرأة القديس جيروم قد عرضته للخطر ، ولكن الأقدار أراحته من طغيان ستيليكون على حين فجأة : ذلك أن الإمبراطور هونوريوس قد لمس تذمراً بين الجند الرومان بسبب تغلغل المرتزقة الجرمان فى قلب الجيش ، واضطر إلى التضحية بستيليكون ، فأمر باغتياله فى ٢٢ أغسطس ٤٠٨ م . ومضت سيرة ستيليكون فى سجلات التاريخ على أنه قد خان قضية الرومان ، بل إنه صار مسئولا وهو فى قبره عن الكوارث التى حلت بروما بعد وفاته. وبعد انقضاء عشرة أعوام على اغتيال ستيليكون ، كتب الشاعر الوثنى روتيليوس ناماتيانوس يهاجم ستيليكون هجوماً عنيفاً ، فصوره على أنه هو الذى خطط لسيطرة الجرمان على الإمبراطورية الرومانية ، وبأنه هو الذى سهل لهم عبور ممرات جبال الأبنين لمهاجمة روما : « إن ستيليكون الأنكدهو المجرم الحقيقى الذى ساهم فى تدمير الإمبراطورية الرومانية . فهو الذى أدخل العناصر المتبربرة فى قلب الجيش الرومانى ، وقد كان يخفى فى طوية نفسه ، خلافاً لما يظهر ، عدواً متبربراً متحفزاً للقضاء علينا . إنه قد مهد الطريق أمام قوات الغزو ، ولذا فإن روما كانت قد وقعت فى الإسار قبل أن تسقط فى يد العدو . ولم يكن ستيليكون يتآمر الخفاء مع القوط على روما فحسب ، وإنما قام أيضاً بإحراق الكتب السبللينية لكى لا تنطق بالوحى[٦٢] . . . »

---

(٦٠) Jerome, In Dan. II, 40, in P.L., vol. XXV, 504.

(٦١) Ibid., P.L., vol. XXIV, 377.

(٦٢) Rutilius Namatianus, De reditu Suo, II, vs., 41 - 61.

إن المؤرخ لا يملك ، أمام هذه الآراء المتناقضة ، أن يجرم ستيليكون أو يبرأه . غير أن الأمر الثابت لدينا أن ستيليكون هو الذى حرض إمبراطور الغرب ضد شقيقه إمبراطور الشرق حول إقليم إلليبريا . وبوقوع الفرقة بين الأخوين ، أمكن لجماعة القوط ، غربية وشرقية على حد سواء أن يحققوا انتصاراتهم على الجيوش الرومانية المتفرقة . ومن هنا يمكن إلقاء بعض الشك على نوايا ستيليكون . أما أمر تآمره مع آلارك على حياة روما فهذا مجرد فرض نظرى لا تقوم على إثباته أدلة تاريخية كافية .

بعد مقتل ستيليكون ، أحست الفرق الجرمانية فى الجيش الرومانى بالخطر يتهددها ، فهجرت المعسكر الرومانى وانضمت تحت لواء آلارك . ثم عرض آلارك على الإمبراطور هونوريوس استعداده للانسحاب إلى بانونيا مقابل تبادل الأسرى بين الطرفين ، ولكن الإمبراطور رفض التفاوض مع القوط . ولما أن وصلت تعزيزات قوطية بقيادة أتولف صهر آلارك ، إلى المعسكر القوطى ، قرر آلارك الزحف على روما . وسار القوط فدخلوا أقويليا وبادوا وكريمونة ، ثم تقدموا عبر طريق إميليا Via Æmilia ثم عبر طريق فلامينيا (Via Flaminia) ، دون أن يتعرضوا لمدينة راڤنا . وبذلك قطع آلارك على روما سبل الاتصال بالعالم الخارجى . وسرعان ما وضحت آثار ذلك الحصار ، فشحت المؤن ، وانتشرت الأوبئة ، وسقط الكثيرون . ولقد أقدم بعض الموسرين على التبرع بأموالهم لشراء الخبز للجائعين فى المدينة المحاصرة ، وكان على رأس الخيرين أرملة الإمبراطور جراتيان . ولم تتبرع أرملة ستيليكون بشىء للفقراء ، فراحت الشبهات تحوم حولها ، وقيل إنها على اتصال بالعدو ، فقبض عليها وأعدمت[٦٣] .

أدرك الرومان بعد قليل أن الكارثة واقعة لا محالة ، فأوفدوا سفارة إلى معسكر آلارك يفاوضونه فى تسليم المدينة إليه على شروط متسامحة ، مع التأكيد على أنه فى حالة يأسهم فإنهم سوف يقاتلون حتى آخر قطرة فى شرايينهم . ولكن آلارك رد على السفراء الرومان بقول ساخر : « على قدر ما يشتد صلب العود فى العشب على قدر ما يسهل جزه بالمنجل» ، ثم طلب من السفراء أن يسلموه كل ما تحتويه روما من ذهب وفضة وعبيد من أصل جرمانى[٦٤] .

---

(٦٣) Zosimus, Historia, v, 38, p. 301.

(٦٤) Ibid., v, 40, p. 304.

فى هذا الموقف اليائس ، لجأ الكثيرون من وثنيي المدينة إلى طلب الحماية من قبل الآلهة الوثنية . وحلت جماعة من أهل توسكانيا تعلن للشعب فى روما أن مدينة نارنى قد نجت من أيدى المتبربرين القوط بعد أن قدم أهلوها الأضحيات للآلهة . ووجد محافظ روما نفسه مضطراً إلى أن يلفت نظر البابا انوسنت الأول بضرورة أن يغمض عينيه عن قيام الناس بتقديم الأضحيات للآلهة الوثنية فى روما . وانتهز الوثنيون الفرصة ونادوا بأن تقديم الأضحيات ينبغى أن يتم فى العلانية وفى وضح النهار بل وفى رحاب مجلس السيناتو نفسه ، وإلا فقدت الطقوس فعاليتها . وكان هذا الاتجاه يعنى طرح قضية المسيحية على بساط الجدل من جديد . ولم يجرؤ السيناتو على القبول أو الرفض فضاعت على الوثنيين فرصتهم إلى الأبد .

وجه الرومان سفارة جديدة إلى معسكر آلارك يعرضون عليه خمسة آلاف جنيهاً من الذهب ، وثلاثين ألفاً من الفضة ، وأربعة الأف من عباءات الحرير ، وثلاثة آلاف من الجلود الأرجوانية ، وثلاثة آلاف رطلاً من التوابل . وفرضت السلطات ضريبة على أغنياء المدينة لمواجهة الموقف ، استجاب لها البعض وتحايلت عليها الغالبية من الموسرين . غير أن وطأة الجوع اشتدت على الفقراء ، فهجموا على محافظ روما وأمطروه بالحجارة ، وهم يستصرخونه من أجل الخبز ، حتى هلك .

واختلط الحابل بالنابل فى روما العتيدة ، وهاجمت الدهماء الجائعة بيوت العبادة الوثنية تنهب تماثيل الذهب والفضة وألقى بالإلهة فيرتوس فى أتون النار لتصهر وتحول إلى عملة . وتتضح أحاسيس الرعب فى قلوب المعاصرين من واقع ما كتبه القديس جيروم من رسائل ، فهو يرى أن الخراب الذى سببه آلارك أفظع بكثير من جرم الوندال فى بلاد الغال : « من يصدق هذا الذى يجرى علينا ، وأى تاريخ سيروى ما أصاب روما فى عقر دارها ؟ ها هى اليوم تصارع لا من أجل مجدها بل أملاً فى السلامة فحسب لا بل إنها لم تعد قادرة على أن تحارب ألبتة ، وإنما هى تجمع فديتها من ذهب وفضة ، لتساوم بها على الإبقاء على حياتها (٦٥) » .

لقد انتقل الذعر إلى كل أرجاء ولايات الإمبراطورية ، وحار الناس فى فهم ما يجرى

---

(٦٥) Jerome, Epist. ad Ageruchiam, (Les Belles Lettres), tom. VII, pp. 91 - 94.
راجع ترجمة هذه الرسالة والنص اللاتينى فى الملاحق .

من حول روما وفى قلبها . يقول القديس أغسطينوس بأنه لا يكاد يصدق ما يصل إلى سمعه ، من إشاعات وأخبار قاتمة ، وبرغم هذا فإنه « يبكى مع الباكين على روما العظيمة[٦٦] » .

بعد أن تسلم آلارك جزء من الفدية ، سمح لأهل روما بالخروج من الحصار المضروب على نهر التيبر ، وذلك عبر بعض البوابات المحددة لمدة ثلاثة أيام فقط للتزود بالمؤن . ولم يفوت جند آلارك الفرصة ، فأخذوا يبيعون للناس بعض أغراضهم بأثمان خيالية . وكان على السلطات فى روما أن تطلق سراح الأسرى الجرمان ، فجاء هؤلاء ليرفعوا من عدد الجند فى المعسكر القوطى[٦٧] .

تراجع آلارك بعد هذا إلى منطقة توسكانيا لكى يراقب مدى تنفيذ الاتفاق المبرم بينه وبين الرومان . ويبدو أن الإمبراطور هونوريوس لم يكن جاداً فى مراعاة هذا الاتفاق ، فلقد اعترف بقسطنطين الثالث شريكاً معه فى الحكم ، على أن يزوده بتعزيزات من بلاد الغال للتصدى لآلارك . كذلك رست عند روما خمس فصائل رومانية قادمة من منطقة دلماشيا . وتشدد آلارك من جديد ، فطلب من السفير جوفيوس أن يوافق الإمبراطور على إقامة معاقل قوطية فى البندقية وإستريا ونوريكا ودلماشيا ، وأن يزوده الرومان بمقادير من الفضة والغلال ، وأن ينعم عليه هونوريوس بلقب « سيد الجيوش » » ليصبح القائد الأعلى لسائر جيوش الإمبراطورية ! كانت هذه المطالب بمثابة إلقاء القفاز فى وجه الإمبراطور . وفى نهاية سنة ٤٠٩ زحف آلارك لحصار روما للمرة الثانية ، فاستولى على ميناء بورتو على نهر التيبر ليحرم روما من وصول المؤن ، ثم وجه طلباً إلى السيناتو بضرورة خلع هونوريوس وتنصيب أتالوس العجوز إمبراطوراً .

كان أتالوس هذا ابناً لمحافظ قديم لروما ، وهو من أصل انطاكى ، وكان ضالعاً فى الفلسفة اليونانية والخطابة . ولقد دخل المسيحية على يد أحد الأساقفة الأريوسيين يدعى سجيسار لكى يقرب مسافة التفاهم بينه وبين آلارك الأريوسى المذهب . ولما أن تلقب أتالوس بالإمبراطور ، راح يوزع مناصب الدولة على الوثنيين من نبلاء روما وشيوخها ، فعين ترتوللوس قنصلا ، مما أثار حفيظة أسرة أنيتشى الكاثوليكية المذهب[٦٨] .

(٦٦) Augustine, Epist. ad Italicam, 533 - 34.

(٦٧) Zosmius, Historia, v, 42, p. 307.

(٦٨) Ibid., vl, 7, p. 323.

ولكى يوهم الرأى العام بإنه ليس منحازاً لآلارك ، قام أتالوس بتعيين السيناتور لمباديوس لرئاسة القضاء ، والذى كان معروفاً بعداءه الشديد للجرمان مذ هاجم ستيليكون عندما دفع جزية لآلارك هجوماً عنيفاً . وعندما خطب أتالوس فى مجلس الشيوخ أفصح عن عزمه على توحيد الإمبراطورية شرقيها وغربيها حتى ولو اضطر فى سبيل هذا الهدف إلى أن يستخدم القوط كجند مرتزقة .

فى أثناء ذلك كان الإمبراطور الشرعى هونوريوس حبيساً فى قصره فى رافنا . ولما كان عاجزاً عن التصدى لغريمه أتالوس ، فإنه عرض عليه أن يعترف به شريكاً معه فى الحكم ، ولكن أتالوس رفض العرض ، بل إنه هدد بالقبض على هونوريوس وتشويه خلقته ثم نفيه إلى إحدى الجزر[٦٩] . وفزع هونوريوس ، وفكر فى الهرب إلى القسطنطينية للاحتماء بجوار ابن أخيه ثيودوسيوس الثانى إمبراطور القسطنطينية . ولكن ثيودوسيوس الثانى كان هو أيضاً فى موقف لا يحسد عليه : فقد كان يخشى من حلف أتالوس مع آلارك ، بعد أن قطع القوط سبل الاتصال بين الشرق والغرب فى البر والبحر جميعاً . وباتت إمبراطورية الرومان بنصفيها المنعزلين ألعوبة فى أيدى « مغتصب معتوه ومتبربر فاجر[٧٠] » .

لم يبق أمام الإمبراطورين العاجزين من حيلة سوى أن يفرضا حصاراً اقتصادياً على الغرب ، فصدرت الأوامر إلى هرقليان حاكم شمال أفريقيا بمنع تصدير القمح والزيت إلى روما ونتج عن هذا الحصار أن اشتدت وطأة المجاعة على الأهالى ، وأن فكر آلارك فى أن يجرد حملة على تونس . ولكن أتالوس رفض ذلك ، فدب الخلاف بينه وبين حليفه آلارك ، ولذا فقد قبض الأخير على أتالوس وابنيه واحتجزهم رهائن فى المعسكر القوطى . ثم فتح آلارك المفاوضات مع الإمبراطور هونوريوس فى رافنا غير أن صداماً وقع بين رجال هونوريوس وإحدى الفرق القوطية جعل آلارك يعدل عن أسلوب التفاوض مع هونوريوس . وقرر الزعيم القوطى أن يشق طريقه بالسيف ، فزحف على روما وضرب حولها حصاراً للمرة الثالثة فى أغسطس سنة ٤١٠ م .

ولقد هلك الكثيرون من الجوع داخل المدينة المحاصرة ، وتروى المصادر أن بعض الذين

---

(٦٩) Ibid., vl, 8, p. 324.

(٧٠) Codex Theodosianus, VII, 16, 2, (ed. Mommsen), 1, p. 342.

فتك بهم الجوع قد أقدموا بالفعل على أكل لحوم البشر : « لقد أتتنا أنباء مزعجة من الغرب ، وإن تفاصيلها جد مخيفة . لقد باتت روما مهيضة الجناح ، وأمسى المواطنون يساومون على حياتهم بما تبقّى عند البعض منهم من ذهب . إن صوتى ليختنق ودموعى تنهمر وأنا أكتب هذه السطور . لقد هزمت تلك المدينة التى سيطرت يوماً على كل العالم ، فماذا بقى لى أن أقول ؟ إن روما تتضور جوعاً وتموت أسى قبل أن ترديها رماح العـدو . ولم يبق فيها من البشر من يصلح منهم للأسر . إن جنون الجوع قد أدى بالبعض إلى التماس الطعام بأكل لحوم البشر كما أن بعض الأمهات قد التهمن فى بطونهن مواليدهن الجدد »(٧١) .

لقد كان اغتصاب روما على يد القوط ، وكانت شائعات أكل لحوم البشر تشير عند رجال الدين المعاصرين إلى قرب نهاية العالم : « عندما ترون علامات فى السماء وأعاجيب على الأرض : أمة تنقلب على أمة ومملكة على مملكة ، ومعارك وضجيج حروب ومجاعات وزلازل فى الأرض ، فإن هذه كلها علامات على بداية المتاعب ، وما هى إلا البداية . إن نحن استعرضنا ما يجرى أمام عيوننا فى الماضى والحاضر ، يمكن لنا أن نتعرف على ما تبقّى ليتم ، لقد قربت النهاية ، أية أمة تملك اليوم سلاماً لأرضها ، أى شعب يعمل اليوم على ترابه فى أمن كالعادة ؟ إن الذعر من الحرب يملأ كل النفوس ، وإن الجهالة والتبربر تسيطر على نفوس المقاتلين ، وإن الاغتصاب والدم بات يغذى أفواهاً تشتهى سفك الدماء . . . ولم تعد المحبة قائمة لتذود عن الجار ، ولم تعد فضيلة الحق تحمى الغريب ، أين هى الرحمة ، لقد ولت أيامها وهربت من نفوس البشر . . . إن الممالك تتحرش بالممالك ، وإن الأقوام الغريبة تطارد القياصرة من على عروشهم المشروعة لهم . وماتلك الظواهر الطبيعية الغريبة من زلازل فى الأرض وبرق فى السماء إلا علامات الساعة . وكيف الحديث عن المجاعات وجنون المائتين جوعاً الذين يمضغون بأفواههم غذاءً بشعاً هو لحم البشر ؟ إنى ارتجف عندما أذكر كيف أن الجياع يشبعون بطونهم من بقايا جثث جيرانهم القتلى ، مما تبقّى فى أحشائهم من عفن الطعام(٧٢) » .

---

(٧١) Jerome, Epist. ad Principiam, (Les Belles Lettres), tom. VII, pp. 146 - 148.
راجع ترجمة هذه الرسالة والنص اللاتينى فى الملاحق .

(٧٢) Consulationes Zacchaei et Apolloni, III, 8, (ed. G. Morin), in Florilegium Patristicum fasc. 39, Bonn, 1935, pp. 112, 15: ,'Percurre nunc singula, atque ex his quae geruntur aut gesta sunt quid supersit intellege: profecto id tantum deesse perspicies, quodnovissimis aut iam=

لم تعد المقاومة تجدى أمام إصرار آلارك ، وفى ليلة الرابع والعشرين من أغسطس لسنة ٤١٠ م قامت بعض العناصر القوطية من العبيد بفتح بوابة سالاريا لقوات آلارك . ويقال إن هؤلاء العبيد كانوا فى خدمة سيدة نبيلة تدعى أنيشيا بروبا ، وهى التى دفعتهم إلى فتح البوابة بدافع الشفقة على أهالى المدينة الذين كانوا يتساقطون من الجوع والمرض (٧٣) .

اقتحم القوط بوابات روما وهم يتصايحون ويقرعون الطبول . ولم يخل الأمر من بعض المقاومة ، ويدل على ذلك تلك الحرائق التى شبت فى المبانى المجاورة لبوابة سالاريا ، ومن بينها قصر سالوست . ولكن سرعان ما قمع القوط كل مقاومة صادفتهم ، ثم أطلق آلارك رجاله لنهب المدينة ، ولكنه حذرهم من المساس بكاتدرائيتى بطرس وبولس . وتتحدث الحوليات المعاصرة عن حالات اغتصاب كثيرة ضد عذارى وصبيات صغيرات (٧٤) . هذا وقد تعرض قصر آفنتين (Aventine) ، حيث كانت تقيم أرملة تقية هى مارسيلا ومعها عديد من العذارى المتبتلات ، لعنف بغيض ، حدثنا عنه القديس جيروم فى الآتى : «استقبلت مارسيلا الجند القوط فى شجاعة فائقة ، وقد هجم هؤلاء يطلبون منها الذهب . ولكنها ردت عليهم بأنها زاهدة لا تملك من متاع الدنيا سوى عباءتها الخشنة . ولكنهم لم يصدقوها وانهالوا عليها ضرباً بالسياط والقضبان ، فسقطت المرأة عند أقدامهم ، وأخذت تتوسل إليهم بدموعها ألا يفرقوا بينها وبين ابنتها ؛ خوفاً عليها من شر إبليس» (٧٥) .

---

=adscribi possit aut iungi.,, Quae enim natio quiétem patriae possidens vivit? Quis intra genitale solum populus labori exhibetur adsueto, aut ab inferendo suscipiendoque discrimine vel propriae salutisintuitu vel domestico retinetur affectu? Ardet bellandi impius furor atroxque insania armis delectatur et rapto: hinc fauces hiantes avaritiae cruor pascit,et cum pene iniectis mortibus cuncta cuncta succenderit, reliquias tamen sitiens aut spernit aut spoliat. Non dilectis proximos, non iustitia seruat extraneos: gemens interca Hietas exsulat atque ab humanis mentibus pulsa, vestigia, quae pridem reliquerat, anferre compellitur. Regnis insuper regna confligunt, et insuspicabiles sceptris iustarum sedium Augustos depellunt. Adde prodigiorum ineffabiles minas, et terrae creberrimos motus, pluraque caelòsigna fulsisse Quid inediae funestos exitus loquar et infandis humanorum corporum cibis expletas deficientium aviditates ? Horret animus dicere, parricidiis famen postam et reliquias corpororum dilectorum, ut saevius qam vixerant interirent, visceribus suorum sepultas".

(٧٣) Procopius, De bello Vandalico, 1, 2.

(٧٤) Augustine, Civitas Dei, I, 16, 3.

(٧٥) Jerome, Epist. ad Principiam, (Les Belles Lettres), tom· VII, pp. 146 - 148 : =

ويلاحظ أن الكتاب الجرمان يصورون غزو آلارك لروما بأنه كان غاية فى الرأفة إن هو قورن بعنف القبائل الأخرى الغازية ، ويقف على رأس هؤلاء الكتاب المؤرخ القوطى الأصل جوردان[٧٦] . غير أن المؤرخين اللاحقين من الرومان ، وبخاصة بروكوبيوس ، يؤكدون فى وصف الخراب الذى جره آلارك ، ورجاله على البلاد . إذ يروى بروكوبيوس أن البلاد التى دخلها القوط الغربيون قد أصيبت بدمار كامل فسويت مبانيها بالأرض ، ولم يبق فيها أثر يحكى عن تاريخه : وقد وضح هذا الدمار فى منطقة خليج أيونيا ، كما وأن القوط قد قتلوا كل من صادفهم من سكان فى تلك المنطقة ، شيباً وشباناً ، نساء وأطفالا ، ومنذ ذلك التاريخ أقفرت تلك البلاد من السكان[٧٧] . وكان من الممكن أن نتهم بروكوبيوس بالمبالغة ، لولا أن رحالة معاصراً قد أكد بدوره أن الخراب قد عم البلاد ، فقد طاف الرحالة روتيليوس ناماتيانوس سنة ٤١٧م على الساحل التيرانى ، وسجل لنا ما يبرر أقوال بروكوبيوس فى هذا الصدد ، فتحدث عن خراب بلدان بيرجى وكاستروم وكوزا وبوبيلونيا[٧٨] . وفى سنة ٤١٧ أيضاً شهد المؤرخ أوروزيوس بأن أنقاض الحرائق التى أشعلها القوط فى مبانى روما كانت لا تزال شاهدة على أعمالهم[٧٩] ، فلقد التهمت النيران قصور فاليريوس وآفنتين ، ومعابد يونو وكنائس ترانستيفير . هذا إلى جانب نهب مذبح الفضة (Ciborium) من مبنى اللاتران ، وهو هدية من قسطنطين الكبير للبابوية ووزنة ٢٠٢٥ رطلا من الفضة ، كما أن ألسنة النـــيران قد التهمت صالة الكيوريا (Curia) البابوية .

---

= "Cum interim, ut in tanta confusione rerum,Marcellae quoque domum cruentus victor ingreditur: (Sit mihi fas audita loqui), immo a sanctis viris visa narrare, qui interfuere praesentes,qui te dicunt in periculo quoque ei fuisse sociatam. Intrepido vultu excepisse dicitur introgressos : cumque posceretur aurum et defossas opes vili excusaret tunica, non tamen fecit fidem voluntariae paupertatis. Caesam fustibus flagelliseque aiunt non sensisse tormenta; sed hoc lacrimis, hoc pedibus eorum egisse prostratam, ne te a suo consortio separarent; ne sustineret adulescentia, quod senilis actas timere non poterat..."

راجع ترجمة هذه الرسالة والنص اللاتينى فى الملاحق .

(٧٦) Jordanés, Getica, XXX, 156, in M.G.H., Ant. Art., vol. V, p. 98, 18.

(٧٧) Procopius, De bello Gothico, II, 16.

(٧٨) Rutilius Namatianus, op. cit., I, V., 39 - 47.

(٧٩) Orosius, Historia, VII, 40.

وبعد نهب دام ثلاثة أيام ، قرر آلارك الخروج من مدينة روما ؛ ربما خوفاً من لعنة قد تلحق به بعد غزوه للمدينة الخالدة . وقد جر القوط فى مواكبهم آلافاً من الأسرى ، رجالاً ونساءً ، من بينهم بعض نبلاء القوم وعلى رأسهم الأميرة جاللا بلاسيدا شقيقة الإمبراطور هونوريوس . كذلك ضم الموكب بعض الأسرى من رجال الدين ، من بينهم الشماس دينس ، الذى كان ضالعاً فى علوم الطب : هـذا وكان بعض الأهالى قد فروا من روما ولجأوا إلى جزيرة إيجليوم طلباً فى الأمان من تهديد القوط الغربيين .

زحف آلارك نحو الجنوب الإيطالى بقصد عبور البحر الأبيض وتأسيس مملكة قوطية فى الشمال الإفريقى ، وفى طريقه دمر مدينتى كابوا ونولى . وكان بعض الأفراد قد هربوا من وجه آلارك منذ عام ٤٠٨ ، ومن بين هؤلاء السيدة ميلانيا التى فرت وزوجها ووالدتها وواحد من علماء العصر اسمه روفينوس ، مع عدد من الفتيات اللائى كرسن بتوليتهن للعبادة . وحط الموكب الهارب رحله عند بلدة مسينا ، ولكن الأخبار أتتهم بعد قليل عن سقوط روما ، وبأن آلارك أخذ يتقدم قبالة صقلية . كان روفينوس منكباً آنذاك على ترجمة لكتابات أورجين السكندرى ، ولكن الأنباء المزعجة قطعت عليه العمل ، ولذا فإنه يكتب ملتمساً لنفسه العذر : « إن الأوقات جد عصيبة ! هل فى الإمكان أن يخط القلم حرفاً وسيف الجبار مسلط على رأسنا ؟ ها نحن نبصر بعيوننا القرى والمدائن وهى تدمر . هل هنالك سبيل آخر سوى الهروب عبر مخاطر البحر ؟ وحتى البحر الآن لم يعد ملاذاً آمناً من شرور العدو . لقد أشعل العدو النيران فى بلدة ريجيو أمام أبصارنا . ولم يعد الذراع الضيق للبحر الذى يفصل إيطاليا عن صقلية بمانع يصدعنا العدو . أين لنا ، والحال كذلك ، من السلام النفسى لكى نسطر أو نترجم ؟ وبرغم كل هذا فإنى قد تحايلت على القلم فى سكون الليل عندما كانت خطورة العدو أقل حدة وتهديداً ، لكى أتابع عملى . إن هذا هو العزاء الوحيد الذى نملكه ، فلعله يخفف من مرارة المنفى فى هذا العالم » (٨٠) .

لم يقدر لروفينوس أن يتم العمل الذى كان قد ابتدأه عن أورجين السكندرى ، فلقد مات الرجل بينما كان أسطول القوط يتأهب لغزو جزيرة صقلية . أما عن رفاق

(٨٠) Rufinus, Prol. ad Ursacium, in P.G, vol. XII 583 - 86.

روفينوس فقد هربوا من مسينا قبالة الشمال الإفريقى ، ولكن عاصفة ألقت بهم على جزيرة ليبارى ، وكان القوط قد سبقوهم إليها . فرض القوط جزية مقدارها ٢٥٠٠ قطعة من الذهب على سكان الجزيرة ، كما أسروا عدداً من أهل الجزيرة . وكان على السيدة ميلانيا أن تدفع ٥٠٠ قطعة من الذهب فدية لنفسها وخمسمائة من أتباعها .

أما عن رحـــلة آلارك إلى صقلية فقد قدر لها الفشل ، بعـــد أن جرفت عاصفة عاتية أسطوله . وهلل أهل صقلية فرحـًا ورأوا فى تلك العاصفة عقابـًا ربانياً لآلارك على فعله وآثامه .

كان لسقوط روما فى أيدى آلارك ردود فعل مريرة فى نفوس أهل العصر : فقد كان القديس جيروم وقتها فى رحلة روحية فى بيت لحم ، وعندما أتته الأنباء كان انزعاجه شديداً ، فقطعت الأحزان عليه خلوته ، وشلت يده عن مواصلة ما كان منكبا عليه من كتابة : « ها هى على حين فجأة تحط علينا الأخبار المحزنة : لقد مات باماخيوس ورقدت مارسيللا يوم حصار روما ، ورقد عديدون آخرون من إخوتنا وأخواتنا فى الرب . لقد تملكنى خمود غريب ، ولم أعد قادراً على التفكير ليلا ولا نهاراً ، وشغلتنى عن القلم همومى على سلام البشر . لقد وجدتنى أسيراً مع القديسين فى إسارهم . وتعلقت بين اليـــأس والأمل ، أتمزق من المآسى التى تعرض لها الأبرياء . ولكن عندما علمت بأن نور العالم قد انطفىء ، وأن الإمبراطورية قد ثكلت فى عاصمتها ، وأن المسكونة برمتها قد هوت مع سقوط المدينة الخالدة ، أصابنى صمت رهيب وركبتنى المذلة ، وتاهت من فمى الكلمة الطيبة ، لقد فاضت النفس بشهوة الغضب . لقد انتفخ قلبى من الداخل بالأحزان ، واشتعلت أفكارى بلهيب من النار »[٨١] .

غير أن أصدقاء القديس جيروم وعلى رأسهم يوستوكيوم راحوا يلحون عليه فى أن يواصل كتاباته الروحية ، واستجاب الرجل وأخذ يصل ما كان قد ابتدأه ، ولكن سيل اللاجئين الفارين من وجه آلارك قطع على جيروم عمله ، فألقى بالقلم جانباً من جديد ، وقرر أن يسهر على راحة هؤلاء التعساء : « من كان يصدق أن روما التى قهرت العالم كله تنهار على على هذه الشاكلة ؟ من يعقل أن بلدان المشرق فى مصر وأفريقيا تزدحم هكذا بالرقيق ،

(٨١) Jorome, In Ezech. praef. libri I, in P.L., vol. XXV, 15.

من الرجال والنساء ، ممن كانوا أتباعاً لسيدة العالم ؟ ومن يصدق أن بيت لحم المقدسة كتب عليها أن تستقبل كل يوم وفوداً من الجنسين ، وقد ضربهم الجوع والمرض ، ومنهم من كانوا من نبلاء القوم ؟ لقد بتنا عاجزين عن تقديم الإغاثة لهم جميعاً ، ولا نملك مع هذا العجز إلا أن نشاركهم فى النواح . لقد هجرت الكتابة عن الأسفار المقدسة لأنه وقت يستوجب ترجمة الأقوال إلى أفعال ، فلنسلك إذن بقداسة خيراً لنا من أن نتكلم أو نكتب بقداسة [٨٢].

كذلك تدفقت أعـــداد من اللاجئين الرومان على قرطاج هروباً من وجه آلارك . وتشير الحوليات إلى أن سلوك هؤلاء اللاجئين كان منافياً للياقة ، فما أن وطأت أقدامهم أرض قرطاج حتى أقبلوا على متاع الدنيا ولهو المسرح والتسكع فى الحدائق العامة : « بل إنهم — ولن تصدق الأجيال هذا القول — ما أن وصلوا قرطاج حتى ولجوا إلى المسارح والسيرك يناصرون هذا المهرج أوذاك البهلوان . ياله من حمق ، ويالعجب . إنى لا أصف هذا المسلك بالخطأ ، وإنما صوابه هو الحمق . ما الذى أصابكم يا أهل الغرب ؟ إن مدائن الشرق وأهله قـــد مسهم حزن القلوب على ما حل بكم من كوارث ، بينما أنتم غارقون حتى آذانكم فى دور الملاهى وعبثها الماجن » [٨٣]. ولا يخفى القديس أغسطينوس أن رعايا أبروشيته قد فقدوا الشجاعة أمام تدفق اللاجئين عليهم ، ولذا فإنه يحث شعبه فى قرطاج على فعل الخير تجاه هؤلاء التعساء : « إنى أتوسل إليكم وأدعوكم إلى أن ترق قلوبكم على هؤلاء البؤساء من حولكم . أعينوا المريض منهم لكى يتضاعف أجركم عند أبيكم الذى فى السموات . ها هو الشتاء قد أقبل بما يحمله معه من بؤس ، وينبغى عليكم أن تعطفوا على الفقير ، فالمسيح هو الذى يقرع الباب ويسأل . إن كل فرد منكم يشتهى أن يستقبل المسيح فى أعالى السماء ، ولكن تنبهوا ، هو ذا بينكم ، يرقد عرياناً على الطرقات ، ويتضور جوعاً ، ويرتعد من قسوة البرد . . . » [٨٤].

---

(٨٢) Ibid., 16.

(٨٣) Augustine Civitas Dei, I, 32 : „...quae animos miserorum tantis obcaecavit tenebris, tanta deformitate foedavit, ut etiam modo (quod incredibile forsitan erit, si a nostris posteris audietur) Romana urbe vastata, quos pestilentia ista possedit atque inde fugientes Carthaginem pervenire potuerunt, in theatris cotidie certatim pro histrionibus insanirent".

(٨٤) Augustine, Sermo LXXXI, 9, in P.L, vol. XXXVIII, 506.

كان من بين اللاجئين إلى الشمال الأفريقي الأسقف فيلكس الذى كان على المذهب الدوناتى . وكانت هنالك أيضاً الشابة ديمترياس التى هربت فى صحبة والدتها وجدتها إنيشيا بروبا على ظهر إحدى المراكب ، بعد أن شهدت أهوالا ارتكبها القوط ضد العذارى فى روما . وكان طبيعياً أن تضطرب نفس الفتاة ، فتفكر فى أن تتخلى عن البتولية بأن تتزوج من واحد من المهاجرين . وبينما هى ممزقة بين إغراءات الزواج وطهارة البتولية ، إذ بصوت يخاطبها بأنه إذا كانت العناية الإلهية قد قدرت لها أن تفلت من وحشية البرابرة ، فإنه حرى بها أن تساعد نفسها على الإفلات من استحواذ الزواج : « أو لا تعرفين ، أيتها المسكينة ، إلى من تدينين بعذراويتك ؟ منذ وقت قريب كنت ترتعدين بين مخالب البرابرة ، وتتسللين للاختباء فى أحضان المربيات وتنورات جدتك وأمك . لقد رأيت نفسك أسيرة فى أيدى البرابرة ، ولم تكن عفتك ملكاً لك فى تلك اللحظات المريرة . ولقد فزعت نفسك من هول ما رأته عيناك من جرم العدو ، فإنك لو تذكرين تعلمين ما حل بالقانتات من اغتصاب ، وما أصاب مدينتك ، سـيدة الكون ، التى باتت مقـبرة للشعب الرومانى . وهاأنت اليوم طريدة على شواطئ ليبيا ، فهل بعد هذا تفكرين فى الزواج من طريد مثلك ؟ من ذا الذى يكون لك إشبينا ، وأى محفل هذا الذى تزمعين عقده ، وأى عرس هذا يكون ؟ . . » (٨٥) .

لقد جاء صوت القديس جيروم ليجعل الفتاة ديمترياس تعزف عن الزواج وتهجر زينة هذا العالم . وكان لموقفها أثر بعيد على عديد من صبايا أفريقيا واللاجئات إلى الأراضى المقدسة . فقد بدأت مع هذا القرار فكرة هجران العالم والرحيل إلى رحاب فلسطين ، وقد شجع من هذا الاتجاه ما صادفه المهاجرون من جفاء من قبل السلطات الرومانية فى الشمال الإفريقى ، وبخاصة على يد الكونت هرقليان ، كما نطالع ذلك فى رسالة القديس جيروم إلى الفتاة ديمترياس : « لقد لقيت جدتك بروبا معاملة لا إنسانية فى الشمال الأفريقى من جانب رجل لا ندرى كيف ننعته : بالقسوة أم بالجشع . إنه مخلوق لا يحب إلا الخمر والمال ، وكنائب للإمبراطور فى الحكم ، فإنه قد خلع على نفسه صلاحيات الطغيان . . . كما وأن نسيبه المدعو سابنيوس لم يتورع عن اختطاف الصبايا من أحضان

(٨٥) Jerome, Epistula ad Demetriadem, (Les Belles Lettres), tom. VII, pp. 168 - 171.
راجع ترجمة هذه الرسالة والنص اللاتينى فى الملاحق .

أمهاتهن لبيعهن فى سوق النخاسة لتجار الشام . إنها صفقة من الربح الحـــرام ، بضاعتها صبيات من عرق نبيل . ولم يشفق هذا الجبار على صراخ الأرامل ولاتوسلات اليتامى والقانتات ، لأن عينه لا تبصر إلا الرشوة ، وهو أصم عن توسلات العيون »[٨٦] .

إن عدداً وافراً من المهاجرين من وجه آلارك إلى الشمال الإفريقى قد اضطروا إلى الرحيل إلى الشام ، وكان من بين هؤلاء السيدة بروبا والمفكر بيلاجيوس صاحب المذهب المشتق من اسمه ، والذى دمغ بعد هذا بالهرطقة . ولم يكن الدافع وراء ذلك الرحيل قسوة السلطات الرومانية فحسب ، وإنما كان أهالى شمال أفريقيا من الرومان المستوطنين على قدر كبير من الجشع والخشونة : فعندما وصل المهاجران بنيان وميلانى بعدأن باعا أملاكهما فى روما ، قاما بتوزيع العطاء على المؤسسات الدينية ، كما قدما الفدية لإطلاق سراح بعض الأسرى من أيدى القوط . وقد حصلت منطقة تاجستا على نصيب من تلك التبرعات ، كما أسسا بها بيوتًا ديرانية للرجال وللنساء ، غير أن هذا قد أثار حقد أهالى هيپو ، فدبروا طريقة يستحوذون بها على أموال بنيان . وذات يوم والرجل يشارك فى الصلاة فى هيپو علت صيحات تنادى « بنيان كاهنا » لهيپو . وتجمهر المصلون حول أسقف تاجستا يتحرشون به ، واضطر بنيان إلى إعلان قبوله لمطلب المتظاهرين لكى يهدأ الموقف . ولكنه هو وصديقه ميلانى سرعان ما قررا الرحيل عن شمال أفريقيا إلى مصر ومنها إلى فلسطين ، وذلك فى سنة ٤١٧م .

كان لسقوط روما أبعد الأثر على الديانة المسيحية : فلقد تحركت جماعات الوثنية من جديد لتكيل الاتهامات لها ، مجددين القول بأن هذه الديانة قد جلبت غماً على حياة الناس منذ دخلت تعاليمها إلى روما ، وها هى بعد ذلك تساهم فى سقوط المدينة الخالدة فى أيدى المتبربرين . وأشاع الوثنيون أن سقوط الإمبراطورية إن هو إلا عقاب أنزلته الآلهة على الرومان بسبب هجرهم لدين الآباء ، وتدنيس المعابد وبيع تماثيل الآلهة أو صهرها فى النار لتدفع جزية للعدو . وراحوا يذكرون الناس بالمصير الذى آل إليه الإمبراطور هونوريوس نتيجة لتحطيمه معابد الأوثان سنة ٤٠٨ . وتتضح وجهة نظر الوثنية فى رسالة بعث بها واحد من أقطابها إلى القديس أغسطينوس يقول له فيها : « إن التعاليم المسيحية لا تتفق أبداً مع مصالح الدولة ؛ لأن المسيحية تنادى بالتعاليم الآتية : لاتقابلوا الشر بالشر ، من لطمك على خدك الأيمن حول له الأيسر ، من أراد أن ينزع عنك رداءك اترك له

(٨٦) Ibid., op. cit., loc. cit.

أيضًا عباءتك ؛ من يطلب إليك السير ميلا سر معه ميلين إلخ . . إن هذه الأمثال بالغة الضرر بمصالح الأمة ، لأنه من ذا الذى يقبل بأن يتخلى للعدو عن أراضى الإمبراطورية ، ومن ذا الذى لا يهب لنجدة ولاية تتعرض لنهب وسلب المتبربرين ؟ . . . إن كان هنالك ضرر قد لحق بالرومان ، فإن هـــذا يرجع إلى سياسات الأباطرة الذين اعتنقوا المسيحية . إن الأمر جلى واضح لمن يريد أن يبصر وله عيون » (٨٧) . وانصب هجوم الوثنيين أيضاً على الرسل والقديسين ، وسخروا من بطرس وبولس الراقدين فى روما ، وتساءلوا عن شفاعات الأخيار يوم أن كانت المدينة تصطلى بنار القوط وسيدهم آلارك .

أمام هذه الاتهامات وجد القديس أغسطينوس أنه يتحتم عليه أن يتصدى لتفنيد تلك الاتهامات ، ومن هنا ولدت فكرة « مدينة الله » : يلاحظ الكاتب بادئ ذى بدء أن المثقفين الوثنيين الذين يلقون باللوم على المسيحية مدينون ببقائهم على قيد الحياة إلى شفاعـــة بعض « المسيحيين الذين كانوا يتمتعون باحـــترام آلارك نفسه ، ذلك لأن آلارك كان مسيحياً ، وإن كان على المذهب الأريوسى (٨٨) . أما عن الخراب الذى أصاب مدينة روما ، فهو من طبيعة الأحداث التى تقع فى مسار الزمان وقت أية حروب ، سواء كانت هنالك مسيحية أو وثنية على وجه المسكونة . كما وأن آلارك لم يكن على درجة من التبربر بشعة مثل بقية الزعماء الجرمان ، ولا يرجع هذا — عند الكاتب — إلى شخص آلارك نفسه ، بقدر ما يعود إلى فضل العناية الربانية التى تحننت على روما والرومان . ويؤكد أغسطينوس مرة أخرى أن قلب آلارك قد لا يخلو من مس المحبة التى هى للمسيحية ، وإن كان مهرطقا مخالفًا .

إن الخير والشر — يقول أغسطينوس — يصيبان الأخيار والأشرار فى هذا العالم على حد سواء ، كما وأن السماء دواماً تختبر إيمان الصادقين بالتجربة القاسية : مثلما تفعل النار فى فصل معدن الذهب عن خبث المعادن ، ومثلما يعزل المدق حبة الحنطة من القش ، ومثلما تقطر

(٨٧) Marcellinus, Epist. ad Augustinum, CXXXVI 2.

(٨٨) Augustine, Civitas Dei, I, 1 : "Illud vero, quod eis vel ubicumque propter Christi nomen vel in locis Christi nomini dicatissimis et amplissimis ac pro largiore misericordia ad capacitatem multitudinis electis praeter bellorum ,morem truculenti barbari pepercerunt, hoc tribuere temporibus Christianis, hinc Deo agere gratias' hinc ad eius nomen veraciter currere, ut effugiant poenas ignis aeterni, quod nomen multi eorum mendaciter usurparunt, ut effugerent poenas praes entis exitii".

المعصرة الزيت عن الحثالة . إن شدة المحنة تظهر جوهر المعدن ، فالواهنون من قليلي الإيمان يجدفون على السماء ويلعنون ، أما الصادقون المؤمنون فإنهم بالشدة يتعزون ويباركون آبانا الذى فى السموات ، الذى يجربهم على الدرب إعداداً لهم فى ميراث القديسين (٨٩) .

أما عن الذنوب التى تردى فيها بعض المؤمنين فهى فى رأى أغسطينوس ، ليست من قبيل الآثام الجسدية ، وإنما هى تتمثل فى تهاونهم مع أهل الوثنية فى علاقاتهم اليومية : فبدلا من أن يبشروهم بكلمة السماء راحوا يهادنونهم حرصاً على المصالح الدنيوية . واستتبع هذا أنهم أغمضوا عيونهم عن رذائل الأوثان وآثامهم البشعة. بل إن بعض رجال الإكليروس كانت تنقصهم الشجاعة فى المجاهرة بقول الحق أمام محافل الوثنية وطقوسها اللعينة .

ومن ثم فإنهم قد استوجبوا القصاص (٩٠) . ثم يتناول أغسطينوس الأحداث التى ألمت بالمسيحيين ، ويحاول تفسيرها على ضوء ما ورد فى الكتب المقدسة ، وهو يستعين فى هذه الشروح أيضاً بالديالكتيك الرواقى ، الذى كان أغسطينوس عارفاً به : عن الذين نكبوا فى أملاكهم ، فهؤلاء قد أراحهم الفقر من عبء كنوز هذا العالم المادى ، وهم بهذا لم يفقدوا شيئاً ، بل إنهم قد ربحوا الخلاص من المال الذى هو أصل كل الشرور ، ولنا فى سيرة الصابر أيوب خير مثال وموعظة . وإن كانوا نادمين لأنهم لم يعطوا تلك الأموال الضائعة صدقة على الفقراء ، فإن حقيقة ذلك الضياع تلقنهم الدرس الجميل فى تعميق معنى الصدقة ، وفى هذا تأكيد لدرس المسيح بأن لاتكنزوا لكم مالا فى الأرض بل عند أبيكم الذى فى السموات ، ذلك لأن ما نكنزه فى السماء لا يقربه القوط . أما عن الذين عذبوا على يد العدو ليعترفوا بكنوزهم المخبأة ، فإنهم يعلمون الآن أن الفضة والذهب كانت سر تعاستهم . ولكن الذين باعوا متاع العالم وارتضوا الزهد لهم لباساً ، فإنهم ليس لديهم ما يخشون عليه ، وإن قتلوا فإنهم ينالون إكليل الشهادة ؛ لأنهم لا يموتون بسبب أموالهم وإنما بسبب تمسكهم بعقيدتهم (٩١) . أما عن المجاعة التى حلت بالبلاد ، فإن الذين هلكوا بسببها ، فقد ارتاحوا

---

(٨٩) Ibid., I, 9 : "Non mihi itaquevidetur haec parva esse causa quare cum malis flagellentur et boni, quando Deo placet perditos mores etiam temporalium poenarum adflictione punire. Flagellantur enim simul, non quia simul agunt malam vitam, sed quia simul amant temporalem vitam, non quidem aequaliter, sed tamen simul..."

(٩٠) Ibidem.

(٩١) Augustine, op. cit., I, 10 : "Undile Paulinus noster, Nolensis episcopus, ex opulentissimo divite voluntate pauperrimus ett copiosissime sanctus, cum ab eis teneretur, sic in corde=

من ضيق هذا العالم ، مثلما يريح الموت حالات المرض الميئوس من علاجها . وأما الذين عاشوا بعد أوجاع المجاعة ، فإنهم لا بد وأنهم قد تلقنوا الدرس وعرفوا معنى الحرمان والحكمة من وراء الصيام (٩٢) . أما عن الذين قتلوا على يد الجرمان ، فإن الموت لهم أفضل من انتظاره ، كما وأن الموت كأس تشربه كل الخليقة ، وماذا يكون الفرق بين موت بالنار أو وفاة بالحمى ، أو أليس الموت المفاجئ أفضل من احتضار بطئ بعلة خبيثة ؟ وهل كان الذين ماتوا عند غزو روما سيخلدون لو لم يدخلها آلارك ؟(٩٣) أما عن الذين ماتوا ولم تدفن جثثهم ، فماذا يضير الشاة بعد ذبحها ؟ وهل كانت الطقوس الجنائزية التى تقام على جسد الموتى إلا لتعزية الأحياء ؟ كما وأن ما يصيب الجسد الميت من تشويه لن يؤثر فى قيام الأموات يوم الدينونة ، ليجازى كل إنسان كنحو أعماله (٩٤) . وعندما يتطرق أغسطينوس للحديث عن الأسرى الذين عانوا الهوان والمذلة على يد المتبربرين ، نجده يتلمس العزاء أيضاً من الأسفار القديمة : فلقد وقع دانيال أسيراً فى جب الأسود ، وبقى يونان حبيساً فى بطن الحوت ، وكان آريون سجيناً — فى الأساطير اليونانية — حتى أنقذته الدولفين . وبرغم هذا فإن المؤمن الصادق ليس أسيراً لأحد وإن كان مكبلا بأغلال الجلادين ، لأن الكل هم من أسرى هذا العالم الزائف . أما الحرية الحقة فهى فى الملكوت مع الصالحين وفى أحضان القديسين .

---

=suo, ut ab eo postea cognovimus, precabatur : "Domine, non excrucier propter aurum et argentum; ubi enim sint omnia mea, tu scis". Ibi enim habebat omnia sua ubi eum condere et thezaurizare ille monstraverat qui haec mala mundo ventura praedixerat. Ac per hoc qui Domino suo monenti obedierant, ubi et quo modo thezaurizare deberent, nec ipsas terrenas divitias barbaris incursantibus amiserunt'..

(٩٢) Ibid., I, 10 : "Multos, inquiunt, etiam Christianos fames diuturna vastavit. Hoc quoque in usus suos boni fideles pie tolerando verterunt. Quos enim fames necavit, malis vitae huius, sicut corporis morbus, eripuit; quos autem non necavit, docuit parcius vivere, docuit productius ieiunare."

(٩٣) Ibid., I, 12 : "Rident haec illi, contra quos defendendem suscepimus civitatem Dei. Verum tamen sepulturae curam etiam eorum philosophi contempserunt. Et saepe universi exercitus, dum pro terrena patria morerentur, ubi postea iacerent vel quibus bentiis esca fierent, non curarunt, licuitque de hac re poetis plansibiliter dicere :

"Caelo tegitur, qui non habet urnam".

(Lucam, Pharsalia, 7, 819).

(٩٤) Ibid., I, 12, 13.

أما عن المتبتلات اللائى يقعن فى الأسر ، فإنهن يجتزن أوقات حرجة ، ولذا فإنه ينبغى الصلاة من أجلهن والسعى لفديتهن من مخالب الشرير . على أنه من قلب هذا الشر البغيض فإن السماء تقدم لنا دروساً ومعجزات تواتر عنها كثير من الروايات : فلقد فضلت بعض الطاهرات الموت على النجاسة ، فقدمن بهذا المسلك درساً لاينساه أهل المبادئ النظيفة. وهنالك الدرس القديم الذى قدمته القديسة بيلاجيا فى انطاكية ، والتى كتب عنها الشىء الكثير كل من يوحنـــا ذهبى الفم والقديس امبروز [٩٥] . وبرغم مايقال ، فإن القديس أغسطينوس لا يقبل بفكرة الانتحار هروباً من تدنيس قد يلحق بالجسد ؛ لأن الجسد وعاء مائت ، وقد قال الكتاب : « لا تخافوا ممن يهلكون الجسد ، بل اهتموا لكى لا تقتل الروح » ، فالطهارة عند أغسطينوس ليست بالجسد وإنما هى بالروح [٩٦] .

ثم ينبرى الكاتب للرد على اتهامات الوثنيين القائلة بأن الشؤم قد ازم روما منذ دخول الديانة المسيحية إليها ، فيقول بأن الشؤم قد ارتبط بتاريخ الآدمية منذ وقوع الإثم الأول فى جنة عدن على يد آدم وحواء . وإنه لوقت لكى ينوح الإنسان على ماصنعت يداه ، ومنذ أن خرج آدم من الجنة طريداً ، بمحض اختياره عندما اختطف لذاته الحرام على الحلال ، وكتب عليه الشقاء بأن « بعرق جبينك تأكل خبزك حسكا وشوكا تنبت لك الأرض » . وتعرض البشر بعدها للطوفان والمجاعات والحروب ، التى كانت أشد ضراوة من حروب القوط التى تشهدها روما . كما وأن روما قد أحرقت مرتين من قبل على عهد الوثنية ، على يد الغال مرة ثم على يد نيرون الوثنى مرة أخرى . ويرى أغسطينوس أن الأشرار هم الذين يصنعون الإثم بأيديهم ، فيلوثون عصورهم بالشر ؛ ذلك لأن الخليقة كما جبلتها يد الله النقية كانت فى الأصل بلا عيب ولادنس ، ولكن الإنسان هو الذى اختطف لنفسه دنس الإثم يوم سقوطه الأكبر والأول . كما وأن الحروب كامنة فى ضمير الإنسان منذ القدم ، ففى عمق أعماقه تدور حرب ضروس بين الجسم والروح ، وهى حرب مدمرة أقسى من كل الحروب . والعالم المضطرب ــ عند الكاتب ــ هو صورة للإنسانية المضطربة

---

(٩٥) Ibid., I, 27.

(٩٦) Ibid., I, 18 : "Si autem animi bonum est, etiam oppresso corpore non amittitur. Quin etiam sanctae continentiae bonum cum immunditiae carnalium concupiscentiarum non cedit, et ipsum corpus sanctificatur,et ideo, cum eis non cedere inconcussa intentione persistit, nec de ipso corpore perit sanctitas, quia eo sancte utendi perseverat voluntas et, quantum est in ipso, etiam facultas".

أيضًا ، أما ضيقات العالم فهى العلامات على اقتراب النهاية ، وهى دروس ينبغى أن تنزع من قلوبنا حب هذا العالم وملذاته ، لأن الصلاح وحده هو المعيار للدخول فى رحاب « مدينة الله » وإن كانت روما قد سقطت ، فإن ذلك يعنى أن كل كائن هالك بما فى ذلك روما نفسها ، كما يعترف بذلك فرجيل أيضاً(٩٧) . ولقد نصت الكتب المقدسة على أن الأمم سوف تنقلب على الأمم ، والشعوب على الشعوب ، فتشتعل نيران الحروب وتشتد وطأة المجاعات . ويمضى الكاتب فيقول : لا تجزعوا أيها الأخوة ، إن كل الممالك الأرضية سوف تفنى ، وإن كان ما سقط فى روما ليس بالأمر الخطير : لقد التهمت النيران أخشاب وحجارة المبانى ووقع بشر مائتون ، وليس هؤلاء ولا أولاء بالإمبراطورية الرومانية كلها . أما إذا كانت رفات بطرس وبولس لم تشفع لأهـــل روما فى محنتها ، فإن مرد ذلك يعود إلى أن الرومان قد تجـــاهلوا هذين الشهيدين القديسين ، وتهافتوا على دنيا الملاهى والملذات الحرام ، ولا يمكن بحال أن يطالب القديسون بحماية الفجور والعهر .

وبرغم كل شىء فإن روما يمكن لها أن تبقى وتحيا لو أن أهلها عرفوا دروب الصلاح ، وما روما إلا أهلها . ولا يقبل أغسطينوس القول بأن البرابرة قد حطموا الإمبراطورية الرومانية وإلى الأبد ، ولكنه فى نفس الوقت لا يؤمن بأبدية روما فكل ما هو أرضى إلى زوال والدوام لله وحده(٩٨) .

---

(٩٧) Virgil, Aen., I, 278 - 79.

(٩٨) Augustine, Epist. ad Victorianum, CXI, 2; cf. Sermo, LXXXI, 8, in P.L., vol. XXXVIII, 503; Sermo CCXCVI, 7, 8, ibid., 1356; Civ. Dei, II, 2.

# الفصل الثالث

## غالة تحت أقدام المتبربرين

## من الوندال والآلان والقوط

رأينا فيما سبق كيف أن الأحداث التى مرت بإيطاليا دعت القائد ستيليكون إلى أن يستقدم عدة فرق رومانية من على حدود الراين لمساعدة روما فى محنتها أمام تحركات آلارك. وقد برر ستيليكون وكاتب سيرته الشاعر كلوديان هذا الإجراء بأن أمن العاصمة يأتى فى المقام الأول ، وأنه لا خوف على حدود الراين :

« إن الجند الذين كانوا يرابطون فى مواجهة السكمبرى الشقر ، وإن هؤلاء الصناديد الذين أذلوا قبائل الشاتى والشروسك الجامحة ، هاهم قد قدموا إلى إيطاليا لخدمتها بسيوفهم التى لا تقهر. أما الراين الذى سحبت منه تلكم الفصائل فإنه آمن عزيز يذود عنه اسم روما الذى يثير الرعب فى قلوب المتبربرين فيشل حركتهم. هل تصدق الأجيال هذا القول ؟ إن جرمانيا التى ماكفت عن الافتخار بجنسها ، والتى أجهدت الأباطرة القدامى حتى تقبع فى حدودها ، هى الآن منصاعة لأوامر ستيليكون ، ولا تجرؤ على التوغل عبر الحدود العارية من أى دفاع . . . »[٩٩] .

---

(٩٩) Claudian, De bello Getico, vs. 419 - 429 :

"agmina quin etiam tflavis obiecta Sygambris
quaeque domant Chattos inmansuetosque Cheruscos,
huc omnes vertere minas tutumque remotis
excubiis Rhenum solo terrore relinquunt.
ullane posteritas credet ? Germania quondam
illa ferox populis, quae vix instantibus olim
principibus tota poterat cum mole teneri,
iam esse placidam praebet Stilichonis habenis,
ut nec praesidiis nudato limite temptet
expositum calcare solum nec transeat amnem,
incustoditam metuens attingere ripam".

إن هذه الادعاءات من جانب ستيليكون وشاعره كلوديان كانت تنطوى على خطورة بالغة : حقيقة أن ستيليكون كان قد حقق قدراً من النجاح على زعماء القبائل الجرمانية عند حدود الراين سنة ٣٩٦، وذلك بتجديد المعاهدات التى أبرمها معهم من قبل الأباطرة قنسطانز وجراتيان وڤالنتنيان الثانى ، وأيضاً بإغراق زعماء تلك القبائل بالهدايا والهبات بعد أن سلموا إليه بعض الرهائن ضماناً لصدق نواياهم ، ولكن هذه السياسة لم تكن لتحسم الموقف بين الشعوب الجرمانية وبين الإمبراطورية الرومانية المتهاوية . ففى سنة ٤٠٧ عبرت جحافل جرمانية حدود الراين متوغلة إلى قلب غالة . ولم تكن هـــذه الجماعات من بين القبائل المستوطنة على ضفاف الراين ، والتى كانت قد هادنت ستيليكون فى سنة ٤٠١ ، وإنما كانت من جماعة الوندال . ولقد ظهر اسم الوندال من قبل فى « تاريخ » بلينى الأكبر ، وأيضاً عند المؤرخ تاكيتوس ، وهو اصطلاح لصيغة الجموع [١٠٠] . وهم أصلا من اسكنديناوة ، ويندرجـــون كشعب تحت اسم « لوغ » Luges ، المؤلف من فرعين : السيلونغ (Silingues) ، والاسدونغ (Hasdingues) ، والاسم الأخير مشتق من اسم أسرة عريقة هى أسرة « هاريس » (Haris) ، التى قال عنها تاكيتوس الآتى : « إن جماعة الهاريس قوم متوحشون ، وهم يضاعفون من وحشيتهم الفطرية باستخدامهم لحيل غريبة : فمجناتهم وتروسهم الحربية سوداء اللون ، كما أنهم يلطخون أجسادهم باللون الأسود أيضاً ، ولا يدخلون المعركة إلا فى قلب الظلام الدامس . وإنهم بلونهم الكالح هذا وبجيشهم القاتم السواد ، فى عتمة الليل ، يثيرون الرعب فى قلوب العدو . ولا أظن أن أحداً سواهم يمكن له أن يتحمل تلك التقاليد الغريبة التى تشبه الجحيم . كما وأنهم فى كل معركة يدخلونها يجعلون من عيون جند العدو هدفاً لرماحهم ، فيثيرون الذعر بين الصفوف » [١٠١] . عاشت جماعة الهاسدونغ طويلا فى منطقة غاليسيا ،

(١٠٠) Pliny, Historia Naturala, lib. IiV, XIV, 89 - 100, 1994 - 95: "Toto autem mari, ad Scaldim usque fluvium Germaniae accolunt gentes haud explicabili mensura: tam immodica prodentium discordia est... Germanorum genera quinque : Vandili quorum pars Burgodiones, Varinnae, Charivi, Gutones;..."

(١٠١) Tacitus, Germania, XLIII, 6, pp. 324 seq. : "Ceterum Harii super vires, quibus enumeratos paulo ante populos antecedunt, truces insitae feritati arte ac tempore lenocinantur : nigra scuta, tincta corpora; artas ad proelia noctes legunt ipsaque formidine atque umbra feralis exercitus terrorem inferunt, nullo hostium sustinente noveum ac velut infernum adspectum; nam primi in omnibus proeliis oculi vincuntur".

بينما استقرت جماعة السيلونغ فى إقليم سيليزيا . ثم تحركت الهاسدونغ إلى الوادى الأعلى لنهر ثيس (Theiss) ، وهو سلوفاكيا حالياً ، ومن هناك بدأت تحرشاتهم ضد الدولة الرومانية ، فهاجموا إقليم بانونيا ، ولكن الإمبراطور أورليان تصدى لهم سنة ٢٧٠ م . ثم هجم السيلونغ بدورهم على الأراضى الرومانية ، ولكن بروبوس تصدى لهم سنة ٢٧٨ م . بعد هذا انقضت قبائل القوط الغربية على جماعة الوندال فمزقت شملهم ، واستصرخ زعماء الوندال الإمبراطور قسطنطين العظيم لكى يسمح لهم بالاستقرار فى بانونيا ، على الضفاف اليمنى لنهر الدانوب ، فى خدمة الدولة الرومانية ، فسمح لهم بذلك (١٠٢) .

على أنه عند مطلع القرن الخامس اضطرت جماعة الهاسدونغ إلى الرحيل تجاه الغرب ، هروباً من ضغوط قبائل الهون Huns المغولية التى وصفت بالجبروت .

وزحف الوندال ، وظهورهم تصلى بضربات الهون ، على الطريق الذى يتبعه مجرى الدانوب قبالة منابعه . وهربت فى معيتهم جماعات أخرى فارة من وجه الهون أيضاً ، وهى قبائل الآلان (Alans) . ولقد ترك لنا المؤرخ اميانوس مارسللينوس وصفاً دقيقاً للآلان فى الآتى : « إن الآلان قوم يتميزون بالرشاقة . إن شعورهم شقراء للغاية ، وعيونهم تنم عن ولع شديد بالحرب ، ولكنها لا تنم عن توحش . أما عن خفة حركتهم فى الهجوم ، فإنهم لا يقلون فى هذا عن جماعة الهون . . . وهم يتلذذون بالحروب ، و يهللون لها سروراً ، و يقبلون عليها دون خوف ، بل إنهم يستبشرون بها كل الخير . والرأى عندهم أن الموت فى ميدان القتال هو غاية ما يصبو إليه الواحد منهم . أما الموت بسبب الشيخوخة أو حادث ما فهو علامة على العجز ومجلبة للعار . ومنابع الافتخار عندهم تكمن فى ارتكاب جرم كبير أو قتل محارب مرموق ، فذلكم هو الحدث الذى يحتاج إلى قريض الشعراء لروايته . وأعظم ما يحلم به المقاتل الآلان هو أن يحصل على فروة رأس خصمه وقد سلخت عن لحمه ، لكى يستخدمها زينة لجواده فى وقت المعارك . وهم لا يعرفون المعابد ولا المحاريب ، ولا حتى مشكاة مغطاة بالقش . ورمز إله الحرب عندهم هو السيف المجرد الذى يدفن فى بطن الأرض وفق التقاليد المتبربرة وهم يبجلون الإله مارس كسيد على كل الأراضى التى

(١٠٢) Jordanés, Op. cit. V, 1, p. 88.

يسيطرون عليها » (١٠٣) .

كانت قوات ستيليكون تقف بالمرصاد ، وقد منعت قوات الآلان من عبور رائيتيا قبالة إيطاليا ، ولكنهم نجحوا بالمفاوضات فى الحصول على معاهدة بأن يصبحوا جنداً « معاهدين » للدولة الرومانية (١٠٤) . وفى سنة ٤٠٦ إنضمت جماعات من السويف والسيلونغ إلى الآلان ، وزحف جميعهم بخط شمالى غربى فى محاولة لعبور نهر الراين . وكان الآلان أول هذه القبائل فى الوصول إلى الراين ، غير أن فرقة منهم بقيادة زعيم اسمه جوسار (Gosar) هجرت المعسكر الجرمانى وانضمت إلى المعسكر الرومانى . وهب الفرنجة (Franks) ، وهم حلفاء الدولة الرومانية ، لصد الإغارات المهددة للشاطئ الأيمن للراين ، ونجحوا فى إيقاف زحف الآلان ، ثم انقضوا على جماعة الهاسدونغ فأبادوا منهم عشرين ألفاً وسقط ملكهم صريعاً فى الميدان . ولكن الآلان سرعان ما انتقموا لهذه الهزيمة فى منطقة ماينس (Mayence) ، وزحفوا مع حلفائهم من السويف والوندال فحطموا حواجز الراين فى ٣١ ديسمبر ٤٠٦ ، وبدأوا فى إخضاع بلاد الغال . ولقد دمرت مدائن الراين على يد هؤلاء الغزاة الجدد : وسقطت ماينس وتريث ، وهلك فيهما خلق كثيرون وهم يصلون داخل الكنائس . ثم هجم البرابرة على تورناى وثيروان (Therouanne) وأراس وإميان وريمز .

(١٠٣) Ammianus Marcellinus, Res Gestae, XXXI, 2, 21 - 25, pp. 393 seq. :

"Totius autem sementem exitii et cladum originem diversarum, quos Martius furor incendio insolito miscendo cuncta concivit,hanc comperimus causam... Proceri autem Halani paene sunt omnes et pulchri, crinibus mediocriter flavis, oculorum temperata toruitate terribiles, et armorum levitate veloces, Hunisque per omnia suppares, verum victu mitiores et cultu, latrocinado et venando ad usque Maeotica stagna et Cimme rium, Bosporum, itidemque Armenios discurrentes, et Mediam. Utque hominibus quietis et placidis otium est voluptabile, ita illos pericula iuvant et bella. Iudicatur ibi beatus, qui in proelio profuderit animam, senescentes „enim et fortuitis mortibus mundo digressos, ut degeneres et ignavos conviciis atrocibus insectantur, nec quicquam est quod elatius iactent, quam homine quolibet occiso, proque exuvii gloriosis interfectorum, avulsis capitibus, detractas pelles pro phaleris inumentis accomodant bellatoriis. Nec templum apnd eos visitur aut delubrum, ne tugrium quidem culmo tectum cerni usquam potest, sed gladius barbarico ritu humi figitur nudus, eumque ut Martem' regionum quas circumcolunt..."

(١٠٤) Claudian, De bello Getico, vs. 414 - 415 :

"adcurrit vicina manus, quam Raetia nuper
Vandalicis auctam spoliis defensa probavit;.."

وتقول الروايات إن أسقف ريمز لم يقبل على نفسه الفرار مع الفارين من وجه الالآن والوندال ، فوقف شامخاً فى فناء كاتدرائية مريم هو وأخته الراهبة يوتروبيا ، يوم أن اقتحم العدو أسوار مدينة ريمز . وكان الاثنان ينشدان الترانيم الدينية فى صوت جهور ، فهجم واحد من البرابرة عليهما وضرب الأسقف بسيفه فقطع رأسه . وجن جنون يوتروبيا أخته ، فقفزت كالمخبولة على القاتل ولم تتركه إلا وقد انتزعت عينيه بأصابعها ، فهجم عليها البرابرة ومزقوها إرباً . وكان الوندال وحلفاؤهم يقتحمون الكنائس بوجه خاص ، لنهب ما فيها من كنوز وذهب . وبعد أن خربوا مدينة ريمز حتى لم يبق فيها من ينوح عليها ، خرج الوندال عنها وقد أمست ركاماً من القتلى والخراب (١٠٥) .

بعد هذا تدفق الوندال على ميونغ — سير — لوار ، ثم ساروا جنوباً صوب بوردو وبامبلونا على مقربة من جبال البرانس . وكانت بعض الفرق الرومانية ترابط عند البرانس ، ولكن هذا لم يمنع الوندال من الانتشار فى سهول ناربون . ولم يقو على الوقوف فى وجه الوندال من سائر مدن غالة الجنوبية سوى مدينة تولوز ، التى أغلقت بواباتها ، بإيعاز من أسقفها الشجاع اكسوبير (Exupére) . وكان هـذا الرجل متقدماً فى السن ولكن هذا لم يقلل من عزمه فى مواجهة الموقف الحرج ، ونجده يقوم ببيع أدوات الطقوس الكنسية من الفضة ليشترى بأثمانها غلالاً يقتات عليها فقراء المدينة . ولقد أبدى القديس جيروم إعجابه بموقف اكسوبير فى الآتى : « فى وسط مآسى الوقت وبين معترك السيوف التى كانت تطيح بالأعناق من كل جنب ، كان لا يمكن الإفلات من الموت جوعاً إلا إذا كان الواحد على ثراء فاحش . ولكى يفلت المرء من الأسر كان لابد له من مال وفير . وفى قلب هذا الجو المخيف وقف الأسقف القديس اكسوبير فى بلدته تولوز نفس الوقفة الشجاعة التى وقفتها فى القديم أرملة ساربتا (Sarepta) ، فى تحمل الجوع لكى يطعم المعوزين . لقد كان أنين الآخرين يمزق ضميره ، ولم يدخر الرجل شيئاً له إلا وقد وزعه على الفقراء . إنى لا أجد سيرة أغنى بالروح من سيرة هذا الرجل الذى ضحى بجسده وبدمه فداء لأهل بلدته » (١٠٦) .

ولم تنج مدينة فى غالة من جرم الوندال ، فدمروا ڤايين (Vienne) وبوردو وألبى

(١٠٥) Flodorad, Historia Remenis eclcesiae, I, 6, in M.G.H.SS., vol. XIII, p. 419.

(١٠٦) Jerome, Epistula ad Rusticum, CXXV, 20.

(Albi) وأنجوليم (Angoulême) وكليرمونت وكاهــور (Cahors) وبرجيوه (Perigueux) ، وظلوا يعيثون فساداً فى تراب الغال لمدة ثلاثة أعوام . ثم قرروا بعدها العبور إلى إسبانيا عبر جبال البرانس . ولقد ساعد الوندال على العبور إلى إسبانيا حقيقة تمزق الدولة الرومانية عسكرياً . فبرغم ما كان يتهدد الولايات من أخطار على أيدى القبائل الجرمانية المتتالية ، انتهزت الفصائل الرومانية المعسكرة فى بريطانيا الفرصة وأعلنت واحداً من رجالها هو قسطنطين الثالث إمبراطوراً ، وراح هذا ينازع الإمبراطور الشرعى العاجز هونوريوس على العرش . وأبحر قسطنطين الثالث من بريطانيا إلى بولون ، وجمع حوله بقايا الجيش الرومانى فى شمال غالة ، ثم أبرم معاهدات مع زعماء الفرنجة والألمان والبرغنديين ، لكى يقوم هؤلاء بحماية حدود الراين .

وفى نفس الوقت أرسل ابنه قنسطانز إلى إسبانيا لكى يقبض على الضباط الموالين لهونوريوس ، ولكى يقوم بفرقة من رجاله بالسهر على ممرات البرانس لصد عبور الوندال . غير أن بعثرة الجهود الرومانية على هذه الشاكلة بسبب الصراع على التاج ، إلى جانب التآمر على أتباع هونوريوس من رجال الجيش ، قد حقق الفرصة المواتية للوندال فى الإفلات عبر ممرات البرانس إلى إسبانيا . يضاف إلى هذا أن العناصر المتبربرة التى استعان بها قنسطانز ضد الإمبراطور الشرعى هونوريوس ، قد استغلت الظروف وأخذت فى نهب البلاد . ولما أن حاول قنسطانز إلزامهم بالانضباط تمردوا عليه وانضموا إلى معسكر الوندال [١٠٧] .

دخل الوندال إسبانيا دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ، ووجدوا أمامهم أراض شاسعة بلا سيد ، فاستولوا عليهــا جميعاً ، ماعدا تراكونزيا (Traconaisia) ، ودانت لهم غاليسيا ولوزيتانيا وكارثاجينيا وبايتكا . ولقد أصيب الرأى العام فى الشمال الأفريقى بالذعر عندما وصلت أنباء سقوط إسبانيا فى أيدى الوندال ، وقد سجل المؤرخ المعاصر إيداس (Idace) وقائع أحداث سنة ٤١٠ فى الآتى :

« انقض البرابرة على بلدان إسبانيا ، وضرب الناس بوباء الطاعون ، ونهب الطغاة ثروات الناس ، الظاهر منها والمخفى ، ووهنت قوة الجند الرومان . ووقعت مجاعة مخيفة ،

---

(١٠٧) Orosius, Historia, VII, 40, 8.

حتى إن البعض لم يتعففوا عن أكل لحوم البشر ، وقد اتهمت بعض الأمهات مواليدهن ، وكان آخرون يأكلون جثث الموتى . لقد ابتليت البلاد بضربات أربع : ضربة الحديد ، وضربة الجوع ، وضربة الطاعون ، ثم ضربة الوحوش الكاسرة . لقد بات واضحاً أن نبوءات الأنبياء قد تحققت »[١٠٨] .

لم تكن السلطات الرومانية فى إسبانيا على مستوى المسئولية ، فعندما هجم الوندال على البلاد فر الكثيرون من رجال الحكومة والأساقفة عن المدن والقرى إلى الشمال الأفريقى ، تاركين الأهالى لمصيرهم التعس ؛

إن تحرك الوندال من جنوب غالة عبر البرانس كان بسبب التهديد لمؤخرة جيش الوندال من جانب القوط الغربيين ، الذين تركوا إيطاليا وزحفوا على جنوبى بلاد الغال : فبعد وفاة آلارك فى مدينة كلابريا ، خلفه على عرش القوط الملك أتولف . وقد تخلى أتولف عن مشروع آلارك فى العبور من إيطاليا إلى شمال أفريقيا ، ولم تعد إيطاليا بعد أن نهبت من خيراتها بكافية لإشباع جشع القوط ، ولذا فإن أتولف قرر الزحف إلى شمال إيطاليا والعبور إلى غالة . وقد عرض أتولف خدماته على مغتصب للعرش اسمه جوفان فى بلدة ماينس ، ولكن جوفان رفض العرض . اتصل أتولف بالإمبراطور الشرعى هونوريوس ووعده بالقضاء على خصمه جوفان ، وبالفعل تمكن الزعيم القوطى من الإيقاع بجوفان عند بلدة فالنس سنة ٤١٣ . بعد هذا دب الخلاف من جديد بين هونوريوس وأتولف ، لأن الإمبراطور رفض الاعتراف بالقوط كجند « معاهدين » . ولذا فإن أتولف ضرب حصاراً حول مدينة مرسيليا ، التى كانت فى حراسة الكونت بونيفاس ، ثم هجم القوط أيضاً على مدينة ناربون واستولوا عليها وتبعتها تولوز وبوردو . وبعد تلك الانتصارات المتتالية ، رغب أتولف فى أن يترفق فى علاقاته مع الإمبراطور الرومانى ، والمعروف أن الأميرة جالابلاسيدا شقيقة هونوريوس كانت لا زالت أسيرة فى أيدى القوط . ويبدو أن أتولف قد أولع بالأميرة الرومانية فقرر الزواج منها . وقد تم الزفاف الميمون فى مدينة ناربون على الطريقة والتقاليد الرومانية . ولمعت فى الحفل المهيب أكوام من الذهب والأحجار الكريمة التى كان القوط قد نهبوها من روما سنة ٤١٠ م . وفى تلك المناسبة السعيدة أعلن أتولف عن نواياه الطيبة تجاه صهره الإمبراطور الرومانى فتحدث فى أدب

(١٠٨) Idace, Chron. ann. 410, c. 48, in M.G.H., Auct. ant., vol. XI, p. 17.

جم عن الحضارة الرومانية . ولقد وصلتنا عبارات نسبت إلى أتولف فى كتابات المؤرخ أوروزيوس ، الذى يقرر بأن واحداً من شاهدى العيان من أهالى ناربون قد نقل هذه العبارات إلى القديس جيروم أثناء إقامته فى بيت لحم : « قال أتولف لمن حوله بأنه كان قد نذر بأن يقضى على كلمة « الرومان » تماماً من على وجه الأرض ، وأن يحول التراب الرومانى إلى مملكة قوطية ، وأن يصبح هو نفسه قيصراً وأغسطساً . غير أن التجربة قد علمته بأن القوط قوم لا يمتثلون لقانون وذلك بسبب طبعهم المتبربر الذى لا يعرف الحدود . وهو على هذا لا يريد أن يلغى القانون من الدولة ، لأنه بدون القانون لا تكون هنالك دولة حقة ، وعليه فإنه قد قرر أن يستخدم قوة القوط من أجل الحفاظ على حضاوة الرومان ، حتى تذكر له الأجيال اللاحقة بأنه هو الذى أعاد الكيان إلى روما بعد خرابها . وهو لكل ذلك لن يقدم على الحرب ضد الرومان ، وإنما سوف ينشد السلام »(١٠٩) .

إن هذه الكلمات الرقيقة للزعيم القوطى أتولف عن الحضارة الرومانية تخفى وراءها دهاء صاحبها ، ويبدو أنه كان يخطط لكى يرفع على العرش الرومانى إبناً قد يرزق به من دم إمبراطورى عن طريق جاللا بلاسيدا . ولكن الإمبراطور هونوريوس قد غضب من زواج أخته بهذا الزعيم المتبربر ، وقرر معاقبة القوط بضرب حصار حول ساحل البحر الأبيض المتوسط للتضييق عليهم فى جنوب غالة . رد أتولف على إجراءات هونوريوس بأن عقد حلفاً مع أتالوس وأعلنه امبراطوراً فى بلدة بوردو ، ثم قام بتدمير بوردو وبازاس وناربون ( سنة ٤١٥ ) ، وقرر العبور بشعبه إلى إسبانيا .

وعبر القوط الغربيون إلى إسبانيا وفى معيتهم العجوز أتالوس . وبعد وفاة أتولف اعتلى العرش زعيم اسمه ڤاليا ، الذى قاد شعبه إلى الجنوب الإسبانى . ثم قرر ڤاليا أن يبحر وشعبه إلى الشمال الأفريقى ، ولكن عاصفة عطلت عليه رحلته ، فعاد بسفنه إلى إسبانيا . وفتح ڤاليا المفاوضات مع الإمبراطور هونوريوس ، يعرض خدماته عليه ، ويبدى استعداده لإطلاق سراح جاللا بلاسيدا مقابل ٦٠٠ ألف مكيالاً من القمح ، كما تعهد بأن يخضع إسبانيا للحكم الرومانى . أمام هذا التغيير فى السياسة القوطية ، أدرك العجوز أتالوس الخطر الذى يهدد حياته ، فهرب من معسكر القوط بحراً ، ولكنه وقع فى أيدى رجال هونوريوس ، الذين أرسلوه مقيداً إلى سيدهم . وحكم الإمبراطور عليه بالنفى إلى جزر

(١٠٩) Orosius, op. cit., VII, 43, 5 - 7.

ليبارى ، بعد أن قطع له إصبعين (١١٠) .

نجح ڤاليا فى تحقيق أحلامه فى إسبانيا فى سرعة مذهلة : فقد هجم على جماعة السيلونغ وأبادهم ثم أسر ملكهم ، وبعدها هجم على الآلان ومزق قوتهم إلى حد أن من تبقوا منهم لم يتمكنوا من إقامة كيان خاص بهم ، فانضموا إلى جماعة الهاسدونغ ، وتحركوا معاً صوب الجنوب الإسبانى سنة ٤١٧ م .

أما عن هونوريوس فإنه قد تمكن بفضل جهود قائده قنسطانز من أن يسحق كل خصومه ، وقد كافئ قنسطانز بالقنصلية سنة ٤١٧ م كما أنه زوجه من شقيقته جالّلا بلاسيدا التى كان القوط قد أطلقوا سراحها . وأقيمت الاحتفالات وأقواس النصر فى مدينة آرلس فى غالة على شرف قنسطانز ، وشعر هونوريوس بالتفاؤل لمستقبل الإمبراطورية الرومانية .

وتتضح روح التفاؤل من واقع كتابات اثنين من المعاصرين هما روتليوس ناماتيانوس وأوروزيوس ، اللذان سجلا انطباعاتهما عن أحداث الخمسة عشرة عاماً المنصرمة حتى سنة ٤١٧ . وبرغم اختلاف فلسفة كل من الكاتبين ، فالأول وثنى والآخر مسيحى ، إلا أنهما يتفقان حول نقطة واحدة ألا وهى التطلع نحو عهد سلام رومانى جديد يشرق على روما الخالدة بعد عناء شديد دام خمسة عشر عاماً . وروتليوس أصلا من مواطنى غالة ، وقد اضطر أمام إرهاب القوط إلى الهجرة إلى إيطاليا ، وبعد أن زالت غمة القوط عن غالة ، حن الرجل إلى موطنه الأصلى ، ولكنه حزين على فراق روما : « ياسوء حظى ! ها أنذا أرحل عن بلاد عزيزة على نفسى ، فإن بلادى فى غالة تنادينى . حقًا لقد شوهت معالم بلاد الغال بفعل الحروب المتواصلة ، ولكنها بعد أن تلف جمالها باتت مستوجبة لعطفنا وحبنا . إن الهجرة عن الموطن الأصلى إثم كبير ، ولكن زحمة الحياة ولقمة العيش أمور لا يمكن لنا أن نتنصل عنها فى معترك الحياة اليومية . لقد آن الأوان لكى ننوح على طلول أجدادنا . . . ماذا أملك أن أقول ؟ إن الينابيع لو نطقت ، والشجيرات لو أفصحت عن أحاسيسها لراحت تؤنبنى على تكاسلى فى العودة إلى أرض الوطن » (١١١) . ويؤكد الشاعر روتليوس أن روما قد أصيبت بجراح دامية ، ولكنه لا يشك لحظة فى خلود المدينة ، لأنها

(١١٠) Ibid., VII, 42, 2.

(١١١) Rutilius Namatianus, De reditu suo, I, vs. 19 - 31.

صورة للكون برمته وهو فى أتم حالات الانسجام ، وهو موقن بأن روما بعد كل كبوة تقوم من عثرتها لتحرز المجد ، كما يشهد بذلك التاريخ :

« إرفعى أكاليل الغار التى تتوج جبينك يا روما ، وهيا أعيدى الشباب إلى هامتك المقدسة فى ظل الورق الأخضر النضير . . لعل النسيان الكامل يطمس آلام الجراح التى ألمت بك فى لحظة شؤم ، ولعل احتقار الألم يخفف من آثار الكلوم . أى روما ، إنك فى كل أحلامك كنت تعددين انتصاراتك ، فأنت كالسماء تملكين أكثر مما تعطين . إن نار النجوم وهى تخبو تعد لنجوم أخر لكى تسطع من جديد ، كما وأن القمر ينهى دورته ليبدأها من جديد . لقد زال برنوس ( من غالة ) الغازى ، وسقط السامنيون من بعده وانهار بيروس ، ثم دارت الدائرة على هانيبال نفسه ، وجاء اليوم الذى كان فيه نادماً على انتصاراته »[١١٢]. إن روما ، فى رأى هذا الشاعر ، باقية ما بقيت السماء ونجومها ، ولن يفت فى عضدها وندال ولاقوط ولا برغنديون ، وستظل معابد الآلهة قائمة شامخة ، وستبقى الموارد وفيرة . ولكن الشاعر ينصح بأن تجاهد روما من جديد لإعادة البناء المتصدع ، حتى تأخذ دورها الذى رسمته لها الآلهة منذ القدم ، مانعاً لا يلين ضد عدوان المتبربرين . ويختتم ناماتيانوس قصيدته بتجريم ستيليكون ، فيتهمه صراحة بالخيانة والتواطؤ مع البرابرة ، وهو لا يغفر له إحراق الكتب السبللينية[١١٣].

أما أوروزيوس فهو مفكر مسيحى ، كتب كتاباً بعنوان « التواريخ ضد الوثنيين »[١١٤] وقد جاء تفسيره للأحداث مخالفاً لتفسير شاعرنا السابق ، كما أن كتاب أوروزيوس مختصر للغاية ، وهو فى واقع الأمر قد كتبه استجابة لرجاء من القديس أغسطينوس ، وكان الهدف الأساسى من كتابته لاهوتياً فى المقام الأول : كان الوثنيون وما فتئوا يكيلون الاتهامات ضد المسيحية على أنها المسئولة عن سقوط روما ، ودللوا على أقوالهم بأن تدمير المعابد وإبطال تقدمة الأضحيات كان سبباً فى حلول الهزيمة ، لأن هجر الطقوس الوثنية قد حرم الرومان من قراءة الغيب عن طريق وحى الآلهة .

ولكن أوووزيوس يفند هذه النظرية الوثنية ، موضحاً أن ما حل بروما من هزائم

(١١٢) Ibid., vs. 115 - 128.

(١١٣) Ibid., vs. 133 - 154.

(١١٤) Orosius, Historiae adversum paganos.

لم يكن جديداً على تاريخها ، فلطالما لقيت المدينة من هزائم فى ظل الآلهة الوثنية قبل مولد المسيح بزمن بعيد . كما أن سجلات التاريخ تشير إلى أن القواد وعظماء الملوك القدامى لم يكونوا فى حقيقة الأمر أكثر من غزاة متبربرين ، قدر لهم النجاح فازدحمت على سيرهم مدائح المنافقين :

هل كان الإسكندر الأكبر فى نظر أهل المشرق أكثر من عدو غاز ؟ وهل كان الرومان أنفسهم إلا أعداء ألداء ومتجبرين بالنسبة للشعوب الآمنة التى نكبت بتوسعات الرومان على حين فجأة ؟(١١٥) ويمضى أوروزيوس ليقول بأن غزو الوندال لإسبانيا ليس بأشد قسوة على الإسبان من وطأة الغزو الرومانى لنفس البلاد منذ قرنين من الزمان . لماذا إذن توضع المسيحية فى قفص الاتهام عندما يعدد الرومان نكباتهم ، وهم ينوحون على الآلهة الوثنية وعهودها الذهبية ؟ لئن كان هنالك شىء ينبغى للرومان أن ينوحوا عليه فهو فى فجورهم ولهوهم فى السيرك ، وهو فى أوثانهم التى امتصت دماء العسكرية الرومانية وعودت الشعب على الدعة والتواكل وإدمان الفحش والعهر . إن الغزو القوطى لروما — عند نفس القلم — إنما هو عقاب سماوى للرومان . لقد سقط الإمبراطور ڤالنس صريعاً من قبل تحت أقدام القوط ، عقاباً إلهياً له على هرطقته الأريوسية . أليس هو المسئول عن إدخال تلك الهرطقة إلى جنس الجرمان جميعاً ، ألم يضطهد الرهبان وأبناء الأرثوذكسية القويمة ؟ ثم يقارن الكاتب بين مسلك رداغاز القوطى الوثنى وبين مسلك آلارك القوطى المسيحى : لقد نذر رداغاز دماء الرومان لآلهته الوثنية ليسفكها على محرقات مذابحها ، وكان يتعطش للقتل بشهوة القتل لذاتها ، فلو أنه قدر لهذا الوثنى الانتصار وذبح الرومان ، فهل كان أهل الوثنية فى روما يتهللون فرحاً بانتصاره ؟ وهل أفاد الوثنيون شيئاً عندما هبوا ينحرون الأضحيات للآلهة ، يوم أن كانت حوافر خيول رداغاز تدق أبواب المدينة ؟ لقد كان رداغاز يقدم الأضحيات لهذه الآلهة بذاتها وهو يكشر بأنيابه ضد الرومان . إن الرب وحده هو الذى شمل روما بالعناية العلوية وكتب لها الخلاص من أيدى رداغاز ، ثم قضى بالهلاك عليه وشعبه جميعاً . وفى ذلك برهان على انتصار روما المسيحية وليست روما الوثنية (١١٦) .

---

(١١٥) Ibid., VII, 33 - 41.

(١١٦) Ibid.

أما آلارك فقد كان أداة لإنزال العقاب على روما بسبب ما تردت فيه من جرم وآثام . ولقد تمكن هذا القوطى من اجتياح الأرض الرومانية بفعل الخيانة والتآمر من جانب روفينوس وستيليكون . ولم تكن موقعة پوللنتيا — كما يزعم البعض — نصراً لروما ، وإنما كانت هزيمة لها ، جرها على البلاد القائد شاول الملحد الذى لم يحترم قدسية يوم الفصح . كما وأن آلارك لم يكن يسعى إلا وراء الذهب والفضة ، ولم يكن يُرغب فى سفك الدماء ، ولا يخفى على أحد أن القوط لم يقدموا على القتل بعد أن نهبوا روما من كنوزها ، ولقد احترموا اللاجئين إلى الكنائس ، ولم يقتلوا أعضاء السيناتو مثلما فعل أهل الغال فى القديم ، يوم أن كانت الوثنية فى عزها فى روما . إن يد الله وحدها هى التى أنقذت أرواح الرومان من هلاك محقق ، وذلك حتى يتمجد اسم الرب . وبرغم كل هذه المحن خرجت روما معافاة من كبوتها ، وما القصاص إلا درس لمن يتذكر . ويرى أوروزيوس فى زواج الأميرة جاللا پلاسيدا من أتولف القوطى بادرة خير للرومان لأن هذه المصاهرة حدت بالزعيم القوطى إلى القيام بخدمة المصالح الرومانية . ويختم الكاتب أطروحته بقوله « لئن كان انتشار البرابرة على أرض الرومان يؤدى إلى أن تمتلأ الكنائس بأبناء هذه الأجناس ، من هون وسويف ووندال وبرغنديين ، فإنه ينبغى علينا أن نقدم الشكر للسماء على هذا الفضل العظيم» (١١٧) .

---

(١١٧) Ibid.

# الفصل الرابع

## القوط الغربيون بين غالة وإسبانيا

## تحركات الهون ـ البرغنديون

كانت السلطات الرومانية قد سمحت لقبائل القوط الغربيين بالاستقرار فى منطقة أقطانيا ، ما بين اللوار والجارون كجند « معاهدين » ، وذلك بعد أن أحرز القوط انتصاراً هائلا على قبائل الوندال . وفى نفس الوقت حرصت السلطات الرومانية على قطع جماعة القوط عن ساحل البحر الأبيض المتوسط ، حفاظاً على السيادة الرومانية على ذلك البحر . غير أن القوط كانوا يتلقون من السلطات الرومانية أنصبة من « الجرايات » لأنهم كانوا جنداً « معاهدين » فى خدمة الدولة . وفى بداية الأمر كان أهل غالة يرون فى القوط خداماً للدولة الرومانية ، غير أنه عندما راح القوط يعاملون الأراضى التى وقعت تحت أيديهم كأراض مفتوحة ، بدأ السخط بين أهالى غالة ضد القوط الغربيين .

وقد رأى الحزب المعادى للقوط فى البلاط الرومانى ضرورة تقليم أظافرهم ، وازداد سوء الظن عاماً بعد عام بملك القوط الغربيين المستقر فى تولوز . وأخذت أصابع الاتهام تشير إلى الأميرة جاللا پلاسيدا بأنها على اتصال سرى بالقوط ، فقد كانت زوجة لملكهم أتولف من قبل . وقررت السلطات نفى الأميرة ، ثم انتهى بها المطاف إلى القسطنطينية فى عام ٤٢٣ م .

لم تكن مخاوف السلطات الرومانية من نوايا القوط الغربيين على غير أساس ، فالواقع أن ملك القوط فى تولوز كان يخطط لإعلان استقلاله بالأرض التى استقرت عليها جماعته ، فهو يجبى الضرائب لخزانته فى جرأة وتحد للسلطات الرومانية ، وهو دائماً يرنو بأبصاره عبر البرانس ، كما أنه لا يكف عن التحرش بساحل البحر المتوسط ، بالإضافة إلى حملاته المتكررة ضد ناربون . وقد انتهز ثيودريك الأول فرصة القلاقل التى أعقبت وفاة الإمبراطور هونوريوس ، فزحف مرتين على مدينة آرلس ( ٤٢٥ ٤٣٠ م ) كما

جرد حملة بعد ذلك ضد ناربون . ولكن هذه الحملات الثلاث باءت بالفشل ، وذلك بفضل جهود القائد الرومانى ليتوريوس ، الذى أجبر القوط على رفع حصارهم عن ناربون ، ثم طاردهم حتى أسوار عاصمتهم تولوز . واضطر ثيودريك إلى فتح باب المفاوضات مع ليتوريوس ، مستعيناً فى هذا بوساطة بعض الأساقفة الكاثوليك كسفراء له إلى بلاط الملك القوطى . ولكن ليتوريوس طرد السفراء وأعلن الحرب على ثيودريك ، غير أن الدائرة دارت عليه وهزم ثم وقع أسيراً فى أيدى خصمه ، وظل فى الأسر القوطى حتى مات سنة ٤٣٩ م

كان من بين السفراء الذين طردهم القائد الرومانى أسقف يدعى أورنز دوش (Orens d'Auch) ، ونحن نعلم أن هذا الأسقف الكاثوليكى كان ممتناً على النصر الذى أحرزه القوط على بنى جلدته الرومان ، ربما بدافع التملق لضمان بعض الامتيازات للكنائس الكاثوليكية القائمة على الأراضى التى كان يسيطرون عليها فى غالة [١١٨] . ومن ناحية أخرى ، كان القوط يحاولون من جانبهم كسب تأييد الأساقفة الكاثوليك وبعض النبلاء من أهالى البلاد لقضيتهم :

ومن بين هؤلاء نبيل رومانى يدعى أفيتوس ، الذى كان يخدم فى بلاط القوط ، وقد أوفده ثيودريك سفيراً له إلى البلاط الرومانى للتفاوض على إطلاق سراح والد الملك ، ثيودورس ، الذى كان رهينة فى أيدى السلطات الرومانية منذ عام ٤١٨ م . كما عمل أفيتوس مربياً لولى العهد القوطى ، ثيودريك الثانى ، فعلمه قراءة اللاتينية وأعمال فرجيل وعرفه على القانون الرومانى . ويبدو أن أفيتوس هذا هو الذى شفع لمدينة ناربون وقت حصارها ، فاستجاب الملك القوطى لتوسلاته ورفع الحصار عنها .

فى سنة ٤٤٠ م كتب واحد من رهبان جرمانيا الرومانية هو سالفين دى ليرنز (Salvien de Lerins) مقولة بعنوان « حكم الله » [١١٩] ، يدافع فيها عن العناية الربانية ، بعد أن راح الناس يطرحون عدة تساؤلات أثارت الشكوك فى نفوس الكثيرين : من قبيل ذلك التساؤل فيما إذا كان كل ما يقع من أحداث هو فى الحقيقة من صنع السماء ، وإذا كان الأمر كذلك ، وقد وعد الله أبناءه المؤمنين بالنصر ، فكيف تفسر غلبة

(١١٨) Vta S. Orientii, c. 3, in Acta Sanctorum, p. 63.

(١١٩) Salvien, De gubernatione Dei, (ed. Pauly).

البرابرة على الرومان ؟ ولو سلمنا بأن الرومان قد وقعوا فى بعض الآثام ، فإنهم برغم هذا لا يزالون أفضل من البرابرة خلقاً ، لأن البرابرة يرتكبون أقبح الآثام كل يوم .

لقد فكر الكاتب سالڤين طويلا ليجد مخرجاً مقبولا لهذه الحيرة التى باتت تؤرق المفكرين ، كما أنه راح يلتمس إجابة تتبرر بها حكمة السماء فى تصريف شئون الخليقة : يقول الكاتب بأن ما حل بالرومان من خراب إنما هو قصاص سماوى يستحقه الرومان بسبب آثامهم . وهو يعدد تلك الآثام : من ضعف فى الجيش ، واعتماد على العناصر المرتزقة ، وإفلاس فى الخزانة ، وجشع عند جامعى الضرائب ، وصراع بين الطبقات ، وجبن بين الشباب ، وفساد بين أفراد الطبقة العليا ، وانحلال خلقى بغيض . إن هذا التفسير قد يكون مقبولا ، لو أن خلق المجتمع الجرمانى المتبربر كان أفضل من خلق المجتمع الرومانى ومن ثم فإن سالڤيان يمضى ليؤكد أن أخلاقيات المجتمع المتبربر أفضل بكثير من أخلاقيات المجتمع الرومانى . ولم تكن هذه الفكرة التى يطرحها سالڤيان جديدة على الناس ، فمنذ قرون كتب بعض المفكرين إن أفلاطون قد استمد الحكمة من خلال اسفاره خارج العالم اليونانى الرومانى ؛ على يد كهنة مصر ومجوس فارس وبراهمة الهند . ثم جاء الأفلاطونيون المحدثون وبشروا بأن فلاسفة آخرين غير أفلاطون قد فطنوا إلى هذا الدرس ، ورحلوا إلى بلاد « البرابرة » يبحثون عن الحكمة ، ومن بين هؤلاء كان بيثاغوراس وديموقريطوس . وقد ظلت فكرة « حكمة البرابرة » عالقة بالأذهان فى جنوب شرقى غالة ، على وجه الخصوص فى زمان كاتبنا سالڤيان : فقد كتب كاهن من بلدة ڤيان (Vienne) اسمه مامرتوس كلوديانوس أن أفلاطون قد جمع بين حكمة سقراط وبيثاغوراس وبين حكمة قدماء المصريين والهنود .[١٢٠] كما أن قدامى الكتاب الرومان قد أشاروا فى كتاباتهم بشجاعة الشعوب الجرمانية وبتماسك أخلاقهم ، مثلما ورد عند يوليوس قيصر وتاكيتوس[١٢١] .

التقط سالڤيان هذه الفكرة فى صبيحة الغزو الجرمانى لغالة ، وراح يتمنى أن يكون انتصار البرابرة حافزاً على رجوع الناس إلى قواعد الأخلاق الطيبة . ويميز الكاتب بين طائفتين من الشعوب المتبربرة ، الواحدة مهرطقة والأخرى وثنية . وهو يؤكد على أن

---

(١٢٠) Manertas Claudianus, Epist. ad Sapaudum, (ed. Engelbrecht), Vol. XI, p. 204.

(١٢١) Cesar, Bell. Gall., VI, 21; Tacictus, Germania, XVII, 5, XIX, 1.

الرومان أفضل من الطائفتين فقط فيما يتصل بالقانون الإلهى ، أما فيما يخص السلوك الأخلاقى فإنه يقرر بأن الجرمان أفضل بكثير من الرومان. وهو لا يعمم هذا الحكم على الشعب الرومانى برمته ، وإنما هو يستثنى منه أهل الدين ، وأما البقية الباقية فهم « رومان برابرة» فى واقع الأمر [١٢٢]. ويعقد الكاتب مقارنة بين سلوك البرابرة وسلوك الرومان المسيحيين فيقول بأن شعب السكسون يتميزون بالقسوة ، والفرنجة بالخداع ، والجبيد باللاإنسانية ، والهون بالفسق . غير أن هذه الرذائل جميعاً لها نظائرها عند الرومان ، والمهم أن نعرف أى الشعبين أكثر سوءاً من الآخر ؟ ويرى سالڤيان أن الرذائل التى يرتكبها الرومان ، وإن كان لها أشباهها عند البرابرة ، أشد وأنكى من كل الرذائل الأخرى ؛ لأن المتبربر وهو يرتكب الإثم لا يدرك أنه يقترف جرماً ، لأن ذلكم هو سلوكه اليومى ، كما أنه يقدم على تلك الآثام تقرباً من آلهته الوثنية العطشى إلى الدم . أما الرومانى المسيحى فهو يرتكب الآثام باسم المسيح ، وهو يدرك أنه مقدم على الجرم بكامل وعيه . ومن هنا يكون سلوك الرومانى الآثم أشد فحشاً من سلوك المتبربر الآثم [١٢٣].

أما عن الهراطقة مثل الوندال والقوط ، الذين كانوا على المذهب الأريوسى ، فإن آثامهم وبعدهم عن الطريق القويم فهى من صنع الرومان ؛ ذلك لأن المبشرين الرومان على عهد الإمبراطور ڤالنس هم الذين أدخلوا التعاليم الأريوسية المهرطقة إلى المجتمع الجرمانى . وبرغم كل هذا فإن الجرمان يتحلون بصفة أخلاقية لا يملكها الرومان ، ألا وهى محبة بعضهم للبعض ، ولهذا فإن بعض الرومان قد هاجروا طواعية ليعيشوا فى ظل الحكم القوطى بعد أن اختفت المحبة من قلب المجتمع الرومانى . إن هؤلاء المهاجرين يفضلون العيش أحراراً فى ظل حكم له مظهر العبودية على أن يعيشوا عبيداً فى ظل حكم له بريق كاذب من الحرية [١٢٤]. ويمتدح سالڤيان حكم القوط الغربيين فى أقطانيا ، ولا يبدى أى ندم على تصدع الحكم الرومانى ، برغم رومانيته . ويعجب الكاتب لأن الرومان لم يعوا الدرس حتى بعد أن سقطت روما فى أيدى القوط ، بل إنهم راحوا يجدفون على السماء ، كما أن اللاجئين إلى الشمال الأفريقى باتوا يقضون الليالى فى اللهو والفجور عشية حصار الوندال

(١٢٢) Salvien, op. cit., IV, 13, 61, p. 86.

(١٢٣) Ibid., IV, 16, 77

(١٢٤) Ibid., V, 5, 21.

لمدائن سرت وقرطاج (١٢٥) .

هذا عن موقف بعض الأقلام الحرة تجاه تدهور الحضارة الرومانية . أما الأقلام الحكومية فإنها لم تكف — حتى بعد السقوط — عن كيل المديح للحكام والقادة . من ذلك مديح الشاعر مروباودوس لجهود القائد ائتيوس ، الوصى على ڤالنتنيان الثالث ، سنة ٤٣٦ م ، بعد احرازه بعض النصر على القوط الغربيين فى غالة ، وبعد مقتل القائد ليتوريوس . والغريب أن الشاعر لا زال يشيد « بالسلام الرومانى » ، فى عهد لم يعرف للسلام مذاقاً (١٢٦) .

ويهاجم الشاعر بعض رجال الدين الذين كانوا قد أبدوا ارتياحهم لانتصار البرابرة على الرومان . والواقع أن مجمع آنجير سنة ٤٥٣ م قد حرم على رجال الدين الكاثوليك زيارة النسوة « الأجنبيات » ، وهدد بالحرمان كل رجل دين يخالط المجتمعات المتبربرة (١٢٧) .

لقد أسقط فى يد السلطات الرومانية بعد أن ضاعت ولايات الإمبراطورية الواحدة تلو الأخرى . وكان على القائد ائتيوس أن يقاتل فى غالة ضد عديد من القبائل الجرمانية : من أرموريق وباغاد وألمان . ولم يجد بدًّا من أن يستعين بالمرتزقة من البرغنديين فى ساڤوى والآلان فى أورليانز لمواجهة الموقف الصعب . ولكن هؤلاء المرتزقة كانوا يعاملون أهالى غالة معاملة قاسية ، فطردوا بعضهم وتقاسموا أملاكهم . وكفر الفلاحون فى تلك البقاع بالرومان والبرابرة على حد سواء ، ففروا من مزارعهم وألفوا عصابات متمردة راحت تجتاح طول البلاد وعرضها دون هدف واضح لديها . وليس أدل على روح التدهور والقنوط التى سادت على المعاصرين فى تلك الآونة من الحادثة التى يرويها السفير بريسكوس ، الذى أوفد سنة ٤٤٨ إلى بلاط أتيللا ملك الهون : فلقد لقى السفير فى معسكر المغول من يحادثه باللسان اليونانى واتضح له أن محادثه نبيل رومانى من مائيزيا ، كان قد وقع فى أسر الهون ، ثم قدرت له

(١٢٥) Ibid.,VI, 69: „Quis aestimare hoc malum possit? Circumsonabant armis muros Cirtae atque Carthaginis populi Barbarorum, et ecclesia Carthaginensis insaniebat in circis, luxuriabat in theatris. Alii foris iugulabantur, alii intus fornicabantur...”

(١٢٦) Merobaudus, Paneg. I, IIB, v. II (ed. Vollmer), in M.G.H., Auct. ant., vol. XIV, p. 10.

(١٢٧) Concilium Andegavense, a. 453, Canon 4, (ed. Mansi), in Conciiorum amplissiama Collectio, vol. VII, 901 B.

الظروف أن يغنم غنيمة افتدى بها نفسه ثم تزوج بامرأة مغولية وأنجب منها أطفالا . وها هو ذا يعلن للسفير أن أحواله مع المغول أفضل بكثير من أحواله التى كانت مع بنى جلدته الرومان . ويأخذ هذا اللاجئ فى تصوير مساوئ المجتمع الرومانى وانحلال أخلاقياته وجبن جنرالاته وفساد قضاته إلى آخره . ولكن برسكوس يدافع عن الحضارة الرومانية وتراث الآباء والسلام الرومانى . ولا يتمالك اللاجئ نفسه فينوح كالطفل ، ولكنه يتمتم من خلال دموعه : « نعم إن قوانين الرومان عادلة ودستورهم قويم ، ولكن الإثم يقع على القضاة والحكام لأنهم لا يملكون من خلق الرومان القدامى شيئاً »(١٢٨) .

فى سنة ٤٥١ م عبر الهون حدود الراين ، وكان هذا الشعب المغولى الذى ينتمى إلى أصول تركية آسيوية قد نجح فى تحطيم كل الممالك الجرمانية التى صادفته فى طريقه الممتد من أواسط آسيا إلى أقاصى الغرب الأوربى . وقد ترك لنا المؤرخ أميانوس مارسللينوس — فى نهاية القرن الرابع — وصفاً دقيقاً للهون فى الآتى :

« لم يرد إلا النذر اليسير عن الهون فى المصادر القديمة . وهم يسكنون وراء منطقة بالوس ميوتيد على حواف البحر المتجمد . إن وحشيتهم تفوق كل وصف ، فهم يقومون بحفر جروح عميقة فى وجنات مواليدهم بواسطة السلاح ، لكى يقتلوا فى أبنائهم أى أثر للزغب ( الشعر ) ، ولذا فإنهم يشبون وليست لهم لحى ، أشبه ما يكونون بالخصيان . وأجسامهم مربوعة الشكل ، وأطرافهم فى قوة الجلمود ، ورقابهم غليظة ، وأكتافهم عريضة إلى درجة تثير الخوف . ويمكن تشبيههم بحيوانات ذات قدمين أو بكائنات مشوهة الخلقة ، أو بجذوع الأشجار التى نراها تحد حواجز القناطر . . . ولا يطهى الهون طعامهم ولا يتبلونه بالتوابل ، وهم لا يأكلون سوى الجذور البرية واللحم النئ لصغار مواليد الحيوانات ، التى يذبحونها ويجففون لحومها لبعض الوقت على ظهور خيولهم وبين أفخاذهم . وليس لهم من منازل ولا يعرفون وسائل التدفئة ، ولا سكن لهم إلا بعد الموت ، أى فى القبور ، فهم يمضون حياتهم لهثاً على ظهور خيولهم فى الغابات وعلى قمم الجبال ، وقد صلب عودهم منذ المهد ، ولم يعد يؤثر فيهم برد ولا جوع ولا عطش . . .

وهم يغطون أجسامهم بنسيج من القنب أو بجلود فئران الغابات . وليست لهم ملابس

(١٢٨) Priscus, Excerpta de legationibus Romanorum, (ed. Bekker), in C.S.H.B., pp. 190 - 95.

خاصة للبيت وأخرى للخروج ، فهم إذا ارتدوا لباساً لا يخلعونه عن أجسادهم حتى يبلى تماماً . وهم يرتدون قبعات بأطراف متدلية ، ويغطون سيقانهم بشعور الماعز . ونعالهم غير مهندمة ، وهي تعوقهم عن السير ولا تمكنهم من القتال راجلين . وهم يبدون من على صهوة جيادهم ولكأنهم قد سمروا عليها ، وخيولهم قميئة المنظر ولكنها تنقاد لهم . وهم يقضون كل حاجاتهم وهم على ظهور خيولهم ، ويجلسون عليها ليل نهار . ومن عليها أيضاً يتقايضون بيعاً وشراءً ، ولا تلمس أرجلهم الأرض حتى وقت الطعام والشراب . وهم ينامون على ظهور جيادهم ، وقد مالوا على رقابها قليلا كما أنهم يعقدون مؤتمراتهم مع رؤسائهم وهم أيضاً على ظهور الخيل »(١٢٩) .

---

(١٢٩) Ammianus Marcellinus, Res Gestae, III, XXXI, 1, 2, 1 - 11, pp. 381 - 87 :
„Hunorum gens monumentis veteribus leviter nota, ultra plaudes Maeoticas glacialem oceanum accolens, omnem modum feritatis excedit. Ubi quoniam ab ipsis nasendi primitiis infantum ferro sulcantur altius genae, ut pilorum vigor tempestivus emergens, corrugatis cicatricibus habetetur, senescunt imperbes absque ulla venustate, spadonibus simile, compactis omnes firmisque membris et opimis cer vcibus, prodigiose deformes et pandi, ut bipedes existimes bestias,vel quales in commar ﺀ nandis pontibus effigiati stipites dolantur incompte. In hominum autem figura, licet insuavi, ita victu sunt asperi, ut nequeigni neque saporatis indigeant cibis, sed radicibus herbarum agrestium, et semicruda cuiusvis pecoris carne vescantur, quam inter femora sua equorumque terga subsertam,fotu calcfaciunt brevi... Indumentis operiunturlinteis vel ex pellibus silvestrium murum consacrinatis; nec alia illis domestica vestis est, alia forensis. Sed semel obsoleti coloris tunica collo inserta, non ante deponitur aut mutatur, quam diuturna carie in pannulos diffluxerit defrustata. Galeris incurvis capita tegunt, hirsuta curra coriis munientes haedinis, eorumque caleci formulis nullis optati, vetant incedere gressibus liberis. Qua causa ad pedestres parum adcommodati sunt pugnas, verum equis prope affixi, duris quidem sed deformibus, et muliebriter eisdem non numquam insidentes, funguntur muneribus consuetis. Ex ipsis quivis in hac natione pernox et perdius emit et vendit, cibumque sumit et potum, et inclinatus cervici angustae iumenti, in altum soporem ad usque varietatem effunditur somniorum. Et deliberatione super rebus proposita seriis, hoc habitu omnes in commune consultant. Aguntur autem nulla servitate regali, sed tumultuario primatum ductu contenti, perrumpunt quicquid inciderit. Et pugnant non numquam lacessiti, ineuntes proelia cuneatim, variis vocibus sonanentibus torvum. Utque ad pernicitatem sunt leves et repentini, ita subito de industria dispersi incessunt, et in composita acie, nec castra inimica pilantes, prae nimia rapiditate cernuntur. Eoque omnium acerrimos facile dixeris bellatores, quod procul missilibus telis, acutis ossibus pro spiculorum acumine, arte mira coagmentatis, et distantiis decursis comminus ferro sine sui respectu confligunt, hostisque dum mucronum noxias observant, contortis laciniis illigant, ut laqueatis resistentium membris, equitandi vel gradiendi adimant facultatem...
"per indutias infidi et inconstantes, ad omnem auram incidentis spei novae perquam mobiles, totum furori incitatissimo tribuentes. Inconsultorum animalium ritu, quid honestum inhonestumve sit, penitus ignorantes, flexiloqui et obscuri, nullius religionis vel superstitionis reverentia aliquando =

لقد تمكن الهون منذ أن استقروا فى منطقة بانونيا من إرهاب سائر الزعامات الجرمانية فى أوربا . كما وأن البلاط الرومانى سواء فى ميلانو أو القسطنطينية بات يتملق الملك آتيللا ( الجبار ) خوفاً من وقوع غضبه على الإمبراطورين . وكان آتيللا يتربع على عرش إمبراطورية مغولية شاسعة ، وكانت ترقد عند قدميه كنوز من الذهب لا حصر لها ولا عد . والهون هم الشعب الوحيد من الجماعات المتبربرة الذى لم يدخل كجند مرتزقة فى خدمة الرومان . وقد أثار إسمهم الرعب فى قلوب الناس فى أوربا ، وقد قيل إن الصلوات فى كنائس الغرب اللاتينى قد أخذت صيغة جديدة وقت زحف آتيللا ، وصار الناس يبتهلون إلى السماء قائلين : « أبانا الذى فى السموات يتقدس اسمك . . . ولا تدخلنا فى تجربة لكن نجنا من آتيللا » (١٣٠) . ولقد وضح الذعر بشكل خاص فى مدائن غالة الرومانية ، حيث كان الناس على علم مسبق بأهوال الهون من واقع كتابات اميانوس مارسللينوس ، سالف الذكر . وقد أعلن آتيللا أنه ليس عدواً للرومان ، وإنما هو قادم لاستئصال شأفة القوط . وكان الزعيم المغولى قد أسر آلافاً من القوط وجرهم معه فى مواكبه كعبيد ، صوب نهر الراين على نفس الدرب الذى كان الونداال قد سلكوه من قبل فى بداية القرن الخامس : وصل آتيللا إلى مدينة متز فى ٧ إبريل ٤٥١ م ودمرها ، ثم اتجه صوب باريس . وفى باريس ظهرت فتاة تقية اسمها جنفياف ، راحت تحث الناس على الصلاة والصوم ، بدلاً من الفرار اليائس والهيام على وجوههم إلى حيث لا يدرون . وقد أعلنت جنفياف أن جميع مدن غالة سوف تدمر على أيدى المغول ، ولكن باريس سوف تفلت من الغضب بعون من السماء . وقد استجابت النسوة إلى دعوة الفتاة ولم يبرحن المدينة ، فاستشاط الأزواج غضباً وهجموا على جنفياف وأمطروها بوابل من الحجارة . ولأمر أو لآخر عدل آتيللا عن مهاجمة باريس ، واتجه لحصار مدينة أورليانز . ونجت باريس من خراب محقق ، فنظر الناس إلى جنفياف على أنها قديسة من القديسات اللائى كشف عنهن حجاب الغيب. (١٣١)

---

districti, auri cupidine immensa flagrantes, adeo permutabiles et irasci faciles ut eodem aliquotiens dic a sociis nullo irritante saepe descisant, itidemque propitientur, nemive leniente".

(١٣٠) "et ne nos inducas in tentationem, sed libera nos a Attella".

(١٣١) Vita Sanctae Genovefae, c. 12, (ed. Krusch), in M.G.H.SS., Rerum Merovingicarum, vol. III, pp. 219 - 220 : "Exiente sono Attela Chunorum rege sevitia superatum Gallia provintia coepisse vastare, terrore itaque perculsi Pariseorum cives bona ac stipendia facultatem suarum in alias tuciores civitates deferre nitebantur. Quorum matronas convocans Genuvefa=

كان هجوم آتيللا على غالة يمثل موقفاً حرجاً للقائد الرومانى ائتيوس ، الذى سعى إلى تجنيد كافة القوى من الجرمان « المعاهدين » للتصدى للخطر المغولى ، فاستخدم البرغنديين والآلان والفرنجة والسكسون والأرموريق . ثم أوفد سفارة برئاسة افتيوس إلى بلاط الملك القوطى ثيودريك لكسب تضامن القوط الغربيين معه ضد آتيللا . وفى أثناء ذلك كان الأسقف أنان (Agnan) يبذل جهوداً مستميتة فى الدفاع عن أورليانز ، وكان يقوى من معنويات أهل المدينة المحاصرين بوعد سماوى بأنه لن « يقدر لدنس الهون أن يغلب على أورليانز » . ثم توافدت كتائب « المعاهدين » فى أعداد ضخمة ، واضطر آتيللا إلى الانسحاب والتقهقر قبالة الشرق الأوربى . وهب ثيودريك ملك القوط الغربيين برجاله ليؤازر ائتيوس ، ولحق الحليفان بمعسكر آتيللا على مقربة من بلدة تروى (Troyes) وأنزلا بالمغول هزيمة ساحقة فى « حقول قطالونيا » (Les Champs Cataluniques) وقدر للملك القوطى الغربى أن يقتل فى ميدان المعركة تحت لواء العلم الرومانى . واضطر آتيللا ، بعد هذه الهزيمة المرة ، إلى التقهقر صوب إقليم بانونيا ، بعد أن رأى كل القوى الأوربية من رومان وجرمان تتصدى للتحدى الآسيوى الذى هدد قلب غالة بالدمار .

غير أن الهزيمة لم تفت فى عضد آتيللا ، فاتجه بقواته نحو إيطاليا وضرب حصاراً حول مدينة أقويليا ثم دمرها ورحل أهلها ، ثم مال على البندقية وخربها ، وبعدها نزل على سهل بو ودخل ميلانو . ويروى أنه شاهد فى ميلانو لوحة تمثل الأباطرة الرومان على عروشهم الذهبية وقد ألمّ بالسكيزيين المقهورين عند أقدامهم ، فأمر برسم لوحة تمثله جالساً على العرش ، وهو يتلقى الجزية من الأباطرة الرومان [١٣٢] .

أصبح موقف الإمبراطور ڤالنتنيان الثالث غاية فى الخطر ، ففر من راڤنا إلى روما ، وقد نصحه القائد ائتيوس بالهروب إلى غالة أيضاً ، لأن آتيللا كان يفكر فى مهاجمة روما . ثم قدمت سفارة من العاصمة الرومانية مؤلفة من القنصل اڤينوس (Avienus)

---

=suadebat, ut ieiuniis et orationibus ac vigiliis insisterent, quatenus possint,sicut Iudith et Ster, superventura clade evodere. Consentientes ergo Genuvefe, dies aliquod in baptisterio vigilias exercentes, ieuniis et orationibus, sicut Genuvefa suasserat, Deo vocaverunt. Viriis quoque earum idem suadebat, ne bona sua a Parisius aufferent".

(١٣٢) Suidas, S.U., Mediolanon, (ed. A. Adler), vol. I, 3, pp. 346 - 9.

والبابا ليون العظيم للتفاوض مع آتيللا، لعله يقنع بعدم التعرض لروما . وقد وافق الزعيم المغولى على ذلك بشرط أن يتلقى جزية دسمة من الرومان . ويقال إن آتيللا قد عدل عن مهاجمة روما خشية أن يصيبه ما قد أصاب آلارك من موت عاجل بعد غزوه لروما سنة ٤١٠ م .

بعد هذا قرر آتيللا الانسحاب إلى معسكره وبلاطه فى بانونيا ، وفى الطريق انتشر الوباء بين رجاله ، وفى صبيحة أحد الأيام اكتشف أتباعه أن نوبة جنونية قد أتت عليه أثناء الليل ، وكان ذلك فى سنة ٤٥٣ م . وقد فسر المعاصرون ذلك بأنه معجزة ربانية لإنقاذ روما من مخالب المغول .

* * *

بعد زوال الخطر المغولى عن إيطاليا ، أعيد تعمير مدينة ميلانو ، ولدينا نص بقلم ماكسيموس التورينى يسرد فيه الأحداث المريرة التى ألمت بكنيسة ميلانو على يد الهون ، ثم يشكر الكاتب السماء على إعادة بناء هذه الكنيسة ، مؤكداً أن ما حل من دمار بالمبنى لا يعنى أن الكنيسة قد أزيلت ؛ لأن ما تمثله الدار من معان وقيم روحية باقية راسخة كالبناء نفسه فى قلوب المؤمنين . كذلك يوجد نقش آخر على كاتدرائية سانت ثكلة ، يتحدث عن آلام الوقت واشتعال النار فى بيت العبادة ، وعن جهود يوسبيوس أسقف ميلانو فى إعادة بناء الكاتدرائية لإعلاء شأن العقيدة (١٣٣) .

وفى سنة ٤٥٨ م عاد الأسرى من معسكر المغول إلى أقويليا ، بعد ستة أعوام من السجن والمعاناة . غير أن عودة هؤلاء الرجال قد أوقعت أسقف البلدة — نيكيتاس — فى حيرة شديدة ؛ لأن غالبية زوجاتهم كن قد تزوجن من جديد على ظن بأن أزواجهن قد هلكوا فى الأسر . وأسرع الأسقف يطلب النصيحة من البابا ليون . وقد حكم البابا بأن للعائدين من الأسر الحق كل الحق فى زوجاتهم السابقات وفى أراضيهم ودورهم ، أما الزوج الثانى فإنه لم يقترف إثماً ، ولكن الزوجة التى ترفض العودة إلى زوجها الأول تعتبر آثمة وتقع تحت

(١٣٣) Pseudo-Maxime de Turin, Homilia in reparatione ecclesiae Mediolanensis, Xclv,inP.L., vol. LvlI, 469; conf., De Rossi, G.B., Inscr. Christ., vol. II, 161 :

"Prisca redivivis consurgunt moenia templis.
In formam rediere suam que flamma cremavat.
Reddit haec votis Christiqui templa novarit.
Eusebii meritis noxia flamma perit."

طائلة الحرمان (١٣٤) . أما عن الأسرى الذين أكلوا اللحوم الدنسة مع المغول ، فقد وجبت عليهم التوبة ولكن فى صورة مخففة « لأنهم كانوا فى مخالب إمبراطورية الرعب والجوع » ، وقد فعلوا هذا لا بقصد تبجيل الآلهة الوثنية للمغول ، وإنما بدافع الخوف على أرواحهم . أما الأسرى الذين وقعوا فى أيدى الجرمان من خدم آتيلا ، والذين أجبروا على اعتناق المذهب الأريوسى ، فقد وجب عليهم قصاص الندم قبل أن يقبلوا من جديد فى حظيرة الكاثوليكية (١٣٥) .

بعد زوال خطر الهون ، بفضل جهود القوط الغربيين ، راح هؤلاء ينهجون سياسة عدائية تجاه السلطات الرومانية ، وبخاصة على عهد ملكهم الجديد ثورزموند (Thorismond) وقد قام هذا الزعيم القوطى بإخضاع قبائل الآلان ، ثم هجم سنة ٤٥٣ م على مدينة آرلس ، وضرب حولها حصاراً . ولكن محافظ البلدة الرومانى ، تونانتيوس فريولوس (Tonantius Ferreolus) قام بمفاوضات مجدية مع القوط ، ونجح فى إنقاذ مدينته من السقوط . ويبدو أن الملك ثورزموند قد وافق على فك الحصار عن مدينة آرلس ، لأن أخاً له قد تمرد ضده فى تولوز . وسرعان ما قام الأخ المتمرد باغتيال الملك ، واعتلى العرش القوطى باسم ثيودريك الثانى .

كان ثيودريك الثانى يرى ضرورة وضع الإمبراطور الرومانى تحت قبضته ، خاصة وأن أباطرة ذلك الوقت ابتداء من اتيوس حتى ڤالنتنيان الثالث وبترونيوس ماكسيموس كانوا مجرد دمى فى أيدى قادة الجيش ، كما أن مصير الإمبراطورية بات مهدداً من قبل الإمبراطور الشرقى فى القسطنطينية والملك الواندالى فى الشمال الإفريقى . ولذا فإن ثيودريك الثانى قام بتعيين صديق له يدعى افيتوس إمبراطوراً رومانياً ، واضطر مجلس السيناتو على الموافقة على هذا الاختيار . وقد كان المؤرخ سيدونيوس أبوليناريوس قريباً للإمبراطور الجديد ، ومن ثم فإنه كان كثير التردد على بلاط القوط الغربيين فى تولوز . وقد ترك لنا هذا الكاتب صورة عن الملك ثيودريك الثانى ، بها تملق واضح ، فهو معتدل القامة قوى البنية ، رشيق ، طيب الخلق ، رحيم بالناس ، مواظب على الصلاة اليومية ، زاهد فى المظاهر ، كريم مع ضيوفه ، مقبل على مباريات النارد فى شغف زائد ، فكه الروح ،

(١٣٤) Leo the Great, Epistula ad Nicetam, CLIX, 2, in P.L., vol. LIV, 1137 B, 1138 A.
(١٣٥) Ibidem.

محب للموسيقى ، وله أذن صاغية لشكاوى المظلومين (١٣٦) . وفى مناسبة أخرى ( يناير ٤٥٦ م ) نظم نفس الكاتب مديحاً فى شخص قريبه الإمبراطور افتيوس ، ولم ينس أن يعطى حليفه ثيودريك نصيبه من الثناء ، فأشاد بشخصه من جديد ، وامتدح مؤازرته لافتيوس ، مؤكداً أن العون القوطى سوف يمكن السلطات الرومانية من استرجاع الشمال الإفريقى من أيدى الوندال (١٣٧) .

غير أن الشعب الرومانى كان يتخذ موقفاً مغايراً لموقف الشعراء الموالين للقوط ولحليفهم افتيوس ؛ ذلك لأن أسطول الوندال كان قد سيطر تماماً على البحر الأبيض المتوسط ، فحرمت روما من الغلال ، وتهددتها المجاعات ، بينما كان افتيوس يقوم بصهر تماثيل المدينة لتحويلها إلى عملات يضعها فى جيوب رجال حرسه القوطى الخاص . ولهذا فإنه عندما قام افتيوس برحلة إلى غالة ، أوقع به خصماه ريكيمير وماجوريان ، وأعلنا خلعه عن العرش ثم أجبراه على دخول الكهنوت فسيم أسقفاً على بلدة بليزانس . ولم يكن حليفه ثيودريك الثانى فى موقف يسمح له بالتدخل ، لأنه كان يخوض حرباً شرسة ضد السويف فى إسبانيا .

اعتلى ماجوريان العرش الرومانى ووضع لنفسه سياسة خارجية تهدف إلى مقاتلة القوط الغربيين والوندال والبرغنديين على حد سواء . وكان البرغنديون يمثلون الخطر المباشر بالنسبة للإمبراطور الجديد : كان البرغنديون قد دخلوا أول الأمر كجند معاهدين للدولة

---

(١٣٦) Sidonius Apollinarius, Epistula ad Agricolam,I, 2, 1, (ed́. Lütjohan), in M.G.H., Auct. ant., vol. VIII, p. 2,9 : "Sidonius Agricolae suo salutem: Saepnumero postulasti ut, quia Theodorici regis Gothorum commendat populis fama civilitatem,litteris tibi formae suae quantitas vitae qualitas significaretur...Igitur vir est et illis dignus agnosci,qui eum minus familiariter intuentur : ita personam suam deus arbiter et ratio naturae consummatae felicltatis dote sociata cumulaverunt : mores autem huiusmodi sunt, ut laudibus eorum nihil ne regni quidem defrudet invidia. Si forma quaratur : corpore exacto, longissimi brevior, proccrior eminentiorque mediocribus, capitis apex rotundus, in quo paulu lum a planitie frontis in verticem caesarics, refuga crispatur... Geminos orbes hispidus superciliorum coronat arcusi si vero cilia flactantur, ad malas medias palpebrarum margo prope pervenit. Aurium ligulae, sicut mos gentis est, criniam, superiacentium flagellis operiuntur. Nasus venutissime incuruus. Labra subtilia nec dilatatis oris angulis ampliota. Pilis infra rarium antra fructicantibus cotidiana succisio; barba concavis hirta temporibus quam in subdita vultus parte surgentem stripitus tonsor assiduus genis ut adhuc vesticiibus evellit..."

(١٣٧) Ibid., Carm., VII, v. 588.

الرومانية ، يوم أن أسسوا لهم مملكة فى ورمز ، ثم انتقلوا بعد هذا إلى إقليم سافوى ، فى الأراضى الواقعة بين جنيف وجرينوبل حالياً ، ومنها راحوا يتحرشون بأراضى سهل الرون . والواقع أن عدداً كبيراً من السيناتوريين من أهل غالة قد غضبوا لخلع صديقهم افتيوس ، فرفضوا الاعتراف بماجوريان إمبراطوراً ، وراحوا يتآمرون مع مارسللينوس الدلماشى والبرغنديين ضد ماجوريان . وسيطر المتآمرون على مدائن ليون وبرسا (Bressa) وبوجى (Bugey) ويورا (Jura) ومن هنا فإن الهدف الأول أمام الإمبراطور ماجوريان كان يتمثل فى ضرورة تقليم أظافر البرغنديين ، وعليه فقد استخدم فرقة من المرتزقة الفرنجة بقيادة أجيديوس لمهاجمة البرغنديين . واضطر هؤلاء إلى إخلاء مدينة ليون ، وأنزل الفرنجة بأهالى تلك البلدة عقاباً رادعاً بسبب موالاتهم للبرغنديين . والواقع أن أهل ليون كانوا ساخطين على الفرنجة والبرغنديين على حد سواء ، ولذا فإنهم راحوا يتوسلون إلى الإمبراطور ماجوريان ليرفع عنهم هذا الظلم ، وذلك عندما قام بزيارة مدينتهم فى ديسمبر ٤٥٨ م . واستجاب ماجوريان للالتماس ، فأصدر عفواً عاماً عن أهل البلدة ، كما عفى عن بعض النبلاء الذين ثبتت إدانتهم فى التآمر مع البرغنديين ضد حياته .

بعد هذا طلب الإمبراطور من القائد الفرنجى اجيديوس أن يهاجم القوط الغربيين أثناء حصارهم لمدينة آرلس ، وقد نجح اجيديوس فى تلك المهمة ، وألحق هزيمة فادحة بثيودريك الثانى وأجبره على رفع الحصار عن آرلس ( ٤٥٩ م ) . غير أن الأحداث أخذت تتابع فى سرعة مذهلة . إذ قام ريكمير باغتيال ماجوريان سنة ٤٦١ م ، ورفع إلى العرش الرومانى حليفاً له هو سيفريوس الثالث ، ولكن اجيديوس الفرنجى رفض الاعتراف به إمبراطوراً شرعياً . ولذلك شرع سيفريوس فى قلب سياسة سلفه رأساً على عقب ، وراح يتقرب من القوط الغربيين ، فتخلى لهم عن مدينة ناربون ، مقابل الوقوف معه ضد أجيديوس . وهجم القوط الغربيين على قوات اجيديوس وطاردوها حتى نهر اللوار .

أصبحت الكلمة العليا فى الإمبراطورية فى يد ريكمير ، الذى بات يعين ويخلع الأباطرة كما يشاء : ففى سنة ٤٦٧ أبرم اتفاقاً مع سلطات القسطنطينية لرفع حميه انثيميوس إمبراطوراً على النصف الغربى للإمبراطورية . وهكذا فإن الإمبراطورية أمست

تحت رحمة ريكمير وأمثاله ، الذين كانوا يستعينون بالبرابرة الجرمان من قوط وفرنجة وبرغنديين لتحقيق المآرب الشخصية . ولسنا نبالغ عندما نعزى السقوط الأخير للإمبراطورية إلى جشع القادة الرومان الذين كانوا يتناحرون ويتآمرون من أجل التاج ، بدلا من أن يوحدوا قواهم للتصدى للعدو المشترك . لقد هدم الرومان بيتهم ، فسقط البيت على كل من كانوا فيه .

كان طبيعياً أن يستغل البرغنديون فرصة تلك الاضطرابات ، فزحفوا على مدينة ليون من جديد ، وبعدها هجموا على مدينة دوم (Drôme) . ثم جاءت اللطمة الكبرى ، عندما قرر الملك القوطى الجديد يوريك إلغاء معاهدة سلفه مع ريكمير ، وأخذ يخطط لغزو الأراضى الرومانية المتبقية لصالح القوط فحسب .

فى هذا الجو المشحون بالمؤامرات فى غالة ، قام بعض النبلاء الغاضبين على الإمبراطور بالتعاون مع القوط الغربيين ضد السلطات الرومانية ، وكان من بين هؤلاء نبيل يدعى أرفاندوس ، الذى اتصل سرًّا بالملك يوريك ونصحه بألا يبرم معاهدات سلام مع الامبراطور انثيميوس ، كما حثه على التعاون مع البرغنديين للاستيلاء على الأراضى الرومانية المتبقية فى غالة واقتسامها فيما بينهما . ولكن أمر أرفاندوس قد اكتشف ، فقبض عليه وأرسل إلى روما سنة ٤٦٩ ، حيث حكم عليه بالإعدام ، ثم خفف الحكم إلى النفى . وبعد ذلك بعامين ظهر خائن آخر اسمه سيروناتوس ، الذى كان يجاهر أمام الناس بحبه للقوط ، والذى كان على حد تعبير الكاتب المعاصر سيدونيوس أبو لليناريوسى « يطأ قوانين ثيودوسيوس العظيم تحت قدميه ، بينما هو لا يكف عن المباهاة بقوانين ثيودريك القوطى » .

فى سنة ٤٧٠ م هجم يوريك القوطى على منطقة اللوار ، واستولى على بلدة بيرى (Berry) ، بعد أن ألحق هزيمة ساحقة بفرقة بريطانية كانت فى خدمة الرومان . ثم بسط القوط نفوذهم على المناطق الشمالية والجنوبية والغربية من إقليم اللوار . ولم تبذل السلطات الرومانية جهداً لإنقاذ أهالى تلك المناطق من غضب القوط . وفى سنة ٤٧٢ أغتيل الإمبراطور انثيميوس ، ثم لقى ابنه هزيمة مريرة على أيدى القوط أثناء حصارهم

---

(١٣٨) Sidon ius Apollinarius, Epistula ad Ecdicium, II, 1, 2, p. 21.

لمدينة آرلس . واستنجد سكان آرلس بالبرغنديين ، ولكن القوط ظلوا يحاصرون البلدة لعدة أعوام متتالية .

فى أثناء ذلك كان نپوس (Nepos) ، قريب وخليفة القائد مارسللنيوس فى دالماشيا ، قد اتفق مع الإمبراطور الشرقى على أن يسمح له الأخير بالزحف على رافنا ليعتلى عرش النصف الغربى من الإمبراطورية ، على أن يقوم بتجنيد القوى المتبقية فى غالة ضد القوط الغربيين ولكن نپوس قد أثبت عجزه فى معالجة الموقف فى غالة ، ولذا فإنه كلف لكنيانوس بفتح باب المفاوضات مع الملك القوطى يوريك للوصول إلى سلام مشرف معه . غير أن يوريك أخذ يماطل فى المفاوضات حتى يتم لرجاله الاستيلاء على منطقة الأوڤرن (I, Auvergne) وفى سنة ٤٧٥ أوفد نپوس سفيراً جديداً إلى بلاط يوريك ، هو ابيفانيوس أسقف تولوز ، وقد نجح هذا السفير فى توقيع معاهدة سلام مع يوريك : اعترف فيها الإمبراطور الغربى بالملك القوطى كحاكم على الولايات التى وقعت فى يديه ، مضافاً إليها إقليم الأوڤرن . وبعد قليل قام فريق من رجال يوريك ، بقيادة نبيل رومانى اسمه ڤكتوريوس ، بالاستيلاء على مدينة كليرمونت . وهكذا دانت غالة للسيطرة القوطية ، وبات التهديد القوطى يؤرق البرغنديين والفرنجة جميعاً .

توفى يوريك سنة ٤٨٤ فى مدينة آرلس ، وخلفه على الحكم ابنه آلارك الثانى ، الذى كان معاصراً لكلوڤس ملك الفرنجة . ولقد أظهر آلارك هذا قصوراً فى تفهم الظروف السياسية المحيطة بمملكته . ففى سنة ٤٨٦ بعد أن هزم كلوڤس الحاكم الرومانى لإقليم سواسون ، سياجريوس ، هرب الأخير إلى بلاط آلارك يطلب منه العون ضد كلوڤس . ولكن آلارك تخلى عن سياجريوس تماماً ، فأتاح بذلك الفرصة لكلوڤس لكى يضم سواسون إلى مملكته . على أن الضربة الكبرى التى وجهها كلوڤس للقوط الغربيين كانت فى اعتناقه للكاثوليكية بعد زواجه من الإميرة البرغندية كلوتلده ، فلقد أكسبه ذلك الزواج على المذهب الرومانى عطف وتأييد سكان ولايات غالة جميعاً . ثم عقد كلوڤس حلفاً مع البرغنديين ضد القوط ، وجاءه تفويض من الإمبراطور الشرقى أناستاسيوس لطرد القوط الغربيين من غالة . وفى سنة ٥٠٧ قام البرغنديون بغزو إقليم الأوڤرن ، فى حين أن كلوڤس عبر بقواته نهر اللوار قبالة مدينة پواتييه . والتقى الفرنجة بخصومهم القوط الغربيين فى واقعة شهيرة عند كامپوس ڤولجادنسيس (Campus Volgadensis) ، ودارت الدائرة على القوط

فحلت بهم هزيمة منكرة ، وقتل ملكهم آلارك الثانى فى ميدان القتال . ثم التحمت قوات الحلفاء واستولت على تولوز العاصمة القوطية ، وسقط بسقوطها الكنز الهائل الذى كان آلارك الأكبر قد اغتنمه من روما سنة ٤١٠ م . بعد هذا استولى كلوفس على أراضى أنجوليم وسينيت وبوردو وتور ، وفى نفس الوقت اضطلع ثيودريك ، الابن الأكبر لكلوفس ، بمهمة تخريب ونهب الأراضى الزراعية فى بقية أجزاء المملكة القوطية .

خلف آلارك الثانى على العرش ابنه آمالارك تحت وصاية الكونت ثيودس ، وتزوج الملك القوطى الجديد من إحدى بنات كلوفس الفرنجى . ولما أن طلب الملك من زوجه الفرنجية نبذ الكاثوليكية واعتناق المذهب الأريوسى ، رفضت الاستجابة لمطلبه ، فأخذ يسىء فى معاملتها . إلا أن كلدبرت ملك باريس ، وشقيق زوجة الملك القوطى ، أغار سنة ٥٣١ على إقليم سبتمانيا ، وهى الولاية الوحيدة التى بقيت من غالة فى أيدى القوط . ثم زحف كلدبرت بعد ذلك على ناربون ، العاصمة الجديدة للقوط ، واستولى عليها ، ثم حرر أخته من طغيان زوجها ، واستولى أيضاً على كنوز القصر الملكى جميعاً .

فر آلارك الثانى إلى برشلونة عن طريق البحر ، وما أن وصل إلى إسبانيا حتى قام نفر من أتباعه باغتياله ، وبموته انقرض فرع آل بالت (Balt) من الأسرة الحاكمة للقوط الغربيين . اختار القوط بعد ذلك الكونت ثيودس ملكاً لهم ( ٥٣١ م ) ، ودام حكمه عشرين عاماً . وفى عهد ثيودس هذا انتقل القوط إلى إسبانيا ، واتخذوا برشلونة عاصمة لهم .

# الفصل الخامس

## الوندال فى شمال أفريقيا

لم تكن روح التفاؤل التى سادت فى روما سنة ٤١٧ أكثر من خدعة ظاهرية وموقوتة ، فلقد أحرز الوندال انتصاراً ساحقاً على القوات الرومانية فى أسبانيا سنة ٤٢٢ . كما أن التهديدات أكثر خطورة عندما شرعت أمة الوندال فى بناء أسطول لها لكى تقضى على الفكرة القائلة بأن البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية . ونحن نعلم أنه فى سنة ٤١٩ صدر مرسوم إمبراطورى يدين كبار موظفى الدولة الرومانية بالخيانة لأنهم نقلوا أسرار بناء الأساطيل للبرابرة مقابل رشوة دسمة (١٣٩) .

لقد قويت شوكة الوندال فى جنوب أسبانيا ، وما لبثت كارثاجينا وأشبيلية أن سقطتا فى أيديهم سنة ٤٢٨ . وقد أمر الملك جوندريك بنهب كنيسة سان ڤينسنت فى أشبيلية ، وتقول الروايات أن الملك قد هلك بعد هذا الحادث مباشرة (١٤٠) . والواقع أن ذكرى الوندال فى أسبانيا قد ارتبطت بتخريبهم للكنائس .

بعد وفاة جوندريك ، تولى عرش الوندال الملك جنزريك ، وكان الملك الجديد قليل الكلام ، عميق التفكير ، خشن المظهر ، غضوباً إلى حد الجنون ، تواقا لتملك الذهب ، ماكراً فى زرع بذور الفرقة بين خصومه ، جباراً فى كبح جماح رجاله (١٤١) .

كان الوندال قد استولوا على بعض السفن الرومانية التى كانت راسية على الشواطئ الأسبانية ، وتمكنوا بواسطتها من غزو جزر البليار ، وأيضاً من اكتشاف شواطئ موريتانيا . وكان جنزريك شديد الاقتناع بأن مستقبل أمته لن يكتمل إلا بالسيطرة

---

(١٣٩) Codex Theodosianus, IX, 40, 24, ed. Mommsen, vol. I, 2, p. 507.

(١٤٠) Isidore de Seville, Historia de regibus Gothorum, Wandalorum et Suevorum, in P.L., vol. LXXXIII, 1077.

(١٤١) Jordanés, Getica, XXXIII, 68.

التامة على البحر المتوسط ، فلو أن الوندال سيطروا على الشمال الأفريقى لحرم الرومان من الغلال ولباتت كل من روما والقسطنطينية تحت رحمة جنزريك . وكان القوط الغربيون قد حاولوا تنفيذ هذه الخطة على عهد آلارك ثم على عهد ڤاليا ، ولكن الفكرة قد فشلت .

ولما وصلت أخبار المشروع الوندالى إلى المسئولين فى القسطنطينية ، أشارت الأصابع بالاتهام إلى بونيفاس حاكم أفريقيا الرومانى ، وقيل وقتها أنه يتآمر مع الوندال للاستقلال بولاية شمال أفريقيا لنفسه . والواقع أن جنزريك قد استغل عوامل الفرقة التى كانت تشل السلطات الرومانية عندما راح يخطط لغزو أفريقيا : فبالإضافة إلى موقف بونيفاس ، كان النزاع على أشده بين فرقة الدوناتيين من أهل شمال أفريقيا و بين الكاثوليك ، كما أن السلطات الرومانية كانت قد أرسلت حملة تأديبية ضد بونيفاس .

قرر جنزريك الإبحار من جنوب أسبانيا إلى الشمال الأفريقى ، ولما أن حاولت جماعة السويف فى أسبانيا عرقلة مشروعه ، انقض عليهم ومزق شملهم تماماً . ثم أبحرت أمة الوندال ، وفى ركبها بقايا العناصر التى أبيدت فصائلها من قبل ، إلى جانب عدد كبير من العبيد والأطفال والنساء ، ويقدر عدد أفراد هذه الهجرة الوندالية بحوالى ٨٠,٠٠٠ من البشر (١٤٢) . رسى أسطول الوندال فى طنجة ، ومنها تحركت الجيوش إلى موريتانيا القيصرية ثم نحو قرطاج . وكانت سرعة المسيرة الوندالية تتراوح ما بين ستة إلى ثمانية كيلومترات فى الساعة ، ويرجع السبب فى بطء الحركة إلى ثقل العربات وأحمالها ، وأيضاً إلى انشغال رجال الحملة فى نهب وتدمير البلدان التى مروا عليها ، هذا إلى جانب مقاومة الأهالى للغزو بطبيعة الحال (١٤٣) .

وكان مجرد ذكر اسم الوندال كافياً لإثارة الذعر فى نفوس الناس ، فلقد أتت الأنباء من إيطاليا وأسبانيا من قبل تتحدث عن وحشية هؤلاء القوم وبربريتهم التى تفوق الوصف . وكان أكثر الناس هلعاً هم رجال الدين الكاثوليك ، وذلك بسبب ما عرف عن الوندال الأريوسيين من كره شديد للكثلكة :

---

(١٤٢) Victor de Vita, Historia, I. 2, p. 3., II.

(١٤٣) See J. Le Gall, L'itinéraire de Genseric, pp. 268 - 73.

« إن هذه الولاية ( شمال أفريقيا ) ، التى كانت مزدهرة فى سلام ، قد دمرت بالنار والحديد على يد الغزاة الوندال . ولم يفلت من أيديهم بشر ولا نبات ، فلم يبقوا على شجرة تحمل ثمرة ، وذلك حتى لا يتركوا أخضر يقتات عليه الهاربون بعد عبورهم المدمر . وكانت لهم فى كل بقعة قسوة تفوق سابقتها ، ولم يكن يثير جنونهم أكثر من مشهد الكنائس والأديرة والمنابر ، فلقد أشعلوا النيران فى قلب بيوت العبادة بطريقة لم تشهدها القرى والمدن التى أحرقوها . وهم عندما يصادفون كنيسة مغلقة فإنهم يتصايحون واحدهم للآخر لكى يحطموا بواباتها بضربات الفؤوس »(١٤٤). وتشير قسوة الوندال مع الكنائس إلى أمرين : الأول هو طمعهم الزائد فى اغتصاب ما كانت تحتويه تلك الكنائس من فضة وذهب وأوان غالية ، والثانى هو شدة مقاومة رجال الدين الكاثوليك للغزو الوندالى لشمال أفريقيا .

أمام هذا العنف البالغ ، وقع كبار رجال الدين فى حيرة شديدة ، وراحوا يلاحقون أسقفهم القديس أغسطينوس فى مدينة هيبو ، وتحدث كل من كودڤولتيدوس (Quodvuttedus) دياكون قرطاج ، وهونورات (Honorat) أسقف ثيابينا (Thiabena) متسائلين : « لقد فتشنا فى الكتب المقدسة ووجدنا فيها نصحاً بالهرب من وجه الشرير ، فلقد قيل : « ومتى طردوكم فى هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى » ، (١٤٥) كما أن المسيح نفسه قد هرب إلى أرض مصر من وجه ملك اليهود الطاغية هيرودس : « خذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك . لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه . فقام وأخذ الصبى وأمه ليلا وانصرف إلى مصر » (١٤٦) . كما أن القديس بولس قد لجأ إلى القفز من إحدى النوافذ هروباً من أيدى اليهود أيضاً : « فى دمشق والى الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين يريد أن يمسكنى ، فتدليت من طاقة فى زنبيل من السور ونجوت من يديه » (١٤٧) . والواقع أن القديس أغسطينوس نفسه كان فى حيرة بالغة ، ويحدثنا عن هذه الحيرة كاتب سيرته بوسيديوس فيقول : « إن هذا الرجل — رجل الله — كان

---

(١٤٤) Victor de Vita, op. cit. 1, 3 - 4, pp. 13 - 14, 10.

(١٤٥) Matthew, x, 23.

(١٤٦) Ibid., II, 14 - 15.

(١٤٧) II Corinthians, XI, 33.

يرى الكنائس وقد حرمت من رعاتها ، فتفرقت الرعية مع اختفاء الراعى ، وكان يعلم أن الترانيم والضراعات إلى أبواب السماء قد خرست عن الرنين إلى فوق ، وأن بيوت العبادة تشتعل بالحرائق فى شتى النجوع ، وأن التقدمة المقدسة قد اختفت من المذابح التى يتحتم فيها الحلول . . . إن بعض الكهنة والخدام قد فروا من وجه العدو ، بينما لم يتمكن البعض من الهرب . وهاهم الآن يضربون الطرقات والبرارى كالشحاذين بعد أن فقدوا كل شيء وذواتهم » (١٤٨) .

لقد كان الموقف بالغ المرارة على نفس أغسطينوس وهو قاب قوسين أو أدنى من ملاقاة أحبابه فى « مدينة الله » ، الذين طالما تاق القديس إلى أن يرقد فى أحضانهم فى الرب . وبقى الرجل صامداً فى رسوخ الرواقيين وهو يردد قول أفلوطين : « إن الرجل الفاضل لا يغتم على سقوط عمد من الخشب أو انهيار أكوام من قراميد الطوب ، ولا حتى على موت يصيب مخلوقات هى منذ الأول مائتة » (٤٩) . ولكن أغسطينوس ، رغم هذا ، لا يقر رجال الدين على فرارهم من وجه الغزاة ، فهم الرعاة للقطيع المذعور ، وينبغى عليهم الثبات بجوارهم للتشديد من إيمانهم : « فإن كان الخطر خطراً عامًّا على الجميع من أساقفة وقسيسين وعلمانيين ، فإنه لا ينبغى على من يكون منهم فى موقع الخدمة أن يهجرها ويهرب ، تاركاً من ورائه من هم فى مسيس الحاجة إلى الخدمة والرعاية . وعلى الجميع إما أن يرحلوا هروباً كمجتمع بأسره ، أو يظلوا فى أماكنهم جميعاً حتى يجربوا بما شاءت لهم إرادة الرب » (١٥٠) . وأغسطينوس بعد هذا لا يقبل بهروب الراعى عن رعيته ، بل إنه يصر على أن يعلو الراعى بإيمانه فوق مخاوف هذا العالم ، لكى يضرب المثل للحملان الشاردة ، وهو يتمثل فى هذا المقام بقول القديس بولس إلى الكورنثيين فى رسالته الثانية : « من يضعف وأنا لا أضعف . من يعثر وأنا لا ألتهب » . ويتفق أغسطينوس وبولس مع الرواقيين وسيد الأفلاطونية المحدثة حول تأكيد حقيقة كأس الموت على كل أبناء هذا

(١٤٨) Possidius, Vita Augustini, c. 28, 7, in P.L., vol. XXXII, 58.

(١٤٩) Augustine, Civitas Dei, II, 2 : "Doles quia ceciderunt ligna et lapides et quia morituri sunt", text cited from Plotinus, Enn. I, 4, 7, 24 : "ouk an eti; spoudais ein ke lithous ke ne, Dia thenatos thenton mage egoumenos."

(١٥٠) Augustine, Epistula ad Honoratum, CCXXVIII, 1.

العالم ، بطريقة أو بأخرى ، اليوم أو غداً . كما وأن المعاناة الجسدية من تعذيب أو حرق أو تشويه لن تؤثر فى روح الأنقياء ، حتى ولو عصف الشر بأقداس أعضاء الجسد . وما على الرعية فى وقت الضيق إلا أن تلوذ ببيت العبادة ، لكى تصلى إلى السماء لتجتاز مرارة الكأس التى لا مفر من تجرعها . هل يصح للراعى فى مثل هذه الأوقات أن يلوذ بالفرار ، ويترك القطيع وحده ؟ هل يليق بربان السفينة أن يهجر سفينته وهى تغرق ؟

على هذه الشاكلة كان الفزع سائداً فى أوساط رجال الإكليروس أمام شر الوندال وعنفهم ، ولنا أن نتصور حجم الرعب فى نفوس العلمانيين . لقد سعى الكثيرون من ذوى الثراء إلى مساومة الوندال بتسليم ثرواتهم مقابل الإبقاء على حياتهم . ولا يفوت أغسطينوس أن يشتق الموعظة من هذا الموقف فيقول : « إن الكثيرين قد وقعوا عهداً مع العدو ، فتركوا له كل شىء مقابل الإبقاء على حياتهم . وهكذا فإن هذا النفر قد ضحوا بأعز ما لديهم من ثروة مقابل شراء البقاء على وجه الدنيا ، وياله من ثمن باهظ ذلك الذى يدفعونه من أجل حياة فانية موقوتة ، تنتهى إن عاجلا أو آجلا . كم هو إذن الثمن الذى يرتضى هؤلاء أن يدفعوه للحصول على الحياة الأبدية ؟ ليتهم يعطون بعضا مما يملكونه للسماء لضمان الحياة الأبدية »[١٥١] .

لقد كان جرم الوندال فى شمال أفريقيا بشعاً للغاية ، ونحن نعلم من رسالة للبابا ليون العظيم ــ بعد تلك الأحداث بخمسة عشر عاماً ــ أن أعداد الراهبات اللائى هتكت أعراضهن على يد الوندال كانت أعداداً مهولة . ولذا فإن البابا يطالب فى رسالته إلى أساقفة الشمال الأفريقى ، وموريتانيا القيصرية على وجه الخصوص ، اعتبار هؤلاء الضحايا على أنهن « فريق خاص من النسوة أشبه ما يكن بالأرامل »[١٥٢] .

وفى نوميديا ضرب الوندال حصاراً حول المدن ، وانتشرت المجاعات وتفشت الأوبئة بسبب كثرة الجثث ، وامتلأت الطرقات بأمواج من الناس وهم يولولون . ونحن نعلم فى هذا الصدد أن كوبر يولوس أسقف قرطاج قد كتب إلى المؤتمرين فى مجمع أفيسوس يعتذر إليهم عن غياب كهنة افريقيا عن المجمع بسبب الظروف القاسية التى كانت تمر بها البلاد من جراء وبال الوندال : « إن جميع الطرق باتت مسدودة ومقطوعة ، والحق

(١٥١) Augustine, Sermo III, CCCXLV, in P.L., vol5 XXXIX, 1518.

(١٥٢) Leo the Great, Epistulaě, in P.L., vol. LIV, 653.

أن جحافل العدو تطوقنا من كل جانب . وقد عم الخراب فى كل الربوع ، وبدون حدود ، وقتل الكثيرون وهرب البعض دون مقصد يلوذون إليه . وحيثما يلتفت المرء يبصر الدمار وعلامات الأحزان . ومن هنا فإن مجرد التفكير فى إرسال وفد من لدينا أمر أكثر من مستحيل » (١٥٣) .

لما أن اقتربت جحافل الوندال من بوابات قرطاج ، أصيب الناس فى الداخل بفزع شديد ، وهربت أعداد وافرة منهم إلى الجنوب قبالة بيزاسين ، ولكن الوندال قتلوهم عن بكرة أبيهم ، وكان من بين الضحايا بامبنيانوس أسقف ڤيتا ، الذى قتله جند جنزريك بحراب متقدة بالنار ، ثم قاموا أيضاً بإحراق مانسيويتوس أسقف أورستيا . وفى أثناء ذلك كان الكونت بونيفاس قد تلقى بعض التعزيزات من رافنا ، وراح يعسكر وراء أسوار بلدة هيپو . وبات الموقف داخل هيپو حرجاً للغاية : فقد كانت البلدة غاصة باللاجئين ، كما أنها كانت منعزلة عن الاتصال البحرى . وكان أغسطينوس يرقد داخل تلك المدينة التعسة وهو فى حالة مرض شديد . ورغم وطأة المرض ، ظل الرجل يضرب المثل الطيب لمن كانوا من حوله ، من أكليروس وعلمانيين ، فى الصبر وقوة الإيمان ، وكان يتمتم دواماً : « أنت العدل يا إلهى ، وحكمك هو عين الصواب . » ولكنه كان يتضرع إلى السماء كى تلهمه ورعيته بجميل العزاء لكى يتحملوا التجربة القاسية . ولما أن دنت ساعة الخلاص من أوزار هذا العالم ، صاح القديس على مسمع من تلاميذه : « اللهم أطلق عبدك بسلام » . وتلقف الجميع الصرخة وباتوا يتلونها من ورائه فى صوت واحد . وفى الشهر الثالث من حصار الوندال لمدينة هيپو فاضت روح أغسطينوس إلى باريها ، وكان ذلك فى الثامن والعشرين من أغسطس لسنة ٤٣٠ للميلاد . وقد دام الحصار إلى ما يقرب من عام كامل ، وتسلل الأهلون إلى خارج المدينة ، ولما سقطت هيپو كان نصيبها النار والدمار عن آخرها .

أما عن قرطاج فقد ظلت تقاوم الوندال بفضل التعزيزات التى وصلت بقيادة أسبار (Aspar) ، ثم نجحت السلطات الرومانية فى عقد هدنة مع جنزريك سنة ٤٣٥ ، على أن يحتل البرابرة كل الأراضى التى وقعت تحت أيديهم كجند « معاهدين » للدولة الرومانية .

(١٥٣) Copreolus, Epistula I, in P.L., vol. LIII, 845 B.

ولكن جنزريك اتخذ من تلك الهدنة سبيلا لكي يعزز من قواته وموقفه . وبعد قليل أصدر قراراً بنفي ثلاثة من الأساقفة وعلى رأسهم بوسيديوس أسقف كالاما ، ثم حكم على أربعة من النبلاء الأسبان الذين كانوا في خدمته بالنفي أيضاً ، ثم أصدر أمراً بإعدامهم جميعاً ، والسبب في ذلك أن هؤلاء النبلاء رفضوا اعتناق المذهب الأريوسي . وفي نفس الوقت بدأ أسطول الوندال يجوب البحر المتوسط لنهب جزائره . وبات واضح أن جنزريك قد عقد العزم على توطيد قدميه في قرطاج .

لم يكف الأسقف كودفولتيدوس عن مواصلة رسالة أغسطينوس في رفع معنويات الناس في قرطاج . وقد حفظت لنا اثنتا عشرة من مواعظ هذا الرجل ، تدور كلها حول بطش الوندال ، وتهتم في نفس الوقت بالتعازي وبتحذير الرعية من ضغوط الذئب ( جنزريك ) لحمل الناس على اعتناق الأريوسية . وكانت هذه المواعظ تنسب حتى وقت قريب بالخطأ إلى أغسطينوس [١٥٤] . وقد رأى جنزريك في تلك المواعظ استفزازاً لشخصه ، وفي التاسع من أكتوبر لسنة ٤٣٩ ، اقتحم الوندال أسوار قرطاج ، وسقطت المدينة ، واستولى البرابرة على كل ما فيها من ثروة ومتاع ، كما نهبوا الكنائس من نفائسها وأدوات طقوسها ، كما اعتدوا على حرمات النبيلات في المدينة . كذلك مالت معاول الهدم والتخريب على آثار قرطاج وكاتدرائياتها ، كما حولت بعض الكنائس إلى إسطبلات للخيول . وبعد السقوط جبن رجال الدين ، وإن حدث ذات يوم أن ذكر أحدهم من على منبره — بطريق السهو — اسم فرعون أو نبوخذ نصر ، فإن جنزريك كان يفسر ذلك على أنه هو المقصود ، فيقرر بترحيل الكاهن على التو إلى المنفى والعذاب [١٥٥] . وأخيراً جاء دور كودفولتيدوس أسقف قرطاج ، فأمر بوضعه هو ورجاله جميعاً على ظهر إحدى السفن وأرسل بهم إلى نابلي . وهناك عكف الأسقف على كتابة مقال مطول عن الفظائع التي ارتكبها الوندال في شمال أفريقيا [١٥٦] .

---

(١٠٤) Quodvultedus, De quarta feria sive de cultura agri dominici sermo, VII, 9, in P.L., vol. XL, 692; Sermo de tempore barbarico, I, 1, in P.L., vol. XL, 700; Contra Iudaeos, Paganos et Arianos, 21, 22, in P.L., vol. XLII, 1130; Tractatus advessus haeresos, vl, 8, in P.L., vol. XLII, 1108; De cataclysmo ad Catechumenos, v, 7, in P.L., vol. XL, 696.

(١٥٥) Victor de Vita, Historia, 1, 12, p. 7, 4.

(١٥٦) Quodvultedus, Liber promissiorum et praedicatorum Dei, ed. Braun, p. 600, 15.

فرض الوندال نفوذهم على الشمال الأفريقى ، كما سيطر أسطولهم على البحر المتوسط ، وبعد سقوط قرطاج فى أيدى جنزريك باتت كل من روما القديمة وروما الجديدة (القسطنطينية) فى خطر داهم . ولقد عمل الإمبراطور ڤالنتينان الثالث على إصلاح أسوار روما وإقامة التحصينات لحماية ميناء نابلى . وفى سنة ٤٤٠ قام جنزريك بحملة من ميناء قرطاج ، ولكنه لم يعلن عن هدفها ، مكتفياً بقوله « نحن نقصد قوماً أغضبوا الله » غير أن الإمبراطور ڤالنتنيان الثالث شعر أن الحملة موجهة ضده ، فطالب إلى رعاياه اليقظة لمقاومة العدو حيثما ترسو سفنه ، حتى تصل إلى مكان رسوه النجدة الإمبراطورية .

رست سفن جنزريك أول الأمر على شاطئ بلدة ليليبا (Lilyba) ، حيث قام بالقبض على الأسقف باسكازينوس وألقى به فى السجن . ثم هجم الوندال بعد ذلك على جزيرة صقلية ونهبوها . غير أن ذيوع بعض الأخبار عن قرب وصول أسطول القسطنطينية إلى صقلية أجبر جنزريك على المبادرة بالعودة إلى قرطاج .

وفى سنة ٤٢٢ دارت مفاوضات بين ملك الوندال والإمبراطور ڤالنتنيان الثالث ، وقيل إن الإمبراطور قد وافق على زواج الأميرة الرومانية يودوكيا من ابن جنزريك إلا أن تطورات الأحداث فى إيطاليا قد جرت معها وبالا خطيراً : فلقد قام بترونيوس ماكسيموس باغتيال الإمبراطور ڤالنتنيان الثالث ، واغتصب العرش ، ثم زوج يودوكيا ابنة الإمبراطور المقتول ، والتى كانت قد خطبت لابن جنزريك ، لابنه هو . واتخذ جنزريك من تلك الأحداث ذريعة لتجريد حملة لتقليم أظافر بتروينوس مغتصب العرش . وأبحر الأسطول الوندالى إلى بورتو ، وفيها رست كتائب من الوندال والمغاربة ، ثم زحف هؤلاء حتى وصلوا روما . وفى طريقهم أشعلوا النيران فى كنيسة سان هيبوليت دى ازولا ساكرا (Saint-Hippolyte de l'Isola Sacra) ..

وأصيب أهل روما بالفزع عند اقتراب الوندال من المدينة ، فهرب الكثيرون من دورهم ، وكان على رأس الفارين الإمبراطور بترونيوس ماكسيموس نفسه . ولقد كان هذا الموقف المخزى من جانب الإمبراطور مدعاة إلى أن يقوم واحد من رجال حرسه الخاص بقذفه بحجر قاتل ، ثم هجم الجمهور الغاضب على جثة الإمبراطور ومثلوا بها ثم ألقوا بها فى نهر التيبر ! وبعد ذلك الحادث بأيام ثلاثة دخلت كتائب جنزريك إلى مدينة

روما . ولم يكن فى المدينة من يتولى التوسل من أجلها سوى البابا ليون العظيم ، الذى أبدى شجاعة فائقة : إذ قصد إلى معسكر جنزريك وفاوضه على أن يسلم له بعض الكنوز الغالية فى كاتدرائية القديس بطرس مقابل العفو عن المدينة [١٥٧] . ووافق جنزريك على مطلب البابا ، وأصدر أوامره بعدم الإقدام على قتل الأنفس أو إحراق المبانى . غير أنه قد أذن لرجاله بنهب ثروات المدينة ، واستمر النهب الوندالى لروما لمدة أسبوعين كاملين ، تم خلالهما تجريد القصور من محتوياتها الغالية ، كما استولى جنزريك على النياشين والعلامات الإمبراطورية ، واغتصب جزءاً من سقف معبد الإله جوبيتر الكابيتوليني إلى جانب بعض التماثيل القديمة والكنوز التى كان القائد تيطوس قد حملها إلى روما من هيكل سليمان . وحملت هذه الكنوز القيمة على ظهر سفن الوندال ، ولكن واحدة من هذه السفن قد غرقت بما كان على ظهرها من كنوز ورجال . ولعل الدارس يرى فى هذا الحادث علامة على غرق حضارة بأكملها . كذلك حمل جنزريك معه بعض الرهائن ، من بينهم ائتيوس ابن الإمبراطور الراحل والإمبراطورة وابنتاها الاثنتان ، هذا إلى جانب عدد كبير من أعضاء الشيوخ والكتبة وخبراء السلاح . ويروى لنا الكاتب فكتور دى فيتا بعضاً من الجهود التى بذلها ديوجر اسياس (Deogratias) الأسقف الجديد لقرطاج للتخفيف من آلام الأسرى الآخرين الذين جرهم جنزريك وراءه من روما التعسة : « عندما وصل الأسرى الجدد إلى الشاطئ الأفريقى ، قام الوندال والمغاربة باقتسامهم فيما بينهم . وكانت العادة بين البرابرة أن يعزلوا النساء عن أزواجهن ، والآباء عن أطفالهم . ولكن هذا الرجل — ديوجر اسياس — بذل كل ما يملك من ثروة لكى يشترى الأوانى المقدسة التى كان الوندال قد نهبوها من كنائس روما ، ولكى يحرر الأسرى من مخالب الوندال ، ليعيد الأزواج إلى زوجاتهن والأطفال إلى ذويهم . ولما لم يكن هنالك من المأوى ما يتسع لإيواء الأعداد المهولة من هؤلاء التعساء ، فإن الأسقف قد أنزلهم فى بازيليقا فاوستى وفى بازيليقا نوفاروم ، بعد أن زودهما بالأسرة اللازمة . وكانت غالبية الأسرى فى حالة إعياء يرثى لها بسبب العذاب الذى صادفوه على يد البرابرة ، كما كان من بينهم عدد وافر من المرضى . وكان الأسقف يعود المرضى بنفسه ويسهر

(١٥٧) Liber Pontificalis, Vita S. Leonis, 66.

على حالهم مع فريق من الأطباء ، كما أنه وزع عليهم الطعام ، وكان يبيت ساهراً معهم يخفف من آلامهم ويواسى اليائس منهم»[١٥٨]. وسرعان ما دهم المرض هذا الأسقف الطيب فأصيب بنزيف حاد ومات .

أخذ جنزريك يرهب الرومان كل عام بحملة بحرية تستهدف الغنائم ، فى صقلية وجنوب إيطاليا وكورسيكا وأسبانيا . كذلك بدأ حملة اضطهاد شديدة ضد الكاثوليك فى أفريقيا ، ظناً منه أنهم على اتصال خفى بالسلطات الإمبراطورية . ثم قام الملك الوندالى بنفى بعض الأساقفة خارج البلاد ، ولذا فإن عدداً آخر من كبار الأساقفة قد هربوا إلى القسطنطينية . وقد صادر الوندال أملاك هؤلاء الأساقفة ، وتركما أبروشياتهم شاغرة .

فى أثناء ذلك كان الإمبراطور ماجوريان يعد أسطولا ليؤمن به وصول الغلال إلى روما ، ولكن جنزريك قام بخطة مضادة : فخرب موريتانيا تماماً ودمر الموانى التى تصلح لرسو السفن . وقد وجد جنزريك فى سياسة ماجوريان ذريعة جديدة لمضاعفة الاضطهاد ضد الكاثوليك ، فأمر أتباعه بجمع الكتب المقدسة والأوانى الكنسية ، كما قام نفر آخر بتدنيس الكنائس الكاثوليكية وبالاستيلاء على ستائرها وتحويلها إلى ملابس داخلية لهم ؛ وأخيراً قام الوندال بإغلاق بيوت العبادة الكاثوليكية. وعندما تجمع شعب بوللاريجيا (Bulla Regia) للاحتفال بعيد الفصح فى كنيستهم ، هجم عليهم الوندال وأبادوهم جميعاً فى قلب الكنيسة [١٥٩] . وقد أجبر الوندال عدداً من الأساقفة على اعتناق المذهب الأريوسى ، وتم عمادهم وفق الطقوس المهرطقة. أما الذين تمسكوا بإيمانهم الكاثوليكى ، فكان نصيبهم القتل أو الحرق . وقد رأى المعاصرون فى شخص جنزريك صورة « للمسيخ الدجال » (Antéchrist) ، ونموذجاً حيًّا لتلك الحيوانات البشعة التى ورد ذكرها ووصفها فى سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتى . ولدينا موعظة من الشمال الأفريقى ، تعود إلى تلك الفترة من عصر الاضطهاد الوندالى ، نطالع فيها الآتى : « أيها الرب الآب ، أبانا الذى فى الأعالى ، علام كل هذه المحن على ظهر المسكونة ؟ ها هو

---

(١٥٨) Victor de Vita, Historia persecutionis Africanae provinciae, I, 26, ed. M. Petschenig.

(١٥٩) Victor de Vita, op. cit., 1, 141.

ذا وحش الغابات المتبربر يفتح فاه لالتهامنا . . . وها هو الطاغية يصبح سيداً على الأرض ليدنس الكرمة التي منها نبيذ قربانك . . . من ذا الذى يقوى على مغالبة هذا العدو الشرير ؟ لقد هجرتنا الملائكة ، فقويت شوكة النسور على جثث ضحاياها . . . اللهم الهمنا بالصبر من عندك ، واسمح لقديسيك الذين طرحوا فى مخالب العدو أن يفلتوا من التجربة وفعل الشيطان (١٦٠) .

ثم بدأ جنزريك فى إرهاب أراضى الإمبراطورية الشرقية ، فأرسل حملة بحرية قامت بنهب الجزر اليونانية وبأسر بعض رجال الدين فيها . وقد أرسل الإمبراطور ليون الأول أسطوله لمطاردة الوندال ، كما جرد حملة من مصر لغزو طرابلس ، ولكن الأسطول الرومانى بوغت بهجوم مفاجئ ودمرت معظم سفنه على يد الوندال ( سنة ٤٦٨ ) (١٦١) .

فى أثناء ذلك كان جنزريك قد أطلق سراح الإمبراطورة الأسيرة يودكسيا وابنتها بلاسيدا ( ٤٦٢ ) ، ولكنه استبقى ابنتها الأخرى وسميتها يودكسيا وزوجها بالقوة من ابنه هونريك . وقد ظلت هذه الأميرة الرومانية زوجة لهونريك لمدة ١٦ عاماً ، ثم هربت بعدها إلى أورشليم .

بات واضحاً أن الإمبراطورية الشرقية عاجزة تماماً أمام تحديات الوندال ، واضطر الإمبراطور الجديد زينون ( ٤٧٤ — ٤٩١ ) إلى أن يبرم معاهدة سلام مع جنزريك سنة ٤٧٥ ، وقد نصت تلك المعاهدة على عودة الأساقفة ورجال الدين من المنفى إلى أبروشياتهم فى الشمال الأفريقى .

وبعد وفاة جنزريك خلفه على عرش الوندال ابنه هونريك ، الذى بدأ عهده بتجديد معاهدة السلام مع القسطنطينية ، وقد قرب المسافة بينه وبين الكاثوليك عداؤه الشديد لفرقة المانوية . وفى سنة ٤٨١ استجاب لمطالب الإمبراطور زينون فعين أسقفاً لقرطاج اسمه يوجنيوس ، بعد أن ظل كرسى المدينة شاغراً قرابة ٢٤ عاماً . وفى مقابل تسامح هونريك مع الكاثوليك ، تعهد الإمبراطور زينون باتباع سياسة متسامحة مع الأريوسيين فى الولايات الخاضعة للقسطنطينية . غير أن البطريق الأريوسى فى شمال أفريقيا

---

(١٦٠) Pseudo-Fulgence, Sermo XLV, De vita vera, in P.L., vol. LXV, 912.

(١٦١) Procopius, De bello Vandalico, I, 5.

سرعان ما أوغر صدر هونريك ضد الكاثوليك ، ثم طلب منه ألا يسمح لأحد ممن يرتدون الزى الوندالى من ارتياد الكنائس الكاثوليكية . والواقع أن عدداً كبيراً من الرومان كانوا فى خدمة ملك الوندال ، ومن ثم فإنهم كانوا يرتدون الزى الوندالى . وبعد قليل طالب الملك إلى هؤلاء الموظفين أن يقبلوا العماد وفق الطقوس الأريوسية ، ففرت غالبيتهم إلى صقلية وسردينيا .

كذلك أقدم هونريك على موجة اضطهاد وحشية ضد الراهبات : فقد جمعهن فى مجمع كبير ، وأرسل إليهن حراسة مع بعض النسوة الفندالیات ، لكى يفحصن الراهبات للتأكد من صونهن للبتولية . ولقد قامت الخبيرات الجرمانيات بمهمة الفحص بطريقة مقززة : بواسطة صفائح من الحديد المحمى بالنار ، التى كانت تمرر على أكتاف العذارى وبطونهن وخواصرهن وصدورهن . ولما أن صرخت الراهبات من العذاب ، ردت عليهن الفنداليات بالقول : « هيا اعترفن لنا بأن أساقفتكن يضاجعنكن فى الليل » . وقد هلك عدد وافر ممن ثبتن على الإيمان ، كما أصيب عدد آخر منهن بتشويهات بشعة [(١٦٢)] .

أصبح الاضطهاد سياسة عامة فى أفريقيا : ففى سنة ٤٨٣ قرر الوندال ترحيل ٤٩٦٦ من رجال الدين الكاثوليك إلى معسكر موحش جنوبى بلدة بيزاسين . وقد قام المؤرخ فكتوردى ڤيتا بزيارة لهذه المستعمرة ، حيث وجد الأمهات يسمحن لأبنائهن باعتناق المذهب الأريوسى بدلا من التعرض للتعذيب . كما شاهد المسنين من رجال الدين وقد أصيبوا بعاهات قاسية وأيضاً بالشلل ، وقد تيبس البعض منهم فصاروا كأعواد الحطب . وكان هؤلاء المرحلون يلقون مضايقات كثيرة من جانب المغاربة ، الذين كانوا يسرقون بعض الأفراد من المعسكر إلى جوف الصحراء : « إن العدو ( الوندال ) قد اختار بقعة موحشة وكئيبة ليسجن فيها جيش الله . وهم لا يسمحون لهم باستقبال الزوار ، ويقف حراسهم على البوابات ليل نهار . . . وقد تراكم المؤمنون داخل المعسكر وأحدهم على رقبة الآخر بسبب ضيق المكان ، ولكأنهم جحفل من الجراد ، أو ، لكى أكون صادقاً فى وصفى ، كأنهم حبوب من الغلال مكومة فى جرن واحد . وفى مثل هذا الحيز الضيق

(١٦٢) Victor de Vita, op. cit., II, 24.

الخانق لم يكن فى وسع المرء منهم أن يقضى مدعاة الطبيعة الإنسانية ، ولذا فإنهم كانوا مجبرين على التبول والتبرز وهم فى أماكنهم لا يتحركون . أما رائحة العفن المنتشرة فى المعسكر فهى عذاب يفوق كل عذاب . ولقد قمنا بدفع مبلغ باهظ من المال لبعض المغاربة لكى يسهلوا علينا التسلل إلى قلب المعسكر فى غفلة من الوندال . وما أن ولجنا المعسكر حتى شعرنا وكأننا قد ألقى بنا حتى ركابنا فى قلب هاوية من الأوحال الكريهة الرائحة . . . » (١٦٣) .

ولقد أصيب هذا المعسكر بزلزال عنيف ، فساد الهرج والذعر ، وصدرت أوامر الوندال إلى الحراس المغاربة باخلاء المعسكر ممن فيه ، وبجر من لا يستطيع الجرى من المساجين من قدميه كالحيوانات . وقد سقط العديد من هؤلاء التعساء صرعى نتيجة لتلك المعاملة الفظة . ومن لم يهلكه الزلزال أو المغاربة ، بقى ليقاسى أهوالا أشد من الموت ، فكان الواحد منهم يقتات على الحسيكة التى تأكلها البهائم ، كما أن العقارب باتت تنهش فيهم بلدغاتها السامة ، وذلك فى منطقة جنوبى جفصة ، التى رحلوا إليها بعد وقوع الزلزال .

احتج الإمبراطور زينون على هذا الاضطهاد البشع ، واضطر هونريك إلى عقد مجمع سنة ٤٨٤ من الأساقفة الكاثوليك وخصومهم الأريوسيين لمحاجة بعضهم البعض . وقد دارت فى ذلك المجمع مجادلات عنيفة بين سورياليس الكاثوليكى وماكسمينوس الأريوسى .

وكان طبيعياً ألا يسفر المجمع عن نتيجة إيجابية ، خاصة وأن رئاسة المجمع كانت للبطريق الأريوسى كيريلا . ثم اشتط الملك هونريك فى اضطهاده للكاثوليك ، فرحل بعضهم إلى كورسيكا ليعملوا فى قطع الأشجار وإعداد الأخشاب لبناء قطع بحرية تعزز من قوة الأسطول الوندالى . كما أنه قام بطرد عدد آخر من رجال الدين من أبروشياتهم

(١٦٣) Victor de Vita, Historia persecutionis Vandalicae, II, 31, ed. Petschenig, vol. VII, p. 361, I :"Ponuntur et custodes postibus et graviter affliguntur; lactantur confessores Christi super invicem angustia coortante, unus super alium, ut agmina lucustorum, et ut proprie dicatur ut grana pretiosissima frumentorum. In qua constipatione secedendi ad naturalem officium nulla ratio sinebat loci; sed stercora et urinam urguente recessitate ibidem faciebant, ut ille tunc fetor et horror unlversa poenarum genera superaret. Ad quos aliquando, data ingentia munera Mauris, dormientibus Vuandalis vix clam ammissi sumus intrare. Qui introeuntes veluti in gurgite luti usque ad genua coepimus mergi..."

وحولهم إلى رقيق لزراعة الأرض ، وألقى بنفر آخر فى المناجم للقيام بالتعدين [١٦٤] .

ثم حلت مجاعة بالبلاد نتيجة لموسم جفاف شديد ، وهلك بسببها خلق كثيرون . وقرر عدد من الكاثوليك الهرب إلى أسبانيا ، ولكن السلطات الوندالية قبضت عليهم على ظهور السفن ، ثم قامت بقطع ألسنتهم جميعاً . غير أن عدداً قليلا من الهاربين قد نجحوا فى الوصول إلى القسطنطينية ، حيث استقبلهم الإمبراطور وفتح لهم بوابات قصره ، وكان أهل العاصمة ينظرون إليهم ولكأنهم بقايا من معجزة .

توفى الملك هونريك سنة ٤٨٤ ، فخلفه على عرش الوندال الملك جونتاموند ( ٤٨٤ — ٤٩٦ ) ، وكان الملك الجديد أقل عنفاً من سلفه ، فأبدى بعض التسامح مع الكاثوليك فى بداية عهده ، ثم أعاد يوجنيوس أسقف قرطاج من منفاه ، كما سمح للكاثوليك بممارسة طقوسهم الدينية دون خوف . كذلك أبدى جونتاموند حماساً لبعث التقاليد والآداب الرومانية ، فى قرطاج ، فجمع من حوله نفراً من محبى الشعر القديم ، وطلب منهم نظم المديح لشخصه وبطولاته الحربية . غير أن واحداً من هؤلاء الشعراء اسمه دراكونتيوس قام بقرض قصيدة فى مدح الإمبراطور الرومانى ، فقبض عليه الوندال وجلدوه ، ثم ألقوا به وبأفراد عائلته جميعاً فى غياهب السجون . وبعد بضع سنين من السجن والجوع ، قرر الشاعر أن ينظم قصيدة يستعطف بأبياتها ملك الوندال ، ويعتذر عن خطئه السابق ، ويطلب المغفرة ، على أن يكرس يراعه فيما تبقى له من عمر فى تخليد أعمال الوندال . ويبدو أن أمر العفو عن الشاعر لم يصدر ، فوجد صاحبنا نفسه فى نهاية الأمر يقرر أن الوندال قوم لا يتذوقون طعم الأدب [١٦٥] .

وفى سنة ٤٩٦ اعتلى عرش الوندال الملك ترازا ماموند ( ٤٩٦ — ٥٢٣ ) ، وكان محباً للثقافة ومغرماً بالاستماع إلى قصائد الشاعر فلورنتيوس ، الذى أطنب فى مديح هذا الأمير الوندالى إلى حد تشبيهه بالأباطرة : فهو يحكم ليبيا والأراضى الدافئة بشمس البحر المتوسط ، وهو يجمع بين الحكمة والخلق القويم ، وفضائله الروحية هى أحلى ما يزدان به الرجال ، وروحه نقية تعلو على كل الشهوات الجسدية ، وهو الوحيد الذى يفضل كل

---

(١٦٤) Victor de Vita, op. cit., III, 17.

(١٦٥) Dracontius, Satisfactio, vs. 93 - 94; 283.

أمزاء العالم ، بل إنه أعظم من ملوك بارثيا وليديا وغيرهم من العمالقة القدامى (١٦٦) .

وكان ترازا موند مهتما بوجه خاص بقضايا اللاهوت ، بهدف تفنيد آراء الكاثوليكية وإعلاء شأن المذهب الأريوسى . وقد شعر الأساقفة الكاثوليك بالخطر ، ففر روفنيانوس إلى جزيرة صغيرة على مقربة من صقلية ، ولجأ بوزسور (Possessor) إلى القسطنطينية ، وفى نفس الوقت توفى يوجنيوس أسقف قرطاج فى منفاه فى ألبى (Albi) . وقبضت السلطات الوندالية على عدد آخر من الأساقفة وألقت بهم فى السجون ، وعمد فريق آخر إلى اعتناق المذهب الأريوسى حفاظاً على حياتهم ومناصبهم .

أثارت موجة الاضطهاد الجديدة ردود فعل مريرة فى كل من القسطنطينية وميلانو ، رغم أن إيطاليا فى ذلك الوقت كانت تحت قبضة الملك القوطى الشرقى ثيودريك الأريوسى المذهب . أما فى القسطنطينية ، فقد كان الإمبراطور أنستاسيوس قد خرج عن التعاليم الكاثوليكية وانحاز إلى الاتجاهات المونوفيزية ، ولذا فإنه لم يبذل جهداً لمساعدة الكاثوليك فى شمال أفريقيا وقت محنتهم .

استغل ترازا موند الموقف ، فترك الأسقفيات الكاثوليكية الشاغرة دون أساقفة جدد ، القمع كما رحل نفراً آخر منهم إلى سردينيا . ولكن كنيسة أفريقيا الكاثوليكية لم تستسلم لسياسة القمع الوندالية ، بل هب أبناؤها المخلصون للدفاع عنها ضد الطغيان ، وكان على رأس المكافحين راهب اسم فولجنتيوس ، الذى كان قد نفى مع مائتين من الأساقفة إلى جزيرة سردينيا . قام الراهب بالتصدى للآراء الأريوسية وأخذ فى تفنيدها بطريقة علمية . وقد طارت شهرة هذا الرجل إلى شتى مدائن البحر المتوسط ، إذ كان يبعث لكل من يستفسر منه فى مسألة لاهوتية بمقولة مطولة ضد التعاليم الأريوسية . ووجد الملك الوندالى ترازاموند نفسه مضطراً إلى أن يعيد الراهب إلى شمال أفريقيا ، على أمل الوصول معه إلى اتفاق يرضى الأريوسيين والكاثوليك جميعاً . غير أن فولجنتيوس وضع مقالتين : الأولى « ضد الأريوسيين

---

(١٦٦) Florentius, In laudem Thrasamundi, ed. Riese, Anthologia Latina, vol. I, I, p. 288 :

"Imperiaḷe decus Thrasamundi gloria mundi,
regnantis Libyae. Toto sic clarior orbe
sol radiante micans cunctis super enitet astris.
In quo concordant pṛetas prudentia mores.
Virtus forma decus animus sensusque virilis,
invigilans animo sollersl super omnia sensus..."

والثانية موجهة إلى الملك ترازاموند يدعوه فيها إلى نبذ الهرطقة الأريوسية والدخول هو وشعبه إلى حظيرة الإيمان الكاثوليكي (١٦٧) .

ولكن جرأة فولجنتيوس أزعجت الأساقفة الأريوسيين فى مملكة الوندال ، ونصح الخلصاء لمليكهم أن يبعث بالراهب مرة أخرى إلى المنفى . وبالفعل تم القبض على الرجل لترحيله إلى المنفى ، ولكن جماهير الكاثوليكية تجمعت من حوله تهتف بشجاعته . ولم يفوت فولجنتيوس الفرصة ، فألقى على الجموع قصيدة ملتهبة يحث فيها رعاياه على الاستبسال ضد الطغيان ، والصبر على الاضطهاد والتعصب والتفرقة المذهبية ومصادرة الكنائس الكاثوليكية .

ويحذرهم أيضاً من فخاخ الأريوسيين الذين قد يستدرجونهم للصلاة فى كنائسهم المهرطقة ؛ لأنها ليست ببيوت عبادة وإنما هى مغارات لصوص ومراتع دنس للروح . ويوصى الرجل أتباعه بالتمسك بكنف أمهم الطاهرة الكنيسة الرومانية ، وبالتضرع إلى رب السموات لكى تثمر كلمة الحق التى بذرها هو وإخوانه فتكون الثمار مجزية لهم وله ، فى استحقاق إكليل النعيم مع الصالحين والقديسيين من ورثة السماء(١٦٨) .

بعد هذا اعتلى عرش الوندال الملك هلدريك (Hilderic) الذى كان ابناً لهونريك من زوجته الرومانية الأميرة يودوكسيا . وكان هلدريك متشربا بالحضارة الرومانية منذ نعومة أظفاره بفضل رعاية والدته ، وكان يحلو له أن يذكره رجاله بأنه من نسل ڤالنتنيان الثالث وهونوريوس وثيودوسيوس العظيم . وكان الملك الجديد حلو الطبع ، فقرر إيقاف سياسة الاضطهاد ضد الكاثوليك ، رغم وصاية والده له على فراش الموت بضرورة تقليم أظافرهم . وقد قام بإعادة الأساقفة الكاثوليك من المنفى إلى أبروشياتهم فى الشمال الأفريقى ، وسمح لهم بحرية العبادة وفق طقوسهم دون حرج . كذلك عين أساقفة جدداً للأبروشيات الشاغرة ، وصار لقرطاج أسقف جديد بعد فراغ دام ثمانية عشرة عاماً . كذلك راح

(١٦٧) Fulgentius, Ad Thrasamundum, 1, 2, in P.L., vol. LXV, 226 D.

(١٦٨) Fulgence de Ruspes, Psaume abecedaire, vs. 290 - 306, ed. C. Lambot, dons Revue benedictine, t. XLVIII, 1936, p. 233:

"Infideles arrianos non debemusformidare
qui nunc positi videntur in saeculi potesate
et catholicos adfligunt perseverantes in fide.
Immo magis gaudeamus in omni tribulatione.

هلدريك يتقرب من الإمبراطور الرومانى فى القسطنطينية لخلق جو من السلام والمحبة بين الطرفين . وأحاط الملك الوندالى نفسه برتل من الوزراء الرومان ، ثم حول قصره إلى قطعة من الفن الرومانى الأصيل . كما أنه سمح للكاثوليك بالتعبير عن آرائهم الدينية والسياسية فى صراحة ويقين . ولذا فإننا نجد المجاهد القديم فولجنتيوس ، الذى أصبح الآن أسقفاً على أبروشية روسبيس (Ruspes) ، يعلن صراحة تعاطفه وإعجابه بشخص الإمبراطور الشرقى فى القسطنطينية ، الذى رأى فيه الحامى الطبيعى للكاثوليكية فى المسكونة كلها [١٦٩] .

ولقد رأى الوندال فى هذا الرأى الأخير وأشباهه الخطر كل الخطر الذى بات يهدد كيانهم ومذهبهم الأريوسى . ولذا فقد دبر نفر من نبلاء الوندال مؤامرة بقيادة زعيم اسمه جلمير ، وقاموا بعزل هلدريك عن العرش سنة ٥٣٠ ، ثم ألقوا به فى السجن.

وشعر الكاثوليك فى الشمال الأفريقى بأن نهايتهم قد قربت ، مالم تتحرك القسطنطينية من نومها العميق .

---

De cateris autem, fratres, caute vos ipsos servate,
ut in ecclesiis illorum num- quam intretis orare.
Non sunt ecclesiae Dei, sed sunt latronum speluncae,
mocellus est amissorum et introitus gehennae.
omnes ergo filii Dei qui volunt heredes esse
intra sinum matris suae debent patrem postulare
et non eant ad novercam quae wpit omnes necare.
Nos seminaulimus verbum, vos fructus bonos proferte
et coram domino Deo semper pro nobis orate,
ut pariter mereamur cum salvatore regnare.."

(١٦٩) Fulgentius, De veritate praedestinationis, II, 22 38, in P.L., vol. LXV, 648 Ai

# الفصل السادس

## القوط الشرقيون فى إيطاليا

كانت أحوال إيطاليا مضطربة تماماً طيلة القرن الخامس: فلقد تعرضت لهجوم قوطى غربى بقيادة آلارك ، ثم لغزوة وندالية بقيادة جنزريك ، وخرب الاثنان مدينة روما تباعاً . وبعد موت الإمبراطور فالنتنيان الثالث ، تعاقب على العرش الرومانى عدد وافر من الأباطرة ولكنهم لم يعمروا كثيراً ، وقد هلك أغلبهم نتيجة لمؤامرات القصر وقادة الفرق المرتزقة بالجيش الرومانى . والواقع أن معظم هؤلاء الأباطرة كانوا قد وصلوا إلى العرش بمساعدة الزعماء الجرمان ، سواء أكان هؤلاء من القوط الغربيين أو من البرغنديين أو من الوندال . ولقد نظر الإمبراطور الشرقى فى القسطنطينية إلى هؤلاء الأباطرة على أنهم مغتصبون للعرش . أما عن الكتائب الإمبراطورية فى الغرب فقد باتت مؤلفة من عناصر متبربرة ، سيطر زعماؤها على مقاليد الأمور .

وفى سنة ٤٧٦ قررت بعض الفرق المتبربرة الاستقرار فى إيطاليا ، ثم هجمت على مدينة بافيا ، حيث كان والد روميلوس أغسطيولوس آخر الأباطرة الرومان فى الغرب مختبئاً ، وأشعلوا فى المدينة النيران . ثم أعلنت هذه الجماعات ولاءها لزعيم هريولى اسمه أدواكر ، وطالبت به ملكاً على إيطاليا . وأصبح أدواكر ملكاً ، ثم كافأ أتباعه بتوزيع ثلث أراضى إيطاليا هبات لهم على جهودهم وولائهم له . وسارع مجلس الشيوخ الرومانى إلى الاعتراف بأدواكر ، وأوفدوا سفارة من بينهم إلى القسطنطينية لتطلب من الإمبراطور زينون أن ينعم على أدواكر بلقب « باتريكيان » ، وبأن يفوضه فى حكم إيطاليا . ولم ينتظر أدواكر رداً من زينون ، والحق أن الإمبراطور الشرقى لم يكن فى موقف يسمح له بتحدى أدواكر . وكان أدواكر قد أجبر الإمبراطور روميلوس أغسطيولوس على أن يمثل أمام مجلس الشيوخ ، حيث عزله من منصبه وجرده من علامات الإمبراطورية ثم أرسله إلى المنفى فى نابلى . وبعث أدواكر بالعلامات الإمبراطورية إلى الإمبراطور الشرقى

زينون ، مؤكداً له أن النصف الغربى للدولة لم يعد بحاجة إلى إمبراطور ، لأنه — أى أدواكر — قد قرر أن يصبح ملكاً على إيطاليا .

اضطلع أدواكر بمهمة الدفاع عن إيطاليا ضد الإغارات المتكررة على أراضيها من جانب جماعات كانت قد استقرت على شواطئ الدانوب فى منطقة نوريكوم ، من الروجيين والثورنجيين والألمان. وقد وجه الملك الجرمانى حملتين ضد الروجيين ، أصابتا بعض النجاح . ورغم هذه الجهود إلا أن منطقة الدانوب ظلت تمثل تهديداً على إيطاليا . ففى سنة ٤٨٨ فرت أعداد كبيرة من السكان نحو البندقية تحت إشراف الكونت بيئريوس (Pierius) من وجه البرابرة ، وفى نفس العام أيضاً بدأت جماعة القوط الشرقيين زحفها على إيطاليا بهدف القضاء على أدواكر نفسه .

كان القوط الشرقيون أعداء قدامى للإمبراطورية الرومانية منذ هزيمتهم المرة على يد المغول واضطرارهم إلى الخدمة فى جيش آتيلا الجبار ضد المصالح الرومانية . وبعد هزيمتهم على يد آتيلا ، أصبح القوط الشرقيون جنداً « معاهدين » فى خدمة الدولة الرومانية ، وسمحت لهم السلطات بالاستقرار فى معسكراتهم فى موئيزيا السفلى . غير أن ملكهم الجديد ثيودريك الذى كان قد أمضى فترة طويلة رهينة فى البلاط الإمبراطورى فى القسطنطينية أصبح على صلة وطيدة بالإمبراطور الشرقى زينون . وقد حصل الملك القوطى من الإمبراطور على تفويض فى شن الحرب ضد أدواكر فى إيطاليا . وقد سلك ثيودريك فى زحفه على إيطاليا الطريق التقليدى عبر أقويليا ، ثم انقض على غريمه وألحق به هزيمتين متتاليتين ، واضطر أدواكر إلى الاحتماء وراء أسوار راڤنا . ولقد ألقى الرومان بتأييدهم وراء الجواد الرابح كما هى عادتهم ، فأخذوا يتملقون ثيودريك ويتنكرون لحاميهم أدواكر . ثم دخل ثيودريك مدينة ميلانو دون أن يصادف مقاومة تذكر ، وأرسلت مدن الشمال الإيطالى سفاراتها لتهنئة الزعيم الجديد على انتصاراته المتلاحقة وللترحيب بمقدمه . وقد شاركت روما ومدن الجنوب الإيطالى وجزيرة صقلية فى الترحيب بالملك القوطى الشرقى .

غير أن تطوراً مفاجئاً قد قلب الموقف : ذلك أن فرقة من رجال أدواكر ، التى كانت قد هجرته وانضمت إلى معسكر ثيودريك ، قد تمردت على الأخير ورجعت للخدمة تحت لواء سيدها الأول . واضطر الزعيم القوطى إلى الانسحاب من ميلانو ،

فدخلها أدواكر ثم ألقى القبض على أسقفها لورنتيوس وعلى أعيان المدينة الموالين لثيودريك ، وأرسل بهم جميعاً إلى المنفى فى صقلية والجنوب الإيطالى(١٧٠) . وأخذ نفوذ أدواكر فى الازدياد فى شمال إيطاليا بينما أخذت أسهم ثيودريك فى التدهور . واضطر الملك القوطى الشرقى إلى الهروب إلى مدينة بافيا هو وعائلته وحرسه الخاص للاحتماء وراء أسوار المدينة .

وقد كان من نتيجة تقلب الأحوال على هذا المنوال أن أصيبت المدن الإيطالية بالخراب والفقر ، كما يتضح لنا من رسائل البابا جيلازيوس ، حيث يضع مسئولية الدمار الذى أصاب إيطاليا وضواحى روما على الزعيمين الجرمانيين المتكالبين على الحكم(١٧١) . كما أن البابا يتحدث فى مقام آخر عن وقوفه ضد أدواكر الأريوسى المذهب ومقاومته له ، مشبهاً موقفه هذا بموقف يوجنيوس أسقف قرطاج من طاغية الوندال هونريك(١٧٢) .

لم ينقذ ثيودريك من ورطته إلا وصول فرق قوطية غربية من غالة لمؤازرته ضد خصمه الهريولى أدواكر ، ودارت الدائرة على أدواكر ، فهرب إلى رافنا وبقى وراء أسوارها لايجرؤ على التحرك منها لمدة عامين ونصف . ثم توسط أحد الأساقفة واسمه يوحنا لإبرام هدنة بين ثيودريك وأدواكر ، وأقيم استقبال حافل للملك ثيودريك فى رافنا حيث وقعت معاهدة سلام بين الطرفين . ثم دبر ثيودريك مؤامرة دنيئة — على مأدبة عشاء — تم فيها اغتيال أدواكر وأتباعه وأفراد أسرته .

وبعدها بدأ فى تقليم أظافر الإيطاليين الذين ساندوا أدواكر ، وكلف لجنة خاصة بتولى هذه المهمة ، على أن تقوم اللجنة بتجريد كل من تثبت إدانته من حقوقه المدنية .

---

(١٧٠) Cassiodorus, Variae, I, 3, 3, ed. Mommsen, in M.G.H., Auct. ant., vol. XII, Berlin, 1894, p. 12.

(١٧١) Gelasius I, Epistula ad universos episcopos per Picenum (November 493), ed. Guenther, C.S. E.L., vol. XXXV, I, p. 357, 4 : "Barbaricis hactenus dolebamus incursibus maxime vicinas urbi provincias et bellorum saeva tempestate vastari..."

(١٧٢) Ibid, Epistula ad Dardanios, XCV, 63 (Feb. 496), ibid., p. 391, 14 : "Ecce nuper Honorico regi Vandalicae nationis vir magnus et egregius sacerdos Eugenius Carthaginensis episco- pus multique cum eodem catholici sacerdotes constanter restitere saevienti cur- nctaque extrema tolerantes hodieq persecutoribus resistere non omittunt. Nos quoque Odovacri barbaro haeretico regnum Italiae tunc tenenti, cum aliqua non facienda praeciperet, deo praesta- nte nullatenusparvisse manifestum est."

غير أن لورنتيوس أسقف ميلانو وأبيفانيوس أسقف باڤيا سافرا إلى راڤنا لمقابلة ثيودريك وللتوسل إليه بضرورة تجاهل أمر تلك اللجنة ، وقد استجاب الملك لمطلبهما . كذلك طلب منه البابا سيماخوس ألا يعزل الشيوخ الذين قد اضطروا إلى تعيين أدواكر ملكاً على إيطاليا .

وقد أثار ثيودريك دهشة المعاصرين فى موقفه من نبيل رومانى اسمه ليبريوس ، الذى كان من حزب أدواكر حتى النهاية . ويبدو أن الملك القوطى — الذى كان عليماً بنفاق الرومان — قد أعجب كل الإعجاب بوفاء ليبريوس وأصالته ، لأنه لم يتخل — مثل الآخرين — عن أدواكر فى وقت محنته ، بل ظل وفيًّا له حتى مقتله . وقد عبر الملك القوطى عن مشاعره تجاه ليبريوس فى رسالة بعث بها إلى مجلس الشيوخ تضمنت الآتى : « إنه ( ليبريوس ) لم يسارع للانضمام إلى حزبنا كلاجئ رخيص ، ولم يتنكر أبداً لسيده ( أدواكر ) وقت الشدة أو يتظاهر بالكراهية له لضمان الحظوة عندنا ، بل بقى على مبدئه ، ولم تفسد شخصيته تقلبات الأزمان ، صابراً على حكم الله وقضائه . ولم تسول للرجل نفسه أن يسعى لكسب عطف الملك الجديد ، بل ظل حتى النهاية وفيًّا لسيده أدواكر »[١٧٣] .

ولقد كان هذا الوفاء من جانب ليبريوس سبباً فى أن يختاره ثيودريك مساعداً له فى بلاط راڤنا لكى يشرف على « المؤاخاة » بين القوط والرومان . ويبدو أن ليبريوس قد نجح فى المهمة التى وكلت إليه ، فنال إعجاباً متزايداً من جانب سيده الجديد : « يسرنا أن نعلن أن ليبريوس قد ألف بين قلوب القوط والرومان لا فى مجال الأرض الزراعية فحسب ، وإنما أيضاً فى محبة القلب . إن جيرة الناس بعضهم للبعض الآخر تؤدى بالضرورة إلى قيام الخلاف بينهم ولكن حكمة ليبريوس قد مكنته من توزيع الأرض فى هوادة ، ومن خلق روح متضامنة بين الفريقين وحدت بينهما فى الإرادة .

إن هذا الإنجاز أمر رائع لا نظير له فى السابق ، وهو أمر يستوجب كل الثناء . . . ها هى البغضاء تتحول إلى محبة بين الشعبين . إن الرومانى وهو يتنازل عن جزء من أرضه للقوطى يضمن لنفسه ولأرضه حامياً أكيداً يوفر له الأمن .

وإننا لا نبالغ عندما نقرر أن هذه النتائج الطيبة ترجع إلى حكمة ليبريوس الذى

(١٧٣) Cassiodorus, op. cit., II, 16, 2.

وطد أواصر المحبة فى قلوب الشعبين »[١٧٤] .

سعى ثيودريك إلى كسب محبة الرومان ، فعمل على إطلاق سراح العديدين من الأسرى الرومان الذين كانوا فى أيدى البرغنديين ، فبعث بسفارة مؤلفة من أنوديوس وأبيفانيوس من بلدة باڤيا ، وفكتور من تورينو إلى مدينتى ليون وجنيف للتفاوض مع السلطات البرغندية لإطلاق سراح هؤلاء الأسرى . « وقد استجاب البرغنديون لمطلب ثيودريك وأطلقوا سراح ٦,٠٠٠ من الإيطاليين ، ولما أن عاد هؤلاء إلى وطنهم أمر ثيودريك بإعادة أراضيهم إليهم (سنة ٤٩٤) . وقد ساهم هذا الموقف فى إعلاء قدر الملك القوطى الشرقى فى نظر الرومان ، ويلاحظ أن معظم وزرائه كانوا من النبلاء الرومان وعلى رأسهم الوزير كاسيودوروس .

على أنه ينبغى ملاحظة أن القوط الشرقيين كانوا على المذهب الأريوسى ، ولذا فإنهم حيثما استقروا فى إيطاليا قاموا بإنشاء كنائس خاصة بهم ليمارسوا فيها طقوسهم على مذهبهم ، الذى كان ينظر إليه من قبل الشعب الرومانى على أنه هرطقة .

وفى سنة ٥٠٠م قام ثيودريك بزيارة لروما ، ثم قصد فى خشوع زائد إلى ضريح القديس بطرس ليؤدى لكبير الرسل فروض الولاء والاحترام ، ولكأنه بهذا المسلك واحد من أبناء الكاثوليكية . وقد أدى هذا السلوك المهذب من جانب الملك الأريوسى المتبربر إلى خلق شعور من الارتياح بين الأوساط الدينية فى روما . وقد قرض الشاعر أنوديوس قصيدة أشاد فيها بموقف ثيودريك (سنة ٥٠٦) وعبر فيها بأن روما تنتظر على يديه بعثاً جديداً ، وأن المدن الإيطالية تتطلع إلى أن تخرج بهمته من أكفانها . كذلك أكد الشاعر أن الملك القوطى قد بعث نهضة أدبية تبشر بعصر ذهبى للبلاد ، وأنه أمن الناس على مذهبهم الكاثوليكى رغم أريوسيته . ولكن الشاعر والرومان معه يشعرون بلوعة واحدة وهى أن ثيودريك ليس له وريث ولد ليخلفه فى حكم إيطاليا . ولا يتحرج هذا الشاعر من أن يخلع على الملك المتبربر لقب « إمبراطورنا » (Imperator noster) [١٧٥]

وفى سنة ٥٢٢ م قرض النبيل الرومانى بؤثيوس قصيدة فى مديح ثيودريك ، بمناسبة

---

(١٧٤) Ibid., 5.

(١٧٥) Ennodius, Libellus pro. synodo, 36 - 37.

تعيين ابن لبؤثيوس فى منصب القنصلية . وكان ثيودريك قد أنعم على أسرة بؤثيوس بنعم كثيرة ، كما أنه شجع بؤثيوس وحماه سيماخوس على البحث فى الآداب والفلسفة القديمة .

وفى نفس الوقت انكب كاسيودوروس على جمع مادة تاريخية يمجد بها سيرة القوط ، وكان فى ذلك يتبع خطى والده الذى كان هو أيضاً فى خدمة البلاط القوطى . وقد أصبح كاسيودوروس كبير وزراء ثيودريك ، واختص بالمراسلات الملكية فى الديوان وقد حرص فى تلك المراسلات على ألا ينعت القوط الشرقيين بكلمة « المتبربرين » المألوفة فى سجلات العصر . وفى كتابه عن تاريخ القوط يبشر كاسيودوروس بعصر جديد يتناغم فيه القوط مع الرومان : « كما أن أراضيكم — أيها القوط — تلاصق أملاك الرومان جنباً إلى جنب ، فإنه ينبغى عليكم أن توطدوا هذا الجوار بالمعاملة الطيبة . وعليكم يا معشر الرومان أن تحبوا القوط من قلوبكم ، لأنهم فى وقت السلم يزيدون من عدد سكانكم ، وفى وقت الحرب يذودون عن الدولة بسلاحهم الذى لا يقهر »[(١٧٦)] . ويرى الكاتب أن حكومة ثيودريك سوف تعيد السلام لشعب روما ، وينصح بنى جلدته بأن يتجاهلوا بعض الأحداث الفردية التى قد تقع من بعض القوط . ويرسم كاسيودوروس لسيده صورة الملك ، الذى وإن كان مستبداً إلا أنه حاكم مستنير يحقق المثال الأعلى للحكم الذى كان يحلم به أفلاطون . وعندما عين يوثارك (Eutharic) — زوج ابنة ثيودريك — ولياً للعهد فى حكم إيطاليا ، نظم كاسيودوروس مديحاً فى شخص الأمير الشاب ، ثم عرج على سيرة القوط الباكرة ، فى محاولة لتبرير حوادث العنف التى وقعت من جانبهم ضد الرومان . ويمتدح الكاتب أيضاً الزعيم القوطى الغربى آلارك ويشيد بحسن معاملته لشعب روما بعد سقوط مدينتهم فى يده سنة ٤١٠ م . هذا وقد طلب ثيودريك من وزيره كاسيودوروس أن يضع تاريخاً كاملا لأمة القوط ، وقد أنجز الكاتب هذا العمل فى ١٢ جزءاً ، ولم يصل إلينا من هذه الكتابات إلا موجز فى كتاب المؤرخ جوردان بعنوان « القوط » . ونطالع فى هذا التاريخ أن النسب الأول للقوط يرجع إلى السكيزيين وإلى أعرق بيوت النبالة الجرمانية وهو بيت آمالى ، أى « اللامعين » .

(١٧٦) Cassiodorus, Variae, VII, 3, 3.

أما غزوات الشعوب الجرمانية للأراضى الرومانية فهى علامات على الشجاعة والرجولة ، وهى صفات امتدحها يوليوس قيصر نفسه [١٧٧] . ويخص الكاتب أمة القوط ، دون سائر الشعوب الجرمانية الأخرى ، بالحكمة : « إن هذه الأمة كانت تحت لواء ملك فيلسوف هو زالموكسيز (Zalmoxes) الذى شهد له جميع الكتاب بالعلم والمعرفة . وقبله كانت أمة القوط تنعم بحكام حكماء ، من بينهم زيوتاس (Zeutas) ثم ديقنيوس (Dicineus) ، كما كان لدى القوط أساتذتهم الذين علموهم الحكمة . ولقد ظلت هذه الأمة طيلة تاريخها أمة مستنيرة تتميز عن سائر الشعوب الجرمانية المتبربرة الأخرى ، وهم فى هذا التميز صنو للإغريق ، كما شهد بذلك الكاتب ديون الذى سجل تاريخ القوط باللسان اليونانى » [١٧٨] . ويزعم الكاتب بعد هذا أن جنس القوط قد زودوا روما بإمبراطور من أصل قوطى هو ماكسيميان ، ولكن هذا الزعم ليس له ما يبرره على ضوء الدراسات الحديثة . ثم يشبه الكاتب الملك القوطى هرمانارك بالإسكندر الأكبر المقدونى [١٧٩] . ويقرر أن القوط قد دخلوا فى خدمة الدولة الرومانية منذ عهد قسطنطين العظيم كجند « معاهدين » . أما عن اعتناق القوط للمذهب الأريوسى ، فإن الإثم فى هذا ليس من صنع القوط أنفسهم بقدر ما يرجع إلى سياسة الإمبراطور ڤالنس الذى كان على الأريوسية ، فأرسل بمبشرين آريوسيين نشروا هذا المذهب المهرطق بين أمة القوط . وإذا كان القوط قد حملوا السلاح ضد الإمبراطور ڤالنس سنة ٣٧٨ ، فإن هذا يرجع إلى اليأس الذى وقعوا فيه فى معسكراتهم ، لأن المنطقة التى سمح لهم بالاستقرار فيها كانت جرداء فقيرة ، كما وأن الجنرالات الرومان كانوا يبيعون القوت الضرورى للقوط بأسعار باهظة ، وليتهم باعوهم مؤنا تؤكل بل باعوهم لحوم الكلاب والحيوانات النجسة ، كما أنهم أكرهوهم على دفع أبنائهم إلى الرق . ولما أن استفحل الخطر اضطر القوط إلى اللجوء للسلاح للدفاع عن أرواحهم ، ولو أدى هذا إلى القضاء على « السلام الرومانى » [١٨٠] .

---

(١٧٧) Jordanés, Getica, XI, 68, ed. Mommsen, in M.G.H., Auct. ant., Vol.V,Berlin, 1882, p 73, 21.

(١٧٨) Ibid., V, 39, p. 64, 5.

(١٧٩) Ibid., XXIII, 116, p. 88, 7.

(١٨٠) Ibid., XXVI, 137, p. 94, 2.

ويمضى جوردان — نقلا عن كاسيودوروس — ليبين أن آلارك قد زحف على روما وهو يشعر بالأسف الشديد ، وقد دفعه إلى هذا المسلك تلك السياسة الرعناء التى كان ينتهجها الأخوان أركاديوس وهونوريوس ، اللذان قطعا الرواتب والمؤن عن القوط ، الذين ظلوا فى خدمة الدولة الرومانية . كما أن القائد ستيليكون قد غدر بآلارك فى واقعة پوللنتيا ، رغم الهدنة المبرمة بين الطرفين . ولما أن سقطت روما فى أيدى آلارك عامل أهلها بالرحمة ، ومنع جنوده من ارتكاب الجرائم أو إشعال الحرائق . كما وأن القوط الغربيين هم الذين تحالفوا مع الرومان فى الكفاح ضد جرائم الوندال ، وهم أصحاب اليد الطولى فى دحر الجبار آتيللا المغولى فى غالة(١٨١) .

وإذا كان الملك القوطى الغربى يوريك قد أنهى الحكم الرومانى فى غالة ، فإن ذلك يرجع ، عند نفس الكاتب — إلى أن أباطرة تلك الفترة كانوا يتكالبون على العرش بطريقة مخزية ويستعدون الزعماء الجرمان على خصومهم للحصول على التاج .

أما ثيودريك فهو الملك الشرعى لإيطاليا ، لأن الإمبراطور الشرقى زينون قد فوضه فى ذلك الحكم(١٨٢) .

على أنه لكى يبرهن ثيودريك على حسن نواياه تجاه الرومان ، فإنه كان ينبغى عليه أن يترجم هذه الأقوال إلى أفعال ، وذلك بأن يصون مصالح أهل الأرض من جور بنى جلدته . ولكن ثيودريك كان ملكًا طموحًا ، وكان يهدف إلى تثبيت أقدامه فى إيطاليا وأيضًا إلى الظهور أمام إمبراطور القسطنطينية بمظهر الزعيم الأكبر لكل الشعوب الجرمانية فى غرب أوربا . وقد نتج عن هذه السياسة الطموحة من جانب ثيودريك أن أية بادرة معارضة لمواقفه صارت أمرًا لا يغتفر . وقد جاء الاختبار الصعب لنوايا ثيودريك من منطقة بروڤانس ، حيث كانت عدة قوى متبربرة تتصارع على تلك الأرض : من برغنديين وفرنجة وقوط غربيين ثم القوط الشرقيين .

بدأ الصراع أصلا بين الفرنجة بزعامة كلوڤس وبين القوط الغربيين أسياد تولوز . وكان الزعيم الفرنجى قد إعتنق الكاثوليكية ، ومن ثم أخذ على عاتقه مهمة محاربة القوط

(١٨١) Ibid. XXXVI, pp. 107 - 108.

(١٨٢) Ibid., LVII, 389, pp. 132 - 33.

الغربيين فى غالة بحجة أريوسيتهم . والواقع أن رجال الدين الكاثوليك الخاضعين للقوط الغربيين راحوا يرنون بأبصارهم نحو كلوفس الفرنجى عله يخلصهم من نير القوط الغربيين . وليس من باب الصدفة أن المؤرخ جريجورى أسقف تور يشبه كلوفس بعد اعتناقه للكاثوليكية ، تلبية لطلب زوجته البرغندية كلوتلدة ، بالإمبراطور قسطنطين العظيم[١٨٣] . وقد أحس آلارك الثانى بالخطر الفرنجى ، فهجم على مدينة تور وطرد أسقفها ڤوازيانوس ، وفى سنة ٥٠٥ قام بنفى الأسقفين روريكيوس من ليموج وسيزاريوس من آرلس إلى مدينة بوردو ، ظناً منه بأنهما يتآمران فى الخفاء لتسليم مدينة أرلس للبرغنديين حلفاء الفرنجة . وفى سنة ٥٠٦ نشر آلارك الثانى مقننة بعنوان « المختصر » (Breviarium) فى القانون الرومانى ، وذلك لكى يحبب الرومان فى حكم القوط . ثم أعاد بعض الأساقفة من منفاهم إلى أبروشياتهم ، وسمح للكاثوليك بعقد مجمع لهم فى مدينة أجديا (Agdea) ، وقد ورد فى ديباجة قرارات هذا المجتمع دعاء لآلارك الثانى بطول العمر ودوام الحكم[١٨٤] .

ولكن كلوفس الفرنجى كان أشد مكراً من آلارك الثانى ، إذ راح يصور حروبه ضد القوط على أنها « حرب صليبية » ضد الهرطقة الأريوسية . زحف الزعيم الفرنجى على رأس رجاله عابراً منطقة التورين نحو مدينة بواتييه ، وهنالك عرج على ضريح القديس مارتن وألقى فى جنوده كلمة عبر فيها عن تقواه وحبه للكاثوليكية ، ثم نهى رجاله عن ارتكاب أعمال العنف أو التخريب ، احتراماً للقديس مارتن . والتقى المعسكران فى واقعة كامبوس فولجادنسيس (Campus Volgadensis) ، وأحرز الفرنجة نصراً كاملا على القوط الغربيين فى ذلك اليوم (٥٠٧ م) ، وقتل آلارك الثانى فى المعركة ، وسقطت كل كنوز القوط الغربيين فى أيدى كلوفس ومعها سقطت عاصمتهم تولوز . وانتهى عهد القوط الغربيين فى غالة ، فعبروا بقيادة زعيمهم ثيودس إلى أسبانيا .

---

(١٨٣) Gregorii Tourensis Episcopi Opera Omnia, in P.L., vol. 71, XXX : "Regina vero non cessabat praedicare, ut Deum verum cognosceret ut idola neglegeret... Procedit novus Constantinus ad lavacrum,deleturus leprae veterismorbum sordentesque moculas gestas antiquitus recenti latica deleturus. Cui ingresso ad baptismum Sanctus Dei sic infert ore facundo : "Mitis depone colla; adora quod incendisti, incende quod adorasti"... Si ego ibidem cum Francis meis fuissem, injurias ejus vindicassem..."

(١٨٤) Mansi, Conciliorum Collectio amplissima, vol. VIII, 323 D.

ويحدثنا جريجورى أسقف تور بأن نصر كلوفس على القوط الغربيين قد رفع من قدره، إلى حد أن الإمبراطور الشرقى أنستاسيوس بعث إليه صكاً ينعم فيه عليه بالقنصلية وعباءتها الأرجوانية ، التى ارتداها الأمير الفرنجى فى حفل مهيب فى كاتدرائية سان مارتن . وبعدها امتطى كلوفس جواده من صحن الكاتدرائية إلى قلب المدينة ، وهو فى زى القياصرة وتاج الملك ، وأخذ فى توزيع المال من ذهب وفضة بيمينه على الشعب الفقير . ومنذ ذلك اليوم أصبح كلوفس قيصراً وأغسطساً(١٨٥) .

بعد زوال حكم القوط الغربيين فى غالة، راح الفرنجة والبرغنديون يخططون للاستيلاء على مدينة آرلس ، وفى طريقهم إليها هاجموا ديراً للراهبات كان الأسقف سيزاريوس قد أقامه تحت إشرافه . وهنا تدخل الملك القوطى الشرقى — ثيودريك — فأرسل بفرقة من جنوده لمساعدة مدينة آرلس ضد المعتدين ، واضطر الفرنجة والبرغنديون إلى رفع حصارهم عن آرلس . بعد هذا وقعت منطقة بروفانس فى أيدى القوط الشرقيين وقد عمد ثيودريك إلى تخفيف عبء الضرائب عن كواهل الأهلين ، أملا فى كسب ودهم(١٨٦) . ولكن عدداً من أهالى بروفانس كانوا قد وقعوا أسرى فى أيدى القوط الشرقيين ، وقد أخذ الأسقف سيزاريوس على عاتقه مهمة دفع الفدية لتحرير هؤلاء الأسرى ، ولتجنيبهم غواية الدخول إلى المذهب الأريوسى . ولكن السلطات القوطية بدأت ترتاب فى أمر سيزاريوس ، ظناً منها أنه على اتصال سرى بالفرنجة الكاثوليك ، وبأنه يعمل على التمكين لهم من الاستيلاء على آرلس . وهكذا فإن الصدام بين المشاعر الكاثوليكية وبين الأريوسية قد أعلن عن نفسه فى بروفانس ، وقد وجد هذا الموقف صداه فى إيطاليا بطبيعة الحال .

فى أثناء ذلك بدأ الخلاف يدب بين ثيودريك والإمبراطور الشرقى أنستاسيوس ومن ثم فإن سياسة الملك القوطى تجاه الرومان بدأت تتحول . ونلمس هذا التحول من حقيقة أن

---

(١٨٥) Gregorii Tourensis Episcopi Opera Omnia, loc. cit., XXVIII, : "Igitur Chlodovechus ab Anastasio imperatore codecillos de consolatu accepit, et in baseleca beati Martini tonica blactea indetus et clamide, imponens vertice diadenam. Tunc, ascenso equite, aurum argentumque in itinere illud, quod inter portem artii ecclesiam civitatis est, praesentibus populism anu propria spargens, volontate benignissima eorgavit, et abea die tamquam consul ant augustus est vocitatus."

(١٨٦) Cassiodorus, Variae, III, 32.

أن عدداً من نبلاء روما قد هربوا إلى القسطنطينية يتضرعون إلى السماء أن «تجمع روما القديمة وروما الجديدة تحت تاج أنستاسيوس . والمعروف أن رجال ثيودريك كانوا قد حطموا إحدى الكنائس الكاثوليكية عند مدخل مدينة فيرونا لإقامة بعض التحصينات ، ولكن الرومان فسروا هذا الإجراء على أنه بداية لاضطهاد أريوسى ضد الكاثوليك . وتحققت مخاوف الرومان عندما أصدر ثيودريك أمراً يحرم على الرومان حمل السلاح ، وبدأ الأهلون يشعرون بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية .

واشتد الصراع عندما اعتلى عرش القسطنطينية الإمبراطور جستن خلفا لأنستاسيوس ، فقد كان هذا الفلاح الإليرى خشن الطبع كارها للأريوسية والجرمان كل الكراهية ، ومن ثم فإنه قام بإغلاق جميع الكنائس الأريوسية فى سائر أرجاء الأراضى الإمبراطورية .

كان البابا الجالس على عرش كنيسة روما فى ذلك الوقت هو يوحنا الأول ، الذى كان معاديا لجنس القوط . وقد شهدت روما فى عهده بداية قيام حزب خفى موال للقسطنطينية ، من بعض أعضاء السيناتو . وقد قويت شوكة هذا الحزب بعد وفاة يوثارك ولى العهد القوطى فى سن مبكرة ، وراح شعب روما يتندر علانية باغتصاب ثيودريك للأراضى الرومانية دون وجه حق .

وأحس ثيودريك بالخطر ، وجاءت تقارير مساعديه القوطيين كونيجاستوس وتورجويللا لتأجج من نار غضبه . ثم وقعت فى أيدى رجال ثيودريك بعض الرسائل الموجهة من أهل روما إلى الإمبراطور جستن . وغلت المشاعر . وقد حاول الفيلسوف بؤثيوس فى أول الأمر أن يتدارك الموقف باللباقة حتى تمر العاصفة بسلام ، ولكن واحداً من رجال البلاط القوطى اسمه كبريان أصر على متابعة خيوط القضية ، وراح يدعى بأن عضو السيناتو ألبينوس يحيك مؤامرة ضد القوط الشرقيين . وحاول بؤثيوس أن ينقذ صديقه ألبينوس من الخطر ، فحث أعضاء السيناتو على التضامن معه لإقناع ثيودريك ببراءة ألبينوس ، ولكن الشيوخ جبنوا ثم أخذوا يتهمون بؤثيوس نفسه بأنه طرف هو الآخر فى المؤامرة . وجن جنون الملك القوطى ، فقام بطرد بؤثيوس من منصبه فى البلاط ، ثم ألقى به فى السجن فى باقيا .

وفى سجنه انكب بؤثيوس عـلى تسجيل مختصر لكتابه « تعزية الفلسفة »

(Consolationis Philoscphae) وهو يقرر فى كتابه أن ضميره الحى هو الذى أملى عليه سلوكه من الألف إلى الياء ، وهو شديد الاعتزاز بحرصه على الصالح العام للرومان ، إيمانا منه بدرس أستاذه أفلاطون فى « الجمهورية » الفاضلة . وإذا كان البرابرة قد أدانوه بالخيانة بسبب هذا الموقف ، فهذا شرف لا ينكره بؤثيوس ، بل إنه يتغنى به كثيراً . ولقد جاءت الصورة التى رسمها بؤثيوس لثيودريك مناقضة تماماً للصورة التى رسمها له كاسيودوروس. يقول بؤثيوس : إننى لم أقبل المناصب الرفيعة إلا لحرصى على خدمة كل من يتبع أصول الأمانة والحق بغض النظر عن الميول السياسية . وقد عملت طيلة الوقت ، رغم مكائد الأشرار ، على أن أحمى العدالة ، ولم أخش غضب الطغاة . كم من مرة وقفت أتصدى لجبروت كونيجاستوس عندما كان يعد للإيقاع بمواطنين أبرياء . كم من مرة أحبطت خطط تروجويللا الذى كان يستند إلى تأييد البيت المالك فى تحقيق أغراضه وشخصه . وكم من مرة بسطت جناحى للذود عن التعساء الذين وقعوا ضحايا لجشع المتبربرين . . . . »

ويمضى بؤثيوس ليقرر أنه وقف فى جانب المظلومين من الرومان عندما اغتصبت أراضيهم وعندما حلت بهم المجاعة ، ولكن هذا الموقف قد جلب عليه خصومات الحكام والقضاة والمنافقين فى بلاط الملك . كما أنه انتصر لباولينوس عندما هجمت عليه كلاب الحراسة لنهب ثروته ،ووقف بجوار البينوس يوم أن تخلى عنه أعضاء السناتو[١٨٧] . ويؤكد بؤثيوس أن خصومه وشاة كاذبون ، وهو لا ينكر أنه قد جاهد لكى ينقذ سمعة مجلس السناتو وشرفه . أما عن الرسائل التى قيل إنها ضبطت فهى رسائل مدسوسة عليه من قبل أعدائه الحاقدين من الأريوسيين . ولكن الرجل شديد السخط على أعضاء الشيوخ لأنهم قد غسلوا أيديهم لكى ينجوا بأنفسهم ، تاركين بؤثيوس لينتظر الجلاد . أما الجهلاء فى روما فإنهم قد ألصقوا به اتهامات كاذبة بأنه ساحر ومشعوذ وحليف للشيطان[١٨٨] . ويسلم الفيلسوف أمره لصاحب الأمر ، بعد أن يئس من ظلم هذا العالم المتبربر[١٨٩] .

---

(١٨٧) Boethius, Consolationis Philosophae, I, 4.

انظر الملاحق لمراجعة الترجمة الكاملة للكتاب الأول من « تعزية الفلسفة » لبؤثيوس إلى جانب النص اللاتينى .

(١٨٨) Ibid., 15.

(١٨٩) Ibid., III, 4, 9.

ويتلمس الكاتب بعد هذا العرض شيئاً من العزاء بمعونة الفلسفة مستلهماً الصبر فى الإيمان بالعناية العلوية . ويعرج خلال هذا العزاء على آراء أرسطاطلية وعلى تضرعات صوفية ، وهنا تختلط الفلسفة بحرارة التصوف . ولكن بؤثيوس على يقين واضح من المصير الذى ينتظره ، فالجلاد رهن إرشارة ثيودريك لكى يقطع راس الفيلسوف . وهو لهذا يهاجم الطغاة وعروشهم وأروابهم الأرجوانية وكلاب حراستهم وعيونهم التى تفتش دائماً للزج بالأبرياء فى السجون ، وهو يشبه غضب الطغاه « بسم القلوب » . ولكن هؤلاء الطغاة يخدعون أنفسهم والناس ، فرغم القوة والجبروت الذى يحيطون به أنفسهم ، إلا أنهم يظلون أسرى لأفكارهم الطاغية (١٩٠) .

وتحققت توقعات بؤثيوس ، فقد أمر الملك بقطع رأسه . ثم مال الملك على حمى بؤثيوس ، سيماخوس ، فطرده من مجالس الشيوخ ثم قتله .

جاء رد الفعل من ضفاف البسفور ، فقد أصدر الإمبراطور جستن أمراً يحرم على القوط المرتزقة فى جيشه ممارسة الطقوس الأريوسية . ولذلك فإن ثيودريك بعث بالبابا يوحنا الأول على رأس سفارة إلى القسطنطينية ليحتج لدى الإمبراطور على سياسته المناهضة للأريوسيه . وقد استقبل البابا فى روما الجديدة بالترحاب والحرارة ، ثم عقد جستن معه اجتماعاً مغلقاً . ولما أن عادت السفارة إلى إيطاليا ، ألقى ثيودريك القبض على البابا ورمى به فى السجن حيث مات . ولكن هذا الحادث قد فجر مشاعر الأهالى فى إيطاليا ، الذين رأوا فى البابا وسيماخوس وبؤثيوس شهداء للكاثوليكية فى صراعها ضد الأريوسيه والتبربر .

وبعد قليل توفى ثيودريك ، ولم يبق للأجيال القادمة فى غرب أوربا عن عهد القوط الشرقيين إلا صورة الملك المتبربر المهرطق وبجواره صورة آخر الرومان فى زنزانته وهو « يتعزى بالفلسفة » فى انتظار الجلاد .

لقد فشلت جهود ثيودريك فى التأليف بين الرومان والقوط ، وإن قيل أنه قد نصح لرجاله وهو يحتضر أن يكونوا على وئام مع الرومان ومع الإمبراطور الشرقى (١٩١) . ولكن الإمبراطور الشرقى كان يخطط لأمر آخر .

---

(١٩٠) Ibid., IV, 2, V.

(١٩١) Jordanés, Getica, LIX, 305.

# الفصل السابع

## الاستجابة للتحديات الجرمانية

## جستنيان العظيم قاهر الوندال والقوط

## ( ٥٢٧ – ٥٦٥ )

أما أنا فإنى أتمسك بالمثل القائل : « إن العباءة الأرجوانية هى خير الأكفان » .

( تيودورة )

إذا كان القرن الخامس قد شهد إذلال الإمبراطورية الرومانية تحت أقدام الجرمان ، فإن القرن السادس قد شهد رد الفعل الرومانى ، متمثلا فى تحطيم الممالك الجرمانية التى قامت على التربة الرومانية : فى الشمال الأفريقى وإيطاليا وأسبانيا . وبطل تلك الأحداث هو جستنيان العظيم ، آخر الأباطرة الرومان ، الذى تحرك لتحقيق الهدف من على ضفاف البسفور ، من روما الجديدة أو القسطنطينية .

وقد درج الكتاب على اعتبار هذه التحركات « حملات بيزنطية » ، ولكن الرأى عندنا أنها ردود فعل رومانية ، من روما الجديدة ، وعلى يد واحد من أهم الأباطرة الرومان مولداً ولساناً وطموحاً . ذلك لأن « التاريخ البيزنطى » ، بما تعنيه كلمة «بيزنطى» بكل أبعادها الحضارية ، لم يكن قد بدأ بعد ، وإنما هو يبدأ يوم أفول نظم الحكم الرومانية والتقاليد القديمة ، وفوق هذا كله اللسان اللاتينى ، وذلك فى عصر الأسرة الهرقلية فى بداية القرن السابع للميلاد ( ٦١٠م ) . من هنا يصح القول بأن الإمبراطورية الرومانية لم تسقط بسقوط روما سنة ٤٧٦م على يد أودواكر الجرمانى ؛ لأن الإمبراطورية ظلت قائمة ، وبثبات ، فى روما الجديدة على ضفاف البسفور . وقد جاءت جهود جستنيان

العظيم برهانًا على بقية باقية من عز الإمبراطورية الرومانية وعزمها ، رغم ما كان قد أصابها من دمار فى القرن الخامس على أيدى القبائل الجرمانية .

وشخصية آخر الأباطرة الرومان شخصية عملاقة ، تستوجب الإفاضة ، لأنه لا يمكن أن نتفهم أحداث القرن السادس دون إلمام واف بسيرة بطل ذلك العصر .

من أهم مصادرنا – باللغة اليونانية – عن عصر جستنيان المؤرخ المعاصر بروكوبيوس القيصرى ، الذى وضع ثلاثة مؤلفات هامة معنونة : « الحروب » ، و « المبانى » « والتاريخ السرى » ، وهى جميعًا تمدنا بمعلومات بالغة الأهمية عن ظروف العصر وأحوال الشعب ، وحياة جستنيان وحروبه وتشريعاته ونهضته العمرانية ثم أسرار بلاطه . كان بروكوبيوس من أصل سورى ، ولد فى نهاية القرن الخامس ، وتدرج فى المناصب حتى ألحق للخدمة مستشاراً قانونيا (Assessor) للقائد المرموق بلزاريوس . وقد صحب المستشار سيده فى حملاته على فارس ( ٥٢٧ – ٥٣١ ) ، وفى حملاته على الشمال الأفريقى ضد الوندال ( ٥٣٣ ) ، وأقام هنالك ثلاثة أعوام فى خدمة بلزاريوس ، ثم استمر فى الخدمة مع سليمان الذى خلف بلزاريوس فى القيادة فى أفريقيا . وفى سنة ٥٣٦ عاد بروكوبيوس ليلحق بسيده بلزاريوس فى جزيرة صقلية ، وشارك بذلك فى الحملة ضد القوط الشرقيين فى إيطاليا ، ثم عاد إلى القسطنطينية فى نهاية سنة ٥٤٠م . وقد عكف بروكوبيوس ما بين عامى ٥٤٣ – ٥٤٥ على كتابة تاريخ الحروب الجستنيانية ، وقد نشرها فى سبعة أجزاء سنة ٥٥٠م . وفى نفس العام ( ٥٥٠ ) بدأ بروكوبيوس فى وضع كتابه « التاريخ السرى » (Historia Arcana — Anecdota) . وفى سنة ٥٥٤ أضاف جزءاً ثامنًا لكتابه عن « الحروب» ، مضمنًا إياه بعض أحداث العصر ، إلى جانب متابعة سرد أحداث الحروب . وفى سنة ٥٦٠ كلفه الإمبراطور جستنيان بوضع كتاب « عن المبانى » (De Aedificiis) المدنية والدينية والعسكرية ، ويتضمن هذا الكتاب مديحًا رائعاً فى شخص وجهود جستنيان . وأغلب الظن أن جستنيان قد كافأ الكاتب بتعيينه فى وظيفة عليا بالعاصمة ، كما أنعم عليه بلقب « الجليل » (Illustris) .

كان بروكوبيوس أرستقراطى النشأة ، وكان محافظًا فى طبعه ، وكان يشعر بأن الوطن قد أذل على أيدى البرابرة الجرمان ، وبأنه لابد من مجئ قوى لينتقم حاكم من هؤلاء

المتبربرين . ولكن بروكوبيوس كان ، كأهل زمانه غيبيا يؤمن بالمعجزات والنبوءات والإلهامات والسحر أبيضه وأسوده : ولقد كان هنالك جدل طويل حول كتابه « التاريخ السرى » الذى اكتشفه العالم نيقولاس أليمانى (Alemanni) سنة ١٦٢٣ فى مكتبةالفاتيكان إلى حد أن البعض طالبوا بتبرأة قلم بروكوبيوس من هذا الكتاب كلية ، غير أن أبحاث العالم دان (Dahn) أثبتت دون جدال أن الكتاب بقلم بروكوبيوس ، وذلك من خلال دراسة مقارنة لأسلوبه وأفكاره فى « التاريخ السرى » على ضوء ما ورد فى كتاباته الأخرى عن « الحروب » و« المبانى » . وأغلب الظن أن « التاريخ السرى » قد وضع سنة ٥٥٠ ، وقت أن نشر بروكوبيوس كتابه عن « الحروب » . ودواعى الحيرة أمام « التاريخ السرى » أن الكاتب راح يناقض ما قاله فى كتابيه الآخرين ، فامتلأ « تاريخه » بالمرارة والنقد والتجريح القبيح لشخص جستنيان وازوجه تيودورة واشخص سيده بازاريوس وزوجه أنتونينا ، فجاءت صور الأربعة قبيحة مرذولة وشيطانية ، الأمر الذى لا يتفق مع ما قد ورد فى كتاباته الأخرى من مديح فى هؤلاء السادة وسيداتهن . لقد وردت فى « التاريخ السرى » مبالغات ومغالطات وفضائح لا حصر لها ولا عد ، وهى وإن كانت لا تخلو من بعض الحقيقة ، إلا أننا لا يمكن لنا أن نقبلها على علاتها (١٩٢) .

من المصادر الأخرى لعصر جستنيان كتاب لأحد رجال المحاماة اسمه أغاثياس ويكنى « بالمتفلسف » (Scholasticos) ، بعنوان « عصر جستنيان » ، (١٩٣) . وقد وضعه بعد وفاة الإمبراطور ، وهو يعتبر تكملة لكتاب ، بروكوبيوس « عن الحروب » ، إذ يتابع فيه الأحداث من سنة ٥٥٥ إلى ٥٥٨ م . ويعيب كتاب أغاثياس أنه فى أسلوب متصنع أميل إلى الشعر منه إلى الكتابة التاريخية ، كما أن الكاتب يعتمد كثيراً على الروايات الشفهية وعلى ترجمات غير دقيقة لبعض المصادر الفارسية . هذا وقد تولى تكملة كتاب أغاثياس كاتب آخر اسمه ميناندر المكنى بلقب « الحارس » ( Protector ) لأنه كان يخدم فى الحرس الإمبراطورى على عهد الإمبراطور موريس .

---

(١٩٢) Diehl, C., Justinien et la Civilization Byzantine, tom. I, pp. XVii-XViii: "Il est trop commode, mais également impossible d'accepter l'Histoire Sécrete et de la rejeter en bloc."

(١٩٣) Ed. Dindorf (Hist. gr. min., tom. II, Teubner, 1871).

ويضم كتاب ميناندر الأحداث التى وقعت بين عامى ٥٥٨ ، ٥٨٢ ، ولم تصل إلينا سوى بضع أجزاء فقط من هذا الكتاب ، حفظها لنا كتاب القرن العاشر بأمر من الإمبراطور الأديب قسطنطين « المولود فى العباءة الأرجوانية » (Porphyrogenitus)

كذلك لدينا أجزاء من كتابات لرئيس ديوان القصر الإمبراطورى المدعو بطرس « الباتريك » (Patricius) ، وهى تدور حول المراسيم والبروتوكولات والسفارات الموفدة إلى بلاد فارس على وجه الخصوص . ومن بين الذين كتبوا عن عصر جستنيان ، من المعاصرين أيضاً ، دبلوماسى فى البلاط اسمه نونوسوس الذى سجل بعض الملاحظات عن العلاقات الدبلوماسية بين حكومة جستنيان و بين بلاط اليمن السعيد وملوك اكسيوم ( الحبشة ) . وقد وضع مؤلف آخر اسمه حزقيوس من مليط كتاباً عن عصر جستنيان ، ولكنه فقد ، ولم تصلنا منه إلا شذرات عن طريق المؤرخ ثيوفانيس فى القرن التاسع . وهنالك مصدر آخر بقلم الكاتب إيفاجريوس السورى بعنوان «التاريخ الكنسى» ، يتناول الأحداث التى وقعت بين عامى ٤٣١ ، ٥٩٣ م . إلى جانب هذا ، هنالك بضع حوليات عن عصر جستنيان وضعها كل من حنا ملالاس الخطيب الأنطاكى وهى تستمر حتى سنة ٥٦٣ ، ثم حولية أخرى لكاتب اسمه أيضا حنا وهو أنطاكى ، ولكنه عاش فى القرن السابع .

أما عن المصادر الخاصة بسير القديسين والمعلومات الجغرافية والنواحى العسكرية والإدارية فهى متنوعة : ومن بينها كتابات كيراس من سكيزوبواس فى صدد حديثه عن سيرة القديس ساباس الفلسطينى ، وكذلك كتابات الراهب حنا موسخوس عن « الآباء الروحانيين » ، هذا إلى جانب سير بطارقة القسطنطينية مثل ميناس ويوطاخيا . وعن المعلومات الجغرافية للعصر نجد بعض التفاصيل عند الكاتب هيرقل ، وعند الرحالة كوزماس الملقب بلقب « أنديكو بليوست » بسبب تعدد رحلاته وأسفاره ، وهو سكندرى الأصل ، سافر إلى الجزيرة العربية وأفريقيا والهند ، ثم اعتزل إلى دير سيناء ليعكف على تسجيل معلوماته سنة ٥٤٦/٥٤٧ م . .

أما عن التاريخ الحربى للعصر ، فهنالك مقالة لكاتب مجهول الهوية بعنوان «عن الاستراتيجية » ، وهى ترجع إلى القرن السادس . كذلك لدينا مصدر هام عن الإدارة الحكومية وضعه الكاتب يوحنا اورنتيوس من ليديا كما ترك لنا ثيوفيلوس كتابا بعنوان « حياة

جستنيان » ، وهو مصدر هام لأن ثيوفيلوس هذا كان مربياً للإمبراطور .

هذا عن المصادر التي كتبت باللغة اليونانية . أما تلك التي وضعت باللسان اللاتيني فهي أقل : ومن بينها حولية مكملة لحولية القديس جيروم ، سجلها الكونت مارسلاينوس [١٩٤] وهي تسجل الأحداث التي وقعت بين عامي ٣٧٩ ، ٥٣٤م . وقد تولى كاتب مجهول الاسم تكملة متابعة الأحداث حتى عام ٥٤٨ . وهنالك حولية للكاتب فكتورى دى تونينا تضم أهم الأحداث التي وقعت بين عامي ٤٤٤ ، ٥٦٧ ، ثم هناك حولية سجلها حنا بيكلار ، وهو أسقف أسباني كان قد أمضى طفولته في القسطنطينية ، وقد سجل لنا الأحداث التي وقعت بين عامي ٥٦٧ ، ٥٩٠ .

بعد هذا يأتي كتاب في « تاريخ القوط » سجله ايزيدور الإشبيلي ، الذي عاش في القرن السابع . هذا إلى جانب كتاب جريجورى أسقف تور عن « تاريخ الفرنجة » ، وكتاب جوردانيه عن « القوط » ، الذي وضعه في منتصف القرن السادس .

هذا وقد بدأت في القرن السادس كتابة سير البابوات في سجلات بعنوان : Liber Pontificalis [١٩٥] .

أما عن المصادر التي وضعت باللغات الشرقية والتي تتصل بعصر جستنيان فأهمها كتاب لزكريا الخطيب أسقف متيلين عن تاريخ الكنيسة من سنة ٤٥٠ إلى ٤٩١ ، نقله واحد من منافزة سورية إلى اللسان السوريانى وأكمل عليه الأحداث حتى سنة ٥٦٩ . وهنالك أيضا كتاب في التاريخ الكنسي وضعه حنا الأفيسوسي ، وهو أسقف مونوفيزى ، ولد في سوريا سنة ٥٠٦ ، وكان في بداية حياته راهباً في دير القديس حنا في آميدا ، ثم وصل إلى العاصمة البيزنطية سنة ٥٣٥ ، ورغم مونوفيزيته كان مقرباً إلى جستنيان ، إرضاء للإمبراطورة تيودورة التي كانت شديدة الحماس للمنافزة ومذهبهم ، وذلك رغم أنف جستنيان نفسه الذى كان متشدداً لمبادئ مجمع خلقيدونية ( ٤٥١م ) المناهضة للآراء المونوفيزية تماماً . هنالك أيضا حولية « الرها » التي تشمل الأحداث التي وقعت بين عامي ١٣١ ق.م. حتى ٤٥٠ م . كذلك قام كاهن يعقوبي (= مونوفيزى)

(١٩٤) Ed. Mommsen (Mon. Germ. Hist. Script. Ant., XI, II). See Bibl.

(١٩٥) Ed. Duchesne, 2 vol., 1886. See Bibliography.

اسمه توما باختصار « حولية » يوسابيوس القيسارى ، وأكمل الأحداث حتى القرن السابع . وهنالك أيضاً حولية ميخائيل من مليتين ، بطريرك أنطاكية فى القرن الثانى عشر ، الذى تتبع الأحداث من بدء الخليقة حتى عصره . أما غريغور أبو الفرج (Bar-Hebraeus) ، أسقف حلب الذى عاش من ١٢٢٦ — ١٢٨٦ فقد ترك لنا مؤلفين : « الحولية السورية » ، و « الحولية الكنسية » . كما سجل ساويرس بطريرك أنطاكية المونوفيزى سيرة عدد من الآباء البطارقة السوريين .

هذا وقد سجل أسقف مصرى هو حنا النيقوى حولية ، باللغة اليونانية ، تبدأ بالخليقة وتنتهى بنهاية القرن السابع ، وقد استعان فيما دونه من أخبار بحولية ملالاس . وقد ترجمت هذه الحولية إلى العربية ، ومنها إلى الأثيوبية ، وهى موجودة — الآن — فى صيغتها الأثيوبية فقط . كذلك كتب المؤرخ الطبرى (٨٩٣ — ٩٢٣) حوليته التى تبدأ ببدء الخليقة وتنتهى بالقرن العاشر ، وقد استعان الكاتب بمصادر قديمة ، بعضها فارسى .

ولدينا مصدر بالغ القيمة تركه جستنيان فى تشريعاته : المختصر ، والنظم ، والمقننة ، والمتجددات ، والقانون المدنى . أما عن المصادر الأدبية فتتمثل فى رسائل جستنيان أغلبها باللاتينية ، وهى موجهة إلى البابوات هورمزداس ، ويوحنا الثانى وأغابتيوس ، وفجيليوس ، وإلى البطارقة والأساقفة والمجامع الكنسية . كذلك هنالك رسائل متبادلة بين جستنيان وملوك الفرنجية فى أوستراژيا . كما ترك كاسيودوروس ، الذى كان يخدم فى بلاط الملك القوطى الشرقى ثيودريك ، عدة رسائل هامة تلقى الضوء على علاقات جستنيان بالقوط الشرقيين .

وقد كان جستنيان مهتما وعارفا بالقضايا اللاهوتية التى شغلت أهل عصره ، من جدل حول المونوفيزية التى تبشر بطبيعة واحدة (إلهية) للمسيح بدلا من طبيعتين (إلهية وبشرية) ومن نزاع حول آراء سيد مفكرى الإسكندرية أورجين الأفلاطونى المحدث . وفى هذه القضايا كتب جستنيان عدة رسائل موجهة إلى البطريق ميناس يهاجم فيها أورجين ، وأخرى إلى رهبان الإسكندرية يهاجم فيها المذهب المونوفيزى ، وثالثة إلى بطويق الإسكندرية زوئيل (٥٤٢ — ٥٥٠) يهاجم فيها مقولة « الفصول » النسطورية النزعة (٥٥١) . كذلك لدينا عدة مقولات بقلم اللاهوتى الكبير ليونتيوس فى تفنيد الآراء النسطورية واليوطاخية والمونوفيزية ، وقد لعب هذا الرجل دوراً هاماً فى

المجمع الذى عقد سنة ٥٥٣ . وقد ترك لنا لبيراتوس من دياكنة قرطاج مقولة بعنوان « المختصر » (Breviarium) ، كما وضع فاكوندوس أسقف هرمانيا مقولة مماثلة ، وتروى المقولتان قصة الجدل كاملة عن « الفصول الثلاثة » .

أما أغابتيوس ديكون أيا صوفيا فقد كتب أطروحة عن واجبات الملك ، وهى موجهة إلى جستنيان . هذا إلى جانب بعض التعليقات التى وضعها الديكون السكندرى أولمبيودوروس ، والخطيب بروكوبيوس من أهالى غزة ، ضد الأفلاطونية المحدثة . ومن غزة أيضاً كتب الأسقف زكريا مقالة ضد الهرطقة المانوية . أما عن الشعراء فهم بدورهم يمدوننا ببعض المعلومات عن عصر جستنيان : وعلى رأس هؤلاء الشاعر كرستودوروس ، ويوليان المصرى ، وليونتيوس ، ودوما خورس ، وماسيدونيوس ، وحنا الغزاوى ، وأغاثياس ، وبولس الحارس ، ثم قسطنطين الرودسى . وهنالك شاعر لاتينى هو كوربوس ، وهو أفريقى الأصل ، وقد نظم قصيدة فى مدح جستن الثانى (In Laudem Justini) .

هذا وتمدنا عملات العصر ، سواء الصادرة من دور سك جستنيان أو دور سك الملوك البرابرة من فنذال وقوط وفرنجة ، بمعلومات هامة . وينطبق نفس القول على أختام القرن السادس ، التى تحمل أسماء الأباطرة وكبار رجالات الدولة والقادة . كما أن الآثار المتبقية من خزانات للمياه وقناطر ، مثل قنطرة سنجاريوس ، وبقايا البنايات العسكرية والبيويات الدينية والفسيفساء ، كلها تمدنا بمعلومات عن أساوب وطرز العصر فى المعمار والهندسة . وأهم البنايات الدينية التى ترجع إلى عصر جستنيان هى : سان سيرجيوس ، سانت إيرينى وسانت صوفيا فى العاصمة ؛ ثم بنايات الشام فى عزرا ، وبصره ، وبيت لحم ؛ ثم دير سانت كاترين فى جبل سيناء وهو عامر بفسيفساء بالغة القيمة ، وفى سالونكا توجد بنايات سان ديمتريوس وسانت صوفيا ؛ وفى إيطاليا كاتدرئية راڤنا ، وسان ڤيتال ، وسان أبوللينار نوڤو ، ثم كنيسة بارنزو فى إستريا . كذلك لدينا صورة رائعة لجستنيان وثيودورة من الفسيفساء فى كنيسة سان ڤيتال .

فى كنيسة سان ڤيتال فى راڤنا توجد على حوائط صدر البيت لوحتان كبيرتان من الفسيفساء : على اليسار إمبراطور يرتدى عباءة أرجوانية مرصعة باللآلئ والذهب ، وقدماه

منتعلتان أيضاً بالأرجوان ، ورأسه متوج بدارة الإكليل التى يخصها البيزنطيون للقديسين والأباطرة ، ويتمثل الإمبراطور وهو يقدم العطايا إلى الكنيسة التى تم بناؤها بفضل جهوده. ويحيط بالإمبراطور بلاط من كبير أساقفة راڤنا ورجال كهنته والحرس الإمبراطورى الخاص. وفى الجانب الآخر من صدر الكنيسة تمثل إمبراطورة وهى تتقدم نحو بوابة المحراب ، يصحبها رتل من سيدات البلاط فى كامل زينتهن . ويبدو زى الإمبراطورة غاية فى البهاء والجمال والأبهة ، فمعطفها أرجوانى بنفسجى ينتهى بتطريز من الذهب ، ومن صدرها تتدلى اللآلئ ، ويزدان رأسها بإكليل الملك .

هاتان اللوحتان تمثلان جستنيان العظيم وزوجه تيودورة ، اللذان لعبا دوراً خطيراً فى حياة الإمبراطورية الرومانية فى القرن السادس ، وذلك رغم وضاعة أصل الاثنين : فلقد كان جستنيان فلاحاً بسيطاً من أهالى إلليريا ، وكانت تيودورة مجرد فتاة راقصة من الطبقات الدنيا .

ولد فلاڤيوس بطرس سابانيوس يوستنيانوس ( جستنيان ) لأسرة رومانية فى قرية مجهولة فى أعالى مقدونيا ، أى فى نواحى قرية أوسكوب الحالية على حدود ألبانيا . وكان الفتى مقربا إلى قلب خاله جستن ، الذى كان قد اعتلى العرش الرومانى فى القسطنطينية بعد ضربة من ضربات الحظ دفعت به إلى المناصب العسكرية العليا على عهد الإمبراطور أنستاسيوس . ولما لم يكن لجستين أبناء فقد تعهد ابن أخته جستنيان بالمحبة والرعاية . وكان الخال جستن رجلا أمياً خشن الطبع ، ولم يتمكن طيلة حياته من التوقيع باسمه على الوثائق ، مما أدى برجال بلاطه إلى حفر حروف اسمه على لوحات خشبية رقيقة كانت توضع على الوثائق ليمرر الإمبراطور جستن بريشته على ثقوب تلك الحروف ليملأها بالمداد ، توقيعاً . ولكى يعوض جستن عن النقص الذى كان يعانيه ، اهتم بأن يعلم ابن أخته جستنيان أحسن تعليم ، فأتاح له فرصة تلقى آداب وعلوم الإغريق والرومان القدامى . ومع نمو شخصية الفتى أنعم عليه خاله بالألقاب الرفيعة ، فتدرج من « كونت » إلى « رجل ماجد » (Vir illustris) إلى « باتريكيان » (Patricius) ، إلى « قنصل » ، إلى « قائد عام لقوات (Magister equitum et peditum praesentalium) العاصمة إلى « نبيل » (Nobilissimus) . وفى سنة ٥٢٧م قام جستن بتبنى جستنيان وأشركه معه فى الحكم .

كان جستنيان أهلا للألقاب التى أنعم بها عليه ، وكان يتمتع بشخصية قوية غلب بها على كل خصومه فى البلاط ، كما أنه كان أرثوذكسياً خلقيدونياً فأدخل بقوامة مذهبه الغبطة على إكليروس أيا صوفيا وعلى بابوات روما القديمة . وكان جمهور الشعب فى العاصمة ، من زرق وخضر ، يتابعون أخباره بحماس زائد، وكانت زياراته للهبدروم (السيرك) تقابل بالترحيب والهتاف الحار من حناجر مختلف طوائف الشعب . كذلك نجح جستنيان فى أن يستقطب أعضاء السيناتو وأبناء الطبقة الأرستقراطية إلى صفه . غير أن قصة علاقته براقصة ماجنة تدعى تيودورة قد أثارت عليه سخطاً شديداً فى صالونات العاصمة . ولكن خاله جستن لم يغضب عليه ، ويبدو أن هذا الجندى القديم لم يكن يهتم كثيراً بتقاليد النبالة ، كما أنه كان شخصياً قد تزوج من خليلة من طبقات الشعب . وقد كان هنالك قانون يحرم على أعضاء السيناتو وكبار رجال الدولة الزواج من الطبقات الدنيا أو من فتيات الحانات والممثلات ، ولكن جستن أصدر قراراًبإلغاء ذلك القانون . وصارت تيودورة زوجة شرعية لجستنيان، وريث العرش الرومانى ، ولم يلبث جستن أن أنعم عليها بلقب « باتريكيا » ، ولم يجرؤ أحد على إعلاء صوته معارضة . ولما توفى جستن فى أول أغسطس ٥٢٧ لم يجد جستنيان أية صعوبة فى أن يرتقى العرش الرومانى ومعه زوجته تيودورة .

يحدثنا المؤرخ بروكوبيوس بأن جستنيان كان أشجع من القائد ثيموستكليز فى ميدان القتال ، وأميز من قورش فى الحكمة وإدارة دفة الحكم : فلقد قضى على ممالك البرابرة الجرمان ، وأسس المدائن فى كل مكان ، ونصر الأرثوذكسية على الهرطقة ، وأرسى قواعد القانون والعدالة ، وزين العاصمة ومدن الولايات بأجمل بيوتات العبادة ، كما أنه كان خيراً سخياً رحيماً يعرف قيمة العفو عند المقدرة ، وكان رؤوفاً بالفقراء والمساكين ، وفى اختصار فإنه قد نشر السعادة على وجه المسكونة(١٩٦) . ويمضى بروكوبيوس فى مديحه لجستنيان إلى حد قوله بأن السماء كانت فى كل حين تبسط يدها لإنجاح كل ما تمتد إليه يد جستنيان من عمل ، سواء فى أيام السلام أو فى وقت الحروب .

هذا وجه مشرق من وجهى العملة التى أطلعنا عليها المؤرخ بروكوبيوس . أما إذا نظرنا إلى الوجه الآخر لنفس القلم ، فى كتاب «التاريخ السرى» فإننا نجد صورة بشعة لجستنيان :

(١٩٦) Procopius, De Aedificiis, p. 171; cf. Corippus, In laudem Justini, I, 167, 70.

فهو يعزو كل ما حل بالقسطنطينية من خراب إلى شخص الإمبراطور وطغيان حاشيته وفساد زوجته تيودورة . وهنا يطل علينا جستنيان لا كصنو لثيموستكليس أو قورش وإنما كشبيه لدومتيان أشر الطغاة ، وكتجسيد لسيد الأبالسة ، وكمركب لعناصر الضعف والخداع والانحطاط والكذب ، والحقد والعجرفة والخيانة والغدر ونهب المال بمختلف الطرق وأخسها ؛ إلى حد تزييف العملة وبيع وظائف الدولة بالمال(١٩٧) . وجستنيان فوق كل هذا هو « غضب السماء ، والجمر النازل على الأرض لكى يقضى على الكل(١٩٨) ، لا ، بل إنه الشيطان فى مسوح البشر ، وهو من مصاصى الدماء ، وقد ابتلى الناس به فى زمانه »(١٩٩). ويشتط بروكوبيوس فى محاولة تشويه صورة جستنيان ، فيدعى بأن والدة جستنيان قد اعترفت بأن الشيطان قد ضاجعها فأنجبت جستنيان ، كما وأن بعض رجال البلاط قد شاهدوا جستنيان وهو يتجول فى المساء دون رأس بشرى(٢٠٠) .

لعل من بين الأسباب التى أدت إلى ذلك التناقض فى كتابات بروكوبيوس طول العهد الذى حكمه جستنيان ، ولقد شهد ذلك الحكم الطويل تقلبات ما بين الصعود والهبوط فى أحوال الدولة وإنجازاتها العسكرية والعمرانية والإدارية ، ولعل قلم بروكوبيوس ، بدوره قد تأرجح هو أيضاً بين المديح والهجاء وفق تغير الأحوال وتبدل الأوقات ، ووفق الظروف التى كانت تحيط بصاحب ذلك القلم . فلقد اعتلى جستنيان العرش وهو فى الخامسة والأربعين من العمر ، ودام حكمه ثمانية وثلاثين عاماً ، وتوفى وهو يناهز ٨٣ عاماً من العمر . وتشير الروايات إلى أن الإمبراطور ، فى أواخر سنى حياته كان قد مل النبالة ومصالح أفرادها ، كما فقد الحماس على العمل ، وفترت همته لمظاهر الأبهة فى البلاط ، كما أنه أهمل شئون الجيش والقلاع ، فاستبد موظفو الدولة بالأهلين . كما أن جستنيان قد أصيب بمرض خطير سنة ٥٤٢م ، ربما يكون قد أثر على سلوكه . وأهم من هذا كله وفاة الإمبراطورة تيودورة سنة ٥٤٨م ، وقد جاءت تلك الوفاة لتحطم معنويات الرجل تماماً ؛ فلقد كانت تيودورة هى كل شيء لجستنيان .

أما عن أوصاف جستنيان ، فقد ذكر بروكوبيوس أن الإمبراطور كان متوسط الطول ،

---

(١٩٧) Procopius, Historia Arcana, pp. 70 - 71.

(١٩٨) Ibid., p. 46.

(١٩٩) Ibid., p. 79.

(٢٠٠) Ibid., p. 80.

ممتلئاً فى غير بدانة ، وكان وجهه مستديراً مخضب اللون ، وكان رأسه متناسقاً جميلا . ويضيف حنا ملالاس على هذه الأوصاف بأن جستنيان كان يملك أنفاً مستقيماً ولوناً متورداً ، وشعراً فى خصل ؛ زحفت عليه بدايات الصلع ، وقد خط الشيب من وقت باكر فى شعر رأسه وشاربه[٢٠١] .

كان جستنيان قوى الشخصية ، صلب الرأى ، وكانت كلمته هى العليا على قواده وضباطه . وقد بلغ اعتزازه بمنصب الإمبراطور إلى حد أن مقدمة قانون « المتجددات » قد نصت صراحة على أنه فى حالة الاختلاف على إشكال قانونى ينبغى الرجوع إلى الإمبراطور ، الذى يقرر ما يصح وفق صلاحياته كرأس للدولة ، فهو وحده صاحب الحق فى تفسير القانون[٢٠٢] .

كان جستنيان معتزاً برومانيته ، وقد رأى فى نفسه الخليفة المباشر لقسطنطين العظيم ، أى الوارث الشرعى لقياصرة روما القديمة . ومنذ اليوم الأول لتوليه العرش ، راح جستنيان يؤكد ضرورة إعادة كيان الإمبراطورية « العالمية » إلى مجدها القديم . وقد رأى فى ولايات الإمبراطورية التى احتلها البرابرة الجرمان فى الغرب الأوربى وفى الشمال الإفريقى أرضاً رومانية قد وقعت فى الأسر وتلح فى طلب التحرير[٢٠٣] . والإمبراطور الرومانى الذى كان يتربع جستنيان على عرشه ليس بمحارب فحسب وإنما هو مصدر القانون ، وتجسيد مطلق للسلطة ، كما وأن كلمة صاحب الجلالة هى القانون بعينه[٢٠٤] وكان شعار جستنيان فى عبارة واحدة : « إمبراطورية واحدة ، إمبراطور واحد ، مذهب دينى واحد » ؛ لأن الإمبراطور جستنيان ليس فقط صاحب « السلطة » (Imperium) بالمفهوم الرومانى ، وإنما هو أيضاً « الأمير الشبيه بالرسل » (Isapostolos) ، أى أنه صاحب السلطتين الزمنية والدينية فى آن واحد ، وهى صلاحية دار حولها الكثير من الجدل فى العصور الوسطى ، وقد درج المؤرخون على تسميتها « بالقيصر — بابوية » ( Cesaropapism ) والإمبراطور هو المختار من قبل الله لتوجيه شئون الرعية ، ولبسط يده عليها للحماية ، فهو مفوض فى الحكم من قبل الله فى شئون الإدارة والحرب والمسائل الدينية جميعاً .

(٢٠١) Malalas, Chronicon, p. 425. See Bibliography.

(٢٠٢) Novellae, 88, Praef. See Bibliography.

(٢٠٣) Codex Justinianus, 1, 27, 1, 7. See Bibliography.

(٢٠٤) Ibid., 1, 14, 12.

ومن هذا المفهوم انطلق جستنيان لكى يحطم الممالك الجرمانية ويعيد الأرض المغتصبة إلى حظيرة الإمبراطورية ، وأيضاً لكى ينقذ الكاثوليك من مخالب الأريوسية الجرمانية . الواقع أن جستنيان كان شديد الحماس لنشر قرارات مجمع خلقيدونية (٤٥١) التى تصر على طبيعتين كاملتين للمسيح ، الواحدة بشرية والأخرى إلهية . ومن هنا كان الإمبراطور شديد القسوة على من يخالف هذه التعاليم ، سواء من المنافزة أو النساطرة أو الأريوسيين .

لقد قام جستنيان بجهود جبارة ، فحطم ممالك الجرمان فى شمال إفريقيا وإيطاليا وأسبانيا . وإلى جانب هذا العمل العسكرى الفذ ، ترك للإنسانية مجموعة قوانينه الخالدة ، ثم كاتدرائية أيا صوفيا ؛ التى ما أن أتم بناءها وقد أذهله جمالها حتى صاح قائلا : « لقد غلبتك أيها الملك سليمان »

إن سيرة جستنيان قد بقيت حية فى أذهان الناس بسبب ما حققه من منجزات هائلة . ويقال أنه فى سنة ١٢٠٤م عندما قام الصليبيون بغزو القسطنطينية وراحوا ينبشون قبور الأباطرة لنهب الذهب والجواهر المدفونة فى أكفانهم فى كنيسة الرسل ، وجدوا جثة جستنيان متماسكة صلبة وعلى حالها بعد دفنها بستة قرون ، فخرست ألسن الصليبيين وشلت أياديهم عن العبث بجلال هذا الأمير الرومانى العظيم الذى بدى وكأنه على استعداد للخروج بعد برهة من قبره ، وهو فى كامل زينة القياصرة . ولقد أنزل دانتى الإمبراطور جستنيان فى منازل « الفردوس » مع الخالدين ، وجعله ينطق بالأبيات التالية :

« قيصراً كنت . وأنا جستنيان
لقد ألهمتنى عناية الرحمن
فصنعت كل هذا البنيان »(٢٠٥) .

أما عن تيودورة ، فلم يكن المؤرخون يعرفون عنها الكثير قبل أن يكتشف العالم نيقولاس ألمانى — فى بداية القرن السابع عشر — كتاب « التاريخ السرى » الذى وضعه بروكوبيوس كما سبق وأن بينا . كانت تيودورة ابنة لرجل فقير يدعى أكاكيوس ، كان يعمل حارساً

---

(٢٠٥) "Cesare fui, e son Giustiniano...
A Dio per grazia piacque di spirarmi
L'alto lavoro".

It seems relevant here to quote St. Mathew's : "Neither do men put new wine nto old bottles, else the bottles break and wine runneth out and the bottles perish; but they put new wine into new bottles, and both are preserved".

للدببة فى سيرك القسطنطينية فى أوائل القرن السادس. و بعد وفاة والدها استبدت الأم بتيودورة وأخواتها ، لأنها كانت امرأة غليظة القلب . وكانت الأخت الكبرى لتيودورة ، واسمها كوميتو ، تعمل فى المسرح ، وقد اصطحبت معها تيودورة ، التى كلفت بأداء بعض الأدوار الثانوية فى المسرح ، كوصيفة لحجرات النوم فى روايات ذلك العصر . ولما أن كبرت قليلا أصبحت ممثلة موفقة ، وقد جاب جمالها الآخاذ إعجاب الكثيرين من رواد المسرح .

أما عن قوامها ، فقد كانت تيودورة ضيئلة الحجم وغاية فى الرشاقة ، وكان لون بشرتها يميل إلى الشحوب قليلا ، وشعرها أسود فاحم ، وأنفها كبير مستقيم ، ووجهها صغير ورقيق . أما عيناها فكانتا تشعان حيوية وذكاء ووهجا أنثويا (٢٠٦) . وتتضح هذه الملامح جميعاً من رسمها الموجود فى كنيسة سان ڤيتال .

ويسرد بروكوبيوس عن تيودورة أقاصيص لا نهاية لها ، وهى جميعاً حافلة بالمغامرة والفضائح ، « التى فاحت رائحتها فى كل جنبات العاصمة » . لقد بلغ سوء سيرتها حداً — يقول بروكوبيوس — جعل الطيبين من أهل العاصمة ، إن هم صادفوها فى الطريق ، يبتعدون عن مسارها خشية أن تلمسهم فتدنسهم (٢٠٧) .

بعد هذه البداية العاصفة اختفت تيودورة فجأة من العاصمة ، ورحلت إلى الشمال الإفريقى لتلحق بحاكم المدائن الخمس المدعو هكيبوبولس . ثم هجرت هذا الصديق أو هجرها هو ، لتتنقل بين مدائن الشمال الإفريقى ، حتى — والرواية لبروكوبيوس — « تتحقق إرادة إبليس ، ولا تبقى بقعة على وجه الأرض ولم تعرف فجور تيودورة » (٢٠٨) . وبعد هذا الترحال البعيد قفلت تيودورة عائدة إلى القسطنطينية ، تبحث عن عمل مستقر فى المسرح ، لأنها قد ملت حياة التشرد والسفر . وكان عمرها وقتئذ خمس وعشرون عاماً .

وفى تلك المرحلة من حياتها التقت بطريق الصدفة بجستنيان ، وافتتن الرجل بها ولكأنها قد سلبته عقله منذ اللقاء الأول . ويروى بروكوبيوس أن تيودورة قد استعانت فى السيطرة

(٢٠٦) Historia Arcana, p. 69.

(٢٠٧) Ibid., p. 63.

(٢٠٨) Historia Arcana, p. 63.

على قلب جستنيان بأفانين السحر ، الذى كانت تجيده . ويبدو أن الفتاة ، وهى ممثلة قديرة ، قد لعبت دور « الحمل الجريح » أمام ذلكم الراعى الصالح ، وليس أدل على ذلك من أنها منذ ذلك اللقاء اختارت حياة العزلة وعاشت فى بيت متواضع ، تقوم ليلها ونهارها تغزل الصوف ، كما كانت تفعل فضليات نساء المجتمع الرومانى القديم . ومهما كان الأمر ، فإن جستنيان قد قرر أن يأخذ تيودورة له زوجة . ولكن مشروع الزواج قوبل بعاصفة من الغضب فى البيوتات النبيلة ، وكان من بين المعارضين له الإمبراطورة يوفيميا زوج خاله ، ولكنها توفيت فجأة سنة ٥٢٣ م . أما الإمبراطور جستن فقد كان متعاطفاً مع ابن أخته وولى عهده ، فوافق على الزواج ، ثم أنعم على تيودورة بلقب « باتريكيا » . ولما أن توفى جستن سنة ٥٢٧ م ، اعتلت تيودورة مع زوجها العرش ، وفى يوم عيد الفصح من نفس العام وضع بطريق القسطنطينية التاج الإمبراطورى على رأسها فى أيا صوفيا . ولما أن وصل الموكب الإمبراطورى إلى المضمار ، حيث بدأت طفولتها الباكرة ، هتف لها الشعب كله « تحيا البازليسا » . لقد تحققت الأحلام العراض لفتاة السيرك ، وصارت شريكة فى حكم مدينة قسطنطين العظيم !

تلكم هى القصة التى رواها صاحب « التاريخ السرى » عن تيودورة . وكما لاحظ المؤرخ الكبير إدوارد جيبون من قبل ، فإن مثل هذه الأحداث غير العادية لا يمكن أن تكون من اختراع الكاتب . غير أنه لابد لنا من القول بأن ضربة الحظ التى رفعت تيودورة من مجرد فتاة فى السيرك إلى عرش القياصرة ، لابد وأنها قد أشعلت خيال جماهير المعاصرين فراحوا ينسجون حولها شتى الأساطير : من قبيل ذلك ما تواتر فى الروايات السلافية — التى ترجع جستنيان إلى أصل سلافى — عن أن تيودورة كانت أجمل بنات عصرها وأبرزهن ثقافة وأكثرهن تعليماً[٢٠٩] . أما الروايات السورية ، حباً من أصحابها لشخص تيودورة بسبب تعاطفها مع المذهب المونوفيزى لأهل الشام ، فقد جعلوها ابنة لسيناتور مرموق من خيرة أهل النبالة الرومانية ، وتضيف تلك الروايات بأنه عندما ذاع جمال الفتاة فى كل الأرجاء ، جاء جستنيان يطلب يدها من ولى أمرها ، وبأن ولى الأمر لم يوافق على زواجها من

---

(٢٠٩) Pseudo - Theophile, Vita Justiniani (ed. Bryce, English Historical Review, 1887.)

جستنيان إلا بعــد أن تعهد الأخير بألا يجبرها على اعتناق مبادئ مجمع خلقيدونية اللعين (٢١٠) .

ومهما كان الأمر ، فإن الذى يعنينا ، كدارسين للتاريخ ، ليست تيودورة فتاة المسرح ، وإنما تيودورة صاحبة الجلالة . وما من شك فى أن هذه السيدة قد ارتقت منذ أن جلست على العرش الرومانى إلى مستوى المسئولية ، فأذهلت بمقدرتها كافة المعاصرين ، ومن بينهم صاحب « التاريخ السرى » نفسه . لقد كانت تيودورة تحب وتقدر جوانب العظمة والأبهة التى كفلها لها منصبها الرفيع ، وقد بدت ملامح الجمال فى كل ما لمسته الإمبراطورة باهتمامها : سواء فى القصر « المقدس » أو فى الفيلات الإمبراطورية التى كانت تطل على شواطئ آسيا . وكانت تيودورة شديدة العناية بجمالها وأنوثتها ، وكانت تعمد إلى النوم حتى وقت متأخر من الصباح لكى تحافظ على نضارة بشرتها وهدوء قسمات وجهها ، كما أنها كانت تكثر من الحمامات الساخنة وفترات الاسترخاء بعد كل حمام . وكانت مائدتها تذخر بأشهى الأطعمة وأطيبها مذاقاً . وبينما كان جستنيان يميل إلى الهدوء بطبعه ، كانت الإمبراطورة دائبة الحركة والحيوية ، وهى التى كانت تشرف على كل خطوة تتصل بالبروتوكول فى البلاط الإمبراطورى . وكانت تيودورة تسر بوجه خاص عندما يدخل وجهاء القوم إلى مجلسها ، وينحنون عند أقدامها حتى تلمس شفاههم الأرض ، وكانت تصر عند مخاطبتها أن تسمع فى أول كل عبارة أو ذيلها لفظة « يا صاحبة الجلالة » . ويروى بروكوبيوس أن قاعة الانتظار الملحقة بجناح تيودورة كانت تزدحم كل صباح بعديد من النبلاء والقادة وكبار موظفى الدولة ، وكأنهم « قطيع من العبيد » ، كل يتوسل إلى بابها آملا فى تأييدها فى إحدى المسائل الخطيرة . وكان على هؤلاء السادة أن يسيروا على أطراف أرجلهم حتى لا يثيروا بادرة إزعاج لصاحبة الجلالة . ولم يكن لواحد مهما علا شأنه أن يبادر تيودورة بالحديث ، بل كان عليه أن ينتظر سؤالا منها حتى ينطق بما يريد .

لقد كانت تيودورة امرأة متسلطة مهيبة الجانب ولا تخلو من ميل إلى العنف وحب الانتقام . وقد حفظ لها الكتاب موقفاً ينم عن شجاعة فذة : ففى سنة ٥٣٢ اتحدت فرقتا الزرق والخضر فى العاصمة وقامتا بثورة عارمة ضد فساد الحكومة واستبداد وزراء جستنيان .

(٢١٠) Bar - Hebraeus. Chronicon Syriacum, p. 81.

حطم الثوار شوارع المدينة بالحديد والنار ، ثم هجموا على القصر الإمبراطورى وضربوا حوله حصاراً مخيفاً . وجبن رجال البلاط ، واضطرب جستنيان ، ولم يبق معه سوى ثلاثمائة من رجال حرسه المخلصين ، ففكر الإمبراطور جدياً فى الهروب عبر البساتين المطلة على البحر خارج البلاد ، وأمر رجاله بحمل خزائن الدولة إلى ظهر السفن ، وتأهب للهروب بحياته . ثم عقد الإمبراطور اجتماعاً مع قواده ، ولكن أحداً لم يجد ما ينصح به أمام هدير الجماهير التى كانت تردد « نيكا ، نيكا » أى النصر ، النصر . وفى وسط هذا الموقف الحرج وقفت تيودورة ، وقد استاءت من خور الجنرالات ، وقالت لهم الآتى :

« أيها السادة ، عندما لا يتبقى أمام المرء سوى الهرب طلباً فى النجاة ، فإننى واحدة لا تقبل بفكرة الهرب . إن هؤلاء الذين يزينون رؤوسهم بتيجان الملك ، لا يليق بهم أن يعيشوا بعد فقدان التاج . وإنى لا أود أن أرى اليوم الذى يكف فيه الناس عن مخاطبتى بلقبى الإمبراطورى . وأنت أيها القيصر ، لئن كنت ترغب فى الهرب ، فإن المال لديك ، وها هى السفن راسية فى البحر عند أقدامك . ولكننى أنا باقية ها هنا ، لأنى أحب هذه المدينة العظيمة ، كما وأننى أؤمن بأن عباءة الملك هى خير الأكفان » .

وفى ذلك اليوم الحرج أنقذت تيودورة عرش جستنيان من الضياع ، فلقد حركت كلماتها الحماس فى نفس القائد بلزاريوس الذى دبر خطة حاصر بها الثوار واستدرجهم إلى المضمار ، حيث تمت عملية من القمع الرهيب .

لقد كانت تيودورة صاحبة اليد العليا على زوجها ، الذى كان واقعاً تحت سحرها الأخاذ . وكان جستنيان يلقب تيودورة «بالجمال الخلاب» أو «هبة الله إلى نفسى»[٢١١] . وبعد وفاتها ، ظلت ذكرى الإمبراطورة مستحوذة على وجدان الرجل تماماً ، وكانت أغلظ الإيمان عنده « قسما بتيودورة »[٢١٢] . لقد بقيت صورة تيودورة مع جستنيان فى كل ما تركه لنا من آثار : فى النقوش وفسيفساء الكنائس ، وعلى الأختام ، كما أقيمت لها التماثيل . وقد كان على القضاة والأساقفة والجنرالات وحكام الولايات أن يؤدوا اليمين عند تسلمهم لمهامهم فى الصيغة الآتية :

« أقسم بالله العلى القدير ، وبالمسيح ، وبالروح القدس ، وبالقديسة مريم العذراء ، وبالأناجيل الأربعة ، وبرؤساء الملائكة ميخائيل وغبريال ، أن أؤدى عملى بإخلاص

---

(٢١١) Historia Arcana, p. 64.

(٢١٢) John of Ephesus, Comm., 248 : "Justinianus quumpraesertim studeret ut voluntati uxoris etiam mortuae omnibus modis obtemperaret."

لصاحبي الجلالة المقدسين جستنيان وزوجه تيودورة ؛ صاحبة الجلالة الإمبراطورية»[٢١٣].
وعندما كانت تيودورة تتحرك فى رحلة ما ، كان يسير فى موكبها رتل من رجال البلاط وكبار وجهاء الدولة والوزراء ، وحرس مكون من أربعة آلاف من خيرة الضباط . وكانت أوامرها سريعة النفاذ فى كل ربع من ربوع الإمبراطورية ، وعندما كانت أوامرها تتعارض مع إرادة جستنيان ، كانت أوامرها هى التى تنفذ ، وكان على الإمبراطور أن يطأطئ الرأس[٢١٤] .

لقد سعى الأمراء والملوك والسفراء والبطارقة والبابوات الذين قدموا إلى القسطنطينية إلى تملق تيودورة لضمان عطفها على قضاياهم المعروضة أمام جستنيان . والحق أن جستنيان لم يكن ليتخذ قراراً دون موافقة تيودورة على هذا القرار . ويطالعنا المؤرخ كاسيودورس بواحد من قرارات جستنيان يجرى كالآتى : « وفى هذه المرة أيضاً بعد أن أخذنا مشورة زوجتنا الوقورة التى من بها الله علينا ، قررنا الآتى . . . »[٢١٥] ويتضح صدق المؤرخ كاسيودورس على ضوء ما نجده فى رسالة من تيودورة موجهة إلى واحد من وزراء الملك الفارسى خسرو فى الآتى : « فلتعلم أن الإمبراطور لا يتخذ قراراً دون مشاورتى فيه »[٢١٦] .

وتيودورة بعد كل هذا هى التى صنعت من بعض الأفراد العاديين ، المقربين إلى نفسها ، عمالقة حفظ لنا التاريخ سيرهم : من بين هؤلاء بطرس بارسميز الذى جعلته محافظاً على إحدى الولايات ، ثم الخصى نارسس الذى جعلت منه جنرالا كبيراً ، ثم الديكون فيجيليوس الذى أجلسته على عرش البابوية فى روما القديمة .

أما من كان يتعسه الحظ فيقف فى طريق تيودورة ، أو يقدم على إهانتها ، فقد كتب عليه الوبال : من هؤلاء التعساء برسكوس أمين سر جستنيان والذى وصل إلى مرتبة الكونت ، فما أن أرخى لسانه فى حديث غير موفق معها ، حتى لحقته اللعنات . فقد طرد برسكوس من منصبه ونفى إلى خارج العاصمة ووضع فى السجن ثم أجبر على دخول الرهبانية وصودرت كل أملاكه[٢١٧] . وتيودورة أيضاً هى التى هدمت يوحنا الكبادوكى

(٢١٣) Novellae, 8, ad fin.

(٢١٤) John of Ephesus, Historia Ecclesiastica, IV, 6, 7.

(٢١٥) Cassiodorus, Variae, X, 20.

(٢١٦) Historia Arcana, p. 24.

(٢١٧) Ibid., p. 97.

وزير جستنيان الأول ، ثم جلبت عليه العار والدمار : كان يوحنا الكبادوكى قد تدرج فى المناصب حتى صار وزيراً للداخلية فالمالية فكبيراً للوزراء . وقد اشتهر الكبادوكى بجبروته فى أساليب جمع المال ، الذى كان يطلبه منه جستنيان . وقد جمع لنفسه ثروة طائلة من المال الحرام ، وصار يعيش فى أبهة شبيهة بعز الملوك . غير أنه وقع فى خلاف مع تيودورة عندما ألمح لها فى إشارة متعالية عن أصلها المتواضع . وغات المشاعر ، وباتت تيودورة تؤلب جستنيان على وزيره الأول ، مدعية « بأنه يطمع فى التاج » ، ومؤكدة أنه السبب الأول فى تذمر الشعب على الحكومة . ثم دبرت لخصمها مؤامرة أحكم نسيجها بمعونة صديقتها أنتونينا زوج بلزاريوس . وكانت بين الامرأتين أسرار خطيرة وعلاقات وطيدة . ولم تكن أنتونينا أقل تسلطاً على زوجها من الإمبراطورة على الإمبراطور . وقد ورد فى « التاريخ السرى » أن بلزاريوس كان « كالطفل أمام أمه » فى علاقاته مع أنتونينا . وكان بروكوبيوس على علم واف بأسرار أنتونينا ، لأنه كان ملازماً لبلزاريوس كأمين اسره فى كافة حملاته شرقاً وغرباً . ويتهم بروكوبيوس أنتونينا بالسحر والفجور والسادية والخيانة الزوجية . وهو فى صدد الحديث عن معاونتها لتيودورة للإيقاع بالكبادوكى يصفها بأنها « لم يكن لها مثيل فى نسج المؤامرات »(٢١٨) .

استدرجت أنتونينا الابنة الوحيدة للكبادوكى فى الحديث ، وألمحت لها أن زوجها بلزاريوس بات يشكو من تنكر جستنيان لأفضاله العسكرية على الدولة . وكانت الصبية ساذجة عندما سألت أنتونينا : « ولكن بلزاريوس قائد عظيم يملك قوة الجيش تحت يده ، فلم إذن يخضع لظلم جستنيان » ؟ وترد أنتونينا بأن ثورة الجند فى المعسكرات لن تجدى إلا إذا وجدت تأييداً فى العاصمة ، وهذا ما يملكه يوحنا الكبادوكى والد الصبية . ونجحت أنتونينا فى أخذ موعد من الفتاة للقاء بين والدها وبين بلزاريوس فى إحدى فيلات الأخير . ووافق الكبادوكى على ذلك اللقاء . فى أثناء ذلك كانت تيودورة تطلع الإمبراطور بتطور الأمور ، وأغرته على أن يرسل مارسللوس والخصى نارسس إلى فيلا بلزاريوس لرصد المؤامرة على أن تقوم أنتونينا بإخفائهما فى مكان سرى . ووصل يوحنا الكبادوكى ، وما أن بدأ الحديث مع بلزاريوس حول قصة تمرد الجند « المزعومة » ، حتى ألقى رجال جستنيان القبض

---

(٢١٨) De Bello Persico, p. 132.

عليه . ولكنه دافع عن نفسه وأفلت من أيديهم ، ودخل يطلب الحماية فى أحضان كنيسة أيا صوفيا .

قرر جستنيان خلع الكبادوكى من منصبه ، ثم أرسله إلى المنفى فى سيزيق ، وأجبره بعد ذلك على دخول الدير ، ثم صادر كل ثرواته واستولى عليها .(٢١٩) لم تترك تيودورة الرجل فى منفاه يجتر قصة تعاسته ، بل أمرت بترحيله إلى مصر ، حيث اضطر الرجل الذى كان يملك أكبر ثروة فى بيزنطة إلى التسول فى طرقات الإسكندرية ، وبقى على هذه الحال من البؤس حتى وفاة الإمبراطورة والإمبراطور . ثم عاد يوحنا الكبادوكى إلى العاصمة ، وقد اختار أن يختتم مأساته بمسوح رجال الأكليروس فى أيا صوفيا ، وقد حملته الناس على الأعناق تكريماً له على طول عذابه وصبره على العذاب .

أما عن موقف تيودورة فى المسائل الدينية ، فإنها كسائر سيدات بيزنطة كانت شديدة التدين ، فى الظاهر ، وقد شيدت العديد من الكنائس والمستشفيات والملاجئ وبيوت التوبة للساقطات . ورغم هذا فإن الكنيسة كانت تنظر إلى الإمبراطورة فى كثير من الشك والريبة : فى سنة **٥٢٩** وصل إلى القسطنطينية راهب من كبار المتوحدين فى فلسطين هو القديس ساباس ، الذى غطت شهرته الآفاق . وقد أقام الإمبراطور والإمبراطورة استقبالا حافلا فى القصر لهذا الزاهد المرموق ، وفى أثناء الحفل طلبت منه تيودورة أن يبتهل من أجلها إلى السماء لكى تمن عليها بالنسل . ولكن القديس ساباس صرخ قائلا : « إن تلك المرأة لو قدر لها أن تلد ، فإنها تضع أعداء للكنيسة » (٢٢٠) كما أن الكنيسة كانت ترى فى تيودورة حليفاً خطيراً لمنافزة مصر ويعاقبة سوريا . غير أننا ، إنصافاً للحقيقة ، لابد لنا من القول بأن تيودورة كانت أبعد نظراً من زوجها فى سياستها الدينية ، فبينما راح هو يتعصب للمذهب الخلقيدونى ، سعت هى إلى كسب مودة المصريين والسوريين ، حفاظاً على ولاء القطرين للقسطنطينية . ويذكر لتيودورة أنها لم تتخل عن أصدقائها المنافزة حتى وقت أن كانت السلطات الحكومية تطاردهم . وهى التى مكنت لشهرة كل من ساويرس بطريق أنطاكية ، وتيموثاوس بطريق إسكندرية ، الذى كانت تخاطبه بلقب « أبى الروحانى » ، ثم ثيودوسيوس السكندرى ، وأنتيموس فى القسطنطينية . ولقد خصصت واحداً من قصورها فى العاصمة

(٢١٩) Ibid., pp. 134 - 135.

(٢٢٠) Vita Sabae, ch. 72.

هو قصر هورمزادس لإيواء المضطهدين من المنافزة. وعندما احتج البابا سلفريوس على موقف تيودورة الموالى للمنوفزية ، أمرت القائد بلزاريوس بخلعه عن العرش البابوى ، ثم عينت بدلا منه فيجيليوس . ولما أن حاول فيجيليوس أن ينتقد سياستها الدينية ، دبرت للقبض عليه وإرساله إلى المنفى . ونتيجة لموقفها هذا من البابوات ، نجد الكاردينال بارونيوس يصف تيودورة بأنها « مخلوقة بشعة ، حواء الثانية التى قامت بدور الأفعى ، دليلة الجديدة ، هيروديا التى تتلذذ بدماء الشهداء ، مواطنة من أهل الجحيم ، امرأة تملكتها أرواح الشياطين » .

ولقد توفيت تيودورة سنة ٥٤٨ م بداء السرطان ، وطويت بوفاتها صفحة حافلة بالإثارة التى تفوق تفاصيلها كل خيال .

* * *

بعد أن وضحنا سيرة جستنيان ، نلقى الآن نظرة على الجيش الرومانى الذى أعده الإمبراطور لتحقيق سياساته تجاه الممالك الجرمانية .

وأول ما يسترعى الانتباه فى ذلك الموضوع هو ضآلة عدد الجيوش التى قامت باسترداد شمال إفريقيا وإيطاليا من أيدى الجرمان ، فلكى يحطم بلزاريوس قوة الوندال اكتفى بجيش قوامه ١٥,٠٠٠ جندياً فقط (٢٢١) ، ولكى يقوض أركان مملكة القوط الشرقيين قاد حملة قوامها ٧,٥٠٠ جندياً ، إلى جانب حرسه الخاص ، بحيث لم يتجاوز عدد أفراد الحملة عن عشرة آلاف جندياً (٢٢٢) . غير أن الحصار الذى ضربه بلزاريوس حول روما قد احتاج إلى تعزيزات ، فأسعفه الإمبراطور بفرق أخرى بلغ عددها سبعة آلاف من الجنود .

كان الجيش الرومانى على عهد جستنيان يتألف من خليط عجيب : فهناك فرق من أهل الريف من إلليريا وتراقيا والقبائل الأيسورية فى آسيا الصغرى وأهالى بيسيديا وليكونيا . ولم يكن هؤلاء الجند بذى بال كبير ، نظراً لفقر حالهم وسوء تموينهم ، كما أنهم لم يكونوا على دراية وافية بأفانين الحرب . إلى جانب هذه الفرق كانت هنالك فرق الحـــدود Limetani التى كانت تتألف من سكان المناطق التى تقع على أطراف الإمبراطورية .

(٢٢١) De bello Vandalico, 358.

(٢٢٢) De bello Gothico, 26.

أما قوام الجيش الرومانى ، فى ذلك العصر فكان مؤلفاً من العناصر المتبربرة المرتزقة والتى يطلق عليها المعاصرون لفظة « الجند المعـــاهدين » (Foederati) ، وهى أخـــلاط من الهون والجـــبيد والهريولى والوندال والقوط واللومبارد والأنتى والسلاف والفرس والأرمن والقوقازيين والسوريين والمغاربة ، وكان يقود كل جماعة زعيم من جنسها . هذا بالإضافة إلى أن كل ضابط فى خدمة الجيش كان يقود معه عدداً من التابعين المسلحين الذين يرتبطون به شخصياً بمقتضى يمين « الولاء » وهم يتلقون رواتبهم وسلاحهم منه شخصياً ، كما يختلف عددهم تبعاً لاختلاف نفوذ « السيد » وثروته .

كان جندى المشاة على عهد جستنيان يرتدى درعاً وغطاء واقياً للساقين من المعدن ، ومن تحته زرد من حلقات يبلغ سمكها ٢ سم ، وعلى رأسه خوذة معدنية تنتهى بقرن طويل ، وكان يحميه ترس ضخم يبلغ قطره ١٦٢ سم . وأما سلاحه فيتألف من السيف والجعاب ( أو الكنانة ) . ويتسلح نصف جيش المشاة بالإضافة إلى ما سبق من أسلحة ، بالحراب ، كما يزود فريق منهم بفؤوس قوية ذات حدين .

أما الفرسان فكانوا يحمون أنفسهم بدروع معدنية ، وكذلك كانت خيولهم . ويتسلح الفارس بمشكة من الفولاذ وترس ضخم وخوذة مزينة بريشة ، وهو يعتمد فى القتال على السيف والرمح والقوس والجعاب .

وإلى جانب الفرق الثقيلة العدة من فرسان ومشاة ، كانت هنالك فرق خفيفة العدة ، وهى فى أغلب الأحيان من الجند المرتزقة فى زيها الأصلى . ويلاحظ أن الجيش الرومانى على عهد جستنيان كان ثقيل الحركة ، وأن عدد الفرسان كان يفوق عدد المشاة . وكان جنود القرن السادس مزودين بالأقواس ، وكان المعـــاصرون يرون فى رماة القوس « ملوك أرض المعارك » .

كان الجيش الرومانى ، كما ذكرنا ، يعتمد على الجند المرتزقة من مختلف الأجناس . والمرتزقة عناصر مغامرة لا وطن لها ، وهم يؤمنون بأن الحرب هى التى تمول الحروب ، فهم يغيرون على كل ما يصادفهم فى الطريق بقصد النهب والسلب ، لا فرق عندهم بين أرض صديقة أو أرض معادية . وكان هم الجندى المرتزق أن يغنم أكبر قدر ممكن من الفضة أو الذهب ، وهو مسرف فى الشراب ، ونهم للنساء ، ومن ثم كان من العسير السيطرة على المرتزق وكبح جماحه . ويروى عن القائد بلزاريوس قوله لجنده من المرتزقة :

« إنكم أفضل فى الشجاعة والقوة من أعدائكم ، ولكنكم أقل منهم فى نقطة واحدة ، ألا وهى أنكم لا تعلمون كيف تطيعون أوامر رؤسائكم » (٢٢٣) . أما عن فرق الجند « المعاهدين » فى جيش جستنيان فقد كانت شديدة الإلحاح فى مطالبها ، بحجة أنهم « حلفاء » وليسوا بمرتزقة ، ولذا فقد طالبوا لأنفسهم بامتيازات خاصة تكفل لهم حرية الحركة والحصانة ضد القصاص . وقد دأب هؤلاء الجند على مجادلة رؤسائهم وتحدى أوامرهم علانية ، وكثيراً ما كانوا يهجرون ميدان القتال دون سابق إنذار ، بسبب خلاف تافه مع قائدهم . ونحن نعلم أن هؤلاء الجند هم الذين فتحوا بوابات روما مرتين للملك القوطى توتيلا ، رغم أنهم كانوا فى خدمة الجيش الرومانى ، والحق أن الجندى المرتزق والمعاهد على حد سواء كان على استعداد لأن يبيع خدماته للمعسكر الآخر إن هو ضمن راتباً أفضل ، أو إن تأخرت رواتبه بعض الوقت ؛ ومهما كان الأمر ، فإن انضباط الجيش بمختلف عناصره كان يتوقف على نوعية وشخصية القائد العام ، وقد عرف القرن السادس إثنين من خيرة القواد الرومان وهما بلزاريوس ونارسس :

وبلزاريوس هو بطل عصر جستنيان ، فهو الذى قهر الفرس والوندال والقوط ، كما أنه أنقذ العرش لجستنيان مرتين . وهو الذى ألقى بالملوك الجرمان أسرى أذلاء عند قدمى الإمبراطور ، وهو أيضاً الذى استولى على كنوز الذهب التى خلفها جنزريك وثيودريك ، وهو الذى وسع رقعة الإمبراطورية إلى الضعف .

ولكن هـــذا البطل كان أســـيراً لبعض النقائص النفسية : فهو لم يكن أكثر من أداة طيعة فى يد جستنيان لتنفيذ أغراضه ، فلعب بهذا دور الساعد لا دور الرأس المفكر . .

ولكن بلزاريوس كان جندياً شجاعاً يتقدم صفوف فرسانه فى ميدان القتال ، كما أنه كان سخياً مع رجاله فى توزيع الغنائم . وكان رجال حرسه الخاص على استعداد للتضحية بأنفسهم فى سبيله . ولكنه كان ضعيفاً فى كبح جماح المتمردين من رجال جيشه . ومهما قيل عن بلزاريوس ، فإن شجاعته قد أثارت إعجاب جميع معاصريه ، ومن بينهم أعداؤه ، فلقد أعجب به القوط الشرقيون تماماً إلى حد أنهم

---

(٢٢٣) De bello Persico, 69.

عرضوا عليه أن يتوجوه ملكاً لهم (٢٢٤). ولقد كان حرسه الخــاص يضم رجالا من شتى العناصر التى حارب ضدها ، أفراداً ممن أعجبوا بشجاعته فانضموا إليه لخدمته ، فكان عنده الوندالى والقوطى والفارسى والمغربى (٢٢٥). وكان بلزاريوس قائداً ذكياً ، ومخططاً بارعاً للمعارك ، وكان يعرف مواضع الضعف فى معسكر عدوه ، كما أنه كان يوجه ضرباته فى الوقت المناسب .

ورغم هذه الصفات ، كانت تغيب عن بلزاريوس بعض المسائل الاستراتيجية : فقد منيت فرق طلائعه فى شمال إفريقيا بفشل ذريع ، والدليل على ذلك أن العدو باغته مرتين فى أهم معركتين خاضهما مع الدونال . كما وأن خطة زحفه لم تكن محكمة التدبير ، وغالباً ما وصلت مشاته متأخرة عن الساعة المحددة لوصولها . ويعيب بلزاريوس أيضا سرعة غضبه ، وهو يفقد اتزانه كقائد عام عندما يأتيه خبر غير متوقع ، ويشعر بالقنوط . ويؤخذ عليه أنه فى يوم ثورة « نيكا » ضد نظام الحكم ، قد جبن تماماً ، ولم يسترد أنفاسه إلا بعد وقفة تيودروة المشهورة .

وفى حملته الثانية على إيطاليا ضد القوط الشرقيين ، لم يكن بلزاريوس على مستواه العسكرى القديم ، وقد ضاعت عليه رافنا ثم روما بسبب تخبطه وتباطؤ تحركاته . ويقول بروكوبيوس ، وهو خير من يعرف بلزاريوس ، أن الفضل فيما أحرزه بلزاريوس من نجاح فى المعارك التى خاضها إنما يرجع إلى رعونة عدوه ، وليس إلى حكمته هو (٢٢٦) .

هذا وقد عرف عن بلزاريوس حبه الشديد للمال ، وهو لم يتردد فى الاستيلاء على قصر يوحنا الكبادوكى بعد أن أدت زوجه الدور الخسيس مع تيودورة للإيقاع بالرجل ، كما سبق أن بينا . ولعل أسوأ صفات بلزاريوس هى ضعفه الشديد وخضوعه لزوجه الفاتنة أنطونينا ، التى كانت تسيطر عليه تماماً ، كما كانت تصاحبه فى كل حملاته ، وكانت تتدخــل فى كل شىء حتى فى الخطط العسكرية . كما أن بلزاريوس كثيراً ما كان يترك لأنطونينا أمر الحكم بين رجاله فى المعسكر ، وقد تعمد أن يغمض عينيه عن الفضائح المتعددة التى راجت حول زوجته ، بل إنه قد ضحى بنفر من أخلص رجاله

(٢٢٤) De bello Gothico, 272.

(٢٢٥) Ibid., 281.

(٢٢٦) Historia Arcana, 35 - 36.

وأصدقائه إرضاء لنزوات زوجته . وخلاصة القول فإن بلزاريوس ، مثله فى هذا مثل سيده جستنيان ، كان شخصاً معقد التركيب .

أما عن نارسس ، فقد كان خصياً من أصل أرمينى . وقد بدأ حياته موظفاً فى القصر ، ثم تدرج فى الرقى حتى صار حاجباً للإمبراطور . وقد أثبت فى يوم ثورة « نيكا » ضد نظام جستنيان أنه أكثر فطنة من بلزاريوس ، إذ نجح فى استمالة فريق الزرق » وإقناعهم بالتخلى عن « الخضر » . وفى سنة ٥٣٧ أوفده جستنيان إلى الإسكندرية لفض النزاع الدينى المتأزم بين المنافزة والخلقيدونية . كما كانت الإمبراطورة تيودورة توليه بعنايتها فى القصر ، فتدرج إلى أعلى المناصب . وفى سنة ٥٣٨ وكلت إليه مهمة قيادة تعزيزات عسكرية إلى إيطاليا لمساعدة بلزاريوس . وقد أبدى نارسس شجاعة فائقة فى المعارك التى خاضها ، وامتاز بسرعة التكيف مع الظروف المفاجئة ، كما كان محدد الكلام واضحاً فيما يقصده . ورغم ما لحق به من عار ، إلا أن مركزه فى البلاط لم يهتز كثيراً : فهو الذى كلف بالقبض على يوحنا الكبادوكى سنة ٥٤١ . وفى سنة ٥٥٠ عينه جستنيان قائداً أعلى على إيطاليا بعد أن أثبت بلزاريوس فشله فى مهمته هناك . وقد نجح نارسس فيما فشل فيه بلزاريوس فى إيطاليا .

* * *

## الحرب ضد الوندال

كان هلدريك ملك الوندال فى نظر شعبه رجلا ضعيفاً ليناً لا يصلح لقيادة أمة جنزريك . وقد ضاق الوندال بسيدهم الخامل الذى لا يحب الحروب ، والذى كان متسامحاً مع الكاثوليك . ولعل أشد ما أوغر صدور الوندال ضد مليكهم هلدريك هو تخليه عن الحلف مع القوط الشرقيين ، ثم تقربه من إمبراطور القسطنطينية .

وقد استغل نبيل من بيت جنزريك اسمه جلمير ذلك السخط على سياسة وشخص هلدريك ، فدبر مؤامرة أطاحت به من على العرش ، وجلس مكانه[٢٢٧] .

أحدث هذا الانقلاب رد فعل عنيف فى القسطنطينية ، وبعث جستنيان يحتج إلى جلمير على فعلته ، ويطلب منه الإسراع فى معالجة الخطأ الذى تردى فيه . ولكن جلمير ، الذى كان موقناً من أن الصراع بينه وبين جستنيان أمر لا مفر منـه مهما قدم له من تنازلات ، رفض الاستجابة لمطالب القسطنطينية ، وأخذ فى اضطهاد خصومه من الحزب الموالى للقسطنطينية . ونتيجة لهذا الموقف ، أعلن جستنيان أن القوات الرومانية سوف تتدخل لإنقاذ الأبرياء الذين يضطهدهم جلمير . وقد شجعت هذه الأنباء العناصر المغلوبة على أمرها من الكاثوليك ، فهبت ثورة ضد الوندال فى كل من طرابلس وسردينيا .

وفى الثانى والعشرين من يونيو ٥٣٣ أبحر بلزاريوس على رأس أسطول مؤلف من ٥٠٠ سفينة يقودها ٢٠,٠٠٠ من النوتية ، وتحمل ١٠,٠٠٠ من المشاة و ٥٠٠٠ من الفرسان ، إلى جانب عمارة بحرية أخرى من ٩٢ سفينة حربية يقودها ٢٠٠٠ من الجدافين لمرافقة الحملة[٢٢٨] .

لم يكن الملك الوندالى جلمير بالشخص القوى كما كان يزعم يوم قيامه بالمؤامرة ضد

(٢٢٧) De bello Vandalico, 350 - 51.

(٢٢٨) Ibid., 358, 360 - 61.

هلدريك : فقد كان متردداً عصبي المزاج ، وترك الأحداث تتصاعد دون أن يحتاط لمواجهتها ، فأخذه بلزاريوس على غرة . وعندما رست سفن بلزاريوس على شواطئ أفريقيا الشمالية لم يعــد فى وسع جلمير أن يعالج الموقف الذى كان استهتاره سببا فى وقوعــه بهذه السرعة المباغتة . وما من شك فى أن جلمير كان يستطيع التصدى بفرسانه للقوات البيزنطية ، فيرهقها فى عدة معارك خاطفة ، وكان فى مقدوره أيضاً أن يقطع عنها وسائل الاتصال والمؤن . ولكنه بدلا من أن يتحرك وفق هذه الاستراتيجية ، فضل أن يدخل معركتين كبيرتين مع بلزاريوس ، فمهد بهذا لسقوطه النهائى . وعندما حلت به الهزيمة فى واقعة دكيموم (Decimum) ، ضيع الوقت فى النحيب على جثة شقيقه الذى قتل فى المعركة ، وبعدهزيمته الثانية فى واقعة تريكا ماروم ، (Tricamarum) ، هرب من الميدان دون أن يصدر أمراً إلى جنوده ، ولم يفكر فى أن يجمع فلول قواته لإنقاذ الموقف . والقد سارعت بعض قوات بلزار يوس تتعقب جلمير نحو جبال بابوا (Pappua) . ولما وجدالملك الوندالى طريقه مسدوداً بكتائب بلزاريوس التى كانت تراقب مؤخرة جيش العدو ، انهارت معنوياته تماما ، فبدلا من أن يفكر فى شق طريقه بالسيف للإفلات من حصار المذلة ، كما نصحه أتباعه المخلصون ، ترك نفسه للأقدار واكتفى بأن أمسك بالقلم « ليسجل مصيره فى أبيات من الشعر » : وبعد أن تحمل عناء الجوع والألم ، نجده فجــأة يتخذ قراراً بتسليم نفسه إلى بلزاريوس!

والواقع أن بلزاريوس كان على علم بنقاط الضعف فى شخصية خصمه جلمير ، وقد استغل الموقف أحسن استغلال ، وحقق من ورائه النصر على أمة الوندال . وقد رفع من معنويات بلزاريوس ذلكم الاستقبال الحار الذى لقيه من أهالى الشمال الإفريقى ، فقد رحبوا به كمحرر ومخلص لهم من مخالب الوندال الهراطقة : فى أوائل سبتمبر ٥٣٣ نجح أسطول بلزاريوس فى الرسو دون مقاومة عند رأس كابوت ڤادا (Caput Vada) ، وفى الثالث عشر من نفس الشهر التحم الطرفان الرومانى والوندالى فى واقعة دكيموم ، التى تحطمت فيها كل آمال جلمير . ثم سقطت قرطاج فى أيدى بلزاريوس ، وعبثا حاول جلمير أن يسترد عاصمته المفقودة . وفى منتصف ديسمبر ٥٣٣ دارت معركة ثانية بين القوتين عند تريكاماروم ، وكان على الرومان فى ذلك اليوم أن يعترفوا بعنف الخيالة الوندالية ، ولكن الرومان نجحوا فى هذا الامتحان الصعب . ودارت الدائرة على الوندال ، وسقطت مدنهم الواحدة

تلو الأخرى فى أيدى بلزاريوس . ثم وقع أفراد البيت المالك أسرى فى أيدى الرومان ، وبعدها اتخذ جلمير قراره ، فخرج من مخبئه فى جبال بابوا وسلم نفسه إلى بلزاريوس ، بشرط أن يؤمن له سلامة حياته ومعاملة تليق بالملوك . وبانتصار بلزاريوس تحققت النبوءة التى كان أهل قرطاج يرددونها فى ألعابهم دون فهم لكنهها ، وهى تقول :

G fugabit B

ac rursus

B fugabit G

وهى تعنى أن ج ( جنزريك ) يهزم ب ( بونيفاس ) ، وتدور الأيام فيأتى ب ( بلزاريوس ) ويقضى على ج ( جلمير ) .

إن تتابع الأحداث على هذا المنوال ، بما حققته القوات الرومانية من نجاح مذهل قد أسكر الإمبراطور جستنيان بنشوة النصر ، فهو لم يكن يتوقع أن بضع فصائل من الخيالة الرومان يمكن لها فى وقت قصير أن تحطم مملكة جنزريك العاتية . ولذا فإنه راح يعلن على الملأ بأن السماء ، «بإذن منها وتأييد كبير ، قد وضعت بين أيدينا أفريقيا وسائر ولاياتها ، (٢٢٩)» ثم قرر الإمبراطور أن يعيد النظام والأمن إلى ولاية افريقيا ، حتى يرفرف القانون الرومانى على البلاد ويشعر الأهلون من جديد بدفء الحضارة الرومانية .

ظن جستنيان أن الحرب فى شمال أفريقيا قد انتهت ، فاستدعى بلزاريوس إلى القسطنطينية وقلل من حجم قواته فى الولاية ، ثم خلع على نفسه لقب « قاهر الوندال والأفارقة » (Vandalicus, Africanus) غير أن ما وقع بعد هذا من أحداث فى ولاية أفريقيا قد كدّر على الإمبراطور أحلامه السعيدة : ففى حين كان بلزاريوس يسير فى موكب الانتصار فى شوارع القسطنطينية وهو يعرض على شعبها المتهلل كنوز الذهب واللآلئ والأوانى النفيسة والأردية الغالية والعربات الفاخرة التى كان الوندال قد نهبوها على مدى عشرين عاماً من غزواتهم ، وبينما كان جستنيان فى قمة النشوة يحصى كنوز سليمان وخزائن روما المغتصبة ، وبينما كان المصورون فى القصر الإمبراطورى ينقشون لوحات من الفسيفساء تمثل مراحل الفتح وسقوط مدائن أفريقيا وتصور جلمير يقدم فى مذلة مراسيم الولاء والطاعة لجستنيان وتيودورة ، أثناء كل ذلك كان القائد الذى خلف بلزاريوس فى الشمال الأفريقى يقاتل ضد ثورة عارمة هب

(٢٢٩) Codex Justinianus, 1, 27, 1, 7.

بها أهل البلاد . لم يكد بلزاريوس يرحل عن قرطاج حتى قام أهل البلاد من البربر بالثورة فى بيزاسين ونوميديا ، وقد أرهقت هذه الثورات جهود سليمان الخصى الذى خلف بلزاريوس فى القيادة . ثم ما لبثت فرقة مرتزقة من المعسكر الرومانى أن قامت هى الأخرى بالتمرد . ولما وصلت تلك الأنباء إلى القسطنطينية ، بادر جستنيان بإرسال بلزاريوس من جديد ، ووصل القائد فى الوقت المناسب لكى ينقذ قرطاج من الضياع . وبعد أن استقرت الأمور ترك بلزاريوس شمال أفريقيا تحت قيادة قائد اسمه جرمانوس . ورغم هذه الجهود لم تنته القلاقل فى شمال أفريقيا ، وتجدد الصراع بين القوات الرومانية والقبائل الوطنية . وكان على سليمان ، الذى رقى إلى رتبة القيادة العامة ، أن يتوغل فى قلب الصحراء ليطارد أميراً محليا اسمه إيابداس (Iabdas)، ثم استولى على مناطق الزاب والهوندة وموريتانيا ، وأجبر شيوخ البربر على أداء يمين الطاعة للإمبراطورية الرومانية . وبعد صراع مرير دام عشر سنوات ( ٥٣٤ - ٥٤٤ ) توفى سليمان ، فهب البربر بالثورة من جديد ، وقامت حركات تمرد فى المعسكر الرومانى ، وأشعلت الحرائق ، ودبرت بعض الاغتيالات ، ونهبت القرى والمدن ، وفر الأهلون من بيوتهم مذعورين إلى حد جعل المؤرخ بروكوبيوس يقول : « إن نتائج حملة بلزاريوس قد ضاعت كلها هباء ولكأنها لم تحدث أبدا » [٢٣٠] .

وفى هذه اللحظات الحرجة ، التى لاح فيها أن أفريقيا قد تضيع مرة أخرى من أيدى الإمبراطورية ، لمع اسم قائد رومانى هو يوحنا تروجليتا . فقد نجح هذا الرجل فى شن حرب شجاعة دامت عامين كاملين ( ٥٤٦ - ٥٤٨ ) ، وانتهت بتثبيت الحكم الرومانى فى ولاية أفريقيا .

لم تكن الأراضى التى استردها بلزاريوس وخلفاؤه من أيدى الفندال هى كل ما كان جستنيان يأمل فيه فى الشمال الأفريقى . والأراضى التى نجح الرومان فى السيطرة عليها هى طرابلس ، بيزاسين ، نوميديا وموريتانيا ، بالإضافة إلى جزر سردينيا وكورسيكا والبليار وفيما عدا قلعة سبتة ، لم تفلح قوات جستنيان فى استرداد الجزء الغربى من الشمال الأفريقى فبقيت مناطق قيصرية وطنجة مستقلة عن الإمبراطورية . أضف إلى هذا أن ما استرد من أرض كان خرابا يباباً ، بسبب الأعوام الطويلة من القتال والحرائق والنهب والتخريب ويلاحظ بروكوبيوس فى « التاريخ السرى » أن ولاية أفريقيا ، بعد الفتح الجستنيانى

---

(٢٣٠) De bello Vandalico, 524.

صارت مقفرة ، عارية من الحراسة ، سيئة الإدارة ، تئن إفلاساً من وطأة جباة الضرائب ، وتضطرم بسبب التعصب المذهبي . وهذا يعني — عند بروكوبيوس أيضاً — أن طموح جستنيان لم يعد على أفريقيا إلا بالحرب [٢٣١] .

لا ينكر أحد أن عودة الحكم الروماني إلى شمال أفريقيا قد جلب معه المساوئ ، ولكن هذا لا يقلل من شأن جستنيان ، الذي حقق هدفا غاليا طالما راود الرأي العام الروماني ، ألا وهو استرداد ولاية هامة وتخليص أهلها من طغيان الوندال . كما أن الإمبراطور لم يدخر وسعا في سبيل إعادة الأمن والسلام إلى بلاد لم تعرف الهدوء منذ وطأها جنزريك وجماعته . ولا زالت القلاع التي أقامها جستنيان تقوم شاهداً حتى اليوم على جهوده لحماية البلاد وإرساء قواعد الأمن فيها . كما أن استتباب الأمن هو الذي ساعد على رجوع الحياة إلى مجراها الطبيعي في ظل القانون الروماني . ومهما يقال عن مظالم رجال جستنيان في إدارة حكم البلاد وعن تعسفهم وقسوتهم البالغة ، إلا أنه من التجني أن يقال بأن فتح أفريقيا كان لمجرد إشباع طموح وغرور جستنيان ، ففي هذا الحكم مجافاة للواقع التاريخي .

(٢٣١) Historia Arcana, 106 - 107.

## جستنيان قاهر القوط الشرقيين

لقد مهد فتح جستنيان لشمال أفريقيا لمهمته التالية فى إيطاليا ضد مملكة القوط الشرقيين . وكانت الأحداث التى تعاقبت فى بلاط راڤنا تبشر جستنيان بالنجاح فى هذه المهمة الوعرة : لم ينجب ثيودريك خلفا ذكراً ليجلس على عرش القوط بعد وفاته ، ولذا فإنه استقدم شاباً من أمراء قوط أسبانيا وزوجه من ابنته آماسونزة فى سنة ٥١٥ ، كما أنعم عليه بلقب « قنصل » ، ومهد له الطريق ليرث تاج المملكة من بعده . غير أن هذا الأمير توفى فجأة وهو فى ريعان شبابه ، تاركا ابناً صغيراً اسمه آثالارك . وفى سنة ٥٢٦ طلب ثيودريك من نبلاء أمته أن يتعهدوا باختيار حفيده آثالارك ملكا عليهم . وتم لثيودريك ما أراد ، إذ اعتلى آثالارك العرش بعد وفاة جده ، على أن الملك الفتى توفى فجأة سنة ٥٣٤ . واضطرت آما لسونزة ، الملكة الأم ، إلى أن تشرك معها فى الحكم واحداً من أنسبائها اسمه ثيودات ، بعد أن تزوجته ، وهو آخر الأبناء الذكور من فرع الآمال(Amales) . وبعد قليل دبر ثيودات مؤامرة تخلص بها من زوجه وشريكته فى الحكم وأرسل بها إلى السجن فى جزيرة على بحيرة بولسينا ، ثم أصدر أوامره باغتيالها ( أبريل ٥٣١ )[٢٣٢]

كانت آمالسونزة على علاقة طيبـــة مع البلاط الإمبراطورى فى القسطنطينية ولعل هذا هو السبب الذى دعى زوجها ثيودات إلى التخلص منها . ولما وصلت أنبـــاء مقتلها إلى جستنيان طلب من سفيره بطرس أن يوقف المفاوضات التى كان يجريها مع ثيودات نظراً لارتكابه جريمة بشعة . وكان هذا بمثابة إعلان للحرب ضد الملك القوطى الشرقى :

وجه جستنيان جيشين إلى إيطاليا : الأول عبر الطريق البرى ماراً بدلماشيا ، والثانى وهو الأكبر حجماً ( ٧٥٠٠ جندياً ) عبر البحر تجاه جزيرة صقلية ، بقيادة بلزاريوس .

وقد اتبع جستنيان فى هذه الحرب نفس الخطة الدبلوماسية التى كان قد استخدمها فى حربه ضد الوندال ؛ فمثلما ناشد من قبل تأييد القوط الشرقيين أثناء حربه ضد الوندال ، راح الآن يستقطب ثيودبرت ملك المير وقنجيين الفرنجة للوقوف معه ضد القوط الشرقيين[٢٣٣] .

---

(٢٣٢) De bello Gothico, 23 - 25.

(٢٣٣) De bello Gothico, 27.

لم يكن ثيودات القوطى بأفضل قوة ولاشخصية من جلمير الوندالى ، ويبين لنا حال هذين الملكين الجرمانيين مدى الرخاوة والتدهور، الذى أصاب المثل الجرمانية القديمة والروح العسكرية الصلبة ببالغ الضرر بفعل شمس الحضارة الرومانية الدافئة . فلم يكن ثيودات على شاكلة آبائه ، بل كان عزوفاً عن مغامرات الحرب ، كارها للسلاح ، فى حين أنه كان مغرماً بالآداب القديمة والفلسفة الأفلاطونية . ويروى عنه قوله : « إن التاج يكدر الحياة ، وإن الحفاظ عليه كثيراً ما يتطلب من المرء أن يدنس يده بدماء الأبرياء »[٢٣٤] .

أنزل بلزاريوس قواته فى جزيرة صقلية ، ثم سيطر على البلاد بعد مقاومة طفيفة من جانب بالرمو . وأصبحت صقلية مرة أخرى أرضاً رومانية ، وضاعت على ثيودات تلك الجزيرة التى وصفها المؤرخ القوطى جوردان على أنها « مرضعة القوط »[٢٣٥] .

لم يبذل ثيودات أى جهد لمواجهة الموقف الخطير ، الذى بات يتهدد كيان أمة القوط فى إيطاليا ويبدو أن طبيعته المتخوفة قد حدت به إلى التذلل لبلزاريوس، طالبا الدخول معه فى مفاوضات ، مع استعداده لتقديم تنازلات طائلة لاسترضاء جستنيان . وفى نفس الوقت طلب الملك القوطى إلى البابا أغابيتوس ، الذى كان وقتها فى زيارة للقسطنطينية ، أن يتوسط له عند الإمبراطور إلى معاهدة سلام . وفجأة ، عندما طارت أنباء عن نصر صغير حققه القوط على القوات الرومانية البرية فى دلماشيا ، استرد ثيودات أنفاسه ، وراح يغير من سلوكه السابق فى تحد واضح . وقد شجع ثيودات على هذا التحول استدعاء بلزاريوس من إيطاليا لتهدئة الموقف فى شمال أفريقيا . قبض ثيودات على سفراء جستنيان وألقى بهم فى السجن ، وبهذا يكون قد ألقى بالقفاز فى وجه الإمبراطور[٢٣٦] .

فى أثناء ذلك كان بلزاريوس قد نجح فى مهمته فى الشمال الأفريقى، ثم عاد إلى صقلية ليستأنف الحرب ضد القوط الشرقيين . عبر بلزاريوس من صقلية إلى الجنوب الإيطالى عبر ريجيوم (Rhegium)، وذلك فى مايو ٥٣٦ . وقد قوبل بلزاريوس بترحيب حار من جانب

---

(٢٣٤) Ibid., 31.

(٢٣٥) Jordanès, Getica, 60.

(٢٣٦) De bello Gothico, 36.

الإيطاليين ، على أمل الخلاص من عبء القوط . نجح بلزاريوس على مدينة نابلى واستولى عليها ، ثم سمح لرجاله بنهب المدينة . وبينما كانت أنباء الانتصارات الرومانية تتوالى على بلاط ثيودات فى راڤنا ، كان الملك القوطى يضيع وقته فى استخارة الوحى ليحدثه عن مصيره . بعد أن سيطر بلزاريوس على مدينة نابلى ، أصبح سيداً على الجنوب الإيطالى برمته وفى نهاية سنة ٥٣٦ وصل سفراء البابا سلفريوس والشعب الرومانى يدعون بلزاريوس للزحف على روما . وفى العاشر من ديسمبر ٥٣٦ دخل بلزاريوس المدينة الخالدة ، وأعادها إلى حظيرة الإمبراطورية . وهلل الناس فى روما الجديدة ( القسطنطينية ) لأن جستنيان قد استرد روما القديمة وخلصها من مخالب الأريوسيين .

غير أن القوط الشرقيين كانوا لايزالون يحتفظون ببقية من الحمية الجرمانية ، فلقد قام نفر من العسكريين بانقلاب وخلعوا ثيودات عن العرش ، ثم رفعوا واحداً منهم اسمه ڤيتيجيز (Vitiges) على العرش . والملك الجديد جندى من أسرة قوطية متواضعة ، ولكنه كان على درجة رائعة من الشجاعة . غير أن هذا الجندى الممتاز ، الذى كان يقاتل جنباً إلى جنب مع رجاله ، لم يكن يملك الفطنة السياسية : فبدلا من أن يتصدى لبلزاريوس ، صرف جهوده ضد فرنجة غالة فى الشمال . كما أنه أقدم على الزواج من أميرة من بيت ثيودريك ، لكى يضفى على نفسه لمسة من الشرعية فى حمل التاج ، ولكن هذا الزواج أغضب عليه البعض من رفاق السلاح الذين كانوا من عامة الشعب . وبينما كان بلزاريوس يتأهب للزحف من روما صوب الشمال ، كان ڤيتيجيز يقيم حفلا صاخباً فى عاصمته راڤنا ، احتفالا بزواجه من أميرة من البيت الملكى . نجح بلزاريوس فى السيطرة على نارنى (Narni) وسبولتو وبوروسة (Porousa) وزحفت القوات الرومانية صوب الشمال للقضاء على قوة القوط .

عندما أفاق ڤيتيجيز من حفلاته ، جهز جيشا من ١٥٠,٠٠٠ من رجاله وزحف على رأسهم « كالأسد الهائج » ، وضرب حصاراً حول مدينة روما ، وذلك فى مارس ٥٣٧ [٢٣٧] . واضطر بلزاريوس إلى الاحتماء وراء أسوار روما ، بعد أن تزود بالمؤن اللازمة . شدد الملك القوطى من حصاره للمدينة ، فقطع قنوات المياه عنها ، وشن هجمات عنيفة على أسوارها ، ولكن بلزاريوس كان مصمماً على عدم التسليم للقوط ، وقد كتب إلى جستنيان يطمئنه بأنه

(٢٣٧) Jordanés, Getica, 138.

لن يسمح للبرابرة بغزو روما طالما بقي على قيد الحياة(٢٣٨) .

بادر جستنيان بإرسال تعزيزات عسكرية لإنقاذ بلزاريوس من موقفه الحرج : فى بداية ٥٣٨ وصل جيش إمبراطورى بقيادة يوحنا عبر الأدرياتيك ، ونجح هذا القائد فى الاستيلاء على بكينوم (Picenum) وريمينى (Rimini) . كذلك زحفت بعض الكتائب الرومانية على منطقة ليجوريا (Liguria) بدعوة من كبير أساقفة ميلانو لدخول المدينة . وهكذا انقلب ميزان الحرب ، ووجد ڤيتجيز نفسه مضطراً إلى رفع الحصار عن روما والتقهقر شمالا فى مارس ٥٣٨ ، قبل أن يفقد كل شيء . ثم أرسل جستنيان جيشاً آخر قوامه ٧٠٠٠ رجلا بقيادة الخصى نارسس للشد من أزر بلزاريوس . غير أن سوء التفاهم الذى وقع بين القائدين نارسس وبلزاريوس قد ضيع عامين كاملين على المعسكر الرومانى فى إيطاليا . فقد انتقلت عدوى الخلاف بين الرجلين إلى معسكر كل منهما ، وضاعت الجهود فى تبادل الاتهامات . استغل الملك القوطى الفرصة ، وزحف على مدينة ميلانو واستولى عليها ، ثم أمر رجاله بإجراء مذبحة رهيبة فى الأهالى ، انتقاما منهم على دعوتهم للقوات الرومانية بالزحف على ميلانو . وانتهز الفرنجة الموقف ، فأغار ملكهم ثيودبرت على سهل البو ، ونهب كل ما صادفه فى طريقه ، دون تمييز بين القوط الشرقيين أو معسكرات جستنيان .

تدارك جستنيان الموقف فى نهاية ٥٣٩ ، فاستدعى نارسس إلى القسطنطينية ، وفوض بلزاريوس فى القيادة العليا للحملة فى إيطاليا . وقد أثبت بلزاريوس مقدرته العسكرية فى هذه الجولة ، فقد استولى على ڤزيولاى وأوكسيموم ، وأجبر الفرنجة على التقهقر من سهل البو ، وضيق الخناق على ڤيتجيز وأرغمه على التقهقر للاحتماء وراء أسوار عاصمته راڤنا .

فى لحظات يأسه استنجد ملك القوط بالملك الفارسى خسرو ، يطلب منه أن يشن هجوماً على الجبهة الشرقية لإمبراطورية جستنيان ، لكى يضطر هذا الأخير إلى استدعاء جيشه من إيطاليا(٢٣٩) . ولكن بلزاريوس ضرب ضربته قبل أن يؤتى الحلف القوطى الفارسى ثماره ، فتقدم فى نهاية ٥٣٩ على رأس جيوشه وضرب حصاراً حول العاصمة القواطية راڤنا . ودام الحصار حتى مايو ٥٤٠ ، فانحطت معنويات القوط المحاصرين ، وتفشت بينهم

(٢٣٨) De bello Gothico, 114 - 116.

(٢٣٩) Ibid., 237; De bello Persico, 156.

المجاعة والأمراض ، وبدا وكأنهم على وشك الإلقاء بالسلاح ووضع أنفسهم عند قدمى بلزاريوس .

وقد حاول الفرنجة أن يقووا من عزم القوط ، فعرضوا عليهم استعدادهم للعون العسكرى ، ولكن القوط رفضوا تلك « الوعود الكاذبة » ، وفضل ڤيتجيز أن يصل إلى حل مقبول مع جستنيان عن طريق المفاوضات . والواقع أن جستنيان كان هو أيضا يود الوصول إلى حل سلمى مع ڤيتيجيز ، وذلك بسبب ضغط السلاف المتزايد على الإمبراطورية عند شواطئ الدانوب ، وأيضاً بسبب تحرك ملك فارس ضد المصالح الرومانية فى الشرق . وأرسل جستنيان بشروطه إلى ڤيتجيز ؛ وهى أن يتخلى القوط للإمبراطورية عن الأراضى الواقعة جنوبى نهر پو على أن يترك شمال إيطاليا للقوط .

واكن تطوراً غريباً قد حدث : ذلك أن بلزاريوس رفض الامتثال لأوامر سيده جستنيان ، وأصر على أن يكمل مهمته حتى نهاية الشوط ، وأخذ الأمر برمته على مسئوليته ، ممنياً النفس بنصر يمكنه من جر الملك القوطى أسيراً فى موكبه إلى القسطنطينية مثلما فعل من قبل مع ملك الوندال جلمير . ومن ثم فإنه أعلن فى وضوح أنه لن يوقع مع القوط عهداً ولا ميثاقاً ، وإنما سوف يحاربهم حتى تسقط عاصمتم فى يده .

كانت المجاعة قد أذلت القوط من وراء أسوار راڤنا ، فراحوا يعرضون على بلزاريوس أن يتوجوه ملكا عليهم وإمبراطوراً على النصف الغربى للإمبراطورية . وأعلن ڤيتجيز استعداده لأن يخلع التاج عن رأسه ليضعه راضياً على رأس بلزاريوس (٢٤٠) . ولقد لعبت هذه العروض المغرية قليلا برأس بلزاريوس ، ولكنه بعد لحظات ضعف عابرة اتخذ قراراً بألا يغدر بسيده وصديقه جستنيان .

تظاهر بلزاريوس بقبول عرض القوط وملكهم إليه ، وطلب منهم أن يفتحوا بوابات راڤنا مقابل ضمانه لسلامة حياتهم . ودخل بلزاريوس عاصمة القوط بمحض إرادة القوط . ثم أمر الأسطول الرومانى بالدخول إلى ميناء كلاسيس (Classis) لإغاثة أهل المدينة بالغلال والمؤن اللازمة ، بعد أن بلغت المجاعة ذروتها داخل راڤنا . وكان دخول بلزاريوس إلى العاصمة القوطية يوماً تاريخياً ، فبينما تقدم موكبه فى شوارع المدينة ، كان القوط يهتفون باسم

(٢٤٠) De bello Gothico, 267 - 69.

بلزاريوس « ملكا » عليهم . غير أن بلزاريوس أعلن للقوط صراحة أن لم يسع لشخصه إلى إلى ملك أوتاج ، ولكنه سيظل مخلصًا لإمبراطور القسطنطينية ، ورغم هذا ، فإن بلزاريوس أعلن تمسكه بتنفيذ كل وعوده الأخرى ، فلم يسمح لرجاله بنهب المدينة ، كما أنه كان صادقًا فى المحافظة على أرواح الناس وأملاكهم .

وهكذا فإنه بعد خمسة أعوام من القتال المرير ، دانت إيطاليا لسلطة جستنيان . ثم قام بلزاريوس بإرسال ڤتجيز وأفراد أسرته وخيرة أبناء الارستقراطية القوطية إلى القسطنطينية وأرسلت معهم الكنوز الوفيرة التى كانت للملك ثيودريك . ووضع أسياد القوم وكنوزهم جميعاً عند قدمى جستنيان فى القصر المقدس ، وأصبح من حق الإمبراطور أن يضيف إلى ألقابه الأخرى لقب « قاهر القوط » (Gothicus) .

ومع أن ڤيرونا وباڤيا بقيتا خارج نطاق النفوذ الرومانى ، إلا أن جستنيان استدعى بلزاريوس إلى القسطنطينية ، ثم عين حاكما لإدارة « ولاية إيطاليا » هو أثناسيوس . ووصل اثناسيوس ليستقر فى راڤنا سنة ٥٤٠ ، ولكن الجيش الذى كان جستنيان قد بعث به لغزو إيطاليا ، قد أنقص إلى نصف حجمه بعد الفتح .

أما عن القوط فقد أصيبوا بخيبة أمل مريرة عندما سقطت عاصمتهم راڤنا ، كما أنهم لم يغفروا لبلزاريوس خداعه لهم . ولذا فإنهم بدأوا يعدون العدة من جديد للانتقام لشرفهم المهيض ، فنظموا ما تبقى من صفوفهم فى سهل البو ، وكونوا فرقًا للمقاومة بقيادة إلديبالد (Ildibald) ، وهو ابن اخت للملك القوطى الغربى ثيودس[٢٤١] .

أما عن المعسكر الرومانى فقد شهد تنافسا بين الضباط على القيادة العليا ، كما أن الجنود كانوا ساخطين لأنهم قد حرموا من غنائم السلب والنهب فى راڤنا بسبب موقف بلزاريوس ، كما وأن ترقياتهم كانت قد تأخرت لبعض الوقت . أما عن الشعب الإيطالى فقد كان شديد السخط على إدارة رجال جستنيان لشئون الحكم ، خاصة وأن جباة الضرائب الموفدين من قبل القسطنطينية قد أصروا على جباية متأخرات الضرائب منذ عهد الملوك القوط ، وذلك رغم الفقر الشديد الذى عم البلاد من جراء الحروب المتتالية عليها .

فى سنة ٥٤١ ظهر من بين القوط زعيم جديد اسمه توتيلا (Totila) ، الذى

(٢٤١) De bello Gothico, 284.

يعتبره الكتاب أعظم ملوك القوط بعد ثيودريك . كان توتيلا من أتباع إلديبالد ، وبعد وفاة الأخير اختير للجلوس على عرش القوط الشرقيين بسبب قوة شخصيته وشجاعته الفائقة وذكائه الفذ ، الذى شهد به المعاصرون من أصدقاء وخصوم ، ومن بين الأخيرين مؤرخنا بروكوبيوس ، الذى وصف توتيلا « بالنبل والشجاعة التى لا نتوقعها من الأعداء ومن جنس البرابرة »[٢٤٢] والواقع أن توتيلا قد أحرز عدة انتصارات على الجيش الرومانى ، ولكنه كان دوماً مشفقاً على عدوه المنهزم ، كما أنه لم يعرف إلى أساليب الغدر سبيلا : فعندما سقطت فى يده مدينة نابلى ، سمح للحامية الرومانية التى كانت فيها بالهروب جميعاً دون فدية ، ثم قام بتوزيع المؤن بنفسه على شعب المدينة الذين كانوا على شفى الموت من الجوع . وعندما سقطت روما فى يده ، كان صارماً مع رجاله فلم يسمح لهم بالنهب أو القتل ، كما أنه بسط حمايته على نساء المدينة ، وقابل كل توسلات الدياكون بيلاجيوس بالرضا والاستجابة الفورية . وكانت كل حروب توتيلا تتم دون عبث بالقرى أو المدن ، فكانت حرباً « نظيفة » ، وقد عبر عنها هو نفسه بقوله : « إننا نجاهد فقط من أجل إعادة حق القوط فى الحياة التى رسمها لهم الله »[٢٤٣] .

غير أنه فى إحدى نوبات الغضب ، بسبب نفاق شعب روما وغدرهم ، قد فكر جدياً فى إخفاء المدينة من على ظهر الأرض[٢٤٤] . ولعل أجمل ما نطالعه فى سيرة توتيلا أنه ملك تبنى قضية الفلاحين وفقراء القوم فى كل ربوع إيطاليا ، الذين امتص الأغنياء دماءهم حتى العظام . ولعله فى هذا الموقف بالذات تكمن قوة توتيلا ، الذى ظل إحدى عشرة عاماً يرهب قوات جستنيان ويستولى على الأراضى الإيطالية يوماً بعد يوم ، ويحطم بيده جميع المكاسب التى كان بازاريوس قد حققها بالعرق والدم .

فى أوائل سنة ٥٤٢ قاد توتيلا خمسه آلاف فقط من الرجال وزحف على رأسهم عبر سهل البو دون مقاومة ، ثم نزل على فاينزا Faenza وموجللو (Mugillo) واستولى عليهما ، وأصبحت منطقة إيطاليا الوسطى مفتوحة أمامه . ثم زحف بعد ذلك على الجنوب الإيطالى واستولى على بروتيوم وكلابريا وأبوليا ولوكانيا ، وهى مناطق غنية أمدته بموارد

---

(٢٤٢) De bello Gothico, 308.

(٢٤٣) Ibid., 311 - 12.

(٢٤٤) Ibid. 371.

هامة من المال . وفى سنة ٥٤٣ سقطت نابلى تحت قدميه ، ثم سيطر على ميناء أوترانتا على بحر الأدرياتياك ، وهو نقطة رسو القوات الوافدة بحراً من القسطنطينية . وأخيراً أعد توتيلا العدة للزحف على روما ، فوزع منشورات على الناس يذكرهم فيها بأيام القوط وعدل حكومتهم ، ويندد بالتعسف الذى حل بالبلاد على أيدى موظفى جستنيان . وكانت انتصارات توتيلا تتزايد يوماً بعد الآخر ، بينما كان القادة الرومان منعزلين واحدهم عن الآخر ، كل يحتمى وراء أسوار إحدى القلاع ، ومن هنالك كانوا يستصرخون جستنيان لإنقاذهم من الورطة .

واضطر جستنيان إلى أن يبعث ببازاريوس مرة أخرى إلى إيطاليا سنة ٥٤٤ ، ولكن دون جيش كبير أو مال وفير ، ولذا فقد كانت رحلة بازاريوس الثانية ضد القوط فاشلة تماماً : وصل بلزاريوس إلى رافنا سنة ٥٤٥ ، ولكنه لم يجرؤ على مغادرة المدينة . ومن رافنا كان القائد الرومانى يتابع أخبار انتصارات توتيلا المتلاحقة فى فيرموم (Firmum) واسكولوم (Asculum) وسبولتو Spoleto وأسيسى (Assisi) وكلوزيوم (Clusium) وفى ممرات الإبنين . وأصبح الاتصال بين رافنا وروما أمراً مستحيلا على بلزاريوس . بعد هذا زحف توتيلا على روما (٥٤٦) ، وحاول بازاريوس أن ينقذ المدينة بحصار بحرى ، ولكن الحظ لم يحالفه . وفقد بازاريوس أعصابه ، وقرر وسط معمعة المعركة حول روما الانسحاب عن ميناء بورتو ، تاركا روما تحت رحمة توتيلا . وسقطت المدينة فى أيدى الزعيم القوطى ، فى ١٧ ديسمبر ٥٤٦ ، وانتظر الملك من بازاريوس الكلمة لفتح باب المفاوضات ، ولكن أحداً لم يجب . وغضب توتيلا وأعلن أنه سوف يمحو روما من على ظهر الأرض ويحولها إلى برارى للرعاة . ولكن بازاريوس راح يترسل لدى الملك القوطى ، بالدمع هذه المرة ، لكى لا يمس متحف الحضارة الرومانية بسوء .

ولما علم توتيلا بأن القوات الإمبراطورية قد حققت نصراً على الجنوب الإيطالى ، قرر الرحيل عن روما ، ولكنه أخلاها من سكانها جميعاً ، ثم جر فى موكبه كل أعضاء مجلس الشيوخ . وظلت روما لمدة أربعين يوماً كاملة خالية من جنس البشر ، فتحولت بالفعل إلى صحراء قاحلة تنعى من بناها [٢٤٥] . ولقد ذهل المعاصرون مما حل بروما ،

(٢٤٥) De bello Gothico, 427; conf. Historia arcana, 36.

وفى وسط هذا الذهول أفاق بلزاريوس من سباته ، وأقدم على خطة جنونية : إذ ألقى بنفسه ورجاله إلى قلب المدينة الخاوية ، وقرر أن يدافع عنها بالدم ضد جحافل توتيلا التى عادت إلى المدينة من جديد سنة ٥٤٧ . ولكن موقف القوات الإمبراطورية كان يائساً للغاية ، فلم يكن لدى بلزاريوس مال يسعفه ، كما أن معنويات جنوده قد هبطت إلى الحضيض . ومضت بضع شهور وبلزاريوس يتنقل من مدينة إلى أخرى دون أن يصادف أى نجاح ، فى حين أن القوات الإمبراطورية فى الجنوب الإيطالى بقيادة يوحنا كانت تحقق بعض النجاح ، ولم يهتم قائد الجنوب بمركز بلزاريوس الحرج . ولما أن ضاقت الدنيا فى وجه بلزاريوس ، اضطر إلى أن يبعث بزوجه أنتونينا إلى القسطنطينية لكى تسعى لدى صديقتها تيودورة كى تتدخل لدى الإمبراطور ليبعث بتعزيزات عسكرية تنقذ بلزاريوس من محنته فى إيطاليا ، ولكن أنتونينا وصلت بعد وفاة الإمبراطورة بقليل ، ولم تستطع زوجة القائد أن تفعل شيئاً تنقذ به سمعة زوجها العسكرية ، وإنما نجحت فى إنقاذ حياته بأن توسلت إلى جستنيان أن يصدر أوامره باستدعاء بلزاريوس إلى العاصمة . وعاد الرجل وقد أفل نجمه .

لقد حكم المعاصرون حكماً قاسياً على بلزاريوس ، وأول هؤلاء أمين سره بروكوبيوس حيث يقول :

« لقد عاد بلزاريوس إلى بيزنطة من غير أمجاد ، فلقد ظل طيلة سنوات خمس وهو عاجز عن تثبيت أقدامه فى إيطاليا ، ولم ينجح فى أية معركة فى أن يحرز أى تقدم إلى الأمام . ولقد وجد نفسه طيلة الوقت مضطراً إلى التوارى والهروب منزوياً من الأنظار ، فراح يلهث من ميناء إلى آخر ومن قلعة إلى أخرى دون فائدة تذكر » (٢٤٦) .

غير أن هذا الحكم ينطوى على مجافاة للعدل ، لأنه يحمل بلزاريوس وحده نتائج الفشل فى إيطاليا . والحق أن بلزاريوس قد ووجه بتحديات قاسية : منها تمرد بعض الضباط وسخط الجند بسبب تأخر رواتبهم ، وعجز من جانبه بسبب خواء خزانة معسكره . يضاف إلى هذا أن القائد الجديد على القوات الإمبراطورية فى الجنوب الإيطالى — يوحنا — كان على عداء قديم مع بلزاريوس يرجع تاريخه إلى سنة ٥٣٨ : فقد كان يوحنا من

---

(٢٤٦) Historia arcana, 36.

حزب جرمانوس المعارض لتسلط تيودورة على شئون الدولة ، ومن ثم كانت العداوة لبلزاريوس وزوجه أنتونينا بسبب صداقتهما لتيودورة . لقد عمل يوحنا عن عمد لكى يحطم سمعة بلزاريوس العسكرية .

على أية حال ، لم يؤد رحيل بلزاريوس عن مسرح الأحداث فى إيطاليا إلا إلى ازدياد الموقف سوءً ، فلقد نجح توتيلا فى الاستيلاء على روما مرة ثانية ( ٥٤٩ ) ، فى هذه المرة قرر الزعيم القوطى أن يتخذ من روما عاصمة لمملكته . ثم تحرك توتيلا فسد الطريق أمام كنتومشلاى (Centumcellae) ، ثم هاجم أنكونا وريمنى وتارنتوم واستولى عليها جميعاً ( ٥٤٩ ) . وفى نفس الوقت سيطر الأسطول القوطى على البحر ، وأخذ فى مهاجمة سواحل دلماشيا . ومضى توتيلا « الشجاع » من انتصار إلى انتصار آخر ، فاسترد جزيرة صقلية ( ٥٥٠ م ) ، ثم كورسيكا وسردينيا ( ٥٥١ م ) ، ووصلت قواته إلى كورسيرا وشواطئ أبيروس .. وهكذا فإنه بعد عام واحد من رحيل بلزاريوس عن إيطاليا ، لم يتبق لقوات جستنيان من نفوذ فى إيطاليا سوى بضع معاقل فى رافنا وأنكونا وأوترانتو وكوروتينا . ويقول بروكوبيوس فى هذا : « صار الغرب كله فى أيدى البرابرة من جديد » [٢٤٧] .

فر الكثيرون من نبلاء وأساقفة إيطاليا إلى بلاط جستنيان يتوسلون إليه بضرورة العمل على إنقاذ الموقف ، وكان على رأس هؤلاء البابا فيجيليوس نفسه . كلف جستنيان ابن أخته جرمانوس بمهمة استرداد إيطاليا من أيدى القوط . والواقع أن جرمانوس كان جندياً ممتازاً ، أثبت جدارته فى حروب الشمال الأفريقى ، ولكن تيودورة كانت تحقد عليه كل الحقد ، فأجبرت جستنيان على أن يهمل شأن جرمانوس . ولما توفيت تيودورة ، لم يعد هنالك من يعوق طموح جرمانوس ورد الاعتبار إليه . وما أن أذيع تكليف جرمانوس بقيادة حملة على إيطاليا ، حتى هلل شعب القسطنطينية فرحاً ، وبادر الكثيرون ممن كانوا معجبين بشخصه للتطوع للخدمة تحت إمرته . ولكن جرمانوس توفى على حين فجأة فى سارديكا فى نهاية ٥٥٠ م ، وأصيب الإمبراطور وشعبه بخيبة أمل مريرة .

بعد هذا وقع اختيار جستنيان على الخصى العجوز نارسس لقيادة الحملة على إيطاليا : كان نارسس رجلا مسناً ومحنكاً ، ولقد طلب من الإمبراطور أن يمده بكل ما يطلبه للحملة من مال وعتاد ومؤن ، وإلا فإنه لن يقبل المهمة الوعرة . وقد استجاب الإمبراطور

---

(٢٤٧) De bello Gothico, 416.

لمطلب نارسس ، وأخذ الرجل يعد لحملته فى شتاء ٥٥١/٥٥٢م فى دلماشيا . وكان نارسس سخياً مع رجاله ، ولذا فقد تطوع للخدمة معه عدد وافر من البرابرة ، من هون ولمبارد وهريولى [٢٤٨] .

فى أثناء ذلك كان القائد أرتابانوس (Artabanos) قد نجح فى استرداد جزيرة صقلية من أيدى القوط ، بعد أن قرر توتيلا إخلاء الجزيرة لكى يستعد لمواجهة الجيش الضخم الذى كان نارسس يعده للانقضاض به على شمال إيطاليا . كما نجح يوحنا ورجاله فى إحراز نصر بحرى على الأسطول القوطى فى بحر الأدرياتيك ، وبذلك فتح الاتصال البحرى لمدينتى انكونا وكروتينا .

ووجد توتيلا نفسه فى موقف حرج ، فالتفت يطالب التفاوض مع جستنيان ، وينشد السلام بين الطرفين ، وعرض على الإمبراطور أن يتنازل عن دلماشيا وصقلية ، على أن يسمح له الإمبراطور بالبقاء فى شمال إيطاليا كتابع للقسطنطينية . غير أن جستنيان لم يستجب لأى من عروض توتيلا . وأمام هذا الموقف المتصلب من جانب الإمبراطور ، سارع توتيلا فركز قواته على مقربة من روما . وكان نارسس قد نجح فى شق طريقه إلى مدينة رافنا ، ومنها وجه القائد الرومانى نداء إلى سائر الكتائب الإمبراطورية للحاق به فى معسكره . ولما أن تجمعت القوات زحف نارسس صوب الجنوب لكى يلقى بكل ثقله ضد قوة توتيلا . وفى مايو ٥٥٢ دارت معركة حاسمة بين الطرفين عند بلدة تاجيناى (Tajinae) فى منطقة الإبنين . وكانت ضربة نارسس الأولى قوية وحاسمة ، فتفرق معسكر القوط من ثقل الضربة وبينما كان توتيلا يحاول جمع شتات رجاله فى شجاعة نادرة ، لقى حتفه بطريقة غامضة لا نعلم عنها الكثير . وبموت الزعيم توتيلا كتبت نهاية القوط الشرقيين فى إيطاليا . ولم يصدق جند نارسس الخبر ، فقد كانوا فى معمعة المعركة يبصرون ، فى دهشة ورعب ذلكم الأمير المتبربر توتيلا وهو يرتدى العباءة الأرجوانية الموشاة بالذهب ، ويمتطى واحداً من أجود الخيول ، وهو يكر بين الجيشين فى شجاعة ليس لها نظير . وأصر رجال نارسس على أن يشاهدوا بأعينهم جثة توتيلا حتى يصدقوا

(٢٤٨) De bello Gothico, 598 - 99.

أنه قد مات . ونبش القبر الذي كان يحتوى الرجل وحملق جند نارسس طويلا فى جثة توتيلا ، وعندها أيقن الجميع أن إيطاليا قد دانت تحت أقدام جستنيان [٢٤٩] . ويروى أن نارسس قام بإرســال ملابس وتاج توتيلا ، ملوثة بدمائه ، إلى جستنيان ، علامة على النصر الأكيد على القوط الشرقيين .

تجمعت البقية الباقية من أبناء القوط حول ملك جديد لهم إسمه تياس (Seias) ، ليحاربوا حرباً كانوا يعلمون أنها خاسرة : فلقد سقطت مدائن إيطاليا الوسطى فى أيدى نارسس ، وأخيراً مدينة روما ذاتها . ولما أن رأى القوط أن زمانهم قد زال ، جن جنونهم فقاموا بذبح كل من كانوا تحت أيديهم فى روما ، من شيوخ ونبلاء ، كما احتجزوا عدداً وافراً منهم كرهائن فى أيديهم [٢٥٠] .

أما نارسس ، فإنه كان يعرف هدفه ، فلقد زحف وضرب حصاراً حول مدينة كوميس (Cumes) ، ثم انقض على تجمع قوطى عند قدم جبل فيزوف ومزقه تماماً (٥٥٣) . ولقد استغرقت تلك المعركة يومين كاملين ، وأبدى فيها القوط ضروباً من البطولة والبسالة النادرة ، فقد كان هدفهم « النصر أو الموت » إلى حد أنهم هجروا جيادهم واصطفوا حول مليكهم يقتلون ويقتلون فى مراكزهم لا يتقهقرون إلى الوراء إلا عند سقوطهم صرعى . ولم يتقهقر هؤلاء الأبطال حتى بعد مقتل مليكهم تياس فى المعركة بل ظلوا يقاتلون فرسان نارسس فى ضراوة الوحوش المجروحة . ورغم الجوع والعطش والإرهاق الشديد وتناقص عددهم قرروا مواصلة الحرب حتى يهلكوا جميعاً . وجبن نارسس أمام هذه القلة الجرمانية الشجاعة ، ولم يجرؤ على مجابهة جماعة يائسة باتت « تشتهى الموت » لأفرادها جميعاً . واضطر نارسس إلى قبول شروط عدوه المنهزم فى تلك اللحظات : فقد طلبوا منه أن يضمن لهم وهم فى كامل سلاحهم وعتادهم أن يمضوا فى أمان إلى أرض أية أمة جرمانية تأويهم ؛ لأنهم لن يخضعوا لسيده جستنيان [٢٥١] .

كان الفرنجة قد استغلوا الموقف ، وزحف الزعيمان ليوتارس (Leutharis) وبوتلين

---

(٢٤٩) De bello Gothico, 620.

(٢٥٠) Ibid., 632 - 33.

(٢٥١) De bello Gothico, 642.

(Butilin) على رأس ٧٥,٠٠٠ من رجالهم على شمال إيطاليا ودمروا كثيراً من البلدان ، واستولوا على منطقة ليجوريا ، والألب الكوتينية (Les Alpes Cattiennes) والبندقية . غير أنه لحسن حظ نارسس أعلن آخر زعماء القوط الشرقيين وهو أليجرن (Aligern) من قلعته في بلدة كوميس أنه لن يمد يده للفرنجة الخونة . وفي خريف ٥٥٤ م نجح نارسس في القضاء على جماعة جرمانية أخرى عند بلدة كابوا . وفي العام التالي استسلمت جماعة قوطية في منطقة كومساى (Compsae) لنارسس .

وتنفس نارسس الصعداء ، فقد دانت له إيطاليا جميعاً ، ودخلت بذلك شبه الجزيرة الإيطالية ، بعد عشرين عاماً من الآلام ، في حيز الإمبراطورية . وأقيمت الاحتفالات ابتهاجاً بالنصر وألقى الجند بالسلاح جانباً للاحتفال بالسلام « الرومانى » .

على أنه ينبغي ملاحظة أن ذلك الإنجاز العسكرى الرائع الذى حققه جستنيان كان باهظ الثمن . كما أن بعض المراكز خارج ولاية إيطاليا — حسب التقسيمات الرومانية القديمة — في بانونيا ورائيتيا ونوريكوم ظلت في أيدى العناصر الجرمانية . وفي شمال إيطاليا نفسها ظلت بعض المعاقل مثل برسكيا وڤيرونا في أيدى جماعات قوطية ، ولم تستسلم تلك الجماعات إلا سنة ٥٦٣ م . والأهم من هذا كله أن إيطاليا قد أصيبت بخراب شديد بسبب الحروب المتواصلة والمجاعات والأوبئة والاغتيالات والمذابح الجماعية ، تارة على يد قوات جستنيان وأخرى على يد زعماء القوط الشرقيين . ولقد أصيبت المدن الكبرى وعلى رأسها روما ونابلى بضرر بالغ . ولم يكن سلوك جند جستنيان بأفضل من سلوك القوط مع الإيطاليين ، فلقد اعتدى الضباط على النساء ، ونهب الجند قوت الناس ، واعتدت المرتزقة في جيش نارسس على الآمنين من السكان ، إلى حد أن بعض الإيطاليين باتوا ينعون أيام ثيودريك[٢٥٢] . يضاف إلى هذا أن خزانة جستنيان كانت قد أفلست تماماً بسبب النفقات الطائلة التى أنفقها على حملاته لمدة عشرين عاماً ، ولكى يعوض هذا الإفلاس لجأ الإمبراطور إلى فرض الضرائب الثقيلة على شعب لم يعد لديه ما يدفعه . غير أن جستنيان أصدر قانوناً سنة ٥٥٤ ، أعاد بمؤداه للملاك الرومان أراضيهم التى كان القوط قد صادروها ، كما وعد الإمبراطور بإصلاح ما أفسدته الحروب في ربوع

---

(٢٥٢) De bello Gothico, 312.

إيطاليا . ورغم حسن نوايا الإمبراطور ، إلا أن عجزه المـالى وقف حائلا دون إنفاذ الاصلاح الموعود . إن طبقة النبلاء التى أعيد إلى أفرادها الأرض والعبيد ، وطبقة كبار رجال الدين التى غمرها الإمبراطور بالعطايا ، قد باتت تسبح باسم « المخلص » جستنيان ، ولكن الغالبية العظمى من سواد الشعب الرومانى من فلاحين وحرفيين كانوا فى حالة يرثى لها. على أنه مهما قيل ، فإنه لا يسع المؤرخ المنصف إلا أن يسجل أن جستنيان قد حقق مطلباً غالياً ونبيلا ، ألا وهو تحرير أرض إيطاليا من مخالب الجرمان .

## جستنيان والقوط الغربيون

كان القوط الغربيون قد ثبتوا أقدامهم فى شبه جزيرة أيبيريا سنة ٥٣١ على عهد الملك ثيودس . وفى سنة ٥٣٤ ، أثناء حروب جستينان ضد الوندال ، نجح جنود بازاريوس فى إجلاء القوط عن قلعة سبتة . ولما اشتعلت الحرب ضد القوط الشرقيين ، قام ثيردس بإرسال تعزيزات لمساعدتهم ، ولكن السفن التى كانت تنقل تلك الإمدادات قد انجرفت إلى الشمال الأفريقى (٥٤٤) [٢٥٣] .

وفى سنة ٥٥٠ وقعت اضطرابات بالغة الخطورة فى القصر الملكى للقوط الغربيين ، نتيجة للمؤامرات التى كانت تحاك منذ وقت بهدف الحصول على التاج : فلقد اغتيل كل من الملك ثيودس ( ٥٣١ — ٥٤٨ ) وخلفه ثيود جزكلوس ( ٥٤٨ — ٥٤٩ ). ثم اعتلى آجيلا (٥٤٩ — ٥٥٤ ) عرش القوط ، فبدأ موجة من الاضطهاد ضد الكاثوليك ، وساد الذعر من جديد فى أسبانيا . غير أن أحد النبلاء القوط واسمه أثاناجلد وقف يعارض سياسة آجيلا ، وكان طبيعياً أن يقف الكاثوليك جميعاً فى صف أثاناجلد . وكان هذا الحزب المعارض للحكم يرنو ببصره نحو القسطنطينية ، طلباً فى المعاونة الإمبراطورية للتصدى لطغيان آجيلا .

واستجاب جستنيان للنداء ، فوجه القائد ليبريوس ، وهو شيخ رومانى كان قد هرب من وجه القوط إلى القسطنطينية ، إلى أسبانيا ، على رأس أسطول بحرى . وقد نجح ليبريوس فى إحراز النصر على قوات آجيلا ، واحتل عدة مدن وقلاع فى الطرف الجنوبى الشرقى من إيبيريا ، وكان من بين هذه المدن كل من قرطاج سبارتاريا (Carthagena) وملقة وقرطبة وأسيدونة .

ولكن القوط الغربيين أفاقوا لأنفسهم وتنبهوا إلى الخطر الذى قد أطاح بمملكتى الوندال والقوط الشرقيين من قبل ، فأنهوا خلافاتهم ووحدوا صفوفهم لمواجهة التهديد المشترك . ولم يتردد حزب آجيلا فى التضحية به لكى يقف أتباعه صفاً واحداً مع رجال

(٢٥٣) Isidore de Seville, Historia Gothorum, 284.

آثاناجلد للتصدى لقوات جستنيان الغازية ( ٥٥٤ ) . وبفضل هذه الوحدة والتماسك بين أبناء الأمة القوطية الغربية ، نجح زعيمهم أثاناجلد فى إيقاف زحف ليبريوس . وبات واضحاً للجميع أن حملة جستنيان على أسبانيا لم تصادف النجاح ، وكانت هذه آخر حملات جستنيان على الغرب .

* * *

لقد نجح جستنيان فى إزالة مملكة الوندال من الوجود ، وأعاد أفريقيا إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية ، كما نجح فى تحطيم مملكة القوط الشرقيين وأعاد إيطاليا وروما القديمة إلى الرومان . كما أنه ثبت أقدامه فى بعض المعاقل فى أسبانيا ، رغم مقاومة القوط الغربيين المستميتة . غير أنه لا بد من الاعتراف بأنه بين أحلام جستنيان وبين ما أصابه كانت توجد هوة واسعة : فقد بقى غرب أفريقيا كله خارج نفوذ الإمبراطورية كما ظلت رائيتيا ونوريكوم فى أيد جرمانية تهدد ولاية إيطاليا ، ولم تكن الحملة على أسبانيا موفقة تماماً ، وأهم من هذا كله أن الإمبراطور لم يجرؤ على الاقتراب من غالة ، لأن الأمراء الفرنجة كانوا من القوة بحيث لم يستطع جستنيان معاداتهم ، بل إنه راح يسترضيهم بالموافقة لهم على ضم ولاية بروفانس للملكة الميروفنجية فى غالة .

ورغم كل ما يقال فى هذا الصدد ، فإنه لو قارنا حجم الإمبراطورية الرومانية عندما تولى جستنيان عرشها سنة ٥٢٧ بحجمها عند وفاته سنة ٥٦٥ ، فإننا لا نملك إلا أن نبدى الإعجاب بهذا القيصر العبقرى الذى أمضى العمر مهتما بالحروب من أجل هدف نبيل ألا وهو إعادة السلام الرومانى إلى الإمبراطورية وتخليص الولايات الغربية من طغيان الجرمان . لقد أدى استرداد دلماشيا وإيطاليا وأفريقيا وجنوب شرقى أسبانيا وجزر صقلية وكورسيكا وسردينيا والبليار وقلعة سبتة ، أدى كل هذا إلى تحويل البحر الأبيض المتوسط إلى « بحيرة رومانية » من جديد .

# الملاحق

## التعريف بأهم المصادر فى العصور الوسطى

### ١ - يوسابيوس ( ٢٦٠ - ٣٤٠ م )

ولد يوسابيوس فى فلسطين ، وتلقى تعليمه على يد بامفيلوس . وبعد وفاة معلمه انتقل إلى صور ، ثم هرب إلى مصر أثناء فترة الاضطهاد على عهد الإمبراطور دقلديانوس . وفى مصر قبض عليـــه وأودع السجن ثم أطلق سراحه . وفى سنة ٣١٣ م اختير يوسابيوس أسقفا لبلدة قيسارية فى فلسطين . وفى سنة ٣٣١ م عرضت عليه بطريركية مدينة أنطاكية ، ولكنه رفضها . كان يوسابيوس من أعلم رجال عصره ، وكان من المقربين إلى الإمبراطور قسطنطين العظيم . وفى أثناء انعقاد مجمع نيقيا المسكونى الأول سنة ٣٢٥ م برئاسة الإمبراطور قسطنطين ، كان يوسابيوس يتزعم فريق اللاهوتيين المعتدلين . ومع أنه كان فى بداية الأمر متعاطفاً مع جماعة الأريوسيين إلا أنه فيما بعد عدل موقفه وراح يصالح أعداء الأريوسية من أتباع أثناسيوس أو الأرثوذكس .

وأهم مؤلفات يوسابيوس كتابه بعنوان — Historia Ecclesiastica — الذى تخلص من كتابته سنة ٣٢٥م : وهذا الكتاب حافل بالمعلومات القيمة عن التاريخ الباكر للكنيسة وعن الآباء الأول الذين عاشوا فى القرون الثلاثة الأولى للميلاد . ولا يخلو هذا الكتاب من بعض الهنات ، من قبيل سوء الفهم للنصوص القديمة ، أو الخطأ فى التفسير التاريخى . وللكاتب أيضاً « حولية » مشهورة ، تحوى سجلا لتاريخ العالم منذ بدء الخليقة ، وبها جداول تاريخية لملوك البلدان المختلفة ، هذا إلى جانب بعض الأحداث الهامة . وقد نقل القديس جيروم عن هذه الحولية فيما بعد فى كتاباته اللاتينية . وليوسابيوس مؤلف آخر عن « شهداء فلسطين » ما بين عامى ٣٠٣ ، ٣١٠ م ، وتكمن أهمية هذا الكتاب فى أن صاحبه كان شاهد عيان لهذه الأحداث ثم هنالك كتابه عن « حياة قسطنطين » "Vita Constantini" وهو مديح فى

شخص الإمبراطور أكثر منه كتابا فى التاريخ ، ولكنه رغم هذا لا يخلو من المعلومات التاريخية المفيدة . وللكاتب عدة مؤلفات أخرى تدور حول المسائل اللاهوتية والعقيدة وهى :

1 — Contra Hieroclem
2 — Preparatio Evangelica
3 — Demonstratio Evangelica
4 — Theophania
5 — Contra Marcellum
6 — De Theologia Ecclesiastica

## ٢ — أميانوس مارسللينوس

## ( ٣٢٥ — ٣٩١م )

أميانوس يونانى الأصل ، ولد فى أنطاكية لعائلة نبيلة ودخل الخدمة فى الجيش الرومانى تحت أمرة القائد أرسكينوس الذى كان منوطا بإدارة إقليم نصيبين . وقد سافر إميانوس إلى إيطاليا فى صحبة قائده ، وبعدها استدعاه الإمبراطور قسطنطيوس الثانى للخدمة فى حملته ضد سلفانوس الزعيم الفرنجى المتمرد وبعد انتهاء تلك الحملة لحق أميانوس بقائده أرسكينوس للخدمة تحت لوائه مرة أخرى . وظل على هذه الحال حتى انقلب الإمبراطور قسطنطيوس على أرسكينوس وأعفاه من منصبه ، ويبدو أن أميانوس هو أيضاً قد فقد مركزه فى الجيش نتيجـــة لذلك . على أن الإمبراطور جوليان المرتد ( ٣٦١ — ٣٦٣ م ) أعاد أميانوس إلى مركزه السابق ، ثم رافق أميانوس الإمبراطور الجديد فى حملاته ضد الجرمان وضد الفرس . وقد خدم أميانوس أيضاً على عهد الإمبراطور جوفيان . وفى نهاية المطاف اعتزل أميانوس الجيش وسافر إلى روما ، حيث بدأ فى كتابة تاريخ الدولة الرومانية باللغة اللاتينية . وتاريخه هذا يقع من عصر الإمبراطور نيرفا ( ٩٦ — ٩٨ )م إلى عصر الإمبراطور فالنس ( ٣٧٥ — ٣٧٨م ) ، وهذا التاريخ يعتبر مكملا لكتاب المؤرخ الرومانى تاكيتوس ، وقد جاء مؤلف أميانوس بعنوان

— Rerum Gestarum — ويقع في ٣١ جزءاً فقد منها ١٣ جزء وتغطى الأجـــزاء المتبقية الفترة ما بين أعوام ٣٥٣ ، ٣٧٨م . وأميانوس مؤرخ أمين واضح الفكر ، مستقل الرأى نزيه الحكم وواسع الاطلاع ، ولكن يعاب عليه خشونة أسلوبه الكتابى ، ولعل هذا العيب يرجع إلى أنه إغريقى الأصل كما يعزى أيضاً إلى طبيعة عمله كمحارب قديم . وأميانوس يقدم لنا وصفاً رائعاً للمعارك التى خاضها بنفسه ، كما يعطينا صورة لا بأس بها عن أحوال الإمبراطورية الرومانية فى النواحى الاجتماعية ، والاقتصادية . وأهم ما يلفت النظر فى كتابات أميانوس (أن نظرته) للبرابرة الجرمان وغيرهم ، تبدو أوسع أفقاً بكثير من وجهات نظر سابقيه من الكتاب الرومان مثل ليڤى ، وتاكيتوس . ولا يفوت هذا المؤرخ الأمين أن ينبه القارئ بين الحين والآخر إلى الأحوال المتدهورة فى الإمبراطورية الرومانية بسبب الضرائب الباهظة وإفلاس الطبقة الوسطى ونتيجة للانحلال الأخلاقى للمجتمع الرومانى خاصته وعامته على حد سواء .

## ٣ ـ جيروم
## ( ٣٤٠ ـ ٤٢٠ م )

اسمه الكامل فى اللاتينية هو يوسابيوس سوفرونيوس هيرونيموس . ولد على حدود دلماشيا فى بلدة ستردون ( الآن : ستيردوڤا ) ، التى خربها ونهبها القوط سنة ٣٧٧م . تلقى جيروم تعليماً طيباً فى بيت الأسرة مع صديق عمره بونوزوس ، ثم نزح بعد ذلك إلى مدينة روما . وفى روما تلقى جيروم علوم النحو والشعر على يد أستاذين مرموقين هما دوناتوس وڤكتورينوس . ثم تدرب على الشئون القضائية فى محاكم رومـــا وفى الفورم ( Forum ) كما تلقى محاضرات فى الفلسفة فقرأ كتابات أفلاطون ودايوجينيس وكليتوماخوس وكارنياديس . وقد تم عماده إلى المسيحية سنة ٣٦٠م على يد البابا ليبريوس .

بعد هذا عاد جيروم إلى مسقط رأسه ومكث هناك بعض الوقت ، ثم قصد إلى بلدة أقويليا حيث صادق جماعة الرهبان فيها وأبرزهم روفينوس . ومن أقويليا

سافر جيروم إلى غالة حيث قضى فيها أربعة أعوام ( ٣٦٦ — ٣٧٠ ) ، ثم عاد إلى بلدته مرة أخرى ، ومنها توجه ثانية « إلى أقويليا » ، فقضى فيها ثلاثة أعوام ( ٣٧٠ — ٣٧٣م ) . وهناك كتب أول إنتاج له بعنوان — De muliere septies percusa — وذلك فى صيغة رسالة موجهة إلى صديق له يدعى أنوسنت . وقد تعرض جيروم إلى بعض المضايقات فى أقويليا ، فقرر الارتحال عنها إلى المشرق مع ثلاثة من رفاقه هم أنوسنت ، وأفلجريوس ، وهليود وروس . وقد طاف هؤلاء الرفاق بكل من تراقيا وأثينا وبثينيا ، وغلاطية ، وبنطس ، وقبادوقيا ، وقيليقيا ، ثم حطوا الرحال فى أنطاكية . وفى أنطاكية توفى صديقه أنوسنت ، ولم بجيروم مرض خطير . ولما أن شفى من مرضه اتخذ قرارا بأن يحيا حياة الزهد فى هذا العالم المائت ، فاعتزل إلى بقعة فى جنوب شرقى أنطاكية تدعى برارى خالكيس ، وقضى فيها ستة أعوام (٣٧٣ — ٣٧٩م) . وخلال تلك الفترة انكب جيروم على المزيد من العلم ، وقام بنقل المخطوات القديمة . ثم قام بزيارة لمدينة القسطنطينية حيث التقى بالعالم جريجورى من نازيانزوس الذى ساعده فى تعلم وإتقان اللغة اليونانية ، الأمر الذى سهل عليه نقل « حولية » يوسابيوس ، القيسارى إلى اللسان اللاتينى . وفى سنة ٣٨٢ م أرسل اليه البابا دماسوس يستدعيه إلى روما ، ثم كلفه البابا بوضع ترجمـــة جديدة للكتاب المقدس باللغة اللاتينية . وقد استغرق هذا العمل من جيروم معظم سنى حياته . واهتم جيروم فى تلك المرحلة بحياة الديرانية ، كما رغب كثيرات من سيدات روما وبناتها فى حياة الزهد والعفة ، مما أثار غضب أزواج وأقاب هؤلاء السيدات وشكوكهم فى نوايا جيروم . ولكن البابا دماسوس قام بحمايته من ألسنة هؤلاء الأزواج الحانقين . غير أن الموقف قد تبدل عنـــد وفاة البـــابا دماسوس سنة ٣٨٤م ، إذ كان خلفه سريكوس لا يحب جيروم . ولذلك غادر جيروم مدينة روما قاصدا المشرق مرة أخرى فى سنة ٣٨٥م . وقد لحق به فى أنطاكية جمع من السيدات والعذارى من محبى علمه وزهده ، وعلى رأس هؤلاء باولا ، ويوستوكيوم . وقد قام جيروم ومريداته بزيارة إلى مصر ، حيث تعرفوا على عديد من الأديرة فى وادى النطرون . وبعدها عادوا إلى فلسطين حيث أسسوا عدداً من البيوتات الديرانية . وفى فلسطين واصل جيروم عمله فى الترجمة ، فأخرج النسخة اللاتينية للكتاب المقدس الشهيرة باسم « ڤولجاتا » Vulgata — وقد توفى فى بيت لحم فى فلسطين سنة ٤٢٠م ، وذلك بعد مرض طويل وأهم أعمال جيروم الأخرى هى الآتى :

١٦١

1 — Didymi de Spiritu Sancto liber
2 — Vita S. Hilarionis eremitae
3 — Vita Malchi monachi captivi
4 — S. Pachomii et S. Theodorici epistolae et verba mystica
5 — De viris illustribus sive de scriptoribus ecclesiasticis.

## ٤ ـ كلوديان

### ( القرن الرابع للميلاد )

كلوديان شاعر مرموق كتب أشعاره بلاتينية رصينة ، رغم أنه من أصل مصرى ، أغلب الظن من مدينة الإسكندرية . وقد لمع اسمه وقت حكم الإمبراطورين الأخوين أركاديوس وهونوريوس . وقد وصل إلى مدينة روما سنة ٣٩٥ م ، ونظم شعرا فى مديح القنصليين أولبريوس وبروبينوس . وبعد ذلك بعام واحد امتدح شخص هونوريوس بقصيدة طويلة بمناسبة توليه منصب القنصلية للمرة الثالثة ، كما عالج قصة سقوط روفينوس وزير أركاديوس فى القسطنطينية فى قصيدة أخرى ،وذلك بإيعاز من ستليكو قائد الجيوش الرومانية فى الغرب ، والذى كان من أصل جرمانى متبربر . وفى سنة ٣٩٨م نظم كلوديان قصيدة بمناسبة زواج هونوريوس الإمبراطور الغربى من ابنة القائد ستليكو الذى أصبح صاحب الكلمة العليا فى النصف الغربى للإمبراطورية الرومانية . ونظم أيضاً قصيدة أخرى تحية لانتصار الجيش الرومانى على ثورة كانت قد اندلعت فى شمال أفريقيا . Gildonic war — . وأغلب قصائد كلوديان الأخرى جاءت فى مديح سيده المتبربر ستليكو ، فمدحه عند تسلمه القنصلية الأولى سنة ٣٩٩م ، وبعد صده لهجمة آلارك القوطى الغربى (٤٠٠ — ٤٠٣م) . ويظن المؤرخون أن كلوديان قد هلك مع سيده ستليكوسنة ٤٠٨م ، بعد أن حامت الشبهات حول ستليكو ، وظن الإمبراطور هونوريوس أنه يتفاوض فى السر مع آلارك الزعيم

القوطى الذى كان يهدد مدينة روما . وللشاعر أيضاً عدة قصائد أخرى ، منها واحدة فى مديح زوجته سيرينا . وتكمن أهمية كلوديان فى أنه صاحب لسان لاتينى رصين ، فى وقت شهد انحدار وتدهور الحضارة الرومانية . والعجيب انه من أصل مصرى . وقد علق المؤرخ إدوارد جيبون على هذه الشخصية بالآتى :

"He was endowed with the rare and precious talent of raising the meanest, of adorning the most barren, and of diversifying the most similar topics."

ولقد أقيم لكلوديان نصب من البرونز فى الفورم فى مدينة روما .

## ٥ — بؤثيوس

## ( ٤٨٠ — ٥٢٤ م )

هو أنيسيوس مانليوس سفرنيوس الفيلسوف ورجل السياسة المرموق ، الذى يرى فيه المؤرخون اخر الرومان القدامى وأول فلاسفة العصور الوسطى . بعد وفاة والده سنة ٤٨١م أشرف السيناتور مميوس سيماخوس على تربية بؤثيوس ، ثم زوجه من ابنته رستكيانا . ثم لمع الشاب فى الأداب فاختاره ثيودوريك ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا قنصلا سنة ٥١٠م . وقد انعم الملك القوطى على ابناء بؤثيوس بنفس هذا الشرف القنصلى فى سنة ٥٢٢م . غيران علاقات المودة بينه وبين ثيودوريك لم تدم طويلا ويرجع السبب فى ذلك إلى أن بؤثيوس أخذ على نفسه مقاومة إجراءات الملك التعسفية ضد الشعب الرومانى ، كما طالبه بتحرى العدالة فى أحكامه وإعادة الحريات إلى المدينة الخالدة وإرجاع هيبة مجلس الشيوخ إلى شيوخه . وقد قيل إن بؤثيوس كان على اتصال سرى بالإمبراطور البيزنطى جستين الذى كان يتحفز للقضاء على القوط الشرقيين ، فى إيطاليا لإعادة شبه الجزيرة إلى حظيرة الإمبراطورية . والواقع أن الشعب الرومانى والبابا كانوا يمقتون القوط الذين كانوا على المذهب الأريوسى المخالف للعقيدة الرومانية الكاثوليكية ، مما ضاعف من شعور الريبة والكراهية بين الملك والرومان . ولقد اتهم ثيودوريك بؤثيوس بالخيانة والتآمر ضد حياته . ولكن بؤثيوس أنكر هذا الاتهام وتنصل من بضع رسائل قيل أنه قد وجهها إلى الإمبراطور البيزنطى جستين ،

على أنها مدسوسة عليه . ورغم هذا فقد حكم عليه ثيودوريك بالإعدام وألقى به فى السجن فى العاصمة باڤيا ، لانتظار يومه المحتوم . وأثناء فترة السجن وضع بؤثيوس كتابه المرموق تعازى الفلسفة "De Consolatione Philosophiae" وقد تم إعدام بؤثيوس سنة ٥٢٤م ، والمعروف أنه بعد ذلك بأكثر من أربعة قرون ونصف أمر الإمبراطور الألمانى أوتو الثالث بنقل رفات هذا الشهيد الفيلسوف من مدينة باڤيا إلى مدافن كنيسة سان بيترو فى سيل دورو — Ciel d'oro .

كان بؤثيوس أعلم رجال عصره ويقول عنه بوسكيان النحوى أنه قمة فى الأمانة وتاج للمعرفة ، ويتحدث عنه كاسيودورس رئيس بلاط ثيودوريك بنفس المعانى . ويرجع فضل بؤثيوس على أهل العلم فى العصور الوسطى إلى أنه حفظ لهم تراث وكنوز العصر الرومانى القديم المجيد ، كما أنه قام بترجمة لكثير من كتابات أرسطو إلى اللغة اللاتينية ، وقد وضع أيضاً تعليقات وشروحاً هامة لكتابات بورفيرى وشيشيرون . وله بعد هذا دراسات فى علوم الرياضة والموسيقى ، ظلت مرجعاً أساسياً لجامعات غرب أوربا ومن بينها باريس وأكسفورد وكمبردج .

على أن أهم إنتاج لبؤثيوس هو كتابه الخالد بعنوان « تعازى الفلسفة » وقد بلغت قيمة هذا المؤلف حداً جعل الفرد العظيم ملك إنجلترا الأنجلوسكسونية يقوم بترجمته إلى لغة بلاده . وقبيل نهاية القرن الخامس عشر ظهرت لهذا الكتاب ترجمات إلى ، اللغات اليونانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية والألمانية .

ويكشف هذا الكتاب فى أسلوبه من النثر والشعر عن فلسفة صاحبه الرواقية والأفلاطونية المحدثة . ويبدأ الكتاب بشعور من الحسرة على الشباب الضائع قبل الأوان وعلى خريف العمر وقت الربيع . وبينما هو غارق فى همومه وترجعاته تظهر له سيدة عليها هالات الجلالة ، ألا وهى « الفلسفة » بعينها وتأخذ « الفلسفة » فى محاورة الفيلسوف بغية تبديد الهم والمرارة : وهنا نعلم أن الرجل — الذى أفنى العمر فى خدمة ثيودوريك وكان جزاؤه نكران الجميل والإعدام — ما زال قوى الإيمان بالسماء ، ولكنه حائر فى تفسير قدره ومعرفة كنه كيانه . وتقدم « الفلسفة » على درسها الأول بأن « عدم معرفة الذات » هى العلة وراء التعاسة . وفى الكتاب الثانى تعرفه ،

« الفلسفة » بضيفة أخرى هى « الهة الحظ » التى تعدد لبؤثيوس أيام « الحظ » التى كان قد خبرها قديماً ولكن كابدها . فى الكتاب الثالث تبشرنا « الفلسفة » بأن السعادة الحقة لن تتأتى إلا بالفناء فى الكمال الإلهى ، لأن الله هو الخير المطلق والسعادة جميعاً . وما الشر إلا عرض لا وجود إيجابى له . وفى الكتاب الرابع نلمس شكوك وحيرة بؤثيوس إذ يتساءل : « إذا كان سيد الكون هو الصلاح والخير كله ، فلم توجد كل تلك الشرور ، ولماذا تنصر الرذيلة على بعض الأخيار ؟ » وهنا يخوض الكتاب فى مسائل عويصة عن القدر والمكتوب وعن العناية الربانية .

## ٦ — كاسيودوروس
## ( ٤٩٠ — ٥٨٥ م )

هوفلافيوس ماجنوس أورليوس كاسيودوروس ، الذى كان يعيش وعائلته فى بوتيوم ، ويقال إنه من أصل سورى . كان والده فى خدمة الملك القوطى الشرقى ثيودوريك ، فعينه الملك حاكماً على بروتيوم ، ثم عين ابنه — كاسيودوروس — فى وظيفة فى سلك القضاء التابع لإدارة والده . وعند وفاة ثيودوريك سنة ٥٢٦م ، كان الشاب كاسيودوروس قد تدرج فى الوظائف المختلفة حتى صار رئيسا للديوان الحكومى الملكى . Magister officiorum — وقد ظل فى الخدمة إبان عهد الملك القوطى أثالارك ، الذى تم فى عهده الهجوم البيزنطى على مملكة القوط الشرقيين ، بقيادة بلزاريوس فى سنة ٥٤٠م. وعندها قرر كاسيودوروس الانسحاب من الحياة العامة لكى يتفرغ لرسالته العلمية والدينية : فأسس دارين للرهبانية فى ڤيڤاد يوم وكاستلاوم . وقد حث رهبان هذين الدارين على طلب العلم الدينى والكلاسيكى على حد سواء . وقام هو نفسه بجمع المخطوطات القديمة ، وكلف تلاميذه بنسخها وحفظها لتبقى تراثاً للعالم ، كما نقل الكثير من الكتب اليونانية إلى اللغة اللاتينية ، ويقال إنه وضع مؤلفاً وهو فى الثالثة والتسعين من العمر . وقد عالج كاسيودوروس فى كتاباته التاريخ والسياسة واللاهوت والنحو وهى كالآتى : —

١ — كتاب بعنوان — Variae — الذى ظهر سنة ٥٣٧ م ، ويضم مراسيم الملك ثيودوريك وخلفاءه : امالا سونزا ، وثيودوهار ، وفتجيز ، ويحوى أيضاً قوانين وتنظيمات الجهاز الإدارى للقوط ، ولذا فهو أهم المصادر للتعرف على أحوال مملكة القوط الشرقيين وعلى قوانينهم ونظمهم الإدارية الحكومية .

٢ — كتاب بعنوان — Chronica ، الذى كلفه بكتابته الملك يوتارك ، زوج ابنة ثيودوريك ، وقد ظهر هذا الكتاب سنة ٥١٩م ، ونجد فيه تحيزاً واضحاً لجنس القوط على سائر الأجناس الأخرى ، ولا غرابة فى ذلك ، فقد كتبه صاحبه تلبية لرغبة ملك قوطى .

٣ — كتاب فى مدائح ومراثى ملوك القوط وملكاتهم ، وذلك بوصفه رئيساً للديوان الملكى وجهاز الحكومة .

٤ — كتاب بعنوان De Anima — ، يعالج فيه الكاتب طبيعة النفس البشرية أو « الروح » وفقاً لمفاهيم العصور الوسطى الكنسية . ثم يعرج فيه الكاتب على الخلاف الطاحن بين القوط والرومان ، و يسجل أسفه على هذا الصراع بين الجنسين .

٥ — كتاب بعنوان —Institutiones divinarum et humanarum litterarum— وهو أشبه ما يكون بدائرة معارف فى الأداب والفنون ، وهو كتاب تعليمى لتلاميذه من الرهبان .

٦ — كتاب بعنوان — De Orthographia — ، وفيه عرض لكتابات اثنى عشرة من النحويين آخرهم النحوى برسكيان . ويقال إن كاسيودوروس وضع هذا الكتاب وهو فى الثالثة والتسعين من العمر .

٧ — كتاب بعنوان — Historia Gothorum — ، وهو أهم مؤلفاته جميعاً ، لأنه يعالج تاريخ القوط منذ البداية حتى موت الملك ثيود وريك ، ويقع فى اثنى عشر جزءاً ، وهو المصدر الأساسى الذى رجع اليه المؤرخ جوردان ، كما يتضح مما يتبع .

* * *

## ٧ ـ جوردان
### ( القرن السادس للميلاد )

هو المؤرخ المرموق لأمة القوط ، ويذكر فى تاريخه أن جده باريا كان فى خدمة الزعيم الألانى كانداك الذى استقر بقبائله على شاطئ الدانوب الجنوبى . كما أن جوردان كان بدوره فى خدمة قريب للزعيم كانداك اسمه جونثيجيز ، ثم دخل بعد ذلك فى سلك الديرانية . وجوردان على هذا من أصل قوطى ، وهو بالضرورة متعاطف فى كتاباته مع بنى بلدته من القوط الشرقيين . وأهم مؤلفات جوردان هى الآتى :

١ ـ كتاب بعنوان ـ Romana ـ أو كما يطلق هو عليه :

De Summa Temporum vel Origine actibusque gentis Romanorum

وقد وضع هذا الكتاب سنة ٥٥١م ، وفيه عرض لتاريخ العالم منذ بدء الخليقة . استقى معلوماته فيه من الأصول المبكرة عند جيروم وفلورس وأوروزيوس وسقراط المؤرخ الكنسى .

٢ ـ كتاب بعنوان ـ De rebus Getica De Origine actibusque Getarum

ويحدثنا الكاتب أن صديقاً له اسمه كاستاليوس طلب منه أن يختصر مؤلف كاسيودوروس الواقع فى اثنى عشرة جزءاً إلى كتاب واحد فى تاريخ القوط . ويعترف جوردان أن مؤلف كاسيودوروس القيم قد وقع بين يديه لمدة ثلاثة أيام فقط ، وأنه لم ينقل عنه بالحرف وإنما استقى منه المعانى والأحداث فحسب . ولكن هذا الادعاء مغالطة من جانب جوردان ، لأن أجزاء كثيرة من كتابه قد نقلها كما هى عن كاسيودوروس .

والكتاب يمجد سيرة وتاريخ أمة القوط الشرقيين من ناحية ، ومن ناحية أخرى يمتدح شخصية الإمبراطور البيزنطى ( الرومانى ) جستنيان العظيم الذى تم على يديه تحطيم المملكة القوطية . ويقع الكتاب فى أربعة أجزاء : الأول يقدم لنا وصفاً جغرافياً لمعظم بلدان العالم وبخاصة بريطانيا والسويد ، ومن هذه الأخيرة هاجرت الأمة القوطية

أول الأمر إلى السواحل الجنوبية لبحر البلطيق . وبعد هذه الهجرة انقسم القوط إلى جماعتين قوط شرقية وقوط غربية . وفى الجزء الثانى يصف لنا الكاتب شجرة أنساب الأسرة المالكة من بنى امال — Amal — كما يوضح لنا المسالك التى اتبعها القوط فى التوغل إلى الأراضى الرومانية منذ القرن الثالث للميلاد ، كما يقص علينا كيف انهارت مملكة هرمانرك . أما الجزء الثالث فيختص بتاريخ القوط الغربيين من وقت الزحف الهونى حتى سقوط المملكة القوطية الغربية فى غالة على عهد الارك الثانى ( ٣٧٦ — ٥٠٧م ). ويفرد الكاتب سبعة فصول هنا للحديث عن غزو اتيلا ملك الهون لبلاد الغال . أما الجزء الرابع فيعالج تاريخ القوط الشرقيين من وقت الغزو الهونى حتى سقوط المملكة القوطية الأولى ( ٣٧٦ — ٥٣٩م ) . والمعلومات التى وردت فى كتاب جوردان تعتبر الوحيدة فى نوعها عن تاريخ تلك الفترة الدامسة الظلام من العصور الوسطى الباكرة .

## ٨ — جريجورى من تور

## ( ٥٣٨ — ٥٩٤م )

هو جورجيوس فلورنتيوس مؤرخ دولة الفرنجة . ولد فى بلدة أرڤرنى — Arverni ( الآن مدينة كليرمونت — فررانك ) لعائلة نبيلة من السيناتوريين ، فقد تقلد الكثير من أفراد هذه الأسرة أرفع المناصب العلمانية والكنسية أيضاً . وبعد وفاة والده كفله عمه جاللوس ، ومن بعده نبيل آخر هو أﭭيتوس ، وقد تلقى تربية طيبة ، فقرأ الإنياد لڤرجيل « وتاريخ » ساللوست عن مؤامرة كاتاين ، ثم تضلع فى العلوم الدينية . وفى سنة ٥٦٣م سيم ديكونا ( رتبة دينية ) ، ثم أصيب بمرض خطير فانتقل إلى مدينة تور بحثا عن علاج روحى ، بعد أن يئس من الطب ، على اعتاب مقبرة القديس مارتن ولى مدينة تور . هنالك ذاعت شهرة جريجورى كرجل دين تقى ، فاختير بعد وفاة يوفرونيوس أسقفا لبلدة تور وذلك فى سنة ٥٧٣م .

فى ذلك الوقت كانت تور تخضع لمملكة استرازيا الفرنجية ، التى كانت تابعة لتاج الملك سجيرت وبعد اغتيال سجيرت وقعت تلك المدينة تحت سلطان شابريك

( ٥٧٥ — ٥٨٤ ) الذى كان مستبدا فى حكمه ، وهنا برز دور جريجورى فى حماية الأهلين من مظالم شلبريك . ومن بين اعماله التى تنم عن الشجاعة تحديه للكونت ليوداست حاكم تور ، وذلك رغم تهديدات الملك لجريجورى . كذلك رفض جريجورى أن يستقبل مروفنج ابن شلبريك عندما احتدم الصراع بين الأب وابنه حول الحكم كما وقف بجوار الأسقف برتكستاتوس ضد الملك شلبريك . وفى سنة ٥٨٠م وجه الملك إلى جريجورى تهمة التشهير بالملكة فردجوند زوج شلبريك ، ولكنه نجح فى إثبات براءته أمام المحكمة من هذا الادعاء . وبعد وفاة شلبريك دانت تور إلى جونترام لمدة عامين ( ٥٨٤ — ٥٨٥م ) ، ثم انتقلت بعدها إلى تاج شلدبرت ابن سجيبرت ملك استرازيا ، ولهذا نجد جريجورى يتردد كثيراً على بلاط الملك ، ويقوم فى ذلك العهد بإصلاحات إدارية وأخلاقية داخل الكنائس والأديرة التابعة لأسقفيته . وقد توفى جريجورى سنة ٥٩٤ م . ترك جريجورى لنا عدة مؤلفات : سبعة منها عن شهداء مدينة تور وفى المعجزات التى تمت فيها ، تحت العناوين التالية :

1 — De gloria martyrum
2 — De virtutibus sancti Juliani
3 — Miracula sancti Martini
4 — De gloria confessorum
5 — Vitae patrum
6 — De cursibus ecclesiasticis

وإلى جانب هذا له كتاب فى « حياة القديس أندروس » مترجماً عن اليونانية ، وآخر فى « أهل الكهف » مترجماً عن السريانية ، أما أهم مؤلفاته جميعا فهو كتابه بعنوان Historia Francorum — الذى ينقسم إلى ثلاثة أجزاء ، عالج فيها المؤلف تاريخ العالم منذ البداية حتى العصر الذى عاش فيه . اعتمد الكاتب فى الأجزاء الأولى على كتابات السابقين من أمثال جيروم وأوروزيوس ، غير أن أهم الأجزاء هى تلك التى تعالج تاريخ غزوات الفرنجة ( ٣٩٧ — ٥١١م ) ، التى اعتمد فيها على كتابات سولبكيوس وفرجردوس . والأجزاء التالية من الكتاب ، تعتمد على مشاهداته الذاتية لأحداث عصره وهى تمتد حتى موت الملك شلبريك سنة ٥٨٤م ، وتشمل بقية الكتاب الأحداث التى وقعت حتى سنة ٥٩١ م ، وهى على هيئة تسجيل ليومياته وانطباعاته الخاصة .

ولعل أهم نقد وجه إلى جريجورى هو انه كان متحيزاً فى كتاباته إلى ملوك استرازيا ضد اعدائهم من ملوك الفرنجة الآخرين ، وبخاصة ضد شلبريك ملك نوستريا . كذلك تحامل الكاتب للغاية ضد الاريوسيين ، ويرجع هذا الموقف إلى أن جريجورى كان أسقفا كاثوليكيا متشدداً فى كاثوليكيته . وهو إذ يلتمس الأعذار لأخطاء وجرائم ، ملوكه من أمثال كلوفس وكلوتار وجونترام ، نجده يكيل النقد المرير ضد أى من الملوك الذين كانوا يتحرشون بحقوق الكنيسة الفرنجية ، ولعل أوضح الملوك الذين تناولهم جريجورى بلعناته هو شلبريك . ورغم كل هذا فإن أهم مزايا جريجورى كمؤرخ أنه يعترف بنقاط ضعفه ومنها لاتينيته الخشنة ، على أن هذا لا ينقص من قدر كتابه فهو من أهم المصادر عن تاريخ الفرنجة .

## ٩ – أيزيدور الأشبيلى

### ( ٥٦٠ – ٦٣٦م)

يعرف فى اللاتينية باسم — Isidorus Hispalensis — ، وقد عاش فى أسبانيا واشتهر بغزارة علمه فى التاريخ واللاهوت . ثم خلف شقيقه لياندر فى رئاسة الأسقفية فى أشبيلية وذلك فى عام ٦٠٠ م كما اضطلع برئاسة مجمع طليطلة سنة ٦٣٣م . وقد لخص لنا خبراته العلمية التى حصلها طيلة عمره فى كتاب بعنوان — Origenes وظل هذا الكتاب المرجع الأهم لكل الدارسين فى العصور الوسطى ، وليس أدل على ذلك من أن هناك قرابة ألف مخطوطة من هذا المؤلف ، ويحوى هذا الكتاب عشرين فصلا يعرض فيها الكاتب قراءاته للقدامى من مؤرخين وموسوعيين encyclopaedists — وأطباء وقانونيين ولاهوتيين وأنثروبولوجيين وفلكيين ونفسانيين ومعماريين وعلماء فى التربة والزراعة وإلى جانب هذا له عدة مؤلفات هى :

1 — De natura rerum
2 — De ordine creaturarum
3 — De viris illustribus
4 — Historia Gothorum Vandalorum et Sueborum
5 — Quaestiones in Vetus Testamentum

6 — De ortu et obitu patrum
7 — Sentententiae
8 — Regula monachorum

## ١٠ – بيده
## ( ٦٧٢ – ٧٣٥م )

بيده الشهير بلقب « الوقور » هو أعظم مؤرخى الإنجليز فى العصور الوسطى ، وهو يقدم لنا نبذة عن حياته بقلمه فيقول الآتى :

"Thus much concerning the ecclesiastical history of Britain, and especially of the race of the English, I, Beda, a servant of the Lord and Priest of the monastery of the blessed apostles St. Pater and St. Paul, which is at Wearmouth and at Jarrow, have with the Lord's help composed, so far as I could gather it, either from ancient documents, or from the tradition of the elders, or from my own knowledge. I was born in the territory of the said monastery, and at the age of seven I was, by the care of my relations, given to the revered Abbot Benedict and afterwards to Ceolfrid, to be educated. From that time I have spent the whole of my life within that monastery devoting all my pains to the study of the Scriptures; and amid the observance of monastic discipline, and the daily charge of singing in the church, it has ever been my delight to learn or teach or write. In my nineteenth year I was admitted to the diaconate, in my thirtieth to the priesthood, both by the hands of the most reverend Bishop John of Hexham, and at the bidding of Abbot Ceolfrid. From the time of my admission to the priesthood to my present fifty-ninth year, I have endeavoured, for my own use and that of my brethren, to make brief notes upon the Holy Scripture, either out of the works of the venerable fathers, or in conformity with their meaning and interpretation."

بعد هذا يعطينا بيدا قائمة بمؤلفاته التى كتبها حتى هذا التاريخ من حياته ، ومن أهمها كتاب « التاريخ الكنسى فى إنجلترا » . ويلقب بيدا بلقب « أبو التاريخ الإنجليزى » ، ويحوى كتابه هذا معلومات قيمة تلقى الضوء على تاريخ إنجلترا الأنجلو سكسونية . ويتفرد بيده بحاسة الفنان الأصيل ، وأسلوبه رصين ، ولكن يعيبه غياب حاسة النقد التاريخى ، وتلك صفة نلمسها عند غالبية كتاب العصور الوسطى .

ولكن الكاتب رغم كل هذا لا يتردد فى ممارسة بعض النقد عندما يورد رواية ، لا يصدقها العقل .

وقد وضع بيدا عدة مؤلفات أخرى : أحدها بعنوان — History of the Abbots — وآخر بعنوان The Lives of Cuthbert ، وله أيضاً رسالة هامة موجهة إلى رئيس الأساقفة أجبرت ، وهى تتضمن معلومات مفيدة عن أحوال مملكة نورثمبريا . وكان بيدا عارفاً باللغات القديمة ، مما سهل عليه قراءة الأصول المبكرة للكتاب القدامى الذين كتبوا باللغة اليونانية ، هذا إلى جانب كتابات أغسطين وجيروم وأمبروز وجريجورى العظيم . ويجدر بنا أن نذكر هنا أن أحد تلامذة بيدا واسمه اجبرت قد أسس مدرسة فى يورك ، تتلمذ فيها الكوين الذى بعث النهضة العلمية فى بلاط الإمبراطور الفرنجى شرلمان .

## ١١ — بولس الشماس

(٧٢٠ — ٨٠٠م)

يعرف فى اللاتينية باسم — Paulus Warnerfridi — ، وهو مؤرخ اللومبارد . ولد لأسرة لومباردية نبيلة ، وقد تلقى تعليما حسنا ، فلمع اسمه حتى صار علماً من أعلام القرن الثامن . وقد وصل اسلافه إلى إيطاليا فى ركب الملك اللومباردى البوين حيث اقطعوا أرضاً على مقربة من فورم ايولى ( فريولى ) . وقد تلقى بولس تعليماً راقياً فى بلاط الملك اللومباردى راتكيس فى العاصمة باڤيا ، وذلك تحت إشراف الأستاذ المرموق فلاڤيان الذى كان عالماً فى اللسان اليونانى وآدابه . ويظن أن بولس قد عمل سكرتيراً للملك دزدريوس خليفة الملك راتكيس ، كما أن ابنة الملك الأميرة ادلبرجة كانت من بين تلاميذه . وبعد أن تزوجت هذه الأميرة اللومباردية من الكونت اركيس صاحب دوقية بنڤنتو ، طلبت من أستاذها السابق — بولس — أن يكمل التاريخ الذى كان يوترو بيوس قد ابتدأه . وعندما سقطت العاصمة اللومباردية

— باقيا — فى أيدى شرلمان ملك الفرنجة فى سنة ٧٧٤ م ، لجأ بولس إلى بلاط دوقية بنڤينتو . وبعد إقامة قصيرة هنا لك ، دخل أحد الأديرة على بحيرة كومو ، ومنه انتقل إلى دير مونت كاسينو ، حيث شاءت الظروف أن يكتشف شرلمان موهبة هذا الشماس . وكان شرلمان يقدر بولس الشماس بسبب شهرته العلمية ، ولذلك فإن الملك الفرنجى قد أطلق سراح شقيق للشماس كان قد أوقع أسيراً فى أيدى المعسكر الفرنجى أثناء الحملة على المملكة اللومباردية فى شمال إيطاليا . ثم اختاره شرلمان ليعمل أستاذاً فى مدرسة القصر الشرلمانية فى العاصمة اكس لا شايل ، هناك ساهم بولس فى النهضة العلمية والتعليمية التى تعرف باسم « النهضة الكارولنجية » . وقد كانت إحدى بنات شرلمان ، التى رشحت للزواج من الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السادس من بين تلامذته فى فصول تعلم اللغة اليونانية . وفى سنة ٧٨٧م عاد الشماس إلى إيطاليا وتوفى فيها فى سنة ٨٠٠م . وأهم مؤلفات بولس الشماس كتاب بعنوان :

Historia gentis Langobardorum

وهو يقع فى ستة أجزاء ويعالج تاريخ اللومبارد فى الفترة ما بين عام ٥٦٨ وسنة وفاة الملك ليتوبراند وذلك فى سنة ٧٤٧م . وروايته عن بنى جلدته قد جاءت بالضرورة من وجهة النظر اللومباردية البحتة ، وهى تلقى الكثير من الضوء على طبيعة العلاقات المريرة بين عنصر اللومبارد وأعدائهم الألداء الفرنجة ، الذين قضوا عليهم فى النهاية . وقد استعان بولس الشماس فى جميع مادة كتابه هذا بكتابات القدامى من أمثال سكوندوس من بلدة ترنت ، وبيده الوقور ، وجريجورى من تور ، وأزيدور الأشبيلى . أما كتابه بعنوان — Historlia romana — فهو تكملة لتاريخ يترو پيوس وقد جاء بعنوان — Breviarum ، وهو يعالج الفترة ما بين عامى ٣٦٤ و٥٥٣ . كذلك ترك لنا الكاتب مؤلفاً آخر بعنوان : — Gesta episcoporum mettensium —

وهو سجل قيم لتاريخ أساقفة بلدة متز . هذا إلى جانب عدد وافر من الرسائل .

## ١٢ ـ الكوين
## (٧٣٥ ـ ٨٠٤م)

اسمه فى اللاتينية ـ وهو الاسم الذى كان يفضله هو شخصيًّا هو البينوس . ولد فى مدينة ايوراكم ( يورك ) فى إنجلترا . وتكمن اهمية هذا الرجل فى أنه قد نقل النهضة العلمية المزدهرة فى إنجلترا الأنجلو السكسونية لتنوير القارة الأوربية فى العصور الوسطى فقد لعب الدور الأكبر فى إرساء مدرسة البلاط فى عاصمة شرلمان ملك الفرنجة . كان الكوين قد تلقى علومه فى إنجلترا على يد أستاذ شهير هو البرت ، وقد سافر الأستاذ وتلميذه معاً إلى مدينة روما بحثاً عن المخطوطات القديمة . وبعد وفاة البرت خلفه تلميذه الكوين فى رئاسة الأسقفية . وفى سنة ٧٨٠م . قام الكوين برحلة ثانية إلى روما ، وأثناء رحلة العودة التقى بشرلمان ملك الفرنجة عند بلدة بارما وقد رغبه شارلمان فى الانضمام إلى علماء بلاطه فى اكس ـ لا ـ شابل ، ومنحه امتيازات طائلة . وقد ظل الكوين الساعد الأمين لشرلمان من سنة ٧٨١ حتى سنة ٧٩٠ م ، وكان من بين تلاميذه شرلمان نفسه وأفراد الأسرة المالكة والنبهاء من رجال الدين الفرنجة . وكان الكوين الروح النابض لمدرسة شرلمان ، وهو الذى أوصى إلى شرلمان بكتابة رسالته الشهيرة بعنوان . De literis colendis

وفى سنة ٧٩٠ عاد الكوين إلى وطنه إنجلترا ، ولكن شرلمان سرعان ما استدعاه لدحض هرطقة ظهرت فى أسبانيا فى تلك الفترة من أواخر القرن الثامن . وقد نجح الكوين فى تفنيد آراء أصحاب هذه الهرطقة وعلى رأسهم فيلكس من أورجل ، وذلك فى مجلس عقد فى مدينة فرانكفورت سنة ٧٩٤م . بعد هذا اعتزل الكوين حياة القصر وأمضى بقية حياته فى دير سان مارتن فى بلدة تور . وقد ترك الكوين عديداً من الرسائل الموجهة إلى أصدقائه ، ويبلغ عدد ما تبقى منها ٣١١ رسالة ، وهى صفحات قيمة من الأدب والتأملات ، كما أنها تلقى الضوء على أحوال المجتمع الأوربى الوسيط . هذا إلى جانب أنها تحتوى بعض المعلومات فى الفلك الذى كان محبباً إلى نفس شرلمان . والكوين

يعد هذا صاحب أشعار جيدة حول سير الملوك والأولياء وفى مديح مسقط رأسه يورك :

Versus de patribus, regibus et sanctis Eboracensis ecclesiae.

كذلك له كتابات فى التعليم والتربية والخطابة والأجرومية والنحو .

## ١٣ — اينهارد
(٧٧٠ — ٨٤٠م)

هو صديق وكاتب سيرة شرلمان ، ويعرف فى اللاتينية باسم — Heinhardus — طبقاً لرواية المؤرخ ولا فريد سترابو ، ولد اينهارد لعائلة نبيلة فى — وادى نهر المين ، وتلقى تعليمه فى دير فولدا . وفى سنة ٧٨٦م قدمه رئيس ديرانى اسمه يوجولف إلى بلاط شرلمان . وقد وكل إليه الملك الفرنجى الإشراف على المبانى والمرافق العامة ، وهو الذى أشرف على بناء القصر الملكى فى العاصفة الكارلنجية اكس — لا — شابل . وفى سنة ٨٠٦ م أرسله شرلمان سفيراً إلى روما للتفاوض مع البابوية . وبعد وفاة شرلمان أبقاه لويس التقى (٨١٤م) وزيراً للدولة ، وخصه بتربية ابنه لوثير . وقد تزوج اينهارد من إيما شقيقة الأسقف برنهاريوس من بلدة ورمز . على أن الأساطير التى ظهرت فى القرن الثانى عشر تصور لنا اينهارد عاشقاً لإحدى بنات شرلمان تحمل نفس الاسم الذى تحمله زوجته إيما . وفى سنة ٨١٥ م أقطعه الملك لويس الأول أراض شاسعة فى منطقة ميكل شتات ومولنهايم واودن ڤالدا . ويظهر اينهارد فى الوثائق اللاحقة لعصره على أنه رئيس ديرانى . ولعل أهم مؤلفات اينهارد كتابه بعنوان —Vita Karoli Magni—، وقد جاء هذا الكتاب تقليداً لمؤلف سيوتونيوس بعنوان — De Vitis Caesarum — وبعد كتاب اينهارد عن حياة شرلمان أعظم وأوثق مصدر عن هذه الفترة من التاريخ الكارولنجى ، لأن الكاتب كان وثيق الصلة بسيده ، وعليماً بخوافى الأمور . ولكن العيب الوحيد فى هذا الكتاب أنه مختصر للغاية ، وقد نشر سنة ٨٢١م على وجه التقريب . ولا ينهارد عدة مؤلفات أخرى هى الآتى :

1 — Epistolae
2 — Historia translationis beatorum Christi martyrum Marcelleni et Petri
3 — De adoranda cruce.

## مقولة سنسيوس أسقف قورينا

## أمام الامبراطور أركاديوس « فى الملك »[1]

١ — هل ينبغى على المرء ، وهو يلج هذا المكان ( القصر الإمبراطورى ) ، أن يخفض البصر ، إلا إذا كان موفداً من قبل مدينة ثرية قوية ، وإلا إذا كان فمه ممتلئاً بأحاديث التملق الرخوة من خطابة رأشعار المذلة ؟ وهل يدان المرء فى هذا القصر ، لأنه ينطق بالقول دون أن يكون من نسب رفيع يحميه ، أو لأنه لا يجيد أساليب النفاق التى تدغدغ آذان الإمبراطور ورجال بلاطه كل يوم ؟

هاهى الفلسفة ( الحكمة ) تقدم بنفسها بين أيديكم ، فهلا استقبلتموها بطيب الخاطر ؟ إن كانت الحكمة تطالب منكم هذا التفضل ، فهو ليس لذاتها بل هو من أجلكم أنتم ؛ لأنكم لا تملكون أن تزدروا الحكمة دون أن تكونوا قد أسأتم إلى أنفسكم .

إننا بموعظة الحكمة التى نلقيها على مسامعكم ، لا نستهدف نيل الرضى من أحد ، ولا نبغى غواية القلوب الشابة بفكر زائف ، فحديثنا ليس بالسلعة نعرضها بواجهة ( بلاغة ) كاذبة ، ولكنه ، على العكس من كل هذا ، ولمن يعى مضمونه ، حديث وقور مستلهم من عند الآلهة ، ولغته جادة وجسورة ، تتعفف عن المداهنة الرخيصة ، ولا يهتم بكسب الحظوة لدى السادة . إن هذه الموعظة المتواضعة والمتنزهة عن الرياء سوف تبدو غريبة على قصور الملوك ، فهى لن تعرج ، بقصد أو بغير قصد ، على مديح تنشره على شخص الإمبراطور ورجال بلاطه ، فهذا رخص ، لن يرضى طبعها الأمين ، ولكنها قد تجرح المشاعر ، إن تطالب الأمر ، رغاية موعظتنا أن تنجح فى رضرضة الأنفس ، بل فى الدق عليها بعنف ، علها وهى تصدم النفوس بحاد القول تقوم من إعرجاجها .

٢ — على الملوك أن يقدروا حق التقدير قيمة الحديث الحر والرأى المستقل . نعم ، إن التملق يفتن القلوب ، ولكنه فى نفس الوقت يرديها . إنه سم زعاف يقدم فى كأس محفوفة بالشهد لمن قضى عليهم بالتهلكة .

---

( ١ ) اعتمدنا فى هذه الترجمة على نص الأستاذ هـ . درون ( باريس ، ١٨٧٨ ) .

أولا تعلم أيها الإمبراطور أن الطاهى ، لكى يثير فينا شهية الأكل ، يغمس أطعمته بتوابل لذيذة الطعم ، ولكنها تصيب الصحة ببالغ الضرر ؛ بينما تعمل الرياضة البدنية والطب ، مقابل القليل من المعاناة والألم ، على تقويم البدن وإصلاح حال الإنسان ؟

إننى هنا بين يديك لا أنشد سوى سلامتك ، غير أنى إذ أسعى لتحقيق ذلك الهدف ، لا أجد مفراً من إثارة غضبك . إن الملح يحفظ اللحوم من التعفن بفضل مرارته ، وكذلك فإن النصح المخلص ، وإن كان قاسياً ، قد يجنب أميراً شاباً خطر التردى فى الضلال وراء أهوائه . فلتستمع إذن فى أناة إلى هذه الموعظة ، فهى من مذاق جديد ، وترفق قبل أن تدينها بالفظاظة . اترك الحكمة تعبر عن نفسها ، ولا تحرمها بعد الاستماع إليها ، إنها لا تنشد تقريظ السامعين ، وهى لا تداهن الشباب بملاطفة عواطفهم ، وإنما تعرض لهم الأمور فى بساطة لترشدهم إلى سبل المعرفة والحق . فإن كان لديك الصبر على الإصغاء إلينا دون ملل ، وإن كانت المدائح التى تستمع إليها كل يوم لم تغلق أذنيك ( عن حديث جاد ) ، فها أنذا بين ظهرانيكم لأتكلم .

٣ — إن مدينة قورينا ( شحات ) قد أوفدتنى لكى أتوج رأسك بتاج من الذهب وروحك بإكليل من الحكمة . وقورينا مدينة يونانية واسم عريق مكرم ، طالما كانت موضوع الأناشيد لآلاف من الشعراء . غير أنها اليوم مسهدة حزينة تعانى من الفقر وأكوام الخراب ، وإنها لفى مسيس الحاجة إلى همة أمير عظيم لكى تستعيد قليلا من مجدها التليد . وإنه لفى قدرتك ، إن شئت ، أن تخفف عليها من بؤسها ، وفى وسعك أيضاً أن تكتب لى العودة إلى هنا ممثلا لمدينتى ، وقد شملتها رعايتكم وانتعشت أحوالها ، ويومها تجدنى أحمل معى تاجاً آخر أزين به رأس الملك .

ورغم ما تعانيه مدينتى من سوء الحال ، إلا أننى أخول لنفسى الحق فى الحديث الصريح بين يدى الإمبراطور ، ولن أقول إلا الحق ، لأنه لا يجدر بموعظة نبيلة الغاية أن تنطق بشىء إلا الحق وحده . إن نسب الخطيب لا يعلى ولا ينتقص من شأن خطبه . فلنبدأ ، إذن ، بإرشاد من الرب ، فى إلقاء خير الكلام ، أو لعلى فى صدق أقول خير صنيع : لأن السعى نحو إنماء الفضيلة فى النفوس ، وخاصة عندما يكون الأمير هو الهدف ، فإن مثل هذا السعى يعادل أعظم المنجزات ، ففيه خير لكل الأسر والمدائن والأمم ، صغيرها وكبيرها ، قصيها وقريبها لأن الجميع يتأثرون بشخصية أميرهم مهما كانت

أحوال هذه الشخصية . فإن كنت جادا فى رغبة الاستماع إلينا فلتصغ إلى الحديث إلى منتهاه ، واعلم أن الصياد الماهر لا يستهل مهمته بتخويف الصيد الذى يتعقب أثره .

فلنوضح ماهو خليق بالملك من صنيع وما هو غير خليق بصنع يديه ، ولنوازن بين الشرف والعار ، وما عليك — أيها الأمير — إلا أن تتابع ما يمر أمام ناظريك ، ولتحتكم إلى الحكمة لتعينك فى تمييز الخير فتحبه ، واكتشاف الشر فتمقته ، على أن تعاهد نفسك بالبحث عن طريق الخير والفرار عن مسالك الشر . ولئن اعترفت معنا ، أثناء متابعة الحديث ، بأنك قد أخطأت فى موقف ما ، فلتؤنب نفسك ولتحمر خجلا على عمل ما كان ينبغى لك أن تقوم به . إن حمرة الندم علامة الفضيلة ، والحياء هبة إلهية ( كما يقول هزيود . ) أما الإصرار على الخطأ والمكابرة فيه ، والخوف من الاعتراف بالإثم ، فإنه يعنى الرفض لدروس التوبة ، ومن ثم تصبح الموعظة عاجزة عن تحقيق العلاج ، وكما يقول الحكماء فى مثل هذا الموقف ، لا منجاة من القصاص . ولربما تسمعك الحكمة منذ البداية لساناً خشناً به قسوة . وإنى لمدرك أنه من بينكم ( الحاضرين مع الإمبراطور ) نفراً أخذوا يتململون ، وقد خدشتهم الحرية التى ينطلق بها لسانى . ألم أحذركم منذ البداية من طبيعة حديثى ؟ وكان على الذين وعوا القول أن يحتاطوا لأنفسهم حتى يتحملوا هجومى .

٤ — إن الآذان الإمبراطورية تطرب بطبيعة الحال عندما تستمع إلى تمجيد فى شخص صاحبها ، وإنى بدورى أعلن لك أنه لم يسبق لأمير قبلك أن يحكم على إمبراطورية شاسعة كامبراطوريتك ، كما أنك تملك من قطع الذهب ما لم يملكه داريوس نفسه ، ولديك من الخيول مالا يمكن حصره ، ومن رماة القوس والمدرعين جحافل لا تقاوم ، لو توفر لها قائد ممتاز . وإن مدنا لا تحصى تبجل اسمك ، رغم أن غالبية أهل تلك المدن لم ترك بعيونهم ، وهم بهذا قد حرموا من معاينة أبهى ما يمكن رؤيته فى الوجود . نعم ، إننا نقول هذا كله فى إخلاص لا يشوبه أى رياء .

وإن كان هذا هو شعورنا نحوك ، ففيم إذن نختلف مع بطانة قصرك ؟ إن رجال القصر يتخذون من واقع سلطانك مادة لسيل من نفاقهم ، فيلقبونك « بالسعيد » ولكننا ، وإن كنا لا نستهجن مديحك ، إلا أننا لا نقر الرياء ، وانما نكتفى بالتهنئة ، لأن التهانى ليست من بنات المداهنة . إن قوة سلطانك تستحق التهانى ، ولكن المديح غير مستوجب إلا على الصلاح فى الحكم ، فهذا وحده هو المحك الأهم لتبرير المديح . إن قوة الحاكم

قد تتأتى فى واحدة من ضربات الحظ ، ولكن الصلاح فى الحكم لا يتأتى إلا بدافع الخير من نفس محبة لفعل الخير . إن فضائل الصلاح ومحبة الخير لها صفة الدوام والرسوخ ، أما الغنى والرخاء فهى أمور اتفاقية ( حسب الصدفة ووفق الظروف ) ، وهى غير مأمونة أبداً ، فكثيراً ما تنقلب الحال من رخاء إلى فقر .

ولكى يحافظ الأمير على سلطانه ، فإنه محتاج إلى رعاية إلهية ، ولذا فقد وجب عليه أن يتزود بالحكمة والمهارة والنشاط الدائب المتزايد والمتنوع ، الذى يعلن عن نفسه عندما تعن الظروف الطارئه والحرجة .

إنه من اليسير على الأمير أن يجد السلطان يؤول إليه ( بالوراثة مثلا ) ، إلا أنه من العسير عليه أن يحتفظ بهذا السلطان دون عناء كبير . تأمل معنا فى سيرة بعض الشخصيات التى نعرض لتاريخها ( مأساتها ) تحت عيوننا : هل هم أفراد عاديون أو محزونون ؟ كلا ، إنما هم أفراد أقوياء ، أمراء وطغاة وأصحاب سلطان أكيد ، ( ولكنهم مأساويون ) . إن السقف المتواضع لا يعرف الانهيار المريع ، وإن الاعتدال فى منأى من طرفى النقيض . أما من تسلط عليه الأضواء فيلمع اسمه ، فهو الذى تبقى سيرته مرتبطة بكبوات فشله ومصائب قدره .

على أنه إن ارتبطت مقدرة الحاكم برضاء الناس ، فهنا يكون المديح أسبق على التهانى ، وإن القدر ليخجل عندئذ ما لم يشهد على فضيلة رائعة من هذا الطراز . وإن نحن أردنا البحث عن أمثلة ، فلسنا فى حاجة إلى الذهاب بعيداً عن محيط بلادنا : تدبر فى سيرة والدك ، ولسوف ترى أن الإمبراطورية التى حققها كانت ثمرة لفضائله . إن القدر لا يلد الفضيلة ، وإنما العمل الفاضل الجاد هو الذى يلحق البعض بموكب القدر .

هل لك أنت أيضاً أيها الأمير أن تتمثل بوالدك ، لعلك تفعل ذلك . هل نطقت الحكمة ( إليكم ) بعبث من القول ؟ لعل السلطة تحسن فى عينيك فقط عندما تكون حافزاً يوقظ فى أعماقك حب الفضيلة ، فتفتح لها مجالا رحباً تمارس من خلاله ( الفضيلة ) أفضل خلالها ، بدلا من أن تضيق عليها الخناق وتغلها بالحرمان .

٥ — ينبغى لك أن ترتفع بهمتك إلى مستوى المسئولية التى بين يديك ، ويجب أن تتبرر فيك الأقدار الحسنة ، وعليك أن تقيم البرهان بأن القدر لم يكن ضريراً عندما منحك من الحظ ما هو أوفر من القسط الذى ناله والدك ، عند دخولك من بوابات الحياة .

إن والدك قد أصبح إمبراطوراً بفضل مقدرته كرجل حرب ، أما أنت فقد أصبحت رجل حرب من خلال منصبك ( الوراثى ) كامبراطور ، وهنا أنت مدين للقدر فى إتاحة الفرصة أمامك لكى تحرز عملا فذاً . إن السلطان الذى وصل إليه والدك بجهوده قد آل إليك فى يسر عن طريق الوراثة ، ولكنك لن تقوى على الحفاظ عليه إلا بجهد جهيد . وإن هذه لمسألة بالغة القسوة ، ولا أود أن أعود إليها ثانية . ولكنك مطالب باليقظة ، إن كنت لا تريد أن ترى القدر وهو يقلب لك ظهر المجن فى منتصف الطريق ، كما يفعل الرفيق الخائن عندما يهجر صاحبه مع انتصاف مسافة السفر ، ويشبه الحكماء تقلب الأقدار دوما — بموقف الصديق الزائف فى منتصف الرحلة .

تأمل فى سيرة والدك : فمع أنه لم يحصل على منصبه إلا بقوة السلاح ، إلا أن عوامل الحقد لم ترض له براحة البال عندما هرم فى العمر ، ولكن الرب حفظ له تاجه . لقد كان على والدك أن يصارع ضد اثنين من مغتصبى العرش ، وتحداهما معاً ، وبعد أن أحرز النصر النهائى عليهما ، فارق الحياة الدنيا . إن هذا الإمبراطور ( القائد ) الذى لم يعرف الهزيمة فى ميدان القتال ، قد ذاقها من ناموس الطبيعة ، التى لا يجدى أمام أحكامها بأس القتال ولا عراقة النسب .

وبعد أن كفن والدك بأكفان فضائله ، ترك لكما ( أنت وشقيقك هونوريوس ) إمبراطورية آمنة : فلعل الفضيلة ، بتأييد من السماء ، تحفظ هذه النعمة عليكما وتديمها لكما .

وإذا كان التماس الحماية من عند الله أمراً جوهرياً للجميع ، فإن هؤلاء الذين نالوا الحظ بالوراثة ودون حرب — مثلك — أشد حاجة إلى الحماية الربانية عن غيرهم من سائر الناس . إن الشخص الذى حباه الله بفضل من عنده ، وكرمه منذ نعومة أظفاره بلقب الملكية الرفيع ، مدعو إلى تحمل المشقات وهجر الدعة والنفور من الخمول ووضع الصالح العام نصب عينيه ، إن هو أراد أن يكون مستحقاً للقب الملك عن جدارة .

إن المثل القديم يصدق إذ يقول : لا يقوم الفرق بين الملك والطاغية على عدد رعايا كل ، كما أن عدد القطعان لا يميز بين الراعى والجزار : فالجزار يدفع بالقطيع أمامه لكى ينحر أفراده ، وهو لا يسمنها إلا لكى يبيع لحومها بمال يسمنه هو ، أما الراعى فهو أبداً أمين على خرافه التى يسهر عليها .

٦ — إن المثل الذى سقناه يصلح للتمييز بين الملك والطاغية : فكلاهما قد أسعده الحظ ووهبه سلطة الحكم على آلاف الألوف من البشر . غير أن الحاكم ( من الاثنين ) الذى يسعى لخير المحكومين ، والذى يضحى براحته ليجنبهم المعاناة ، والذى يعرض نفسه للخطر لكى يؤمن لهم حياة آمنة ، والذى يدعم حياة المدن بدولته ويرعى مصالحها ، حتى يبيت أهلوها ليل نهار متحررين من المخاوف والقلق ، إن مثل هذا الحاكم يستحق بجدارة اسم « الراعى » إن كان يقود قطعاناً ، ويستحق لقب « الملك » إن كان يحكم بشراً . أما الحاكم الذى يطلق لنفسه العنان لإشباع رغباته المختلفة ، والذى يستغل سلطانه فى المتعة ، والذى يقمع رعيته إرضاء لنزواته ، ظناً منه أن ذلك هو حقه ، والذى يتوهم بأن رعاياه قد أعطوا إليه ليجعل منهم عبيداً تحت رحمته ، إن مثل هذا الشخص ، فى كلمة واحدة ، لا يسعى إلى إشباع جوع قطيعه ، وإنما هو يعمل على تسمين ذاته بقوت قطيعه . إنى أدعو مثل هذا الشخص جزاراً ، إن كان جبروته منصبّاً على قطيع ، وهو طاغية إن كان متسلطاً على مخلوقات عاقلة .

ذلكم هو المعيار الفيصل فى مسألة الحكم . فلتختبر نفسك — أيها الأمير — على ضوء ما قلناه الآن ، فإن كانت صورة الملك تنطبق عليك ، فإن لك أن تمتن وتهنأ بلقبك المهيب الذى تحمله . وإن كان الأمر على خلاف ذلك ، فلتبادر بتقويم الخطأ عندك ، حتى تصبح شبيهاً بذلك النموذج الصالح .

إنى لست يائساً من الشباب ، ففى مقدوره دوماً أن يحرز نجاحاً فى سراط الفضيلة ، ولكنه محتاج إلى من يحفز حماسه بالمهماز ويدفعه إلى الأمام ، فالشباب طاقة يمكن تحويلها إلى هذا الجانب أو ذاك الآخر ، مثلما هى الحال مع الأنهر التى تندفع مياهها فى الطريق الذى يفتح أمام سريانها. إن الأمير الشاب فى حاجة ملحة إلى أن تمسك الحكمة بساعده، حتى تجنبه الانحراف عن الصواب .

إن الذى يفصل بين الفضيلة والرذيلة خيط رفيع ، وما أسهل أن ينزلق المرء من درب إحدى الفضائل إلى متاهات الرذيلة التى تزاحمها الطريق . وإن الطغيان قريب ومتماس مع السلطة ، كما تتقارب المسافة بين الشجاعة والتهور ، وبين التبذير والكرم . وإن الحمية ، ما لم تسيجها الحكمة فى حدود الفضيلة ، تنقلب عندما تتصعد إلى عجرفة وغرور بالذات . وما الطغيان إلا تطرف فى ممارسة الحكم ( الملك ) ، وليس من العسير عليك أن تتحقق من

هذا ، على ضوء ما فصلناه أمامك من خطوط . على أن أهم ما يميز الملك عن الطاغية هو أن الأول يخضع ميوله لتتمشى مع القوانين ، بينما يجعل الطاغية من أهوائه مادة القانون . ومع أن منهاج الاثنين مختلف واحدهما عن الآخر ، إلا أن كلا يملك السلطة جميعاً .

٧ — إنه لمن دواعى الغبطة أن يجد الحاكم إرادته مطاعة لدى الكل ، على أنه ينبغى أن تكون الإرادة ذاتها طيعة للحكمة ، فالحكمة هى سيدة الأمور ، ومن رفيقاتها ( المقدرة الاتزان ، العدالة ) نتلقى إشارة السلوك السوى . إن التربع على العرش فى حد ذاته لا يهب السعادة ، لأن الله لم يودع سر الغبطة فى السلطان ، ولذا فإنه ينبغى فوق كل شىء أن نتحرى الحكمة لحسن استخدام تلك السلطة . لست أرى حياة أفضل من حياة ذلكم الحاكم الذى يصل قوته بالحكمة ، إذ أنه بهذه الميزة المزدوجة يحكم وهو يعلم كيف ينبغى عليه أن يمارس الحكم . وعندما تجتمع القوة والحكمة معاً ، فإنه لا يمكن لشىء أن يقاومهما مجتمعين . أما إن انفصلتا ، وواحدتهما عمياء والأخرى رقيقة الحال ، فإنه لن يكون من الصعب قهرهما منفردتين .

لكم أثار حكماء مصر إعجابى فيما شاهدته فى بلادهم فى تمثال الإله هرمس : فقد منحوه وجهين ، وجه شاب ووجه شيخ هرم ، فهو فى آن واحد شاب هرم . وإن نحن تأملنا فى مغزى هذا الرمز ، فإننا ندرك أنهم يرون ضرورة وصل القوة بالحكمة ، لأن واحدة هذين العنصرين إن فصلت عن الأخرى باتت قليلة الجدوى . وإنك لتجد هذا الوصل للصفتين معاً فى أبى الهول المقدس ، الرابض على ساحة المعابد ، فهو حيوان فى قوته وآدمى فى عقله ( حكمته ) .

إن القوة التى لا تتخذ الحكمة لها مرشداً تصبح شهوية للغضب ، فتضل وتنشر العنت والفوضى من حولها ، كما وأن العقل محتاج فيما نقدم عليه من عمل إلى عون من السواعد القوية .

إن فضائل عدة هى التى تتوج الملك بالفخار ، أما الفضيلة العظمى التى يجب أن يتحلى بها الحاكم فهى الحكمة . فلتكن الحكمة لك رفيقاً ، واعلم أن أخواتها الثلاث ( المقدرة ، الاتزان ، العدالة ) سوف يتبعن أختهن الكبرى ، فيجتمعن جميعاً لمشاركتك فى حياتك ، وللجهاد فى صفك .

٨ — إن ما أبسطه الآن من قول قد يبدو غريباً ، ولكنها الحقيقة . إنى عندما أتأمل الشيء ونقيضه : الضعف والقوة ، الفقر والغنى ، القليل والكثير ، وافترض أن العقل سيخطئ على الحالين ، فإنى أتصور أن حال الضعف والفقر والقليل أفضل من حال نقيضها عند وقوع الخطأ ، لأن فداحة الخطأ فى حالات الضعف والفقر والقلة أقل بكثير من فداحة نقائضها فى حالات القوة والغنى والكثرة . إن ما يبدو لنا من عناصر خير ظاهرة إن هى إلا أدوات ( علل فاعلة ) — كما يقول المعلمان أرسطو وأفلاطون — وهذه يمكن أن تنطوى على الشر كما تنطوى على الخير ، ولذا فإن الفيلسوفين وتلاميذهما قد أحجموا عن إعطائها مدلولا يفيد المديح أو الذم . إن هذه الأدوات — كما هو وارد عند هؤلاء الفلاسفة — هى خير حينا ، وهى شر فى نفس الحين ، وذلك وقف على هوية الشخص الذى يتناول تلك الأدوات . وإننا لنبتهل إلى السماء ألا تتأتى هذه « الأدوات » فى أيدى إنسان مخادع ، وليتها إن تأتت تنقلب إلى عجز كامل ، وإنما نحن نرجو أن تكون ( هذه الأدوات ) من نصيب من يعرف كيف يحسن استخدامها لصالح الرعية والمدائن ، ونأمل لهذا ألا يضيع فضله هباء وألا يطمس جهده فى الخفاء ، بل ينتشر الفضل لتنعم البشر .

عليك إذن أن تستخدم السلطة ( الأداة ) التى ملكت يديك فى منوال الخير والتعقل ، فبهذا وحده يمكن لك أن تشعر بالغبطة والسعادة الحقة . إن البصيرة والعناية المحبة ينبغى أن تكون رائداً لك فى توفير الأمن للعائلات وللمدائن وللشعب وللأمم وللقارات ، ويجب أن تكون صورتك عند الناس صورة للعناية الربانية . إن الله — وهو الخير المطلق والأزل — شاء أن تتم أمور هذا العالم على شاكلة أمور السموات فى الأعالى . والرب عون الملك الأرض ، الذى يحمل شرف هذا اللقب ، وهو أهل له فقط عندما يتحلى بصفات ترضى رب السماء والأرض .

وقبل أن أمضى إلى أبعد من هذا ، يحسن بى أن أعرض لبعض الآراء الفلسفية لكى ألقى الضوء على ما أبغى قوله .

٩ — لم يعثر الفلاسفة حتى يومنا هذا على فهم للجوهر الإلهى ، وأمام هذا العجز البشرى راح المفكرون يعرفون السر الإلهى عن طريق خواصه ( تعالى ) : فهو الأب والخالق والأول وأصل كل الوجود . إن جميع هذه الصفات لا تدل إلا على الرابطة بين الخالق

والمخلوقات التى تدين له ( سبحانه ) بوجودها . وعندما نعزى إلى الله الملك ، فإننا نتفهم ذلك عن طريق صلة الحاكم بالمحكومين ، ولكننا لا نعاين الله فى جوهره الباطن .

وهنا أصل ، كما وعدت آنفا ، إلى نقطة كنت قد أجلت التعرض لها برهة من الوقت ، فأتساءل : ما هى الصفة التى إن توفرت فى ملك هذا العالم تكون خير الصفات اللائقة بالحاكم الصالح والمستوجب لهذا اللقب ؟

إن الله هو الخير ، كما يسلم بذلك أهل المسكونة جمعاء من حكماء وجهال مهما اختلفت طرائقهم حول الجوهر الإلهى الخالص ، على أن هذا الخير الإلهى ، الذى لا يجادل فى حقيقته أحد ، لا يستقرأ من طبيعة الله ذاتها ، وإنما هو يتكشف فى معلولاته ( آثاره ) ، لأن الخير لا ينبثق كمادة من المطلق فى ذاته ، وهو لا يدرك إلا من خلال من تصيبهم هذه الآثار ، ممن يدينون لله بما يحل بهم من غبطة عقلية. وعندما نقول بأن الله خير ، فإننا نعنى بذلك أن الله هو مبدع ( أصل ) كل ما هو كائن بيننا من وجوه الخير ؛ إن الصلوات المقدسة التى علمنا إياها آباؤنا الباكرون لكى تتلى فى القداسات إلى خالق الكون ، لا تمجد القوة الإلهية ( فى ذاتها ) بقدر ما هى تعبر عن الشكر للعناية التى تجلت من خلالها هذه القوة الإلهية . ألا إن كل ما فى الوجود من نعم ، هو من عند الله ، فهو واهب الحياة والروح والكينونة ، وكل خير مستوجب يصدر عن المطلق الأزلى .

أما أنت ( يا ملك الأرض ) فلترع منصبك الذى رفعت إليه وجلست على عرشه ، وأقم الدليل على أنك أهل للقب الملكى الذى تحمله ، وليكن الرب هو قدوتك ، واتبع إرشاد السماء ورحمتها فى أن تغمر مدائن الإمبراطورية بالخير والسعادة ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، حتى يشعر كل واحد فرد من رعيتك بالأمان . وعندئذ يمكن لنا بحق أن نلقبك بالملك المعظم ، ويومها لن يكون اللقب مجرد اتباع لسنن سابقة أو طلباً فى الرضا أو بغية اتقاء غضبك ، وإنما يكون إعلاناً عن قناعة باطنة فينا يصبح فيها لساننا مترجماً لأحاسيسنا .

إننى لكى أرشدك إلى ما ينبغى أن يكون عليه الملك من خلال ، فسوف أرسم أمامك نموذجا له ، وما عليك إلا أن تنفخ الحياة ( الروح ) فى هذا التمثال لتدب فيه الحياة . ولكى أنجز هذا المشروع سوف أستعين ، وفق متطلبات الحال ، بآراء وردت على لسان

الأقدمين ، ويجب عليك أن تقدر هذه الآراء القديمة حقيقة قدرها مثلما تعطى لغيرها . إن الصفات التى ينبغى البحث عنها فى شخص الحاكم هى — دون نزاع — تلك الخصال الطيبة التى أوصى بها الحكماء فى القديم وفى الحاضر .

١٠ — إن أول ما ينبغى أن يقوم عليه هذا التمثال هو قاعدة التقوى ، فالقاعدة يجب أن تكون صلبة ، حتى لا تقوى العواصف على زعزعة التمثال من موقعه أبداً . ولتكن التقوى شريكاً لك على كرسى العرش ، حتى تعاينها كل الأبصار وهى تتلألأ ساطعة من عليائها . وحرى بالملك أن يحكم نفسه ويكبح ذاته ، مسترشداً فى ذلك بعناية السماء . ولتعلم أن الإنسان فى حقيقة الأمر ليس مخلوقاً بسيط التكوين ، وإنما هو مركب تعتمل فى داخله ميول ونزعات متباينة . إن النفس البشرية أشد بشاعة من طبع الأفعى سباعية الرؤوس ، لأنها تختزن فى وعائها التفكير والرغبة والحزن والغضب والفرح والفزع ، وهذه الانفعالات ليست فى مستقر واحد . كما أن عنصر التمايز الناتج عن اختلاف الجنس يزيد من هذا التعقيد ، فبينما يميل الذكر إلى الشجاعة ، تجنح الأنثى إلى التخوف . إن الانفعالات المتضادة فى عمق النفس البشرية تصارع واحدتها الأخرى فى حرب ضروس ، ولكن هنالك أيضاً تلك الملكة التى تقوم بدور الحكم ، وهى التى نطلق عليها « العقل » . ينبغى أن يكون العقل هو السيد على نفس الملك ، حتى يتحكم فى العواطف وما يتولد عنها من اضطراب ، ولن يتأتى الصلاح للحاكم إلا إذا بدأ بكبح جماح أهوائه الطبيعية . إن الإنسان الذى يعرف كيف يروض عناصر الصراع فى داخل نفسه ، وكيف يطوعها لأنيار الحكمة ، ثم يخضعها لسيدة الرشاد ، فرداً عادياً كان هذا الإنسان أو ملكاً ، فإنه يحمل قبساً إلهياً فى داخله . وإن كان هذا الإنسان هو الملك ، فيا لسعد المسكونة ، لأنه بصلاحه يؤثر على أمم برمتها على دروب الصلاح ، كما أن أفراد رعيته يتخذون من خلقه مثالا يقتدون به . وإن قلب هذا الحاكم قلب آمن مطمئن ، وعلى ملامحه ترتسم إمارات الهيبة والرزانة .

كم هو مبدع حقاً منظر الملك عندما تتحلى طلعته بجلال الطمأنينة ، إنها تأخذ بألباب صحابته من أهل الخير والصلاح ، وتلقى بالرهبة فى قلوب أعدائه وأبناء الشر . ولا تعرف الندامة طريقاً إلى نفس هذا الملك ، لأنه لا يقدم على عمل إلا بعد أن تتلاقى باتفاق عليه مكونات النفس بالرضاء ، فيكون العمل حصاداً لتناغم كامل ، تؤدى فيه كل ملكة دورها دون صراع حول الهدف الواحد . أما إن تركت لكل نزعة أهواؤها ، فإن المسالك

تتضارب ، وتصاب النفس بالخلل بين تلك التناقضات ، وإنك لترى الإنسان الذى يقع فريسة لتلك الحال حيناً متواضعاً وأخرى متكبراً ، ويمسى ألعوبة فى أيدى النزوات والمخاوف والكآبة ونوبات اللذة ومختلف العواطف ، وهو بهذا يصبح فى تناقض دائم مع ذاته :

نعم وإنى أترق إلى انتشال نفسى من خضم الفساد
لكن طغيان السخط فى عمق أضل العقل وطمس الرشاد

هكذا صاح أحد الشعراء ، الذى كان عارفاً بطبيعة الصراع الذى يعتمل داخل النفس البشرية فيحرك فيها شتى المشاعر والشهوات .

١١ — إن أول صفة يجب أن يتحلى بها الملك هى ضبط الذات وإخضاع الغرائز الفجة الكامنة فى عمق طبيعتنا البشرية . هل يليق بالحاكم الذى يهيمن على الملايين من البشر أن يصبح عبداً لسلطان الشهوة والأحزان وكل بشع فى كوامن النفس من السادة التافهين ؟ وبعد أن يتحرر الأمير من طغيان الذات ، عليه أن يشكل مجلساً من الوزراء والمخلصين ليشاورهم فى أمور الدولة . على أنه لا ينبغى أن يتم اختيار أعضاء هذا المجلس من الأصدقاء من باب التمويه أو لمجرد أن يكونوا قناعاً لمداراة حقيقة الاستبداد الفظة ، بأساليب تبدو طلية ولكنها تخفى وراءها الخداع بعينه . ليس أفضل للأمير من صديق مخلص ، فهو الرفيق الأنيس فى أوقات السعادة ، والساعد الأكيد فى وقت الشدة ، وهو الذى يمتدح عن صدق ، ويؤنب فى غير مرارة .

إن خير برهان على صلاح الحاكم فى نظر شعبه هو المثل الطيب الذى يتحلى به رجاله الذين يحيطون به . وإن هذا الخلق لخليق بأن يحفز جماهير الرعية إلى مشاعر الولاء ، حتى ولو كانوا يعيشون فى أقاصى أرجاء الإمبراطورية ، كما وأن أهل الخير والصلاح فى كل بقعة فى الدولة يسعون جاهدين لكى يحظوا بمحبة الأمير . والعكس تماماً هو حال الطغاة . وعليهم ينطبق المثل القائل ، وعن حق : « فى البعد عن جوبيتر منجاة من صواعقه » . ذلك أن مؤالفة الطغاة محفوفة بالأخطار ، ولذا فإن البعد عنهم والانزواء فى أمان وتواضع أفضل بكثير من منصب رفيع قد يمن به الطاغية على امرء ما : فإنه لا يكاد صاحب المنصب أن يكون لشخصه انطباعاً طيباً فى أعين الجماهير ، بعد مشقة ، حتى يجد نفسه فجأة محط كراهية من لدن الطاغية .

وليس حال الملك الصالح كذلك : لأنه يؤمن بأن الله وحده هو مبدع الخليقة كلها ( أميرها وفقيرها ) ، وبأن له ( سبحانه ) السلطان والحكم وحده من علوه على كل ما هو فى الوجود تحت السموات . إن الأمير الصالح هو الذى يعرف أن الحاكم بشر كسائر رعاياه من الأنفس التى لا تحصى من البشر مثله ، وبأنه لن يستطيع بمفرده أن يضطلع بأعباء الحكم ورعاية الدولة . ولمداواة هذا العجز فى الطبيعة البشرية ، فإنه يتحتم على الملك أن يستعين بالمخلصين فى إدارة دفة الحكم ، حتى يتقوى ساعده وتتضاعف إنجازاته ، وهو بهذا يبصر أموراً كانت خافية عليه من خلال عيون الإخلاص ، ويسمع ما كان خافتاً من خلال آذانهم ، ثم هو يناقش آراءهم لكى يبلور منها فى النهاية رأياً جماعياً صالحاً .

١٢ — على أنه ينبغى الحذر ، فهنالك خطر قد لا تجدى معه قوة السلاح : حذار أن يتسلل التملق إلى البلاط تحت قناع الصداقة . إن التملق ، رغم يقظة حراس القصر ، قد يتخذ من الأمير فريسة لحبائلة المهلكة . وإن قام الأمير بزجر تلك الرذيلة وطرحها بعيداً عن مجالسه ، فإنها لا تيأس بل تعود فى الخفاء إلى قاب القصر تتسال لكى تفتك بالأعزاء الذين يقدرهم الأمير حق التقدير . ولذا فإنه حرى بالأمير الصالح أن يولى رجاله ( أصدقاءه ) بالمحبة ، فهى خير الفضائل ، التى حفظها التاريخ لتمجيد إسمى قورش أشهر ملوك البرابرة وأجزلاس أشهر ملوك اليونان .

وعندما تدق ساعة العمل ، فإنه يحسن بالأمير أن يتدبر ما هو مقدم عليه أولا ، ثم يطرح الأمر على أعوانه المخلصين للوصول إلى القرار الصائب . وهو فى حاجة إلى السواعد الكثيرة لكى يترجم خططه إلى أعمال .

١٣ — لا يصح للأمير أن ينغلق على نفسه داخل قصره ، بل عليه أن ينيب المساعدين المخلصين عنه فى القصر ، ويمضى إلى معسكرات جنوده ليعايشهم ، فهم وإن كانوا من درجة أقل إلا أنهم رفاق أوفياء . وعلى الأمير أن يندمج مع الجند فى المعسكرات ليتابع بنفسه أحوال الرجال وخيولهم ومعداتهم الحربية ، وأن يمارس أفانين الفروسية مع فرق الفرسان ، والزحف مع المشاة ، وأن يشارك الكتائب الأخرى ، على مختلف أسلحتها من ثقيلة وخفيفة ، فى تدريباتها . إن مشاركة الأمير للجند فى سلاحهم تلهمهم بمشاعر الولاء الدفاقة نحوه ، وإن هو خاطبهم « بالرفاق » فليس فى هذا مجافاة لأسلوب التخاطب معهم ، طالما كان وسطهم فى الميدان بل إنهم يشعرون بصدق طويته .

لربما تشعر – أيها الأمير – بالضيق من حديثى وأنا أعدد لك الأعباء التى أطالب منك القيام بها ، ولكننى فى كل هذا أصدقك القول ، وأعلم أن الكد لا ينال من الإنسان . بل إنه بمقدر ازدياد الجهد يصبح الأمير رجلا لا يعرف الكلل أو الملل . إن الأمير الذى يتخشن بالعمل الشاق ، وينطلق إلى الخلاء ، ويتدرب على حمل السلاح مع جنده ، يبهر رعاياه بشخصه ، وترنو الأبصار جميعاً قبالته فى إعجاب لا يفتر ، ومن أقاصى الأرض حيث لا تبصره عيون الشعب ، تترنم الأفواه وتلهج باسمه . أما الجند ، فإنهم إذ يرون أميرهم بينهم بين الحين والآخر ، فإنهم يكنون له حباً خالصاً من القلب . هل هنالك إمبراطورية أكثر مناعة من تلك التى يدافع عنها الجميع ليس فقط بنصل السيف وإنما أيضاً بسلاح القلب .

إن الأمير الذى يتحلى بهذه الصفات لن يكون مصدر فزع لأحد من رعاياه ، بل إن الكل يجلونه ويفدون حياته بأنفسهم . إن الجندى بطبعه إنسان بسيط خارص ، وهو يثق سريعاً فيمن يعايشونه حياته . ولقد أطلق أفلاطون على طبقة الجند اسم « الحراس » وهو يقارن بينهم وبين « الكلب » فى حديثه عن حاسة التمييز بين الصديق والعدو .

هل هنالك من هو أشد تعاسة من ملك لا يعرفه جنده إلا من خلال تصاويره ؟

١٤ – إن الملك يحقق فوائد جمة من مخالطته لجنده ، منها أنه ورجاله المقاتلين يكونون قوة دافقة بالحماس تحدوهم روح عالية واحدة ، وإن التدريبات المتنوعة فى المعسكرات تجعله وإياهم متمرسين فى فن القتال ، ويتقن الأمير فن القيادة وإمرة الجيش . وإن المعسكرات مدرسة تعد الأمير وتحفز همته إلى آفاق وأعمال كبرى . ويوم أن تشتعل الحرب يقف الأمير سيداً مطاعاً فى الميدان ، فهو إن نادى على أحد الجنرالات باسمه يلبى النداء على الفور ، وإن أشار إلى قائد لإحدى الفرق بأمر ، أسرع القائد فى تنفيذ الإشارة ، وإن كلف رئيس كوكبة بأمر فأمره مطاع ، كما وأن حملة الإشارات يعملون رهن إشارته ، ومشاهير المحاربين القدامى طوع بنانه ، وهؤلاء لهم فى قلوب رجالهم من الفرسان والمشاة تقدير عظيم ، إن الأمير الذى ينهج هذا المنهج مع رجال جيشه ينفخ فى نفوسهم شجاعة لا تقهر . لقد صور لنا هوميروس كيف أن أحد الآلهة الإغريق كان فى معمعة القتال يرفع صوجانه لكى يثير فى الشباب المقاتلين « قوة لا تقهر » ، وعندما امتلأت قلوب الشباب

بحمية الحرب ولهيبها تحفزوا للهجوم » ، فأقدامهم تبغى التقدم وسواعدهم تتأهب للتلويح بالسيف » ، لأن الإله كان يطلب إليهم التريث قبل الانقضاض على العدو .

إن هذا الحماس الذى تثيره الآلهة فى الجند ، يمكن أيضاً للأمير أن يحققه فى قلوب رجاله ، فهو عندما يخاطب جندياً باسمه ، فى معمعة القتال التى لا تكاد تسمع فيها دقات الطبول ، يأتى نداء الأمير ليوقظ فى وجدان الجندى حب الانتصار والشجاعة كلها ولن يبالى الجندى وقتها بخطر قد يحل به على مشهد من مليكه

وبدون هذا الأسلوب لن يتأتى للملك ، مسالماً كان أو محباً للقتال ، أن يحقق مثل هذه الحمية والغيرة فى نفوس جنوده . لقد أوضح شاعرنا ( هوميروس ) فى جلاء أنه ينبغى على القائد أن يخاطب كل جندى باسمه ، وهو يصف لنا كيف كان أجاميمنون يخاطب كل محارب باسمه ، ثم إنه كان يطلب من أخيه أن يذكره بأسماء هؤلاء المحاربين وأجدادهم وهو يتحادث معهم ، كما أنه نصح أخاه بأن يعامل كل جندى فرد فى احترام زائد ، وأن يكون بشوشاً حليم الطبع مع الجميع . إنه من دواعى الإحساس بالفخر أن يخاطب القائد رجاله ليذكرهم بأعمالهم البطولية وبانتصاراتهم فى معارك سابقة. إن هوميروس يجعل من الملك مادحاً لجنوده ، ومن ذا الذى يتردد فى التضحية بدمه للحصول على شرف المديح الملكى لشخصه .

إن كل هذه المكاسب سوف تكون من رصيدك — أيها الأمير — إن أنت تفقدت أحوال جندك عن قرب بين الحين والآخر . وإن زياراتك للجند فى معسكراتهم سوف تطلعك على ملامح شخصياتهم وعلى عاداتهم ، فتصبح عارفاً بالرجل المناسب لتضعه فى المكان المناسب وفق ما تتطلب الظروف . ولتعتبر أيضاً بالمثل الذى أضيفه هنا : إن القائد ( الملك ) هو حرفى الحرب تماماً مثل حرفى الأحذية ( مثلا ) وكما يكون صانع الأحذية أضحوكة ما لم يكن حذقا فى استخدام أدواته ، كذلك يصبح الملك الذى لا يعرف جنوده — وهم أدوات الحرب — عن قرب .

١٥ — إننا إذا طبقنا هذه العموميات على الموضوع المحدد الذى نعالجه ، فربما نكون قد وصلنا إلى الغاية المرجوة .

«لعل الآلهة تعيننى فى لمس أرواحكم
فالنصح الخلوص دواما يعطى الثمر»

ليس هنالك ما هو أخطر على حياة الإمبراطورية من الترف المسرحى الذى يحيط بشخص الأمير . إن الجاه الذى أراه فى القصر محوط بغموض يحاكى طرائق البرابرة ، على أن هذه المظاهر البراقة تخفى وراءها ، ضعفاً كامناً . لعل لسانى لا يجرح إحساساتك أيها الأمير ، فالخطأ ليس من صنع يديك ، وإنما هو من فعل الأوائل الذين أدخلوا هذه التقاليد الكاذبة وتركوها لخلفائهم ، ثم استشرى الشر مع طول السنين . إن جلالتكم ، خوفاً من أن يقلل ظهوركم أمام الرعية من هيبتكم ، قد انعزلتم فى القصر ، فصرت أسيراً بصنع يديك ، وحرمت مشاهدة الرعية والاستماع إلى صوتها ، فضيعت على نفسك الدروس العملية للخبرة ، ولم تعد الحياة بالنسبة إليك أكثر من السعى وراء ملذات الجسد والبشع منها على وجه الخصوص ، فى التذوق واللمس ، وباتت حياتك أشبه ما تكون بحياة سرطان البحر . وهكذا فإنه فى سعيك للترفع عن حياة البشر العاديين ، انحدرت إلى درجة أدنى من الحياة الآدمية . وفى حين أنك لا تسمح للقواد بالدخول إلى مجالسك ، تكون مجالسك اليومى من مخلوقات ضيقة الأفق ومن الأنماط الخائبة من سقط الناس ، الذين يشبهون العملة الزائفة . لقد أصبح الأحمق — اليوم — هدية ينبغى أن تقدم إلى مقام الملك ، وعلى قدر ثقل الحماقة تزداد أهمية الشخص فى البلاط .

إن هؤلاء الحمقى ( الذين يكونون مجلسك ) متقلبو المزاج ، فهم ينوحون ويضحكون فى آن واحد ، وإنهم بصيحاتهم وهرجهم يسهمون فى إتلاف وقتك هباء . إن النفس تصاب بسحابة العمى لأنها لم تدرب على العيش فى توافق مع ناموس الطبيعة ، وها أنت تبحث لنفسك عن علاج أشد فتكاً من العلة ذاتها ، وها هى الأفكار المخبولة والآراء السخيفة تجد عندك الآذان الصاغية ، فتطرب للهراء ولكنك لا تقدر آراء الحكمة التى تنطق بها شفاه الفلاسفة . إن النتيجة الوحيدة لهذه الحياة الحبيسة تكون كالآتى : إن برز مواطن عادى إلى مراتب الشهرة بسبب تفوقه الفكرى ، فإنك تصبح فى ريبة من أمره ، ولا تسمح له بمقابلتك إلا بعد عناء شديد . أما المخالف للصواب والعقل السديد ، فإنه على العكس يجد فى مجلسك ترحيباً وتجالسه طويلا .

لا يجب أن يغيب عن البال حقيقة أن السبل التى قامت عليها الدولة هى نفسها التى

تساعد على نموها واتساعها. استعرض فى مخيلتك خريطة العالم أجمع ، وانظر إلى إمبراطوريات البارثيين والمقدونيين والفرس والميديين القدامى ، وانظر إلى إمبراطوريتنا : إنك تجد أن تلك الإمبراطوريات لم تبن عظمتها إلا على سواعد رجال الحرب الأعزاء لدى رفاقهم فى السلاح المشاركين لجنودهم فى حياتهم الخشنة فى المعسكرات ، الذين يفترشون الأرض الخشنة ويتعرضون لنفس المتاعب والمخاطر التى يتعرض لها سائر الجند ، الذين لا يطلبون من المتعة إلا القليل الذى يصيبه الرفاق الجند. إن العمل الجاد لهؤلاء القادة هو الذى رفعهم إلى الأعالى ، وعندما وصلوا إلى القمة حافظوا على قدرهم بسلاح الحكمة المسداة لهم من العقل ، لأن السعادة تشبه حملا ثقيلا كالرصاص ، ولا يمكن جنى نعمها دون عناء أقله التزود بروح قوية . وللحصول على القوة الروحية لا مفر من جهاد النفس الدائب . إن الفلسفة تدعوك أيها الأمير – إلى بذل الجهد لكى تتجنب مزالق خطرة . إن كل شيء عرضة للهلاك بأثر عوامل مضادة لتلك العوامل التى أمدت ذات الشيء بالحياة . إننى أؤمن بضرورة حرص الأمير على نظم وتقاليد الوطن واحترامها ، على أنه لا ينبغى أن ندخل فى إطار تراثنا ذلك الترف وبطاناته من البدع التى استحدثت بالأمس القريب على الجمهورية وقت انحطاطها وتدهور أحوالها . إن التراث الحق يتمثل فى قواعد السلوك وضوابطه ( كوادره ) التى ساهمت فى إرساء بنيان المجد الرومانى.

١٦ – أستحلفك باسم الله ، سيد كل الملوك ، أن تستمع إلى فى صبر ، رغم أن حديثى إليك قد يبدو جافيا . قل لى ، أى حقبة فى تاريخ إمبراطوريتنا كانت الأحوال فيها منتعشة وسعيدة ؟ هل تعتقد أن تلك الحقبة قد بدأت يوم أن ارتديت أنت العباءة الأرجوانية ، وتحليت بالذهب والأحجار الثمينة المجلوبة من بطون الجبال وأعماق البحار النائية ، تلك التى تتلألأ على منطقتك وتتدلى من على أرديتك وتشكل أبزيماتك وتتكوم على الأرائك الخاصة بمجلسك ؟ إنك بهذه الصورة من الألوان والبريق تبدو وكأنك طاووس ، ويا له من منظر غريب هذا الذى أنت عليه ، فلكأنك ، رغم قصدك ، تحقق لعنة هومر عندما قال : « وارتدى رداء من الحجارة » . ولكأن عبء هذا الرداء لا يكفيك ، فإنك ، بحكم لقبك القنصلى ، لا تدخل قاعة السيناتو عند انعقاده لتعيين القضاة أو لمدارسة أمر ما دون أن تضيف إلى أثقالك حملا آخر من نفس الطراز ، ظنا منك بأن الذين يشاهدونك بهذه الأردية يقتنعون بأنك وحدك ، دونا عن سائر الشيوخ ، الأوحد الذى يتمتع بالأبهة ويمسك فى

جيوبه بزمام السلطة الحقيقية . إنك فخور بأحمالك ، ولكنك أشبه ما تكون بالأسير المكبل بأصفاد من الذهب ، وهو لا يحس ببؤس حاله لأن وهج الذهب قد سلب عقله فلم يعلم بأسى لحاله ، وهو سجين . هل كان حبيس أغلال الذهب بأفضل حالا من حبيس آخر غلت أعضاء جسمه بعقل خشبية خشنة ؟

ليس غريباً بعد هذا أن تصبح حجارة الأرض وترابها خشنة على قدميك الناعمتين ، لأنك لا تستطيع السير إلا على أرض مفروشة بالذهب . ألا تعلم أن هذا الذهب الذى تدوسه قدماك قد حملته مركبات وسفن من بلدان نائية بنفقات باهظة ، وإن جيشاً قد جند بكامله لضمان الحصول على ذلك التراب الغالى . كلا ثم كلا ، يجب على الأمير أن يبتهج بمتعة السير على قدميه والتجول فى كل أرجاء مملكته .

ولنعد إلى سؤالنا : متى كانت أحوال الإمبراطورية فى أحسن أوقاتها ، فى رأيكم ؟ هل هى سعيدة اليوم ، وحكامها أباطرة يغلفهم ذلكم الغموض الغريب ، ولكأنهم جراذين تهرب من الضوء إلى خربها . أو تظن — أيها الإمبراطور — أنك عندما تحجب نفسك فى ثنايا قصرك ، توهم الناس بأنك ليس بشراً مثلهم ؟ ألم تكن الإمبراطورية أفضل حالا يوم أن كانت جيوشنا تزحف إلى ميادين القتال بقيادة الأباطرة أنفسهم ، الذين كانوا يشاركون الجند حياتهم فى المعسكرات ؟ إن هؤلاء الحكام القدامى كانوا يجدون الفخار فى لفحة حرارة الشمس ، لأنهم كانوا بسطاء وصارمين فى عاداتهم . وكانوا يمقتون الشرف والأبهة ، وكانوا يرتدون القلنسوة الصوفية على طريقة اللاكيدومونيين ، كما نرى ذلك واضحاً فى تماثيلهم التى تثير ضحك الصبية ، والتى توهم المسنين من بسطاء الشعب بأن الأبطال كانوا أبعد ما يكونون عن السعادة ، عندما يقارنون حياتهم بأسلوب حياتكم أنتم اليوم .

ينبغى أن نقرر هنا أن هؤلاء الأباطرة الصناديد لم يكونوا فى حاجة إلى بناء الأسوار حول مدنهم لحمايتها من غزوات المتبربرين من أوربا وآسيا ، بل كانوا يردون العدو على أعقابه بحملاتهم ، ويضطرونه إلى التقهقر للدفاع عن أرضه فى أوطانه الأصلية . إن جيوشنا كثيراً ما عبرت فى القديم تحت إمرة هؤلاء القادة نهر الفرات تتعقب البارثيين ، وعبر الإستر لإرهاب الجيت والماساجيت .

أما اليوم ، فإن تلك الشعوب ، التى أذلها آباؤنا من قبل ، قد بدلت من أسمائها ولون بشرتها لكى تبدو شبيهة بالرعب المتفجر من بطن الأرض ، وهجمت علينا عبر الأنهار ، ولم يعد فى مقدورنا الحصول على السلام معها بدون أن ندفع لها الجزية .

ألا فلتستيقظ أيها الأمير ، ولتتقلد لباس العزم والقوة .

١٧ — فلنترك جانباً — إن شئتم — هذه المقارنة بين الماضى والحاضر ، فحاشى لله أن يخدش لسانى مشاعركم تحت ستار موعظتى ، عندما أصف الأبهة التى يحيط بها الأمير نفسه بالبريق الخادع . على أننى إذ أتوقف عن كشف المظاهر الخادعة المنتشرة هنا ، أرى لزاما على أن أذكركم فى كلمات قلائل بالعادات البسيطة أو الخشنة ، كيفما يحلو لكم تسميتها ، عند الملوك القدامى ، كى يتضح الفرق بين الإسراف والاعتدال .

وفى أثناء عرضنا هذا ، عليك أيها الأمير أن تسترذل كل ما يتضح لك من زيف وخداع فى أساليب حياتك ، وأن تصل نفسك فقط بما هو صحيح وخليق بالأمراء الصالحين . إننا عندما نتفحص صورة الإسراف نجدها صورة من ألوان زائفة ومصطنعة ، أما الاعتدال فليس كذلك ، فصورته أبداً فى خطوط بسيطة لا تلفيق فيها ، لأنها ليست فى حاجة إلى الاصطناع ، بل قيمتها من حيث فضائلها الأصيلة فى ذاتها . ولتعلم أن العمل الدؤوب هو قرين حياة البساطة . وإنى سأروى عليك مثالا فى القناعة والشجاعة فى مسيرة واحد من الأباطرة ، وإن تلك القصة القصيرة تمثل فى حد ذاتها درساً كاملا .

١٨ — إن عصر الإمبراطور الذى أتحدث عنه ليس بعيداً عن زماننا ، فإن أجداد شيوخنا لاشك قد عرفوه ورأوه . يقول التاريخ عن هذا الأمير أنه ذهب إلى الحرب ضد أحد الملوك الأرساكيد ، الذى أساء إلى مشاعر الإمبراطورية الرومانية . وعبر الإمبراطور جبال أرمينيا ، ولكنه قبل أن يقتحم أرض العدو أحس بالجوع ، فأمر جنوده بالتوقف ونصحهم بأن يخرجوا كل ما تحتويه أمتعتهم من طعام ويأكلوه جميعه ، لأنهم سوف يجدون بعد هذا طعاماً وفيراً فى أرض العدو ، ثم أشار بيده إلى حقول بارثيا . وفى غضون ذلك وصل سفراء موفدون من قبل الملك العدو إلى معسكر الرومان ، وانتظروا أن يتولى كبار رجال البلاط والحاشية استقبالهم فى أول الأمر ، وفق المراسيم المعتادة فى مثل هذه الظروف ، وقد توقعوا أن انتظارهم يستغرق عدة أيام قبل أن يسمح لهم بالمثول بين يدى الإمبراطور . ولكنهم وجدوا أنفسهم على حين فجأة وجهاً لوجـــه مع الإمبراطور وهو يتناول

طعامه . ولم يكن هنالك فى وجه السفراء ذلكم الحشد من الحراس ، الذين يكونون جيشاً داخل الجيش ، من الشباب النضر ، فارع القامة ، أشقر الشعور ذات الخصل ، الذين وصفهم هوميروس بأن « وجوههم وجباههم تفوح برائحة الطيب والعطر » . إن الاعتقاد ( لديكم ) هو أن ظهور هؤلاء الحراس من حملة المجنات والحراب الذهبية يكون إيذانا بقرب ظهور الإمبراطور ، كما أن الأشعة الأولى فى الصباح الباكر تكون إيذانا باقتراب شروق الشمس .

ولكن الحال كان على غير هذا مع الإمبراطور الذى نقص سيرته : فلم يكن هنالك حرس للتباهى ، وإنما كان أمام السفراء جيش الرومان جميعاً يحيط بالإمبراطور ، والإمبراطورية . ولم يكن يميز الكبار عن صغار الجندى خاص بهم ، بل كان ، الامتياز بالمكارم وسمو النفس ، أما فى المظهر فالجميع كانوا سواء . وعلى هذه الصورة فوجىء السفراء بالإمبراطور كارينوس ، وقد ألقى بعباءته الأرجوانية على العشب ، وهو يتناول طعامه من بضع قضامات من البسيلة المطهية فى اليوم السابق ، ومعها قليل من لحم الخنزير المملح . وبدون أن يقف أو يغير من جلسته عندما شاهد السفراء ، طلب منهم الاقتراب نحوه وبادرهم بالقول : إنى أعلم أنكم قد قدمتم للحديث إلى فها أنذا كارينوس . عودوا من رحلتكم وبلغوا مليككم الشاب بأنه إن لم يبادر ، بتحقيق مطالبنا فعليه أن يتوقع ، قبل أن ينصرم شهر واحد ، أن يرى بلاده كلها وقد خربت وأصبحت عارية أكثر من حال رأسى . وبينما كان الإمبراطور ينطق بهذا القول ، خلع قلنسوته من على رأسه لكى يرى السفراء بأعينهم رأسه ملساء كالقلنسوة التى وضعها بجواره . وبعد هذا دعاهم ، إن رغبوا ، إلى تناول الطعام مثله من القدور ، وإذا لم يرغبوا فعليهم الرحيل على التو لأن مهمتهم كسفراء إلى المعسكر الرومانى قد انتهت .

ولما عاد السفراء إلى بلادهم ، وقصوا ما شاهدوه على الملك والشعب ، تملك الرعب على قلوب الجميع ، خوفاً من دخول الحرب ضد جيش يقوده إمبراطور لم يتحرج ، رغم سلطانه الأعظم ، من أن يكشف للسفراء عن صلعته ، ولم يتحرج من دعوة السفراء إلى تناول الطعام مثله من القدور ، واضطر الملك العدو الذى كان يزهو بتاجه وعباءته الأرجوانية إلى الخضوع لشروط خصمه الذى كان قانعاً بعباءة خشنة من الصوف الشعبى وبقلنسوة عادية . لقد هزمت الرهبة قلب العدو فانكسر قبل أن يمسه نصل السلاح .

١٩ — وإنك دون شك على علم بقصة أخرى قريبة العهد ، لأنه من المستحيل أن يخفى عليك أمر ذلك الإمبراطور الذى تنكر فى زى أحد السفراء ورحل لكى يتكشف بنفسه أصول بلاد العدو .[١] إن حكم البلاد وقيادة الجيوش مهمة صعبة للغاية ، ولذا فإنه فى أكثر من مناسبة رفض البعض أن يتحملوا هذا العبء الثقيل : إن أحد الأمراء[٢] ، بعد أن حكم سنين طوالا تنازل عن العرش طواعية ، حتى يتاح له وهو فى شيخوخته بعض من الوقت يستريح فيه فى حياته الخاصة بعيداً عن أعباء الحكم .

إن لقب « ملك » لم يظهر فى سجلاتنا من جديد إلا منذ وقت قريب ، فلقد بطل استخدام هذا اللقب فى روما منذ طرد أسرة تاركوينوس ، وإن كنا لا نزال ، عند مخاطبتكم أو الكتابة إليكم ، نصفكم بلقب « صاحب الجلالة » . على أنه يبدو أنكم قد تخليتم ، سواء عن قصد أو جريا على العادة ، عن هذا اللقب بسبب ما يوحى به من غطرسة ، ولذا فإنكم فى رسائلكم إلى المدن أو إلى أفراد الشعب أو إلى حكام الولايات أو إلى زعماء البرابرة تخاطبونهم بوصفكم « أباطرة » . إن لقب « إمبراطور » ، يعنى « القائد العسكرى » الذى بيده كل السلطة . وإنه وفق هذا المفهوم ( العسكرى ) قاد كل من أبيكراتوس وبركليس الأساطيل التى أبحرت من أثينا . وليس فى لقب « إمبراطور » ما يثير غضاضة فى أنفس الشعب الحر ، لأنه الشعب نفسه هو الذى يقرر هذه الصلاحية الشرعية عن طريق الانتخاب الحر . ومع أن واحداً من قضاة أثينا قد تلقب بلقب « ملك » إلا صلاحياته كانت محدودة للغاية . وإنه لمن باب السخرية أن تم هذا فى دويلة مدينة لم تعترف بإنسان فرد يحكم عليها . أما لقب « إمبراطور » عند الأثينيين فلم يكن يعنى سلطة الحكم أو الملك ، وإنما ينطوى على أن المهمة التى وكلت إلى من حمل هذا اللقب مهمة عسكرية كبرى .

وبعد هذا كله ، هل تريدون برهاناً دامغاً فى حكمة الرومان ؟ لقد تعلموا أن الملكية التى قامت عندهم كانت تحمل بين طياتها نفس المساوئ التى تتمخض عن الطغيان ، ولذا فإنهم عزفوا عن استخدام لقب « الملك » ، الذى بات صنوا للقب

( ١ ) ربما يقصد الكاتب الإمبراطور جالريوس .

( ٢ ) دقلديانوس .

« الطاغية » ، ووجدوا من الأليق والأكثر قبولا أن يستخدموا لفظة « الحكم » أو « الحاكم ».

إن أفلاطون يشيد « بالحكم » الخير ويرى فيه الناموس الإلهى الحق ، الذى ينعم به البشر ، وهو يوصى بالاعتدال لأنه يتوافق مع الخواص العلوية . إن الله لا يصرف أمور ( حكم ) هذا العالم بطريقة مفتعلة ، وهو لا يفاجىء الخلق بالمعجزات ، ولكنه بإرشاداته الخفية يرشدنا إلى الصواب لكى ندبر أمورنا .

إن الله قادر على أن يظهر ذاته فى كل حين وفى كل مكان للأنفس التى تتحلى بالبساطة والاعتدال . ولكى ينعم الأمير بهذه النعمة ( معاينة الله ) فإنه ينبغى عليه أن يتحلى بالبساطة وفعل المعروف .

إن الطغاة يسعون دواما إلى إحاطة أنفسهم بالغموض ، لكى يلقوا بالهلع فى نفوس الرعية ، وإذا ما ظهروا أمام الناس فإنهم يظهرون فى مسوح الأبهة التى تأخذ بالألباب . وإنهم يحاولون أن يضفوا على أنفسهم سمت الجلالة الخادع ، لأن الحاكم عندما يكون خواء من الخير فى أعماقه ، يلجأ إلى ارتداء القناع لإخفاء نفسه هرباً من الازدراء الذى يستوجبه .

هل يحجب قرص الشمس بحجاب ، وهى ساطعة كل حين على الجميع ؟ إن الحاكم الذى لا يخشى لومة لائم أو تجريحاً بعدم استحقاقه للقب الذى يحمله ، لا يخش أبداً من الظهور أمام شعبه ، وهو عندما يفعل ذلك يحقق مزيداً من الثقة والإعجاب لنفسه لدى شعبه. لقد كان أجزيلاس ، الذى امتدحه اكزينفون كثيراً ، ملكا ( حاكما ) أعرج ، ولكن أحداً لم يسخر منه ، لا من بين جنده ، وحلفائه ولا من بين صفوف أعدائه . وعندما كان هذا الحاكم يتوقف فى إحدى المدن كان يتجول فى طرقاتها العامة ، إذ كان يحب حياة الضوء تحت بصر الجميع ، ولكى يشاهد الإسبرطيون قائدهم وهو يسير على قدميـــه بينهم . إن أجزيلاس قاد عدداً قليلا من رجاله وقاتل بهم ضد ملك جبار يملك شعباً لا حصر له ولا عد ، وكاد أجزيلاس أن يطيح بعرش عدوه ، الذى كان يُعبَد فى بلاده ، ولكنه أذل كبرياءه على الأقل . ولما استدعى قضاة اسبرطة أجزيلاس ، ترك ميدان انتصاراته فى آسيا ، ليحرز انتصارات أخرى فى بلاد اليونان .

إن الشخص الوحيد الذى غلب على أجزيلاس فى ميدان القتال هو ذلكم الشخص الذى فاق أجزيلاس فى حياة البساطة ، ألا وهو أبامينونداس ، ذلك الرجل كان يرفض دعوات المآدب التى تقيمها له المدن كقائد عام ، رغم غضب الشعب من موقفه هذا ، كما أنه لم يكن يشرب إلا شراباً مزاً مخلوطاً بالماء . وكان يردد دائماً : «ينبغى على أبامينونداس ألا ينسى إلتزاماته العائلية» : ولقد أثار منظر أبامينونداس سخرية شاب آثينى ، وهو يرى قبضة سيفه من خشب خشن الصنع . ولكن أبامينونداس صاح فى الشاب قائلا «إننى عندما أحارب ، فإنك لن تشعر بألم المقبض الخشبى ، وإنما سوف ترى فعل نصل الحديد ، ووقتها تؤمن أنه حد لسيف أصيل : !!

٢٠ — إن أهم واجبات الأمير هى القيادة ، ولما كانت القيادة الرشيدة تستوجب اتباع خطى السلف الصالح ممن برزوا فى فن الحكم ، فإننا نرى أن حال الإمبراطورية لن يستقيم طالما بقى هذا الترف الخرافى الذى نشهده أمامنا ، ولن تستقيم الأحوال إلا بالتمسك بالعادات الطيبة وبضبط النفس . لعل الأمير ، إذن ، ينبذ مظاهر الترف الفارغة التى تحيط بشخصه ، فالترف عدو لا ينبغى للرجل الصالح أن يكون بينه وبينه صلة . وإن تلكم هى الفكرة التى أشرت إليها فى بداية حديثى .

ولنعد قليلا إلى الوراء ، حتى أتمكن أنا من مواصلة النقطة التى بدأت بها حديثى ، وحتى تتمكن أنت من أن تواصل الخطى على ضوء الفضائل القديمة . إن الواجب يحتم علينا أن نصلح من عيوب ذواتنا ، وأن نتحلى بالأخلاق الكريمة ، وبهذا السبيل نحقق هدفين فى آن واحد : العود إلى السعادة التى ضاعت ، والتخلص من الشرور التى باتت تهدد وجودنا . إن الواجب يدعوك — أيها الأمير — أن تبعث من جديد العهد السعيد، وأنى أهيب بك أن تجعل لنا شخصك راعياً صالحاً ، لأننا قد انجرفنا إلى حال بلغ التهاون فيه مداه، وأمسى الكل على ظبة الموسى . ما أحوجنا اليوم إلى الرعاية السماوية ، وإلى قائد جسور ، حتى نتمكن من درء الأخطار التى ما برحت تهددنا بالانقضاض على الإمبراطورية .

وإنك سوف ترى معى وأنا أواصل رسم النموذج الأفضل للحكم ( المستنير ) ، تحت بصرك ، أن هذه الأخطار وشيكة الوقوع على رؤوسناء ، ولن ينجينا منها إلا أمير راجح العقل قوى الإرادة ، يعرف كيف يبدد الغمة عن شعبه . لعل هذا الأمير

( المنقذ ) يكون فى شخصك أنت ، فإن هذه هى أمنيتى . واعلم أن الرب دوما فى عون أنقياء القلوب ، وهو لهم نعم المعين .

٢١ — كيف لنا ، بعد أن وفينا الصورة التى ينبغى أن يكون عليها الملك حقها ، فى تصورنا ، أن نتطرق إلى الحديث عن أحوال دولتنا فى الحاضر ؟

لقد علمتنا الحكمة عما قليل بأنه ينبغى على الملك أن يحل بين الحين والآخر وسط رجال جيشه وشعبه ، وألا ينغلق على نفسه داخل مقره ، لأنه إن هو تقارب فى ألفة مع شعبه فى كل الأيام يضمن محبتهم له ، والمحبة هى خير حافظ . وإن كنا — باسم الحكمة وحباً فى الأمير — ننصح له بمعايشة جنده ومشاركتهم فى تدريباتهم العسكرية ، فأى جند نعنى على وجه التحديد ؟ إننا نعنى أبناء الوطن من مدننا وريفنا وفى كل البقاع الخاضعة لسلطانك ، الذين يجندون للدفاع عن تراب الوطن وحماية قوانينه ونظمه ، التى هم مدينون لها بوجودهم منذ طفولتهم وفى شبابهم . لقد قارن أفلاطون هؤلاء الجند من أبناء الوطن « بالكلب » فى الوفاء . على أنه ينبغى للراعى أن يحترس كى لا يضع الذئاب مع الكلاب الوفية ؛ لأن الذئاب حتى وإن احتضنت من صغرها وبدت مستأنسة أليفة فى بداية أمرها ، فإنها لا بد يوما من أن تكشف عن طبيعتها الضارية ضد قطيع الراعى ، وذلك عندما تستشعر الذئاب غفلة الراعى وتراخى الكلاب أوضعفها ، فعلى التو تهجم الذئاب على القطيع ثم تنقض على الراعى نفسه للفتك بهم جميعاً . على المشرع ألا يزود أحدا بالسلاح إلا لبنى الوطن الذين ولدوا وترعرعوا على تراب الإمبراطورية وفى ظل نظمها وقوانينها . وإننا نتساءل : أية ضمانات لدى الأمير تضمن له ولاء الأجانب ؟

إن استخدام أعداد كبيرة من الشباب الغرباء عن الوطن ، الذين يجهلون نظمنا وتقاليدنا وأخلاقنا ، كجنود فى جيشنا ، إنما هو إجراء لا يتم إلا عن تهور زائد أو رجم بالغيب ، وإنا لشديدى الفزع من عواقب هذه السياسة . إن من يستخدم هؤلاء المرتزقة يرغب فى إيهامنا بأحد أمرين : إما أن نصدق بأن هؤلاء المتبربرين سوف يأخذون بأسباب الحضارة والحكمة ( وهذا مستحيل ) ، وإما أن نتوهم — إن كنا لا نثق فى وقوع تلكم المعجزة — أن صخرة تانتال الجبارة يمكن لها أن تعلق فوق رؤوسنا بخيط هزيل وتبقى الصخرة ونبقى نحن آمنين !

إن هؤلاء المتبربرين لابد وأنهم منقضون علينا يوم أن يستشعروا بقوتهم فى الإجهاز علينـــا بنجاح . وإن بعض الأعراض قد طفحت لتنذر بقرب وقوع الكارثة . إن إمبراطوريتنا باتت أشبه ما تكون بمصاب بداء الاستسقاء ، فلقد تفشى الوجع ، فى كل أعضائها فشلت جميعاً ، وأصبح الجسم الكبير عاجزاً عن تحريك أى من هذه الأعضاء . إن علاج آفات المجتمعات لا يختلف كثيراً عن معالجة المرض الذى يصيب الإنسان ، ولذا فإنه ينبغى علينـــا أن نقضى على سبب الداء ، فهذا مبدأ يتبعه الأطباء ، وحرى بالأباطرة أيضاً أن يتبعوه .

إن عدم اليقظة للدفاع عن كياننا ضد هؤلاء المتبربرين ، ولكأننا على يقين من ولائهم لنا ، وإن هجرة أبناء الوطن من المعسكرات إلى مشاغل الحياة بالشكل الذى يتم ، وأن ترك الحبل على الغارب ، إن كل هذه الآفات أعراض خطيرة لسياسة رعناء ، تشير إلى أننا نسير بخطى سريعة نحو الدمار . لقد كان الأجدر بنا ألا نسمح ، للسكيزيين لحمل السلاح بل نجبرهم على الخدمة فى الأرض لزراعتها .

وإننى لا أدعوك أن تقوم فجأة باستدعاء الطلاب من مدارسهم والحرفيين من مصانعهم والتجار من حوانيتهم لتدخلهم إلى المعسكر ، وإنما علينا بادئ ذى بدء أن نستصرخ تلك الجماهير الغفيرة من المتسكعين والعاطلين ، الذين يقضون حياتهم فى المسارح والعبث . إن ناقوس الخطر يدق ، يدعو الشعب إلى الجهاد ، وإلا فإنهم سينقلبون ( بوقوع الكارثة ) بعد وقت قريب من اللهو إلى النحيب على المصير التعس . هل عجز الرومان عن إعداد الجيش قومى من بين أبنائهم ؟ إن الدولة كالعائلة ، يضطلع فيها الرجل بالكفاح ، وتنصرف المرأة إلى واجبات الدار ، هل من مجيب بأن رجالنا أصبحوا كالنساء لا يصلحون للقيام بواجب الرجولة ؟ أليس من المعار على الرومان أن يتركوا مهمة الحرب الشريفة لغرباء متبربرين مقابل الأجر ؟ تباً لنفسى ! إننى أشعر بالخجل مضاعفًا عندما يحقق هؤلاء الأجانب نصراً لحسابنا . ألسنا مدينين لهم بهذا الانتصار ؟

لقد صدق القائل عندما قال : « ها أنذا أشعر بالخجل ، وإننى أيضًا أعانيه » .

إن ما وصلنا إليه من تعاسة حال أمر جلى لمن يبصر ، وهذا لا يتطلب الكثير من الذكاء لإدراكه ؛ ها هو أمام أعيننا جنسان ، واحدهما يتحلى بالبأس والشجاعة ،

والآخر جبان مخنث . وليس بين هذين الجنسين صلة مشتركة ولا خط نسب ، وإن أقل ذريعة لكافية لهذا الجنس المسلح لكي يستعبد الجنس الرخو الذى وهنت عضلاته بفعل الرقاد . وسوف يأتى اليوم الذى يجد فيه الخانع نفسه مضطراً إلى الدفاع عن مجرد وجوده — بعد فوات الأوان — ضد العنصر المتمرس فى القتال .

إننا مقبلون على الهاوية ، ولكن قبل أن نتردى فى ظلامها علينا أن نستيقظ ونتحلى بشىء من المشاعر الشجاعة اللائقة بالجنس الرومانى . آن الأوان لكى نعود أنفسنا بألا ندين إلا لسواعدنا فى إحراز الانتصار ، وكفانا أحلافاً مع المتبربرين . وإنى أدعو ، إلى طردهم من كل شبر اغتصبوه على تراب الوطن :

٢٢ — يتحتم علينا أولاً أن نحول بين البرابرة وبين الدخول فى مناصب الولاية أو القضاء ، ولابد من طردهم من السيناتو ؛ لأنهم فى قرارة أنفسهم يضمرون الكراهية والاحتقار للتراث الرومانى المجيد ، إن كان لنا أن نقول الحق . إن ما نراه يدور اليوم من حولنا يجعل إله الحرب وثيميس ، سيدة مجلس الآلهة ، يديران الرأس خجلا مما يشاهدانه فى جيوشنا : لقد ارتدى قواد جيوشنا جلود الحيوانات على غرار قدامى اليونان ، فى حين أن بعض البرابرة قد تجردوا من لباسهم الخشن وارتدوا التوجا ( الشملة ) الرومانية ، وهاهم يفدون مع الولاة والحكام لتصريف أمور الرعية والمصالح العامة ، وقد اعتاد هؤلاء البرابرة على الجلوس فى الصفوف الأولى بعد القناصل ، على رأس عديدين من المواطنين الإشراف من علية القوم . غير أن هؤلاء البرابرة ما أن يغادرون قاعة السيناتو حتى يعودوا إلى لباسهم الأصلى من الجلود ، ثم يأخذون فى السخرية مع رفاقهم من التوجا الرومانية ، مستهزئيين بها على أنها مبعث ضيق لجنس يتحفز لتجريد سيوفهم دون تعويق من اللباس . وإنك لتجد عبيداً من السكيزيين فى بعض الدور التى لا زالت تنعم ببعض من سعة العيش ، وهم منتشرون أيضاً فى إدارة الفنادق ، وفى المخابز والحانات ، كما أن الخدم الذين يحملون بعض السادة فى المحفات أيضاً من السكيزيين ، الذين يتنطعون فى الطرقات . إن هذا الجنس قد ولدوا ليظلوا دواما على العبودية ، وهم لا يصلحون الشىء إلا لخدمة الرومان .

أما أن نرى بعض هؤلاء المتبربرين الشقر ، الذين يمشطون شعورهم على طريقة

أهل يوبويا ، عبيداً لبعض السادة فى بلادنا ، ونرى البعض الآخر سادة على الحكومة فإن هذا الأمر غريب حقاً يثير كل مشاعر الاستفزاز . وإن نجد لغزاً أعقد من تلكم الحال التى وصلنا إليها . لقد شهدت غالة قديماً تمرد عبدين خسيسين من المجالدين ، الذين أعدوا ليكونوا أضحيات تكفيرية عن الشعب الرومانى ، على روما ثم حملا السلاح للإطاحة بقوانين البلاد ، وقد جرا على الدولة حرباً دنيئة أفزعت الرومان جميعاً .

ولقد استنفدت تلك الثورة طاقة الجنرالات والقناصل ثم ثروة بومپى ، لكى تنقذ الجمهورية من خراب كان وشيك الوقوع ، لقد انضمت إلى المتمردين ، سبارتاكوس وكركسوس ، أعداد غفيرة من العبيد ، من أجناس عدة وأوطان متباينة . ولكنهم جميعاً اجتمعوا على هدف واحد وحد بين صفوفهم واهتبلوا الفرصة للقضاء على الرومان ، لأنه من الطبيعى أن يكون العبد عدوا لسيده يتمنى فى قرارة نفسه أن ينقض عليه ويقهره . أليس حالنا اليوم أشبه بحالنا فى البارحة ؟

كم هى مهولة الكارثة التى نجرها بأيدينا على رؤوسنا : إن التهديد اليوم ليس من جانب اثنين من العبيد الأدنياء المتمردين ، وإنما نحن نواجه جيوشاً بكاملها من سفاكى الدماء والعبيد تتغلغل فى قلب الوطن . يا لسوء مصيرنا : لقد أصبح من هؤلاء السفاحين قواد وزعماء وأصحاب سلطان ليس فقط بين بنى جلدتهم وإنما أيضاً فى وطننا نحن . « يا لفداحة ضلالنا » .

إن هؤلاء الزعماء المتبربرين ، الذين يسيطرون على العديد من الجند الخاضعين لسلطانهم يستطيعون ، إن هم رغبوا ولابد أنهم راغبون ، أن يضموا إلى صفوفهم جميع العبيد الذين يعملون تحت إمرتنا ، ولن يتردد هؤلاء فى القيام بالسلب والنهب والقتل ضدنا ، لكى يرتعوا بالحرية .

إنها لساعة تتطلب منا أن نستيقظ لكى نصد تلك القوة ( الغاشمة ) التى باتت تهدد وجودنا ، وحرى بنا أن نبادر إلى إطفاء الحريق الذى يشتعل فى الخفاء ، وحذار من التكاسل ، قبل أن يطلق هؤلاء الأغراب العقال لأحقادهم . إن الشر ، الذى نحاول استئصال جرثومته ، قد تأصل فى دمائهم مع مرور السنين . وعلى الإمبراطور أن يطهر جيشه من البرابرة مثلما تغربل الغلال ، بفصل البذور الخبيثة والبذور الطفيلية عن الحنطة لكى لا تفسدها ، وإن كنت تجد صعوبة فى اتباع نصائحى ، فإن هذا يعنى نسيانك

لحقوق شعبك ، وتجاهلك لطبيعة الجنس الذى أتحدث عنه .

ولتعلم أن الرومان القدامى قد قهروا الجنس المتبربر ، وأن قوة الرومان ومجدهم العسكرى ، وحكمتهم وشجاعتهم معروفة جميعاً لدى سائر الشعوب التى اصطدموا بها . الرومان هم أشباه للآلهة التى تحدث عنها هومر ، ولقد جاب الرومان ربوع المسكونة .. لكى يدينوا جرائم البشر ويحكموا فضائلهم .

٢٣ — إن السكيزيين — على عكس الرومان — شعوب جبانة ، وقد قرر هيرودرت ذلك ، وها نحن نرى جبنهم بأعيننا . إن بلدان العالم تتخذهم عبيداً ، وهم رحل لا موطن لهم ولا يعرفون الاستقرار ، ولذا فقد جرى المثل بين الناس عن « عزلة السكيزيين » . ويرى لنا التاريخ كيف أن التمريين وشعوباً أخرى من بعدهم ، وأجدادنا ( الرومان ) والمقدرنيين قد قام كل بدوره بتعقب السكيزيين ، فولوا هاربين من ناحية إلى أخرى ، حيث كان ينتظرهم من يطاردهم من جديد . إنهم قوم رحل لا يتوقفون عن الهيام على وجوههم ، وإن توقفوا وجدوا من يردهم ليتلقفهم خصم آخر لهم . ففى القديم الغابر كانت غزواتهم المفاجئة مبعث رعب للآشوريين والميديين والفلسطينيين . ولكنهم ، فى هجراتهم الأخيرة ، عندما حلوا بأطراف بلادنا ، راحوا يتوسلون إلينا كأصدقاء لا كأعداء ، وخدعونا . لقد وجد السكيزيون فى الرومان شعباً ليناً لا يحتاج إلى قهر بالحرب ، وإنما إلى مسرحية من التوسلات ( يتمهرون بها قلوب الرومان ) . ولما أن حققوا ما أرادوا بالدموع ، وكما هو متوقع من جنسهم فإنهم سرعان ما كشفوا عن طبيعتهم الوحشية ، وغلظت قلوبهم لتفصح عن جحودهم للرومان .

إن والدك قد هجم عليهم وقلم أظافرهم ، ولكنهم عادوا يلقون بأنفسهم عند قدميه ، يتوسلون وينتحبون كالنساء . لقد غلب والدك على البرابرة فى ميدان القتال ، ولكنه غلب على نفسه بمشاعر الشفقة ، فأقامهم من ذلتهم ومنحهم أرضاً من الدولة يستقرون عليها ، وفتح أمامهم السبل إلى مراتب الشرف ؛ ذلك أن والدك كان كريم النفس حانياً على المغلوب ، واستغل البرابرة ذلكم الصيد الثمين .

ولكن هذا الجنس المتبربر لا يقدرون لفضيلة التسامح قدرها المستوجب ، فمنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم وهم يقهقهون إذ يتذكرون ما كان سيحل بهم من قصاص ، ثم تحول القصاص إلى هبات تمنح إليهم .

ولما أن سرت أخبار ما أصابهم من نعم إلى جيرانهم من الشعوب المتبربرة الأخرى ،

سعى هؤلاء بدورهم لكى يحصلوا على نصيبهم من الرومان ، فزحفوا على نفس الدرب ، وهكذا ازدادت أعداد الشعوب المتبربرة ، وزحفت فرسانهم بالقوس والسيف والنشاب لتهديد كياننا. وعندما استقبلنا تلك الشعوب فى أرضنا كأصدقاء ، لمسوا ضعف إرادتنا، ووجدوا فينا ما يبرر كل مزاعمهم وأطماعهم هم والبرابرة الذين سبقوهم فى الوصول إلينا. لقد صارت بلادنا — برغم أنفنا — منجماً سهل المنال للجميع ، وإننى لا أجد أفضل من هذا التشبيه ، برغم سوقيته ، لأقارن به حالنا فى توضيح ما أعنيه ، لأن الفيلسوف كثيراً ما يصادف صعوبة عند اختيار ألفاظه، ولا بأس من أن يستعين أحياناً بتعبيرات دارجة ، طالما أنها تؤدى الغرض المراد شرحه فى جلاء .

٢٤ — ما سبيلنا ، إذن ، ونحن نجاهد لاستعادة مجدنا القديم أمام الموقف الحرج الذى نجابهه : « هل نطرد تلك الكلاب اللعينة التى ألقى بها علينا القدر ؟ »[1]. إن المهمة وإن كانت تبدو عسرة للغاية ، تصبح ميسورة إذا نحن قمنا بزيادة عدد جنودنا وألهمناهم بالثقة فى النفس . وعندما يصبح لدينا جيش وطنى قوى ، عليك أن تعزز من تلك القوة بفضيلة الحمية التى جعلها هومر خاصة من خواص القلوب الكبيرة ، عندما قال : « جبارة هى حمية الملوك ، من أبناء الآلهة » . أنت مدعو إلى أن تصب بنار حميتك على هؤلاء البرابرة ، وعندها سوف يمتثلون لأمرك ، فإما أنهم يقبلون العمل فى فلاحة الأرض ، كما كان حال المسينيين ( الهيلوت ) بعد أن ألقوا بالسلاح أرضاً وصاروا عبيداً للأسبرطيين ، وإما أنهم يهربون من نفس الطريق الذى وفدوا منه . ويومها سوف يولولون على ضفاف الإستر صائحين بأن رومان اليوم لم يعودوا على رخاوة الأمس، وأن على رأسهم أمير شاب جسور « صارم يرتعد أمامه حتى الأبرياء »[2] .

٢٥ — كفانا هذا القدر من هذا الموضوع . لقد أوصينا حتى هذه النقطة بأن تكون تربية الأمير عسكرية الطابع ، على أنه ينبغى فى نفس الوقت أن نولى الاهتمام إلى جوانب أخرى تجعل من الأمير ملك سلام إلى جانب كونه رجل حرب .

وإننا نؤكد منذ البداية أن الملك الشجاع أهلٌ بنفس القدر لأن يكون ملك سلام . إن القوة أساس وطيد لضمان استتباب السلام والأمن، لأن الأمير الذى يملك القوة قادر دواماً على ردع من تسول له نفسه بالعدوان وعلى إلحاق الهزيمة والندم به . وإن الاستعداد

---

( ١ ) هوميروس — راجع النص الفرنسى والهامش .

( ٢ ) هوميروس

لدرء الخطر عن البلاد فى كل حين هو خير ضمان لعهد يرفرف عليه الأمن والطمأنينة ؟ ولا يعنى هذا أننا ندعو الأمير إلى شن الحروب ، وإنما نطالبه باليقظة الدائمة للضرب على يد المعتدين . وفى اليقظة خير ضمان للسلام للأمة . إن السلام نعمة شتان بينها وبين أهوال الحروب . ونحن لا ننصح بخوض الحروب إلا لضمان السلام ؛ فالغاية التى يجاهد المرء فى سبيلها أكثر نبلا من الواسطة التى يتبعها للوصول إليها . إن الإمبراطورية تضم صنفين من المواطنين : فريق مسلح ، وآخر أعزل ، والأمير مسئول عن الاثنين جميعاً. ولذا فإن عليه بعد أن يأتلف مع جنده فى معسكراتهم ، أن يطوف بالولايات والمدن قدر ما يستطيع لكى يراه الأهلون بأنفسهم بين ظهرانيهم ، حتى يشعروا بالاطمئنان وهم ينصرفون إلى العمل فى حقولهم ، واثقين أن وراءهم محاربين أقوياء يقفون بالمرصاد للذود عن تراب الوطن . وبذلك يقوم المواطنون ، كل فى مجاله ، على الحياة المدنية وهم مطمئنون على يومهم وغدهم . بل إن البقاع — من الإمبراطورية — التى لن تسمح الظروف للإمبراطور بزيارتها سوف تصبح هى أيضاً آمنة مطمئنة ، لأن سكانها سوف يحسون بآثار عنايته وحرصه عليهم ، برغم بعده عنهم وهذا يتأتى على النحو الذى سنفصله فيما بعد :

٢٦ — إن المبعوثين (السفراء) هم رسل الإمبراطور ، وهم رجال موهوبون يملكون شيما طبيعية سمحة ، وعلى الأمير أن يستفيد من خدماتهم الجليلة . عندما يتحادث الأمير مع هؤلاء السفراء ، فإنه يلم بسير الأمور فى الإماكن القصية للدولة ، وينبغى ألا تقتصر الرعاية على الدائرة الضيقة التى تحد البصر ، وإنما يجب على الأمير أن يقف على أحوال الناس فى كل أراضى الإمبراطورية ، حتى يتمكن من تخفيف البؤس على البائسين ، ومن إقامة المتعثرين من عثرتهم ، ومن الأخذ بيد المعوزين ، ومن تخفيف العبء عمن ثقلوا بكواهل الضرائب ، ومن إخماد روح القتال قبل أن تشتعل أوارها ، ومن إنهاء الأحقاد والخلافات نهاية طيبة ، وفى كلمة واحدة فإن عليه أن يبذل كل ما فى وسعه من أجل الصالح العام للرعية . وهكذا ، فإنه بفضل المبعوثين الملكيين يمكن للأمير — كما هو الحال عند الآلهة ، « أن يعاين الكل ، وعن الجميع يسمع »[١]. وعلى الأمير أن يسهل على وفود المدائن القصية سبل مقابلتهم له ، وعليه أن يرحب بهم ويجالسهم فى صبر للاستماع إليهم ، مثلما يفعل مع وفود المدن القريبة من العاصمة ، وبذلك « يمسى لين الجانب

(١) هوميروس

سليماً كالأب مع أبنائه » ، كما قال هومر فى مديحه الملك من الصالحين .

٢٧ — لعل من أهم الواجبات أن تلتزم الشرطة بالترفق فى معاملة مواطنى الريف والمدينة وعلى العسس أن تفهم أن مهمتهم أساساً تقوم على حماية أرواح وأمن الأهالين ( لا إرهابهم ) لأن الملك نفسه لا يحمل السلاح ولا يجمع الجند إلا لكى يدافع عن المدن والريف وليضمن للناس أمنهم .

أما من يقوم بطرد العدو خارج البلاد لكى يتفرغ للبطش بالشعب وفق نزواته ، فإنه يبدو لى كالكلب الذى لا يطارد الذئاب إلا لكى يخلو له الجو وحده ليلتهم الضائنات ، غير قانع ، مقابل سهره على أمنها ، باللبن الذى تدره له غذاء . لن يسود الأمن الحق فى البلاد إلا عندما يعتاد الجندى ( الشرطى ) على معاملة المواطن الأعزل كأخ له ، وإلا عندما يقنع رجل الأمن براتبه الذى يتلقاه من الدولة مقابل خدماته ، ويقلع عن آفة الابتزاز من المواطنين التعساء .

٢٨ — لا ينبغى على الأمير أن يثقل على رعاياه بعبء الضرائب ، إذ ماذا يفيد بخزائن مكدسة بالمال ، طالما أنه مقتنع بعدم جدوى إقامة المبانى والقصور حباً فى الظهور ، ونحن نعلم أن أميرنا الصالح يؤمن بأسلوب البساطة فى العيش ، وينفر من استعراض الأبهة الباهظة الثمن ، ولن يرتضى لنفسه أن يشبع نزوات شبابه ببعثرة جهد السواعد وعرق الكادحين فى لهو المسارح المجنونة .

وعندما لا يكون هنالك عدو أمامه ليصده عن البلاد ، فهو ليس فى حاجة إلى نفقات طائلة « لتغذية الحرب » ، كما يقول أحد أهالى لاكيدمونيا [١] . إن الملك الشجاع اليقظ الصالح ليس لديه ما يخشى منه ، ونحن نعلنها عالية فى كل حين بأنه لن يكون هنالك من ينصب له الشراك ولا من يفكر فى التهجم عليه .

وينبغى أيضاً ألا تجبى من الضرائب إلا ما هو كاف لمقابلة الالتزامات الملحة ، وليس أزيد من هذا . وعلى جباة الضرائب أن يكفوا عن إجحافهم عندما يقدرون متأخرات الضريبة على المواطن التعس الذى يعجز عن تسوية ما عليه ، وأن يترفقوا عند تقديرهم لدخول المواطن وتحديد التزاماته نحو الخزانة الملكية .

---

( ١ ) وهو كليومينيس .

إن الملك المحب للمال أرذل من التاجر الجشع ، لأن التاجر يحب المال لحاجة من يعولهم إليه ، أما الملك الجشع فليس له من أعذار فى ذلك ، إن رذيلة الطمع تطبع خطوطها على وجوه أهلها ، حتى بين الأفراد العاديين ، وإنك لترى أن الذين لا يفكرون إلا فى إثراء أنفسهم خشنوا الطبع ، غلاظ المشاعر ، ولا يفلت مثل هؤلاء من الازدراء العام إلا فى مجتمع قد تعفن منذ أمد بعيد . أو أليس أهل الطمع يقلبون النامرس الذى أقامته الطبيعة بتفضيلهم المادة على الروح ؟ إن الروح ، وهى صاحبة السلطان على الجسد ، تأتى فى المقام الأول على المادة ، ولكن محب المال يستعبد روحه ويتدنى فى غير كرامة بحثاً وراء الغنى ، ويتسلط حب الدراهم عليه روحاً وجسداً .

هل يرجى من الإنسان الذى يذل ذاته ويستعبد أسمى ما يملك ، وهى الروح ، عمل أو فكر نبيل ؟ لست أبالغ إن قلت بأن أمثال هذا الإنسان أقل بصيرة من النمل ؛ لأن النمل لا يكتنز إلا لكى يعيش ، بينما يعيش هؤلاء فقط لكى يكتنزوا لأنفسهم كنوزاً .

ينبغى على الملك الصالح أن يخلص نفسه وشعبه من شهوة الطمع ، وعليه بعد هذا أن يثير فى نفوس شعبه حب الخير للكافة . وإن هذا الهدف نبيل لجهاد النفس ، يكون فيه الملك فارساً وقاضياً فى آن واحد . إنه لعار كبير ، كما قال أحد القدامى ، أن نرى من حولنا مباريات شعبية مليئة بالعنف والمجالدة البدنية ، توزع فيها تيجان على الفائزين ، بينما لا توجد لدينا مباريات فى تحصيل الحكمة والفضائل الأخرى . إن الشعوب كانت غاية فى السعادة — دون شك — عندما كان أمرها فى أيدى ملوك على الصورة التى رسمناها يوم أن كان الأمير مثالا أعلى ، مهتما بالأدب والشعر والحكمة ، ولذا فإنه ليس غريباً أن أطلق على تلك العصور القديمة « العصر الذهبى » . لقد كان أهل تلك الأزمان القديمة أبعد ما يكونون عن الشرور وآفات الحاضر ، بل كان تفكيرهم منصباً على فعل الخير ؛ لأنهم كانوا يضعون التقوى (رقيباً) على رأس سلوكهم . كم هو حرى بالملك أن يكون قدرة فى التقى ، بأن يتجه دواماً إلى السماء قبل أن يقدم على إنجاز ما . ليتنى أشهد بعينى وأسمع بأذنى الملك وهو يشارك شعبه فى التضرع إلى السماء ، حيث الكل يرفعون أيديهم قبالة ملك الملوك ورئيس كل الشعوب . هل هنالك منظر أبهى من ذلك ؟ إن الرب يسر من التقوى والولاء عندما يتحلى بها الملك ؛ فمن عليه يجب من لدنه . ومن تلك المحبة الربانية تتولد فى نفس الملك المحبة لشعبه ، فيكون لهم ما لرب السماء عليه من حب ونعم . ولن تبخل

السماء أو الأرض بالنعم . وهنا أجدنى مضطراً إلى العودة إلى موضوع كنت قد ابتدئته فى مرحلة سابقة .

٢٩ — إن العلامة المميزة للحكم الصالح — كما قلنا — هى إدخال السعادة على الشعب ولقد رأينا أنه يحسن بالملك أن يكون جواداً كريم النفس ، ليكون مستوجباً لصفات الآلهة . هلا تمثلنا الآن كل الفضائل التى عددناها لإقامة تمثال الحاكم الصالح ، حتى نخرجها فى صورة منظمة ومتكاملة ؟ ها هى فضيلة البذل السخى دون ملل تقف على قمة الخصال الطيبة ؛ فالشمس لا تكف عن إرسال أشعتها لتشيع الدفء فى النبات والحيوان ، وهى أبداً تشيع البهجة فهى مصدر الضوء . على الملك أن يهب حياته لإشاعة بهجة الخير ، متمثلاً فى هذا بالشمس الساطعة . وعليه ألا يدخر وسعاً فى البذل والعطاء ، ما أمكنه ذلك ، لإدخال السعادة على الرعية . وعلى الكبار المحيطين بالملك والذين يتبوأون المناصب العليا تحت إمرته فى الصفوف الأولى أن يتحلوا هم أيضاً بنفس المشاعر الدافئة التى تنبض فى قلب أميرهم . وعلى كل واحد فرد من حيث هو أن يساهم بنصيب من أجل الخير العام للشعب . وبذلك يكون الملك قد نشر شعوراً نبيلا بين جميع العاملين فى مواقع المسئولية ، للسهر على مصالح الناس .

٣٠ — إن إمبراطورية شاسعة الأرجاء مثل إمبراطوريتنا تحتاج إلى ولاة على أقاليمها النائية ، على أن يتم اختيار هؤلاء الولاة الذين يفوضون فى الحكم ، بعد تقصى وعناية لسيرة وخلق كل منهم ؛ لأنه ينبغى على الوالى أن يتحلى بروح الحكمة وأن يكون بصيراً بالأمور كاملة .

وعلى الوالى أن يلم إلماماً ضافياً بأحوال القرى والكفور فى ولايته ، وأن يتعرف عن قرب بأحوال السكان وما بينهم من خصومات وما شاكلها من مشاكل ، فهذه أمور أساسية . إن دينيس نفسه — رغم حكمته الواسعة المعروفة لدى الجميع — لم يكن ليكفى بمفرده لكى يحكم جزيرة .

ويمكن للملك أن يضمن سير مصالح الشعب فى دروب السعادة والخير بمعونة جهاز من الإداريين الماهرين . إن العناية التى تدبر سير الكون كله هى عناية سماوية كونية ، ورغم أنها توجه الإطار العام لحياة الخلائق ، إلا أنها أيضاً تعلن عن نفسها فى أقل التفصيلات

حجماً وأهمية . إن الله لا يدخل فى جزئيات أمور هذا العالم ، فهو رب الكليات ، ولكنه دون أن ينزل من علياء سمائه وعرشه العلوى ، يجعل من الطبيعة أداة لتنفيذ مشيئته فى كل شىء . وإن ما نلمسه من خير فى أدنى الأمور وأقل المواقع إنما هو من صنع الله ، فهو منبع الخير كله وأصل كل علة . وعلى الملك أن يعى هذا الدرس السماوى فى حكم دولته ، وأدوات الملك هم ولاته ، الذين يفوضون بالسلطة على الأقاليم ؛ على أن يكون الولاة من أهل العدل والفضل . إن هذا الصنف من الولاة الصالحين ، من الأفراد المأمونين ، هم ضمان لمتابعة دولاب العمل بالخير باسم التاج . أما منصب القضاء فهو فى حاجة ماسة إلى الحذر عند اختيار من يشغله . وينبغى أن يتحلى القضاة بالفضيلة أصلا ، بغض الطرف عن مكانة أو ثروة الشخص . وإننا لنرى — بكل أسف — أن اختيار القضاة اليوم لا يضع فى الاعتبار سوى ثروة المرشح ومكانته الاجتماعية . إننا عندما نحتاج إلى مداواة طبية ، لا نقصد إلى طبيب غنى يداوينا ، وإنما نبحث عن نطاسى ماهر . وبالمثل ، فإنه حرى بنا عند اختيار القضاة أن ننتقى الأكفاء الأذكياء من ذوى الفضل ، لا الجاه ، لأنه وفق هذا الاختيار تتحدد سعادة أو تعاسة المدن والولايات . عجباً ! هل يبرر الجاه الذى قد يجمع بطريق خسيس التدرج إلى منصب الولاية أو القضاء ، وهل يفضل مثل هذا الفرد الغنى شخصاً آخر عاش فقيراً لأنه أخلص للعدالة ولقانون البلاد ، وملأ نفسه بكنوز الفضيلة والتعفف ، ولم يكن يوماً ليخجل من فقره ؟

أما إذا كانت الثروة هى المحك ، وإن كانت المناصب العامة تشترى بالمال ، فكيف يتأتى للعدالة أن تأخذ مجراها الطبيعى ؟ إن القلوب فى مثل هذا الوضع سوف تتحجر غلظة وتزداد جشعاً وعندها تتحول المحاكم إلى أسواق عامة يباع فيها المتهمون كل بسعر خاص هل لنا أن ننظر إلى المال بعين الازدراء ؟ أليس طبيعيًّا ، على النقيض ، أن نجعل من البساطة والوقار والشفقة نحو الصديق وإنصاف الناس تجارتنا الرابحة ؟

إن الذهب هو رأس الشرور ، فهو فى واقع حياتنا السبيل إلى الوصول إلى المراتب العليا ، وهو الذى يستحوذ اهتمام الناس من العامة والخاصة .

٣١ — عليك ، أيها الأمير ، أن تنهض وتكرم الفضيلة حتى تأخذ مكانها الصحيح ، فقد باتت عائرة ، واحترس كى لا تتوارى عن بصرك عناصر الحكمة والعدل ومشاعر الخير . إن هذه الفضائل الخيرة موجودة ولكنها مدفونة تحت الأسمال البالية وأردية القناعة والفقر .

وليكن حرصك على أن ترفع من قدر الفضيلة عالياً فى المجتمع حتى يرى قدرها كافة الناس ، بدلا من أن تتركها تائهة منسية . فقد آن الأوان للفضيلة أن تتبوأ مكانها فى يوم عظيم حتى تمارس فعلها الخير . ولا يخامرك شك فى أنك عندما تضع الأخيار فى المناصب العليا ، تكتب لنفسك الخلود لأن الأجيال اللاحقة سوف تهتف باسمك وتمجدك ، فتبقى ذكراك مقرونة بالعهد السعيد . ولا تمنح فضلا إلا لمن هو مستوجب له ، وبهذا لن يتكالب على الثروة أحد ، بل إن الناس سوف تسعى إلى بساطة العيش مستظلة برداء القناعة . ما أجمل أن يتمثل الشعب بالحق والعدل ، عندما يقرر الملك أن حب المال والكسب الحرام إثم لا يليق . وعندها تكون الاستقامة وحدها هى المسار إلى الرفعة والشرف. إن الأمير يملك كل الامتيازات ، فهو صاحب السلطان على الشعب ومقدراته ، وهو الوحيد الذى يملك القدرة على تغيير مفاهيم الشعب وعاداته البالية . وعليه أن يبعث من الأكفان كل القيم الطيبة التى لا تقدر بثمن . وإن هو فعل هذا ، فإن الرعية سوف تعتاد الخير وتتخلى عن الفساد ، لأن ربان السفينة أمير صالح .

٣٢ — أما وقد وصلت إلى نهاية حديثى ، فإنى التمس منكم السماح لى بأن أرفى نذراً نذرته لسيدة قلبى ، وهى الفلسفة . ليتك أيها المليك تشغل وجدانك بحبها وفروعها ، وليت كبار الدولة وأصحاب المناصب يصبحون شركاء معك فى ذلكم الحب . إننا نأسى كثيراً لأن دراسة الحكمة والعلوم النبيلة لم تعد تحظى فى عصرنا بالاهتمام . ألا ترى أنه حرى بنا ألا نسمح لشعلة الحكمة أن تخبو نارها ، دون أن نحتفظ منها بقبس يعيننا فى إنارة الضوء لتلك الدراسات فى قابل الأيام ؟ وهل يليق بى أن أقف الآن أتوسل إليكم باسم الفلسفة ؟ أليست هى جديرة بالترحيب والدخول من أوسع الأبواب مكرمة معززة ؟ إن الحكمة (الفلسفة) قريبة من مجلس الآلهة ، وهى إن حلت بيننا فإنما لكى تبشر باسم السماء . وإن نحن لا نلقاها بالترحاب ، والحرارة على الأرض عندما تهبط إلينا ، فإنها تعود نافرة إلى جوار أبيها السماوى ، ويحق لها بعد هذا أن تقول إلينا :

« إن هذا الشرف العزيز علينا
لهو آت ، ليس منكم وإنما من جوبتر إلينا »[1]

إن الفلسفة ، حسبما تكون حاضرة أو غائبة ، هى التى توجه صنع الناس بالخير

---

(١) هوميروس

حضوراً وبالشر إن كانت عنهم فى غياب . ومن هذا المنطلق تتضح أسرار السعادة وأضدادها .

إنى أتوجه بالأمل نحو الدولة ، لا قبالة الفلسفة ، فأعيد ما طاب به أفلاطون ، غير أننى أود من كل قلبى أن يكون نصيبى أكثر سعداً من المعلم ، بأن أرى آماله قد ترجمت إلى حيز التنفيذ .

هل لى أيها الأمير أن أراك تدبر أمور الحكم بإرشاد من الحكمة ؟ لو تم هذا فإن أحداً لن يسمع صوتى يخوض من جديد فى واجبات الحكم .

آن الأوان لى كى أصمت لأن هذه القاعدة تلخص كل ما هدفت إليه ، وإن أنت أيها الأمير أرسيت هذه القاعدة فإن الرسالة التى من أجلها قد نطقت بموعظة تكون قد اكتملت . إن حديثى قد رسم لك صورة للملك الصالح ، ولكن الحديث إن هو إلا ظل للحقيقة ، فعليك أن تتعهد هذه الصورة بهمتك حتى تبعث فيها الحياة . وإنى لعلى ثقة بأننى سوف أشهد هذا المنال الغالى يتحقق عما قريب ، ولسوف تظل علينا ملكاً مستوجباً للملك ؛ لأن كلماتى لم تقرع الآذان فى عبث ، لعلها تكون قد تغلغلت وحفرت لها أثراً فى القلوب . وإن كانت الفلسفة قد قصدت إليك لإسداء النصح ، فاعلم أن السماء هى التى ألهمتها بذلك وأهدتها بعون سماوى ، لأن الرب قد شاء أن يهبك حكما ميموناً .

وإنى سوف أكون أول السعداء عندما تؤتى دروسى أكلها ، فاشهد فى شخصك الخصال الملكية الحميدة التى فصلتها أمامكم حية ومترجمة . وأنى أرقب اليوم الذى أفد فيه إلى مقامكم أطلب منكم تلبية مطالب أهل مدينتى .

* * *

# رسائل القديس جيروم

## أولا : إلى جيروكيا [1]

« . . . ماذا أصنع ؟ لقد تحطمت السفينة ، وها أنذا أفتش عن الحمولة التي كانت على ظهرها . . . ويل للحوامل والمرضعات من هذا اليوم ، وكلتا الحالين حصاد للزواج . دعيني أروى عليك ، يافتاتي ، بعضاً من مصائبنا التي أبتلينا بها . إن كان نفر قليل منا ينعم حتى اليوم ببعض السلام ، فإن هذا لا يرجع إلى مكرمة من صنع أيدينا وإنما الفضل فيه يعود إلى رحمة السماء ، إن شعوبًا لا تحصى ولا تعد، وعلى درجة من الوحشية بشعة ، قد غزت بلاد الغال جميعاً . وإن الأراضي الواقعة بين الألب والبرانس ، وبين المحيط والراين قد أصبحت خراباً من جرم قبائل القواضى والقندال والسرمات والآلان والجبيد والهريولى والسكسون والبرغنديين والألمان . ويا لسوء مصير مسقط رأسنا ، فلقد زحف المتبربرون على بانونيا وحطموها . إن آشور قد هجم معهم . لقد سقطت مدينة ماينس المزدهرة ، ودمرت دورها ، وذبح آلاف المصلين فى قلب كنائسها . أما مدينة ورمز فقد خربت بعد حصار طويل،ووقعت ريمز المنيعة،وإميان وأراس وتورناى ونيميتاى وستراسبورج ، واقتيد أهلها جميعاً أسرى إلى غابات جرمانيا . أما مناطق أقطانيا ، ونوڤمبو بيولين والليونيز والناربونيز ، فقد دانت مدائنها وفتكت بها المجاعات وهلك فيها خلق كثيرون :

إنى لا أتمالك نفسى ، والدمع ينهمر من عينى ، عندما يأتى ذكر تولوز ، التى أفلتت من ذلك الخراب ،حتى يومنا هذا،بفضل جهود أسقفها المبارك اكسوبير . أما أهل أسبانيا ، الذين بات الخطر يهددهم من جديد ، فإنهم يرتعدون رعباً كلما تذكروا ما حل بهم على أيدى قبائل الكمبرى ، وها هم يهددهم شبح الأمس من جديد على أيد متبربرة أخر .

لن أستطرد فى روايتى أكثر من هذا القدر ، كى لا أبدو فى نظرك يائساً من رحمة

( ١ ) راجع النصوص اللاتينية لهذه الرسائل الثلاث بالملاحق .

الله . إن الأراضى ما بين مونت — يوكسان والألب اليوليانية قد ضاعت علينا لثلاثين عاماً مضت ، ولقد تحطمت حدود الدانوب ، وبات القتال يدور الآن فى قلب الإمبراطورية

إن دموعنا قد جفت من معينها ، فلقد طعنا فى العمر : لقد ولد جيل بكامله فى قفص الحصار وذل الأسر ، وبات الناس لا يعرفون معنى الحرية لأنهم لم يذوقوا لها طعماً مذ ولدوا . ويشاركهم فى هذه التعاسة نفر وافر من المسنين الذين شاخت عقولهم مع مآسى الزمن .

من ذا الذى يصدق هذا الذى يجرى علينا ، وأية أخبار يمكن لنا أن نقصها على الأجيال من بعدنا ، عما حل بروما على ترابها . ها هى اليوم تصارع لا من أجل مجدها وعزها ، بل على أمل النجاة فحسب . ماذا يمكننى أن أقول : إن روما لم تعد بقادرة على الحرب ، وإنما هى تدفع فديتها من ذهبها ولحمها ، مساومة للإبقاء على حياتها . إن التعاسة التى نحيا فى داخلها ليست من خطأ فى الأباطرة كأباطرة فهم يبذلون نحو الله قدر ما يستطيعون ، وإنما يرجع البلاء كله إلى جريمة أقدم على ارتكابها متبربر خائن ، ذاك الذى جند البرابرة بأموالنا رغم إرادتنا . لقد شعرت الإمبراطورية الرومانية بالعار يوماً ، عندما نجح الغاليون فى تحدى الجيوش الرومانية على شواطئ أليا ، ولم تغفر روما لبرنوس فعلته ، فضربت حتى غسلت عن نفسها هذا العار ، بإخضاع بلدان غالة وغالاتيا من قاهرى الغرب والشرق ، لسلطانها .

وحتى هانيبال نفسه ، ذلكم الإعصار الجبار ، الذى تملك أسبانيا ، ودمر مدن إيطاليا ، عندما رأى مدينة روما لم يجرؤ على حصارها . كذلك بيروس الجبار ، كان رغم أنفه يكن الاحترام لاسم روما ، فبعد أن دمر كل الأرضى من حول المدينة ، تقهقر بعيداً دون أن يمس روما ، لأنه يعلم أنها بيت الملوك . و إن هؤلاء الذين سولت لهم نفوسهم الاقتراب من المدينة ، ولا أقول هذا من قبيل الافتخار ، قد لقوا جزاء تهورهم : فواحدهم طاف الأرض طريداً لاجئاً حتى مات مسموماً فى بثينيا ، والآخر ما أن عاد إلى بلاده حتى هلك فيها . ثم قامت روما بعد ذلك بإخضاع بلدان هؤلاء الغزاة فصارت ولايات تابعة لها . . .

أما اليوم ، والحال على غير الحال ، ماذا بقى للرومان بعد أن اغتصب العدو كل ولاياتنا ، وباتت روما نفسها مهيضة الجناح . لقد قال الشاعر قديماً فى مديح روما وجبروتها : « أى حدود تكفى روما ، إن كانت هى مدينة صغيرة ؟ » ولكننى الآن أجد الصيحة تتبدل تماماً فأقول : « ما الذى يبقى سليما ؟ لو أن روما قد سقطت ؟ » إنى لو كنت أملك من الألسن

مائة ، وأخرى من الفم وصوتاً من الحديد فإنني رغم هذا لن أقوى على رواية المآسى التى يلقاها الأسرى الرومان ، ولن أستطيع أن أحصى أعداد الضحايا من القتلى على يد البرابرة .

إن ما نقصه عليك لأمر حزين للغاية عند سرده وحين الاستماع إليه ، لا بل إن النحيب على ما أصابنا لم يعد يكفى لهول ما وقع ... أجيبينى يا بنيتى الصغيرة الغالية فى الرب ، هل فى وسط هذه الأحزان والكوارث تفكرين فى أمر الزواج ؟ من ذا الذى تزفين إليه زوجاً ؟ إن هو إلا واحد من اثنين ! رجل مصيره الفرار ، وآخر مآله القتل ، وأنت تدركين نتائج الحالين . . . »

## ثانياً : إلى برنكيبيا [١]

« . . . وبينما كانت تلك الأحداث تدور فى يبوس ، وصلتنا أنباء مفزعة من الغرب : لقد حوصرت روما ، واضطرت إلى أن تدفع مالديها من ذهب فدية لحياة أهلها من المواطنين . وبعد أن جردوا المواطنين مما يملكون ، عاد العدو من جديد يحاصرهم ويتوعدهم هذه المرة بالقضاء على حياتهم . إن صوتى ليختنق ، وإن نحيبى يقطع على عباراتى وأنا أسجل هذه السطور . لقد سقطت المدينة التى كانت سيدة على الكون برمته ، فماذا نملك أن نقول ؟ لقد هوت روما على الأرض وطرحت من الجوع ، قبل أن يرديها سيف العدو ، ولم يبق فيها بعد السقوط سوى نفر نذير من الأسرى . إن جنون المجاعة قد جعل البعض يأكلون لحوم البشر ، وتقاسم آخرون أعضاء آدمية ليلتهموها ، وإن إحدى الأمهات التهمت فى جرفها رليدها الذى كانت قد أخرجته من بطنها قبل ذلك بلحظات قلائل . « لقد سقطت مؤاب فى الليل وانهارت أسوارها معها . أيها الرب الإله ، إن الأمم قد زحفت على ميراثك ، ودنست مقدساتك ، وجعلت من القدس حظائر . . لقد جعلوا من جثث عبيدك غذاء لطيور السماء ، ومن لحم قديسيك طعاماً للوحوش الضارية . . » إن القلم ليقف جامداً عندما يسطر تلك الكارثة فى تلكم الليلة ، يا لأهوال الموت ، ويا لبشاعة الظلمة . ومن ذا الذى يجود بدمع

---

(١) راجع النص اللاتينى للرسالة بالملاحق .

يتكافأ مع وزن تلك المصيبة؟ إن المدينة العريقة قد انهارت ، تلك المدينة التى كانت على مدار القرون سيدة للعالم أجمع . لقد ازدحمت طرقاتها بجثث الضحايا . . .

وفى أثناء تلك الزوبعة الرهيبة ، قام العدو المتعطش للدماء باقتحام قصر مارسيالا . إننى أقص عليك ما علمت وما رواه لنا بعض القديسين الثقات ممن شاهدوا بأعينهم تلك الأحداث الخطيرة . وقفت مارسيالا ، وقد علا الفزع وجهها ، لتلقى الأعداء ، فطلبوا منها ذهبا ، ظانين أنها قد أخفته فى باطن الأرض . ولكنها كشفت لهم عن ردائها الخشن الفقير ، علامة على قبولها حياة الفقر والزهد طواعية ( فقلد وزعت كل ما تملكه من ثروة على الفقراء ) . فانهالوا عليها ضرباً بالسياط والعصى ، فظلت تبكى حتى سقطت عند أقدام الجلادين ، وأخذت تتوسل إليهم ألا يفصلوا بينها وبينك ( برنكيبيا ) ، لأنها كانت تخشى على شبابك ألا يتحمل ما قد هز شيخوختها تماماً . ولكن السماء جعلت قلوبهم الغليظة ترق لحالها ، فلقد تولدت من بين أنصالهم الدامية قطرة من الرحمة . ولما أن وافق البرابرة على حملك معها إلى بازيليقا بولس الطوبارى ، حيث ملاذ الأمان من إبليس ، يروى أن مارسيالا قد تهللت فرحاً لأجل صنيع الرب . فشكرت الله لأنه حفظك عفيفة مصونة لها ، ولأن الأسر لم يكتب عليها الفقر ، فلقد اختارت هذا طواعية منذ زمن ، وظلت هانئة بما اختارته لحياتها من زهد ، فلم تشكو من جوع ، لكى يتمجد قول الكتاب على لسانها : « عريانا ولدت من بطن أمى ، وعريانا أعود . مبارك هو اسم الرب» . وبعد شهور قلائل ، قبضت السماء لمارسيالا ، متماسكة يقظة ، ولكن الوعاء كان قد ذبل ، أن ترقد فى الرب . وتركتك وريثة لها فى زهدها وفقرها . . وبينما هى تغمض عينيها للمرة الأخيرة ، بعون من يديك الحانيتين ، أسلمت الروح عبر سيل من قبلاتك . وبينما كنت أنت تنوحين عليها ، كانت هى تبتسم ابتسامة التى صانت طهارتها ، على أمل الحياة الأبدية . إنه من أجل ذكراك ، أيتها القديسة مارسيالا ، وأيضاً من أجلك أنت يا بنيتى برنكيبيا قمت بكتابة هذه الرسالة فى أمسية قصيرة ومنعزلة . ولعلى بتعبيرى عن مشاعرى الصادقة نحوك ، لا بلفظ منمق ولا فى أسلوب رجراج ، أحظى رضاء الله ، وقارئة الرسالة » .

## ثالثاً – إلى ديمترياس(١)

« إن فن أهل البيان يرتكز على تزيين ماضى الشخص الذى يبغى هؤلاء الخطباء مديحه ، فينقبون عن سيرة آبائه وأسلافه ووصلها بشجرة النبالة ، ذلك أن عراقة الجذور قد تعوض عن عقم الفروع ، كما أنه عندما يصعب الحصول على الثمرة فإنه فى المقدور الإعجاب بالجذع .

إنه من الضرورى فى هذا المقام أن أذكرك ( ياديمترياس ) بنسلك النبيل من سلالة بروبى وأولبرى وأنيشيا ، التى كانت جميعاً أهلا لتخريج رجالات اضطلعوا بشرف القنصلية . أما عن والدك ( أولبريوس ) أيتها العذراء ، فقد لقى موته فى سن مبكرة ، وبكاه الرومان جميعاً . غير أننى لن أطيل عليك فى هذا الصدد ، كى لا أؤلم جراح أمك القديسة وحتى لا أجدد أحزانها بتذكيرها بفضائل رجلها الذى رحل مبكراً . لقد كان ابناً باراً بوالديه ، وزوجاً ودوداً لزوجه ، وسيداً رحيماً ، ومواطناً صالحاً ، فاختير قنصلا وهو فى ريعان شبابه ، ثم سيناتوراً مرموقاً بسبب رفعة خلقه . ولقد كان حسن الحظ إذ انتقل إلى العالم الآخر قبل أن يشهد سقوط الوطن ، وهو كبير الحظ أيضاً لأنه رزق ذرية صالحة خلفها من بعده : فها هى ابنته ديمترياس تصون بتوليتها لتحيى ذكرى سميتها وجدتها الكبرى فى عرق النبالة وعاطر السيرة .

ولكن ما الذى يجعلنى أنسى نفسى وقصدى ، فأخوض فى إبراز فضائل شاب مرموق وأنسى فضائل أهل زماننا . لعله يحسن بى أن أمتدح فى عذرائنا ، على الخصوص ، تلك الفضيلة التى جعلتها تحتقر أمور هذا العالم من غنى ونبالة ، وتؤمن بحقيقة واحدة ، وهى أنها مخلوق مائت كسائر مخلوقات الله . يا لها من قوة روحية تلك التى زينت لك الحقيقة مجردة . إن ديمترياس ربيبة القصور وسليلة النبالة ، التى كانت تتزين بالحرائر واللآلىء ، ويسير من ورائها رتل من الخدم والخصيان ، ويحيط بها أفراد الحاشية والحشم ، والتى كانت تقدم على مائدتها الأطعمة الفاخرة التى يسيل لها اللعاب ، تهجر هذه الأبهة

(١) راجع النص اللاتينى بالملاحق .

جميعاً وتقبل راضية على الصوم ، وتصر على ارتداء الخشن من اللباس ، وعلى تناول القليل الزاهد من الطعام . لقد عشقت عذراؤنا أسلوب حياة إيليا ويوحنا المعمدان ، فقد كان كلاهما يتمنطق بحزام من الجلد لكي يميت غريزة الجشع فى الكلى والبطون . . .

إن ما نعدده من فضائل عن عذرائنا ديمترياس قد نمى إلى علمنا على لسان السيدات النبيلات اللائى وصلن على ظهر السفن من سواحل غالة يبحثن عن ملاذ روحى لهن فى بيت المقدس ، بعد أن عرجن على الشمال الأفريقى ، وطاردتهن أساطيل العدو . لقد علمنا منهن أيضاً أن العذراء ديمترياس ، برضاء من بعض عذراوات السماء فى معية والدتها وجدتها ، تتسلل فى قلب الليل لتلقى جانبا بالملابس الغالية التى تدفئها ، وبوسائد الريش الناعم ، لتلتقط خرقة بالية تفترشها على الأرض العارية . ثم إن وجهها يفيض فى بحور من الدمع المنسكب ، وهى تلقى بذاتها عند قدمى المخلص تتوسل إليه أن يشدد من عزمها فى قرارها ، وبأن يحقق لها أملها ، وبأن يزيح عنها عناد والدتها وجدتها .

وتسائل العذراء نفسها قائلة : « علام التأخير والمماطلة يا ديمترياس؟ لقد قربت ليالى العرس ، وها هو ذا عش الزواج المرتقب يعد لك » : ولكن ديمترياس ، وهى تستظل بجناح الليل تتوه فى أفكار متشعبة بين الإقدام والإحجام ، فتناجى نفسها : « ماذا أنت فاعلة يا ديمترياس؟ لماذا تدافعين عن بتوليتك بهذا الشعور من الخوف ؟ إنك فى حاجة إلى الشجاعة والقرار الفيصل . ها أنت ترتعدين فى لحظة لا خطر فيها ، فماذا أنت فاعلة لو كتب عليك كأس الاستشهاد؟ إن كنت عاجزة عن مواجهة أفكارك ، فكيف تواجهين محاكم الاضطهاد والجلادين ؟ إن كانت سيرة الرجال لا تلهمك ، فلتتمثلى بالفتاة أجنس القديسة الشهيرة ، التى قهرت الطاغية بالتضحية بشبابها ، فنالت بذلك إكليل الشهادة وتاج الطهارة » وتقول ديمترياس لنفسها : « أو لعلك تجهلين ، أيتها التعيسة ، لمن أنت تدينين بعذراويتك ؟ منذ وقت غير بعيد كنت ترتعدين بين مخالب البرابرة ، تتسللين مختبأة فى أحضان المربيات وتنورات والدتك وجدتك . لقد رأيت نفسك أسيرة فى أيدى البرابرة ، ولم تكن عذراويتك ملكا لك عندئذ . ولكم فزعت من هول الجرم الذى كان يطل من وجوه رجال العدو . وإنك ، لو تذكرين ، تعلمين ما حل وقتها بالقانتات من اغتصاب على يد المتبربرين . كما وأن مدينتك التى كانت من قبل عاصمة للعالم أجمع ، باتت ليلتها مقبرة للشعب الرومانى .

وها أنت — يا فتاتى — اليوم طريدة على شواطئ ليبيا ، فهل تفكرين بعد هذا فى

الزواج من طريد مثلك ؟ من ذا الذى يقوم لك بدور الإشبين عند العرس ، ومن ذا الذى يقود الموكب؟ لا إنه ليوم تشيعك فيه أصوات العذاب على نغم سريع الضربات أليم. لا تماطلى فى اتخاذ القرار. إن المحبة الخالصة تطرد المخاوف من القلوب. فلتتسلحى بدرع الإيمان ومجاسر العدالة وبخوذة السلام ، وسيرى قدما إلى معركة الخلاص . إن من تسهر على طهارتها لها مقام الشهداء . علام تخافين من غضب الجدة أو الوالدة ؟ ومن يدريك فلربما كانتا تتمنيان لك فى الخفاء نفس الرغبة التى تراود أحلامك الطاهرة ؟ » وتمتلأ فتاتنا بلهيب تلك الأفكار ، فتهجر كل صنوف الزينة ، وما تهتم به بنات هذا العالم من زخرف ، إيذانا بعهد جديد بعد تلك الحيرة الطويلة : لقد اتخذت ديمترياس القرار الأخير ، فألقت بالعقود واللآلىء والجواهر الوهاجة إلى ظلام الأدراج ، ثم التحفت العباءة الخشنة ومعطفاً أشد خشونة . وأخذت بنفسها وارتمت عند قدمى جدتها ، تحادثها بلغة الدمع والنحيب ، لا بلغة الكلام ، عن قرارها فى التبتل للسماء. وتذهل النبيلة العجوز وهى ترى على جسد حفيدتها مسرح الراهبات ، فى سن لا تؤهلها لذلك. وتضطرب الأم مما تراه عيناها ، وهى فى شك والجدة من حقيقة ما تبصران. وتحمر الوجوه ثم تميل إلى الشحوب ، وبين مشاعر الخوف والفرحة ، تشمل الجميع إحساسات بالنعمة الداخلية . . . » .

## ترجمة الكتاب الأول من « تعزية الفلسفة »

### لبؤثيوس (١)

« أنا الذى نظم القصيد شعرى بدفء الشباب
أصوغ اليوم أحزانى على أنين الرباب
ويحورى فى رحاب « الميوز » مضطربة تنساب
والدمع يروى وجنتى غزيراً ، ويا له من انسكاب
عيناى بدمعى تجودان ، والدمع لا يخشى العقاب
وهو اليوم رفيقى فى رحلتى ، ويالرحلة العذاب

* * *

كان الشعر فى ميعة الصبا نبع الرغاب
فلما هرمنا وولت علينا أيام الشباب
عدنا نلوى على القريض ، نتلمس هاتيك الشعاب

* * *

مال علينا الأسى فملنا ، وسلبنا ربيع الحياة
تدور أيامنا فنحسبها لا بميقات الزمان بل بالمعاناة
شابت شعور الرأس من قبل الأوان
وجف الأديم على جسد الهوان
أيها الموت العازف هربا عن حلو السنين
هل تلبى ندائى على درب الدمع الحزين

* * *

هل سمعت نحيبى أم صمت أذناك عنا
لك فى قلبى مقام ، فتقدم وتعال أعنا

---

(١) راجع النص اللاتينى بالملاحق .

وأغمض يا موت عيونى ، فدمعها جمر يكوينى وهمى » .

* * *

وبينما يتوه الفكر فى متاهات النفس ، ويمتد اليراع ليصوغ المأساة ، تطل على امرأة من أعلى رأسى ، وقد علت على وجهها إمارات الجد ، واتقدت فى عيونها شرارة لها بريق لا تجود به الطبيعة على بنى البشر ، وبشرتها صافية وصوتها عميق . ورغم هذا فإن خطوط الزمان المديد تبدو آثاره على وجهها حتى لا تظن أنها من بنات زماننا . ووقفتها تتأرجح تارة بين عود لا يناهز قامة الرجال ، وأخرى ترتفع هامتها ولكأنها تلامس السماء . وإن هى اعتدلت فى قامتها فإنها تخترق حجب السماء فلا تعاينها أبصار البشر . ورداؤها منسوج من خيوط لا تبلى على الزمن ، وقد علمت منها أنه من غزل يديها وليس من نسيج البشر ، ولكن فعل السنين والهمل أمحلا الخيوط ، فبدت ولكأنها لوحة علقت طويلا فى حجرة يكتنفها دخان كثيف . وفى نهاية الرداء نقش للحرف اليونانى « ب » ، وفى قمته نقش للحرف « ث » ، وبين الحرفين درج طويل يوصل بين تلك البداية وهاتيك النهاية . وقد تمزقت خطوط بعض من هذا الدرج ، ولكأن بضع أياد قد تطاولت لتغتصب شيئاً من نسيج ذلك الرداء .

وفى يمناها كانت تحمل بعض الأسفار ، وكانت يسراها ترفع الصولجان .

ولما أن لمحت السيدة الوقور حوريات الشعر وهن واقفات من حول فراشى ، يغذين لسانى بالحروف لصياغة أحزانى ، خطت إلى الوراء قليلا ثم زمجرت غضباً تقول : « من ذا الذى أذن لعاهرات المآسى للدخول على رجل يحتضر ، هل أتيتن لمواساته على ضناه ، أم ترى لتشخين جراحه بترياق من سمكن المعسول ؟ آه لكن ، وتباً لأشواك حبكن ، الذى يفتلك بثمار الحكمة وجادة العقل وأنتن مقنعات هكذا فى مسوح ملائكة الشفاء . ولئن كان نفاق جنسكن قد وأد أديبنا ، فإن مهمتنا باتت أن نجنبه الهلاك ، وذلك بعون من نواميسنا . كيف تقبضن على نفس من غذيناه صبياً من ينابيع المعرفة ؟ هيا انصرفن من ها هنا ، يابنات الشهرة وصويحبات الخراب . أما أنا فلسوف أسلمه لبناتى ليسهرن على شفائه .

ولما أن زجرت صويحبات الشعر ، غلبهن الأسى ، فثقلت نظراتهن على الأرض ، وداربن خجل العيون بحمرة اللون ، ثم ولين عنى فى حزن عميق .

أما أنا الذى أغرق الدمع مدى البصر ، فما كدت أميز هوية تلكم المرأة الآمرة الناهية فعلتنى علامات الدهشة ، وحملقت على الأرض ، على أمل السماع إلى ما تنهيه إلى من كلام . واقتربت السيدة منى فجلست عند طرف وسادتى ، ولما أن تكشف لها الحزن الشديد فى وجهى وقد خضبه دمع النحيب ، راحت تشكو ، إيلاماً ، على ذاك العذاب الذى سكبت فيه بروحى . وجادت بأشعار من عندها . . .

و بعد الأشعار هتفت تقول : «لقد آن الأوان للطب والمداواة ، ولا وقت بعد لاجترار الهموم والمعاناة » . ثم بادرتنى بالسؤال : » أهو ذا أنت الذى طالما أرضعناه من خير اللبان ، و ربيناه على حلو الرحيق ، تمسى اليوم على تلكم الحال من الشقاء ؟ ألم نمدك بالسلاح الأمين ؟ لو أنك كنت وفياً على السلاح لما تمكن منك ذلك القهر ؟ أو لا تعرف من أنا ؟ لم لا تنطق يا أخانا ؟ وهذا الصمت هل صمت وليد العار أم توأم الغفل ؟ بودى لو كان العار هو العلة ، ولكننى أبصر عندك الغفل . »

ولما أن وجدتنى جامداً كالأصم ، مدت يدها الجميلة فى حنو الآلهة على صدرى وهى تتمتم : « لا خطر عليه ، إنه فى اغفاءة من بلاء الغثيان ، تلكم العلة الشائعة عند العقول الضالة . . لقد تاهت عنه روحه هنيهة ، ولكنه سوف يفيق عندما يدرك وجودنا معه . هلم نبدأ بتجفيف عيونه التى أظلمتها غشاوات هذا العالم وزخارفه : » وبعدها مدت طرفاً من ردائها وراحت تجفف به مقلتينا ، وقد كانتا فى فيض من الدموع .

* * *

تبدد الليل وتوارى الظلام

وصحت العيون بعد طول منام

* * *

لقد غطى قورس النجوم بالسحاب

وطمس السماء بحجب الضباب

* * *

احتجبت الشمس وسادت الغيوم

وخبى النور بعد غياب النجوم

ولكن بورياس ذلكم الشجاع
يوقد فى تراقيا الشعاع

* * *

فيشرق فوبيوس ليضيء النهار
ويوقظ وهجه نعمة الإبصار

* * *

تبددت عنى سحابات السأم ، فوجدت رشد العقل والصواب ، وعرفت فى زائرتى وطبيبتى ربة « الفلسفة » ، التى طالما ترعرعت فى دارها منذ الصبا ، فصحت أخاطبها بقولى : « أيا سيدة الفضائل ، ما الذى أتى بك من عليائك ومجالس الأرباب إلى هذا الركن الرهيب الذى نفيت إليه ؟ هل جئت تنبين عن خلق الليالى لمن فقد أحبته والصحاب . لقد لوثونى بأباطيل الشر والأبالسة : » فأجابت : « وهل يحسن بى ، أيها الحوارى المسكين ، أن أتنكرلك وأنت تثقل بالأحمال والهموم بسبب وفاءك لاسمى؟ هل كنت أنا يوماً بخاشية من الأضاليل ، أم كان هذا بالأمر الجديد علينا ؟ لا تظنن أن تلكم هى المرة الأولى لتنصب فيها الفخاخ للحكمة على يد الحمقى من بنى البشر . ألم ندخل فى صراع مرير ، قبل زمان رجلنا أفلاطون ، مع الجهالة وملائكتها ؟ ويوم أن عاش أفلاطون ، ألم يتجرع أستاذه سقراط كأس الموت ظلما فى وجودى ؟ ولما أن حمل من بعدها أهل الأبيقورية والرواقية طرفاً من تراث سقراط ، ألم يسع الدهماء إلى تلويث اسمى ومضغ سمعتى ، وعندما أوقعوا بفريستهم ألم ينهشوا فى رداثى الذى غزلته بيدى ، فمزقوا منه رقعاً رفعوها أعلاماً ، وباتوا يدعون بأنهم أصبحوا يملكوننى ؟ غير أننى عنهم قد رحلت . . .

وكانت الدهماء تلاحق أصحابى عندما تلوح عليهم بضع خصالى . على إنك إن كنت لم تسمع عن فرار أناكزاجوراس والسم الذى تجرعه سقراط والعذاب الذى اكتوى به زينون لأن تلك الأحداث بعيدة فى القدم ، فلعلك عليم بحال قانيوس وسنيكا وسوارنوس ، فلا زالت ذكراهم ماثلة حتى اليوم . ولم يكتب عليهم العذاب الذى حل بهم إلا لأنهم قد نهلوا من موردى وترعرعوا فى دارى ، فباتوا ساخطين على رذائل البشرية . لا تعجب يا صاح ولا تفزع من الأمواج العاصفة ، فهى لا تستوجب إلا السخرية ، هى وجيوشها ، إنها عواصف

هوجاء لاعقل وراءها يتدبر حالها ، وإنما هى الرعونة تتخبط بين العلو والهبوط ، فربانها ضال يجهل معنى النظام والسلام .

أما نحن فمجلسنا فى الأعالى ، نقابل حماقة الأرض بالازدراء ، ونرقب الأقوام وهم يلهثون وراء ضلال العالم وقبض الريح ، وفى علونا الأمان ، وبالحكمة درع على الجنون ، وما كان للجهالة أن تنال من الفلسفة رغم كل الشرور . . . . »

* * *

« لعلك بعد تدرك هذه الأمور » قالت الفلسفة : فيطبع أثرها على نفسك . أم ترى أنك كالأتان صم عن الوتر ؟ . . علام تنوح ، وعلام تلك الدموع ؟ أفصح ولا تخف أسرارك ، فإن أنت طلبت الشفاء ، عليك أولا أن تكتشف موضع جرحك . »

استجمعت نفسى وقلت لزائرتى : « يا سيدة الحكمة ، إن عندى كل بنت من بنات الدهر ، فهل أستوجب منهن المزيد . أو لا تلاحظين القسوة تحفر حصادها على جبينى ، دون حاجة إلى أى دليل عليها ؟ ألا يحزنك جو هذه البقعة التى أنكمش فيها ؟ أين هى من داركتبى التى كانت تزدان بزياراتك لنا فيها بين الفينة والأخرى ، أيام كنت تجاذبيننى حلو الكلام فى علم الله ولا هرته رفى أمور وطبائع هذا العالم ؟ [هل كان الحزن يعلو وجهى فى تلك الأيام الخوالى ، يوم أن كنت أبحث فى مكنونات الطبيعة وأسرارها معك ، ورقت أن كنت أنت تصوغين لى منهاجى على دروب الحياة وفق الناموس السماوى ؟

أهكذا يكون جزاء الحوارى الأمين ؟ على أنك أنت التى قد قدرت هذا القدر علينا . أين قول أفلاطون : « إن العالم لن يعرف مذاق السعادة إلا إذا ساس أموره أهل الحكمة : » وأنت ياربة الحكمة أنت التى قلت بأن حكم المدائن لن يستقيم إلا على أيدى الحكماء ؛ لأن حكومة الأشرار تسعى إلى تحطيم الخير ووأد الفضيلة . أين نحن من كل هذا ؟

إننى قد تزودت بما تلقنته عنك فى بيت الحكمة] ، وسرت فى طريق الحياة لكى أحقق وأنا فى ديوان الحكم خيراً للجميع . إنك أنت وربى ، الذى ائتمنك على عقول الحكماء شاهدان على أننى ما قبلت منصب القضاء إلا لكى أترجم العدالة والحق لسائر الناس . إن منصبى فى القضاء هو الذى أدى بى إلى الصدام مع جماعة الأشرار ، كما أن سعيى نحو إرساء قواعد العدالة قد جر على شخصى غضب الكبار . كم من مرة حملت على ظلم

كونيجاستوس الذى كان يغتصب أموال الناس بالقهر؟ كم من مرة وقفت أصد تريجو يللا حارس قصر الملك عن جرم بدأ فى اقترافه ثم أصر على أن يستكمله ؟ وكم من مرة بسطت جناحى على المظلوم من ضحايا المتبربرين الذين لا يحترمون عرفاً ولا قانوناً، وعرضت بشجاعتى موقفى كله لخطر داهم ؟ إن أحدا لم يستطع أن يزحزح قدماى عن درب الحق ، فأنا لا أعرف طرقات الضلال . لقد كان الظلم الواقع على العزل يعذب ضميرى، ولكأننى أنا المظلوم . كم كنت أتمزق وأنا أرى ثروات شعبنا تسلب بالقسر أحياناً ، وبجباية الضرائب أخرى .

وفى يوم الضائقة الكبرى عندما ساءت الأمور إلى أبعد حدودها وأشرفت الكمپانا على المجاعة ، ألم أدخل أنا فى نزاع مع كبير البرايتوريين نفسه وحملت النقاش الحاد إلى مجلس الملك ،وانتصرت لجانب الحق وغلب منطقى فى ضرورة تجنيب البلاد أعباء فوق ما تعانيه . كما أننى أنا الذى انتشلت پاولينوس القنصل السابق من الحناجر التى اتسعت كالقبور فى بلاط الملك لتبتلع الرجل ذاته، بعد أن كانوا قد ابتلعوا كل ثرواته . وإنى لكى أجنب القنصل السابق ألبينوس من اتهامات باطلة ضده ، قد عرضت نفسى لحقد كبريان مدبر الاتهامات . أليس طبيعياً بعد هذه المواقف جميعاً أن تتحرك قوى العدوان ضدى أنا؟ أقول لنفسى بأنه كان الأجدر أن تؤمن لى المحبة للحق طريق السلامة ، ولكننى غدوت هدفاً لسيل من الاتهامات الباطلة ، وعلى لسان من يا ترى ؟ لقد جاء الاتهام على لسان بازل الذى استأجره الأشرار الآن ، بعد أن كانوا قد طردوه من خدمة الملك وكبلوه بالديون . ولكن ها هم الآن يجبرونه على الشهادة ضدى . ثم أتوا بأوفيليو وجاود نتيوس من المنفى الذى كان الملك قد أرسلهما إليه بسبب جرائمهما . لقد جاءوا بهما اليوم من رافنا التى كانا قد رحلا إليها ، يوم أن هددهما الملك بتشويه جبهتيهما وبالزج إلى خارج البلاد ، للشهادة ضدى . لقد طمست جرائم هؤلاء الشهود ، وظهورا اليوم فى ثياب الأبرار .

ما علة هذا البلاء كله ؟ وهل أتت يداى إثما يستوجب كل هذا العذاب ، إنى أتساءل ؟ ترى هل كانت الإدانة السابقة لهؤلاء الأشرار مكرمة تجعل منهم اليوم أهل حق وشهود عدول ؟ كيف لا تحتشم الأقدار ، التى وإن قدرت على البرئ أن يقف فى قفص الاتهام ، تمكن لنفر من حثالة الأشرار على الشهادة ( بالزور ) ضده ؟ ثم ماهى الجريمة

التى اقترفتها يداى لأصبح موضع الاتهام ؟ هل فى مقدورك أنت ( ياربة الحكمة ) أن تخبريني ؟

لقد قالوا بأنني كنت أدبر لضمان سلامة الشيوخ ومجلسهم ، أو تعلمين كيف كان ذلك ؟ إنهم يتهموننى بأنى قد حجبت عن المجلس ( الموقر ) اتهاماً دامغاً يدينه بالخيانة ؟ كيف ترين الأمر ياربة الفلسفة ، وهل يصح لبؤثيوس أن يتنكر لهذا الاتهام ( الشرف ) ، فأجاب على اسمك العار ؟ إننى لا أنكر هذا الاتهام على نفسى ( فهو شرف عظيم ) . . وهل يمكن أن أعتبر مسعاى لإنقاذ مجلس الشيوخ جرما ؟ غير أن مجلس الشيوخ بموقفهم ضدى باتوا هم أيضاً يضعوننى فى قفص الاتهام . إن الحمق مهما تمادى فى خداع الناس ونفسه لن يقوى على تبديل طعم الحلاوة ( إلى مرارة ) . وقديماً قال سقراط بأنه لا يصح إخفاء الحق ولا يستقيم إحقاق الباطل . ومهما يكون الأمر فإنى أستجير بحكمتك وعدلك للقول الفصل . وإننى لكى لا تتوه الحقيقة فيما قد وقع من أمور ، فقد قررت أن أسجل القصة برمتها . هلا علمت بتلك الرسائل المزعومة التى نسبوا إلى فيها سعيى إلى إنقاذ الشعب الرومانى[1] ؟ إنى لكفيل بإثبات كذب هذا الادعاء ، لو أنه قدر لى الاطلاع على أدلة من شهدوا ضدى عن تلك الرسائل .

ولكن كيف السبيل ، وأين هى الحرية حتى يمكن للمتهم أن يدافع عن نفسه ضد الباطل .

عليم هو الله بأن الحرية قد انتهت تماماً ، ولم يعد لها من أثر . أعطنى حريتى ، وعندها أقول ما قاله قاينوس إلى جايوس قيصر ابن جرمانيكوس عندما اتهمه جايوس بالتآمر على حياته : « لو أننى كنت طرفاً فى مؤامرة ، فما كان يقدر لك يوما أن تعلم بها . »

ولو كان هذا الإدعاء حقيقة ، لما اظلمت على حواسى بالأسى ، ولا بت أشكو من إثم الأشرار ضد الفضيلة . غير أننى فى عجب من أن هؤلاء الأشرار قد حققوا ما كانوا يصبون إليه من شر ؟

نعم إن النفس أمارة بالسوء لضعف طبيعتنا البشرية ، غير أن غلبة أبناء الشر على الأبرياء

( ١ ) وهى رسائل قيل إنها موجهة من بؤثيوس إلى إمبراطور القسطنطينية للتآمر ضد ثيودريك ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا .

وتمام آثامهم على مرأى من الأرباب وتحت ظل السماء ، فذلك عندى من بشع الوجود . ولعله لأجل هذا السبب راح واحد من مريديك يتساءل ( وهو أبيقور ) متعجباً : « لئن كان الله موجوداً ، فمن أين تأتى كل هذه الشرور ؟ ولئن لم يكن هنالك الله ، فمن أين يأتى كل هذا الخير ؟ »

إنى على يقين من أن نفراً من الآثمين الذين يشتهون سفك دماء الأبرياء ودم السيناتوريين هم الذين دبروا لسقوطى عندما وجدوا فى شخصى عثرة فى طريقهم ؛ أدافع عن الشرفاء وأستميت فى مناصرة مجلس الشيوخ .

ولكن هل كنت أستوجب من أعضاء مجلس الشيوخ ذلكم الصنيع ( من نكران الجميل ) ؟ إنك تذكرين كيف كانت الحكمة ( أنت ) توجه خطاى وأنا أتنقل هنا وهناك لأنطق بحكم أو لأنفذ إجراء ، لقد كانت كل أعمالى تبتغى مرضاة الله فحسب .

وإنك لتذكرين موقفى فى مدينة ڤيرونا ، عندما كان الملك ( ثيودريك ) يدبر الإيقاع بمجلس الشيوخ برمته ، عازماً على أن يلصق بالمجلس نفس الاتهام الذى جرم به ألبينوس ، ولكننى تصديت للملك ودافعت عن براءة ألبينوس ، فعرضت نفسى بهذا لخطر جسيم . إنك تعلمين أن ما أقوله هو الصدق ، وأن نفسى ما اشتهت يوماً تملق الذات أو الغرور . . . وها أنت ترين إلى أى مطاف حطت بى براءتى ، فبدلا من تقدير فضائلى ، ها أنذا أعانى من شرك الأبالسة ومكيدة الأشرار ، وتنكر الصديق . . . ها أنذا الآن فى زنزانتى على مسافة خمسمائة من الأميال ، وحيداً أعزل لاحول لى ولا قوة ، وقد أصدروا الحكم على بالإعدام ، لماذا ؟ لأننى لم أساوم على خير السيناتو ، ولأننى ظننت بأهل البيت خيراً : أيها السيناتو الموقر ، لقد غدرت بنا ، فهل تجد بعد اليوم من يأسى على حالك ، وهل يقف من بين أبنائك من يحمل الشرف الذى أعدم أنا بسببه ؟ إن الاتهام الموجه إلينا مدعاة للفخر ، ولا ينكر هذا الشرف حتى المدعون أنفسهم . غير أنهم لكى يشوهوا الحقائق أضافوا إلينا اتهاماً آخر بقصد تلويث شخصنا ، فادعوا على زوراً بأننى قد دنست ضميرى ( بممارسة السحر ) ، وبأننى كنت أتطلع فى طموح إلى مناصب أرفع ، وبأننى كنت أسعى إلى الترقى .

انى ( يا سيدة الحكمة ) منذ أن تملكت أنت على سياج عقلى قد طلقت من فكرى رغبات هذا العالم الفانى . ولم تعرف روحى موضعاً فى كيانى يعيبه دنس ، لأنك قد رويت دمى وسقيت سمعى وملأت روحى فى كل يوم بقول بيتاغوراس : « هيا اتبع الله » .

وما كان يجول بخاطرى أبداً أن أستعين بالأرواح النجسة لأنك كنت دواماً ترشدين خطاى لأتمثل بصورة الله . إن جنبات بيتى تشع طهارة ونقاوة ، وإن الصحاب الشرفاء وصهرى النقى سياخوس، الرجل الجدير بالوقار ، إن كل هؤلاء على يقين من براءتى من أية ريبة حول ما يلفقونه على من هذا الجرم .

تباً للشر وزبانيته ! إنهم يلصقون اسمك ( الكريم ) بالجريمة المزعومة ، ويظنون أنى لصيق بالسحر لأننى عارف بعلومك . لقد مضوا فى غيهم فألحقوا بى الإهانة وامتهنوا إسمك بالنيل من شخصى . ولكى تتضاعف أحزانى راحت جماهير القوم تردد ما ارتبط بهذا الاتهام الكاذب ضدى من نعوت ، ولم يعبأ واحد منهم بالنظر فى الأمر من حيث صدقه أو تلفيقه وراجت علينا الأضاليل وعددت الدهماء ضدنا كبوات أقاموها على ما أشاعه الحمقى .

وإن الأقاويل والأحاجى التى يرددها الناس بمختلف الروايات لأمر لا أطيق أن أتذكره . إن أشد صنوف القسوة أنه عندما يشاع عن إنسان إتهام معين ، تعتقد عامة الناس أنه مستوجب لما يلقاه من اضطهاد . وها أنذا ، وقد جردت من ثروتى ، وأهين شرفى ، ولوثت سيرتى ، أتلقى العذاب ، جزاء صنيعى الخير . عجيب زماننا الذى يتكاثر فيه الأشرار وتعلوا حناجرهم بالصياح والتهليل ، وينبرى الساقطون فيه لكيل الاتهامات الباطلة ضد الشرفاء . أما أهل الصلاح والخير فقد أمسوا يرقدون فى ظل الخطر . إن أهل الشر أصبحوا فى مأمن الآن ، واثقين بأن أحداً لن يتصدى لشرورهم ، لا ، بل إن الشر صار صنيعاً يجلب على صاحبه الاستحسان والتفوق . لقد فقد الشرفاء الأمان كلية ، وحرموا من حق الدفاع عن أنفسهم ضد ما يشاع عنهم من كيد وأباطيل . . . »

وبعد أن قلت قولى هذا ، إلتفتت ربة الحكمة إلى بوجه بشوش وقالت : « عندما لحتك للوهلة الأولى وأنت تجهش بالبكاء والمرارة ، ظننت أنك تعانى من الوحدة . على أننى ما كنت أدرى ما تنطوى عليه عزلتك هذه لولا أنك أوضحت الأمر كله إلى . أسفى عليك شديد ! إنك مبعد عن أرض الوطن ، ولكنك أنت الذى اخترت ذلك بمحض اختيارك . ولئن كنت تظن أنك قد طردت طرداً ، فهذا تصور خاطئ للموقف ، لأنك أنت وأنت وحدك الذى سلكت سبيلا خاصاً بمحض إرادتك ، لأنه ليس لأحد آخر أن يجبرك على ممارسة إرادتك الحرة التى انتهت بك إلى هذا المطاف . إنك ، كما تعرف ذلك جيداً ، من وطن لا تحكم أموره مثلما كانت تحكم آثينا ( برأى الشعب ) ، وإنما أنت تنتمى إلى دولة يتسلط عليها حاكم ( مستبد ) واحد هو الملك . ويهم مثل هذا الملك بأن يزداد عدد رعاياه لتزداد سطوته قوة . وفى ظل حاكم ( أبد ) كهذا ، فإن ما يسمى بالحرية لا يعدو أن يكون

شيئاً سوى الامتثال للسلطة والخضوع لأمر الحاكم ، فهو القانون . .

ورغم كل هذا فإننى لست أرى فى هذا المكان الذى ترقد فيه الآن من الكآبة والحزن قدر ما أراه محفوراً على جبينك . إننى يوم إن قصدت إلى مكتبتك لم أطلب منك أن تزينها بتحف من العاج أو حوائط من البلور . وعندما أخذت حكمتى مسارها إلى عقلك لم تثقله بالأسفار كأسفار ، إنما عملت على ريه بالعبر والحكم الكامنة فى ضمير تلك الأسفار ، والتى سطرت فيها من قديم السنين

إن ما عددته لنا من فعل الخير للصالح العام لأمر جلى لنا تماماً ، وما عددته قليل من فضائل كثيرة وأخرى قمت بها . إن كل ما ترويه عن أمانتك وإخلاصك وعن الاتهامات الباطلة التى حيكت ضدك ، كلها صارت أموراً معروفة لدى الجميع . كما أنك لست فى إيجاز قصة دعاة الباطل ضدك ، الذين يحدوهم الغرور والتضليل لكسب رأى الدهماء واستحسانها . وإنك قد قرعت السيناتو — وعن حق — فى حدة ومرارة بسبب موقفه منك . وإنك تأسى علينا بسبب ما نسب إلينا من إدعاءات كاذبة ، كما أنك تنعى اختفاء خصالنا الطيبة والمعرفة عن عقول الناس . وفى النهاية فإنك ثائر على الأقدار التى لا تجازى فعل الخير بالخير . وها أنت فى أشعارك المريرة تبتهل إلى رب السماء أن تنعم الأرض بقانون السلام الذى فى ملكوت الأعالى .

على أننى أرى الحزن وقد تملك نفسك ، والعواطف تزدحم على مخيلتك ، والهواجس تملأ وجدانك ، ولذا فإن أنجح الأدوية لن تجدى معك للحين نفعاً . ولذ فإننى سوف أستعين بعلاج مسكن يلين من عواطفك قليلا ؛ بعد أن تصلبت بسبب الاضطراب النفسى . إن هذا المرهم الأملس سوف يخفف من خلجات روحك المضطرمة ، حتى أعد لنفسك العلاج الأكمل . . . .

بادئ ذى بدء ، هلا سمحت لنا بأن نلمس عقلك لنتعرف على ما يعتمل فى داخله ، وذلك بتوجيه بعض الأسئلة إليك ، حتى أتعرف على العلاج الناجع ؟ فرددت عليها قائلا : « هات سؤالك ، وإنى عنه لمجيب » .

قالت : « ترى ، هل هذا العالم يسير وفق الصدفة والعشوائية أم أنه يسترشد فى مساره بالعقل ؟ »

قلت : « إنى مقتنع بأن الصدفة لا تستطيع أن تحرك نظام هذا العالم، وإنى على يقين بأن الله الخالق هو الذى يحكم أمور هذا العالم ، وسأظل على هذا اليقين ما حييت » .

قالت : « وإنه لكذلك كما تقول، وكما تنطق به أشعارك . ولكنك حزين لأن قلوب الناس قد خلت من اسم الله . . ولكننى شديدة الإعجاب بقوة إيمانك الذى لم يتزعزع تحت عبء الأثقال المتراكمة على نفسك . دعنا نمضى إلى أبعد من هذا : أراك تبغى شيئاً معيناً ، لم تفصح لنا تماماً عنه . إن كنت حقاً تؤمن بأن الله هو الذى يحكم هذا العالم ، فهل فى مقدورك أن توضح لنا كيف يتم ذلك ؟ »

قلت : « إننى لا أكاد أفهم سؤالك ، كما أننى عاجز عن إجابة مرضية لهذا السؤال الصعب » .

قالت : « خبرنى ، هل تعلم مآل أمور هذه الدنيا ، ونهاية المطاف عند الطبيعة ؟ »

قلت : « لقد علمت ذلك يوماً ، ولكن الحزن قد أعتم ذاكرتى »

قالت : « ولكنك تعرف عن بداية وأصل هذا العالم »

قلت : « إنى أعلم أنها من عند الله : »

قالت : « إن كنت تعرف البداية ، فلم أنت غافل عن النهاية . . . لعل السبب فى هذا يعود إلى اضطرابك وأحزانك ، فالقلق كفيل بتعتيم فكر الإنسان ، ولكنه لن يقوى على طمسه كلية أو نزعه عن خواصه كعقل . قل لى : هل تؤمن تماماً أنك إنسان ؟ »

قلت : « نعم ، أعرف ذلك تماماً ، وكيف لا ؟ »

قالت : « وما الإنسان ؟ »

قلت : « هل تودين أن تتأكدى من إدراكى بأننى مخلوق عاقل حى مكتوب عليه حق الموت ؟ هذا أمر أعرفه يقيناً : »

قالت : « أو لست أنت شيئاً آخر ؟ »

قلت : « كلا » .

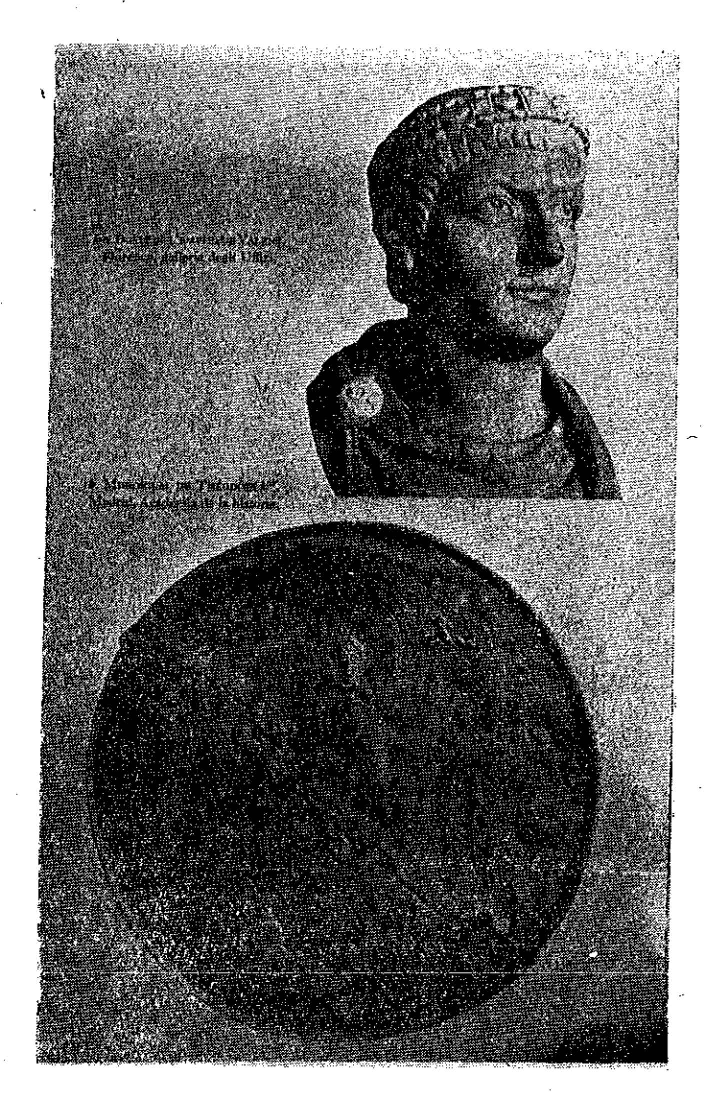
قالت : « لعلى الآن قد لمست علتك : لقد نسيت هويتك كإنسان . . . إن عدم معرفتك لذاتك واضطراب العقل هما سبب البلاء الذى جرته معك ، ومن هنا تطرق الحزن إلى كيانك ، فتحسرت على ثروتك ، وبكيت على نفيك وتجريدك من مالك وعقارك ولأنك تجهل بنهاية المطاف للكل ، فإنك توهمت أن الأوغاد والأشرار هم سعداء هذا العالم .

ولأنك غير بصير بكنه القوة التى تدبر أمور العالم ، فإنك قد توهمت أن تقلبات الحظ وتغيرات السعادة تتم دون تدبير. إن الخلط ليس من الإيمان فى شيء وإنه مدعاة لا لمرضك فحسب ، بل إنه الموت بعينه . . على أنه ، بفضل الطبيب الشافى لكل داء ، وبعون واهب الشفاء، فإن الطبيعة لن تتخلى عنك تماماً . . إن عندنا السر الذى يلبسك ثوب العافية ، ألا وهو صواب العقل وإدراك حقيقة ما وراء أمور العالم والكون كله، وعندما تدرك بالعقل أن هنالك قوة سرمدية لا تعرف العرض ولا التبديل تمسك بزمام العالم ألا وهى الحكمة والعناية الربانية، فعندها لن تخشى شيئاً . فمن تلك الشرارة البسيطة تنبعث حرارة ( الإيمان ) التى تدفئ القلب وكيانك جميعاً . إن طبيعة العقل التى نتوقع منها صواب الرأى وصلاحه قد تتردى فى طريق الخطل ، وذلك عندما تتلبسها دياجير الظلمة ، فيصعب على صاحبها أن يميز بين الأمور بالصواب . أرى أن الوقت لم يحن بعد لأمضى فى مداواتى إلى ماهو أبعد من هذا الحد . على أننى أحاول أولا أن أبدد الغيوم التى تكتنف هذا العقل ، فى هوادة ويسر . وعندما يزول الضباب عن وجدانك وعقلك ، تنقشع الغشاوة، ووقتها يعاين العقل الضوء والحق . . . هو الله . »

* * *

« عندما تغلف السحب نجوم السماء
تخبوا الضياء ويظلم المساء
عندما تهب الريح لتكدر البحار
يجن الموج ويضطرب بالزبد والدوار
وتجف النهر على سفح الجبل
وتتشقق الصخور كأنها فى وجل
إن أنت طلبت عين الحقيقة
إن أنت أردت للعدل طريقة
إن كنت تنشد السعادة
حطم الخوف ، وتسلح بالإرادة
إن سكن الخوف نفوس الرجال
استبد الليل بالروح ، وحكم الضلال . »

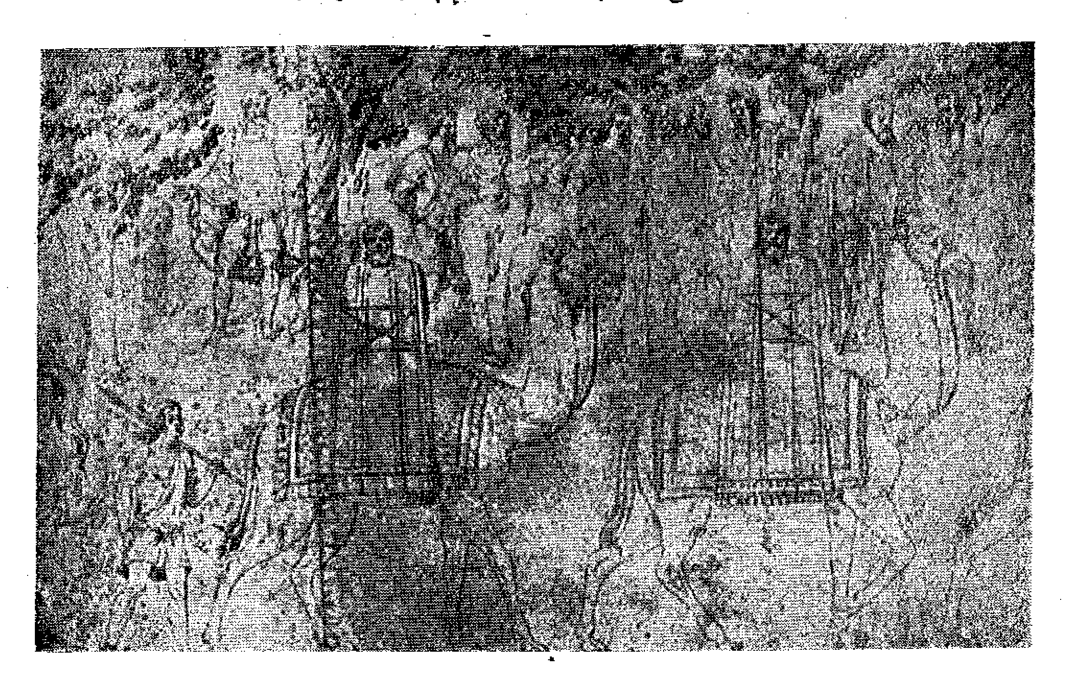
# اللوحات



١ — الإمبراطور ڤالنس — الإمبراطور ثيودوسيوس العظيم



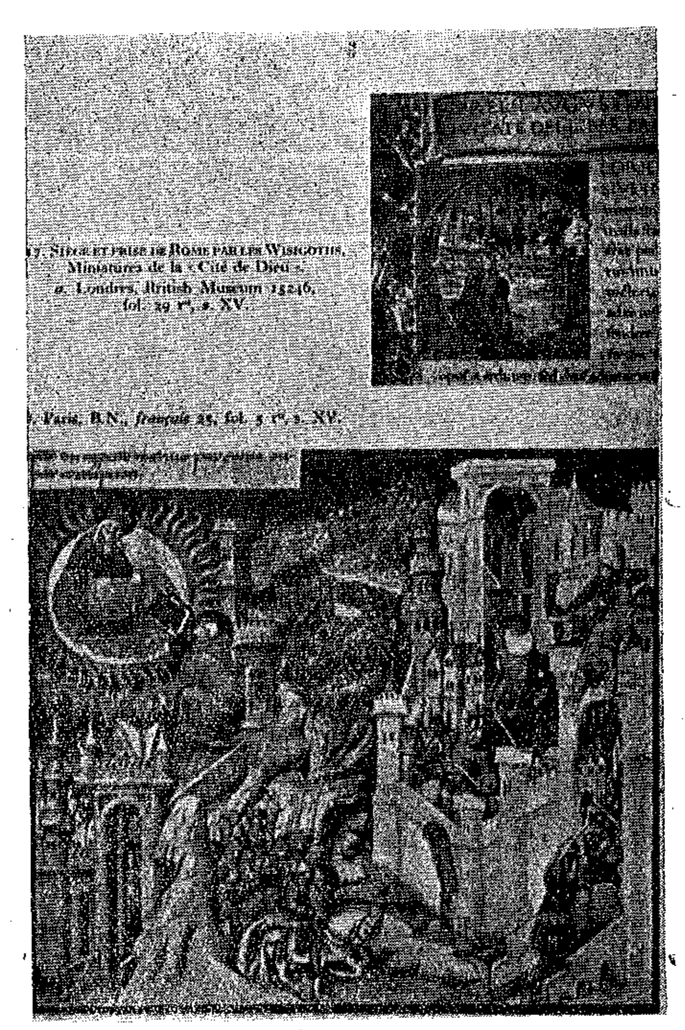
٢ — خضوع زعماء الجرمان للسلطات الإمبراطورية الرومانية



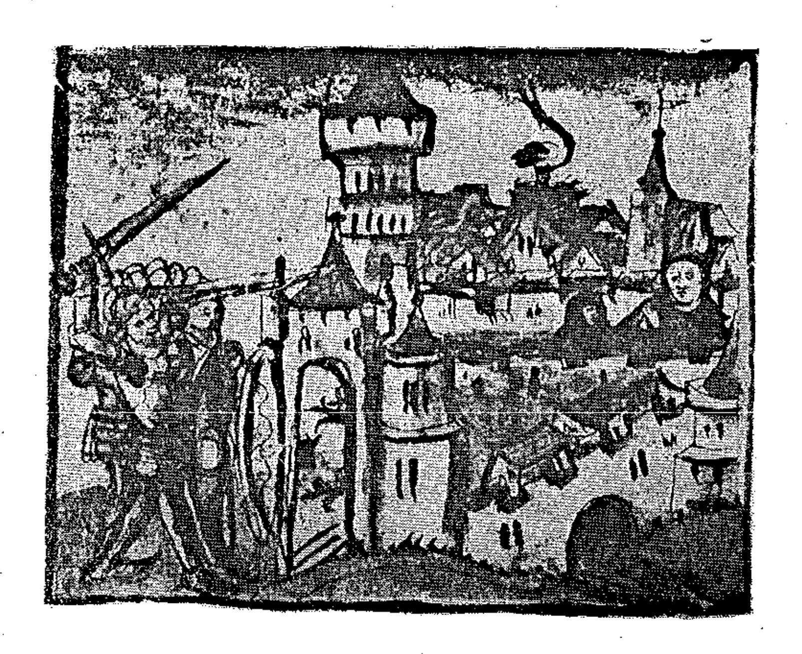
٣ — طرد القوط من حدود الدانوب



٤ – ستيليكون وسيرينا ويوكريوس

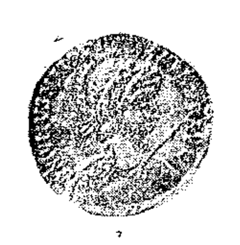



٥ – حصار وسقوط روما – أغسطينوس ومدينة الله

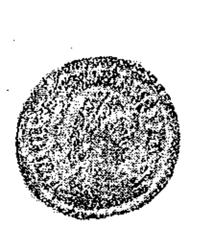




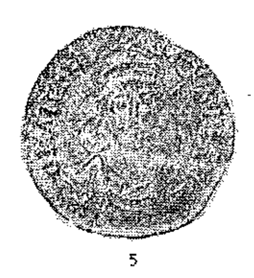
٦ – حصار الوندال لمدينة هيو أثناء احتضار القديس أغسطينوس



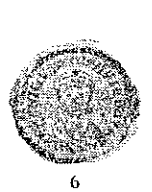
3



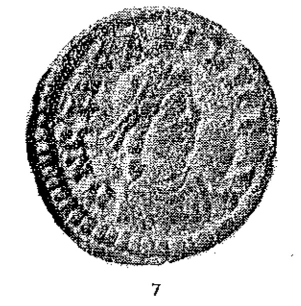
4



5



6



7

٣ - الامبراطور ماجوريان (٤٥٧ - ٤٦١)

٤ - سفيروس الثالث (٤٦١ - ٤٦٥)

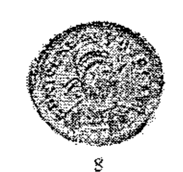
٥ - انثيميوس (٤٦٧ - ٤٧٢)

٦ - أولبريوس (٤٧٢)

٧ - جليكيريوس (٤٧٣ - ٤٧٤)

٨ - نيبوس (٤٧٤ - ٤٧٥)

٩ - روميلوس اغسطيولوس (٤٧٥ - ٤٧٦)



8



9

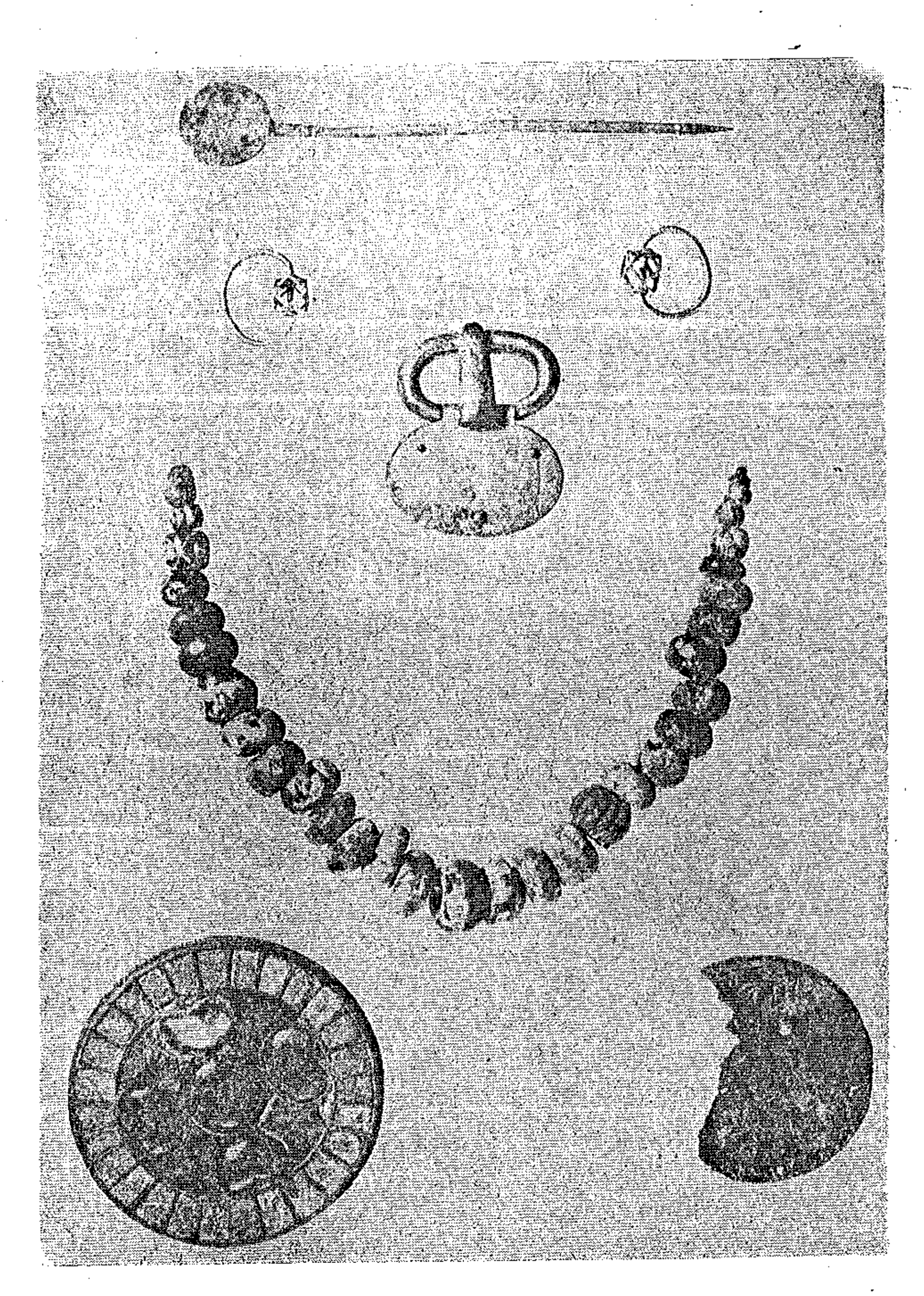
٧ — عملات لبعض الأباطرة والملوك المتبربرين ( القرن الخامس )



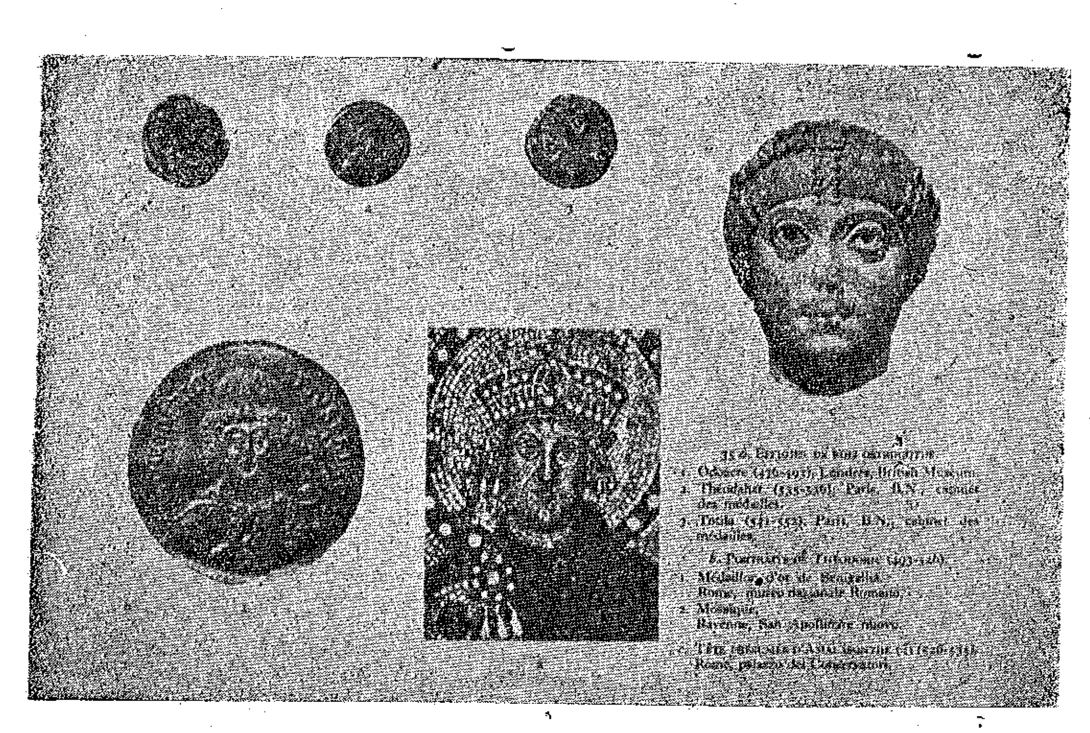
٨ – البابا ليون العظيم يواجه أتيلا الجبار ملك الهون



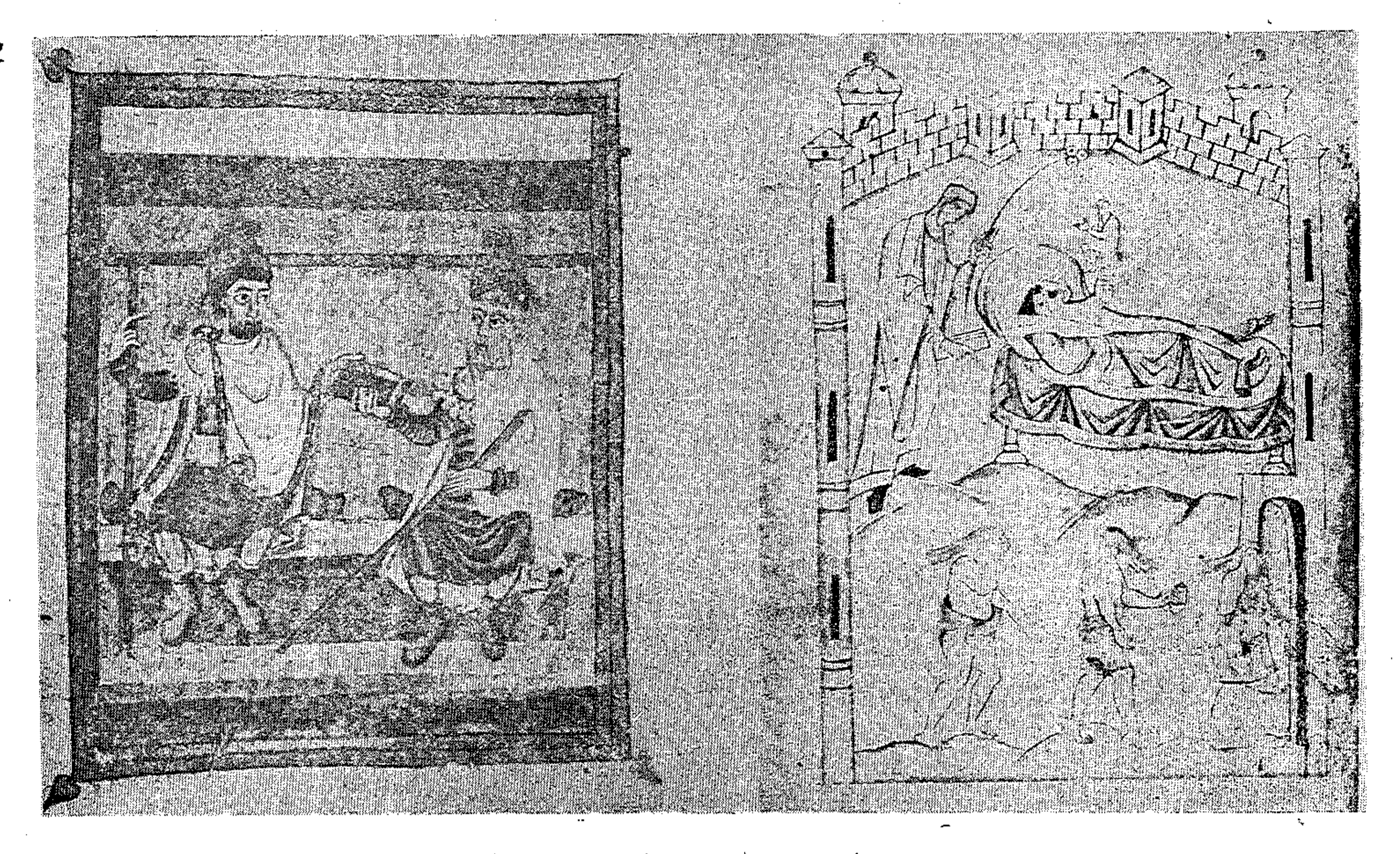

٩ – فسيفساء تحمل أسماء شهداء تونس



١٠ – جواهر من غنائم الوندال

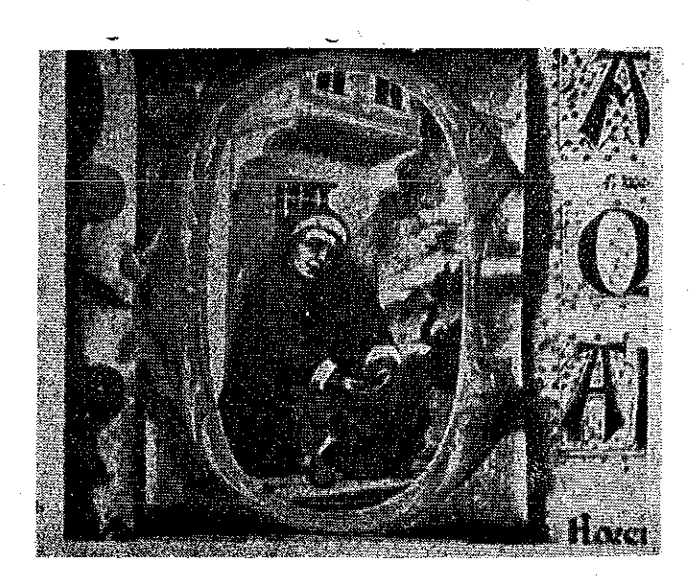



١١ — عملات وصور لبعض ملوك القوط الشرقيين

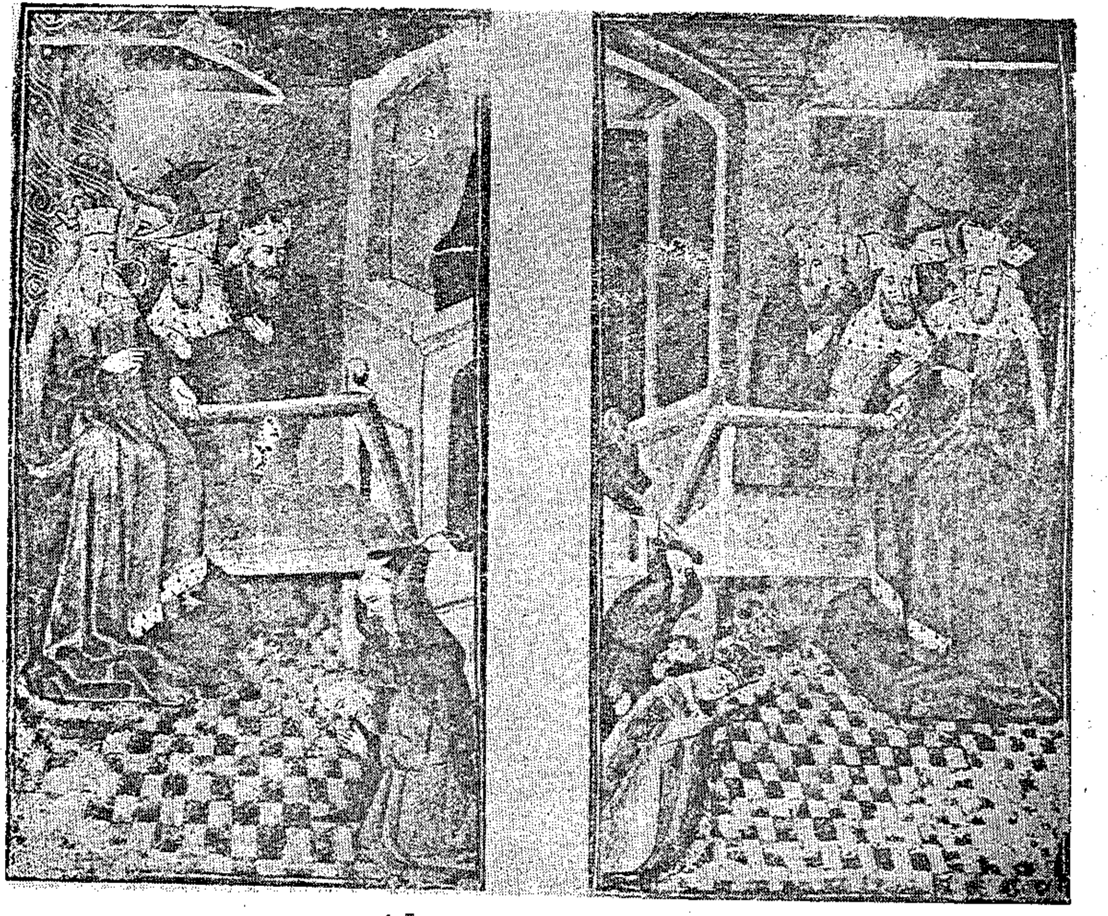


١٢ – بوئيوس وحموه سيماخوس – بوئيوس سجين ثيودريك

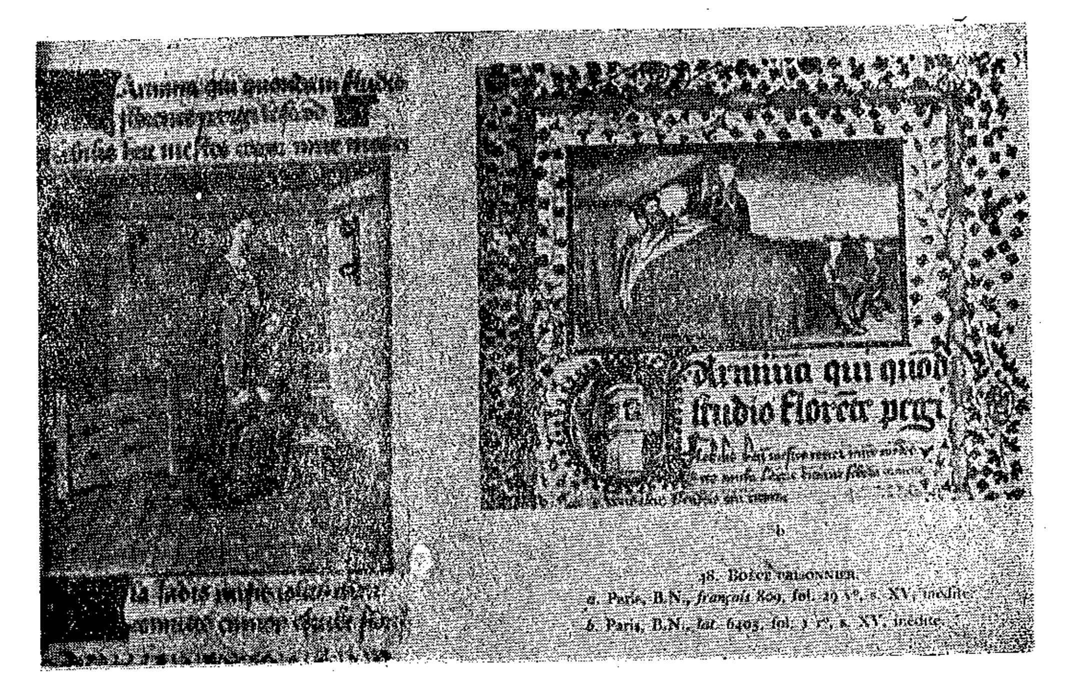




١٣ – بوءثيوس وربة الميوز – بوءثيوس فى زنزانته



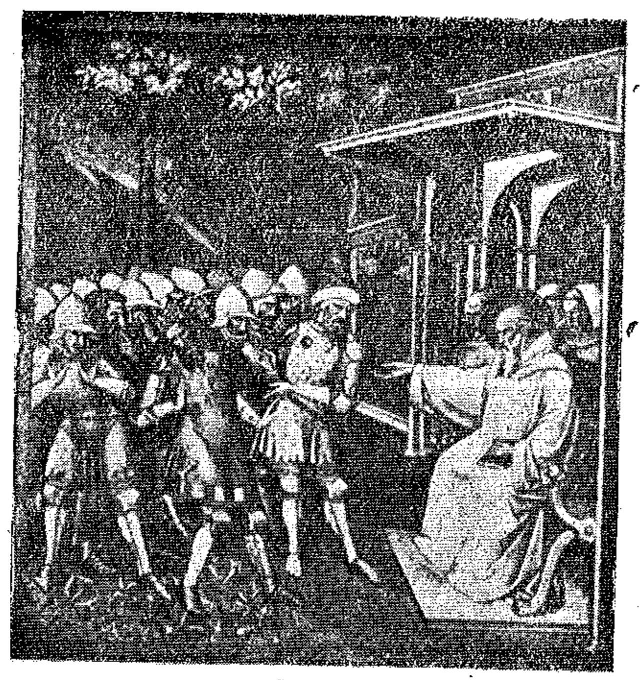
١٤ — محاكمة وإدانة بوئيوس ويوحنا الأول




١٥ — بوئيوس يتعزى بالفلسفة فى انتظار الجلاد



١٦ — توتيلا المزيف أمام سان بنواه



١٧ – توتيلا الحقيقى أمام سان بنواه



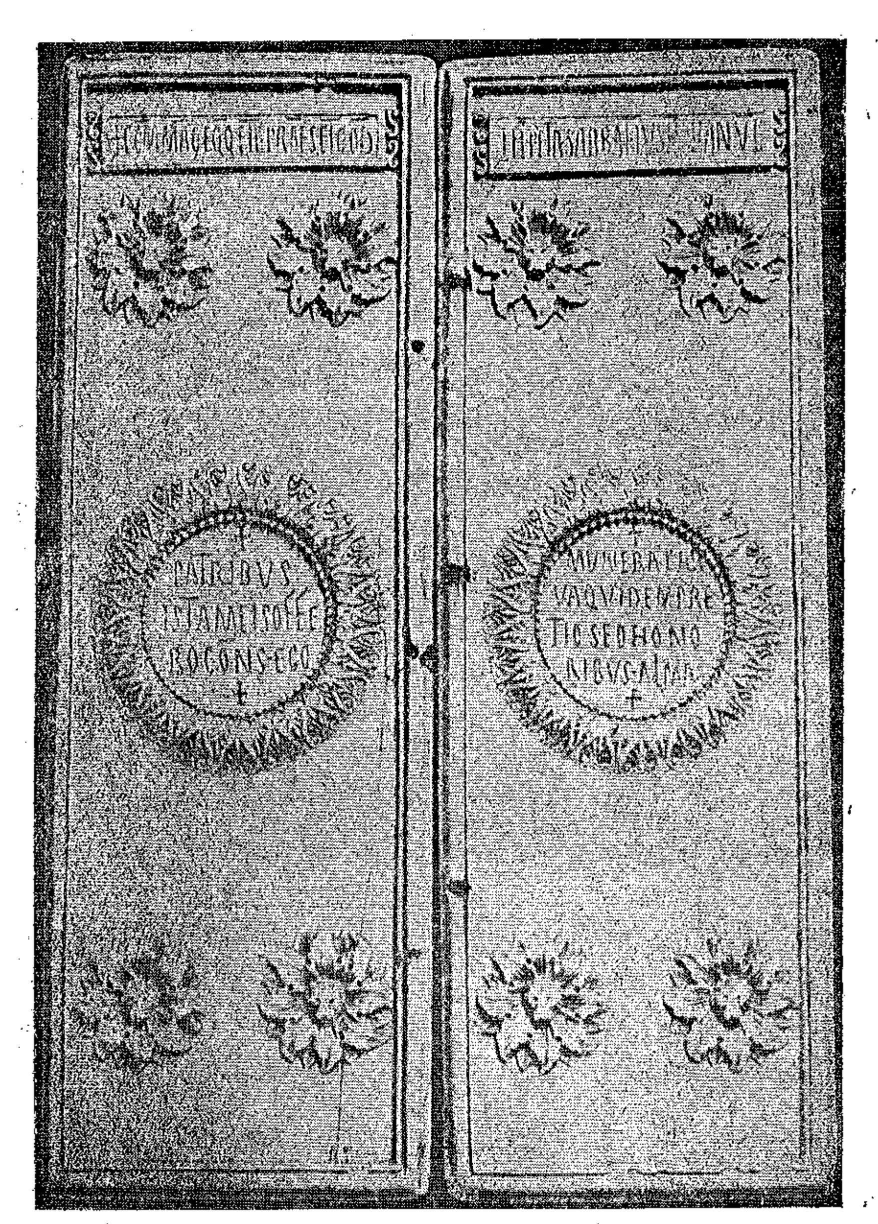
١٨ – عماد كلوفس ملك الفرنجة



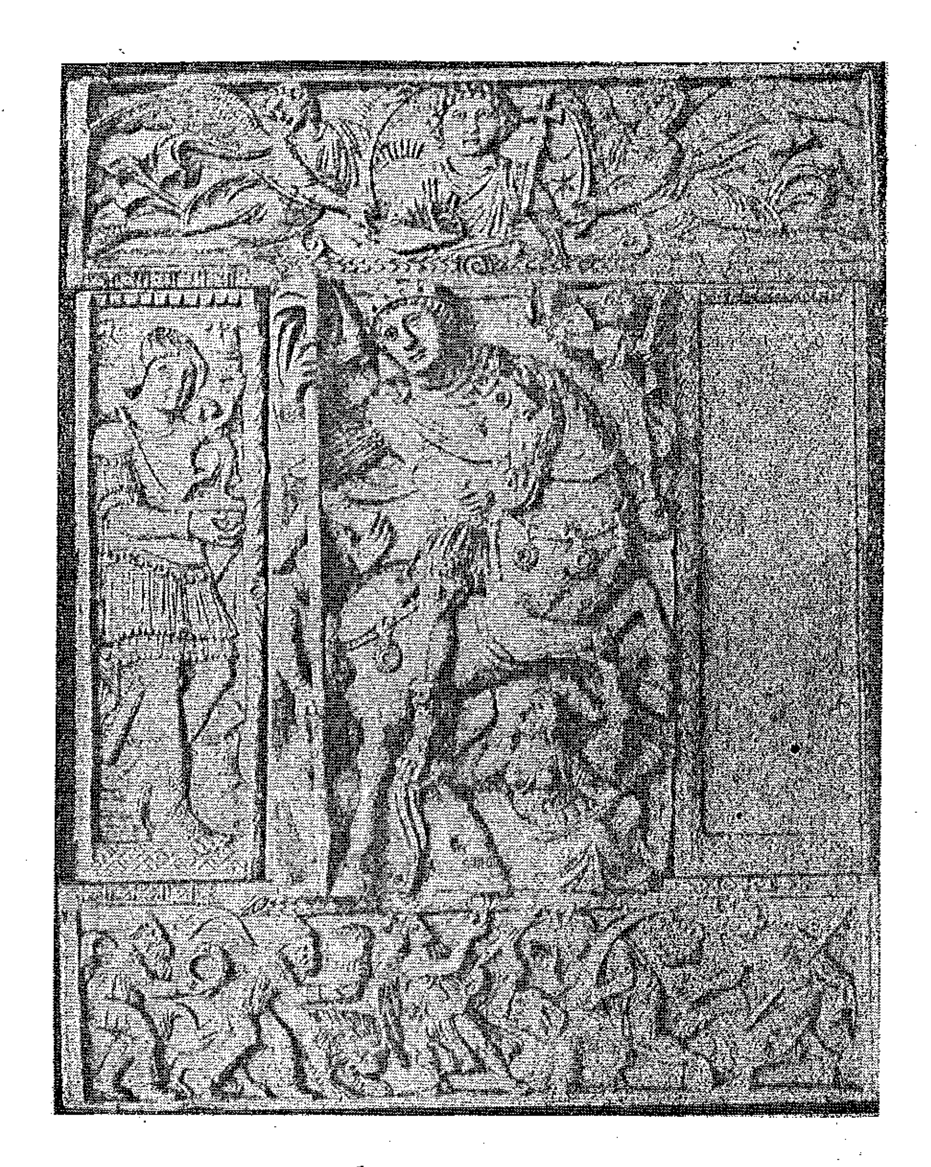
١٨ م — عماد كلوفس ملك الفرنجة



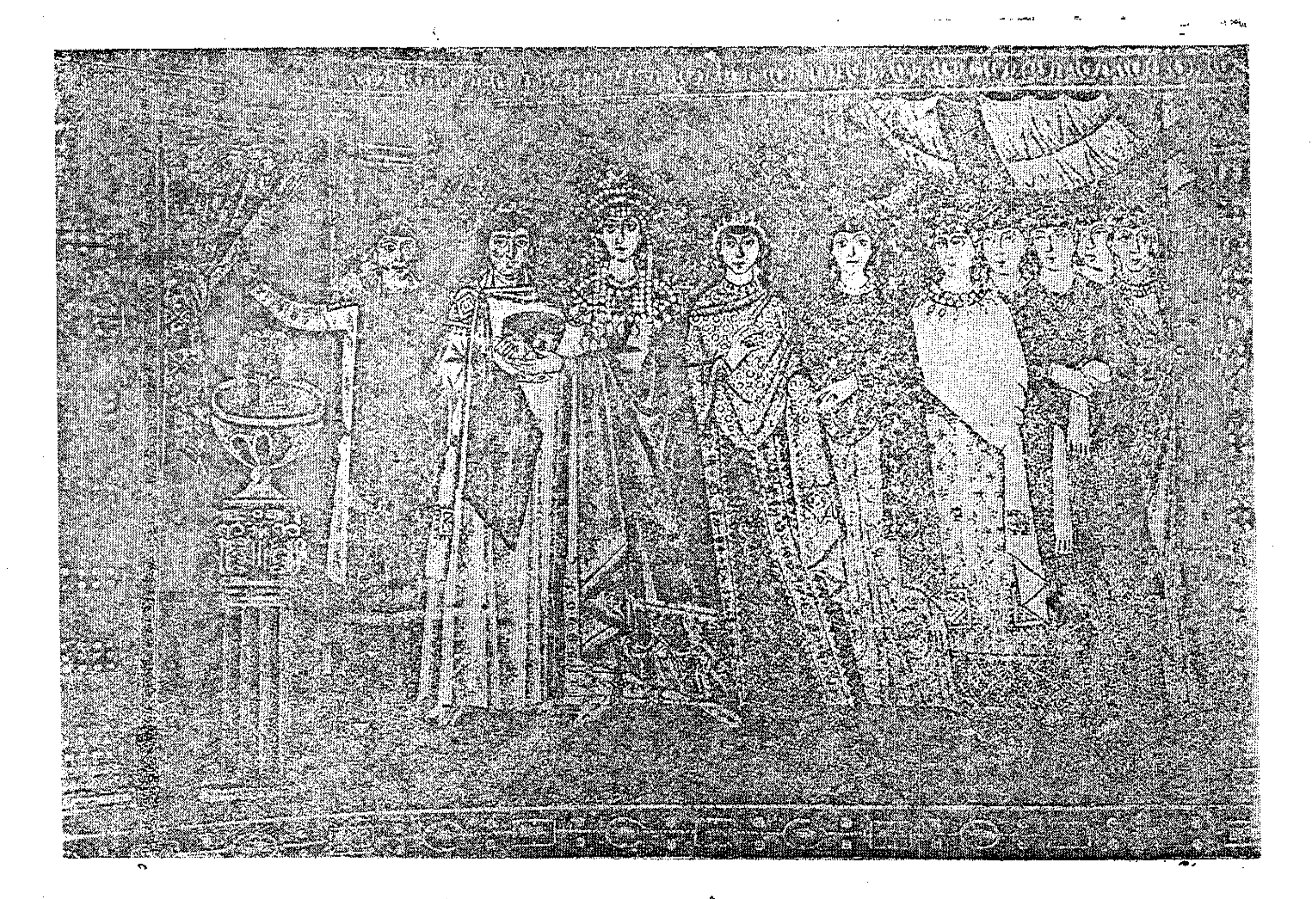
١٩ — أختام ملوك القوط المغربيين والفرنجة واللومبارد



٢٠ – مرسوم تعيين جستنيان للقنصلية



٢١ – جستنيان إمبراطوراً



٢٢ – تيودورة محوطة بأفراد حاشيتها (فسيفساء سان ڤيتال)

## BIBLIOGRAPHY

AMBROSE. De Spiritu Sancto - Ed. Migne, J.P., (Patrologia Latina, Vol. XVI.)
De Officiis. (Ibid., Vol. XVI.)

AMMIANUS MARCELLINUS. Res Gestae. (Loeb Classical Library.) London, 1965.

ANICII MANLII SEVERINI BOETHII. Philosophae Consolationis. (Loeb Classical Library.) London, 1968.

AUGUSTINE. Civitas Dei. (Loeb Classical Library.) London, 1965.

BESNIER - L'Empire Romain de l' Avenement des Severes au Concile de Nicée. Paris, 1937

BOISSIER. G. La Fin du Paganisme. Paris, 1891.

CASSIODORUS. Variae. Ed. Mommsen, T. (Monumenta Germaniae Historica, Auctores Antiquissimi. Vol. XII.) Berlin, 1894.

CESAR. De Bello Gallico. (Loeb Classical Library.) London, 1952.

CLAUDIAN. De Bello Getico. (Loeb Classical Library.) London, 1963.
— De Sexto Consulatu Honorii Augusti. Ibid.

CONSULATIONS ZACCHAEI ET APOLLONI. Ed. Morin, G. (Florilegium Patristicum fasc. 39.) Bonn, 1935.

COPREOLUS - Epistulae. Ed. Mignei, P. (Patrologia Latina. Vol. LIII.)

COURCELLE, P. Histoire Literaire des Invasions Cermaniques. Paris, 1964.

DIEHL. C. Justinien et la Civilization
Byzantine. 2 Vols. N.Y. (Burt Franklin), 1969.

BUCHESNE. L. Liber Pontificalis.
Paris, 1886.

ELIUS ARISTIDE. Discours. Ed. Keil.
Berlin, 1898.

FLODORAD. Histoira Remensis ecclesiae,
(Monumenta Germaniae Historica
Scriptore(. Vol. XII.)

FLORENTIUS. In Laudem Thrasamundi.
Ed. Reise. (Anthologia Latina. Vol. I.)

FULGENTIUS. Ad Thrasamundum.
Ed-Migne, J.P. (Patrologia Latina.
Vol. LXV.)

——— Sermo De Vita vera. Ibid.

——— De Veritate Praedestinationis.
Ibid.

——— Psaume Abecedaire. Ed. Lambot.
C. (Revue Benedictine. Vol. XLVIII.)

GELASIUS. Epistulae. Ed. Guenther.
(C.S.E.L., Vol. XXXV.)

GREGORII TURONENSIS EPISCOPI.
Historia Francorum. Ed. Omont, H.
and Collon, G., Vol. II. Paris, 1913.

——— Opera Omnia. Ed. Migne, J.P. (Patrologia
Latina. Vol. LXXI.).

IDACE. Chronico. (Ed. Monumenta
Germaniae Historica, Auctores
Antiquissimi - Vol. XI.)

ISIDORI HISPALENSIS EPISCOPI.
Chronica Majora. Ed. Migne, J.P.
(Patrologia Latina. Vol. LXXXIII.) Paris, 1850.
Ed. Mommsen, T. (Monumenta Historiae Germanica.
Auctorum Antiquissima. Vol. XI. Chronica Minora. II.)
Berlin, 1894.

——— Opera Omnia. Ed. Migne, J.P.
(Patrologia Latina. Vols. LXXXI-LXXXIV).
Paris, 1850.

JEROME. Lettres. Ed. Labourt. (Les
Belles - Lettres.) Paris, 1952 Seq.
Epistulae et Quaestiones. Ed.
Migne, J.P., (Patrologia Latina. Vols.
XXII - XXIII.)

JOHN OF EPHESUS. Ecclesiastical History. English trans.
Payne-Smith, R. Oxford, 1860. Latin trans. Brooks, E.W. Louvain,
1936.

JORDAIN (JORDANES).
Getica - Ed. Mommsen, T. (Monumenta
Germaniae Historica, Auctores Antiquissimi.
Vol. V.), 1882.

JUSTINIAN. Corpus juris civilis.
Institutiones. Intro. and English/trans. Abdy, J.T.
and Walker, B. Cambridge, 1876. Constitutiones.
Ed. Zacharia von Lingenthal, K.E. Leipzig,
1884 - 91. Edicta. Ed. Zacharia von Lingenthal,
K.E. Leipzig, 1884 - 85. Digest of Justinian.
Trans. Monro. C.H. Cambridge, 1904. Institutiones
und Digesta. Ed. Krueger, P. and Mommsen, T.
Berlin, 1889. Codex. Ed. Krueger, P. Berlin, 1899.
Novellae, Ed. Kroll, G. Berlin, 1 28.

LEO THE GREAT. Epistulae-Ed. Migne, J.
P. (Patrologia Latina, Vol. LIV.)

MALALAS, JOHN. Chronicle. Books 8 - 18. trans.
from Church Slavonic by Spinka, M. and Downey, G.
Chicago, 1940.

MANSI, JOANNES DOMINICUS. (Ed.)
Sacrorum Conciliorum Nova et Amplissima
Collectio. 31 Vols. Florence and Venice, 1758 - 98.

MEROBAUDUS. Panegyric. Ed. Vdlmer.
(Monumenta Germaniae Historica, Auctores
Antiquissimi. Vol. XIV.) Berlin, 1905.

PLINY. Historia Naturala. (Loeb Classical Library.)
London, 1947.

POSSIDIUS. Vita Augustini. Ed. Migne, J.P.
(Patrologia Latina. Vol. XXXII.)

PRISCUS. Excerpta de legationibus Romanorum.
Ed. Bekker. (Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae.)
Bonn, 1829.

PROCOPIUS. Opera Omria - Ed.
Haury, J. (Bibliotheca Scriptorum Craecorum
et Romanorum Tenbneriana.) Munich, 1913.
Vols. I, II, De bellis libri i-viii (1905) i
Vol. III, 1, Historia arcana (1906); Vol. III, 2,
VI, libri De aedificiis (1913). English trans.
Dewing. 7 Vols. London and N.Y., 1914 - 40.

PRUDENTIUS. Contra Symmachum. (Les Belles-Lettres). Paris, 1948.

PPEUDO MAXIME DE TURIN.
Homilia in Reparatione Ecclesiae
Mediolanensis. Ed. Migne, J.P. (Patrologia Latina, Vol. LVII.)

QUODVULTEDUS. De Quarta Feria
Dive De Cultura Agri Dominici Sermo,
Ed. Migne, J.P. (Patrologia Latina, Vol. XL);
Sermo De Tempore Barbarico. Ibid.; Contra Iudaeos,
Paganos et Arianos. Ibid.; Vol. XLII; Tractatus Adversus
Haereses. Ibid.; De Cataclysmo ad Catechumenos, Ibid; Vol. XL-

——— Liber Promissiorum et Praedicatorum-Ed. Braun.

RUTILIUS NAMATIANUS. De Reditu Suo. Ed. Vessereau. Paris, 1933.

SCHMIDT, L. Die Ostgerman. Muenchen, 1934.

SENECA. De Ira. (Loeb Classical Library.) London, 1958.

SIDONIUS APOLLINARIUS. Epistulae. Ed. Lutjohan. Monumenta Germaniae Historica, Auctores Antiquissimi-Vol. VIII.)

TACITUS. Historiarum. (Loeb Classical Library.) London 1956. Germania. Ibid., 1963.

SYNESIUS. Peri Basileias - Ed. Migne, J.P. (Patrologica Graeca. Vol. LXVI.). Ed. Druon, H. Oeuvre de Synesius, Eveque de Ptolemais, dans la Cyrenaique au Commencement du Ve Siècle. Paris, 1878.

THEMISTIUS. Oratio-Ed. Petau. Paris, 1684.

THEODOSIUS II. Theodosiani Libri XVI. Ed. Mommsen, T. and Meyer, P. 3 Vols. Berlin, 1905. In English, The Theodosian Code by Plarr, C. Princeton, 1952.

VICTOR DE VITA - Histoira Persecutionis Africanae Provinciae. Ed. Betschenig, M.

VITA SANCTAE GENOVEFAE. Ed. Krusch. (Monumenta Germaniae Historiae Scriptores; Rerum Merovingicarum. Vol. III.)

# APPENDIX

[ Read from left to right ]

esse naturam, ut quotiens abiecerint ueras falsis opinionibus induantur ex quibus orta perturbationum caligo uerum illum confundit intuitum, hanc paulisper lenibus mediocribusque fomentis attenuare temptabo, ut dimotis fallacium affectionum tenebris spledorem uerae lucis possis agnoscere.

## VII

Nubibus atris
Condita nullum
Fundere possunt
Sidera lumen.
Si mare uoluens
Turbidus Auster
Misceat aestum,
Vitrea dudum
Parque serenis
Vnda diebus
Mox resoluto
Sordida caeno
Visibus obstat.
Quique uagatur
Montibus altis
Defluus amnis,
Saepe resistit
Rupe soluti
Obice saxi.
Tu quoque si uis
Lumine claro
Cernere uerum,
Tramite recto
Carpere callem,
Gaudia pelle,
Pelle timorem
Spemque fugato
Nec dolor adsit.
Nubila mens est
Vinctaque frenis,
Haec ubi regnant."

Primum igitur paterisne me pauculis rogationibus statum tuae mentis attingere atque temptare, ut qui modus sit tuae curationis intellegam ?" "Tu uero arbitratu", inquam," "tuo quae uoles ut responsurum rogato". Tum illa: "Huncine," inquit, "mundum temerariis agi fortuitisque casibus putas, an ullum credis ei regimen inesse rationis? "Atqui," inquam, "nullo existimauerim modo ut fortuita temeritate tam certa moueantur, uerum operi suo conditorem praesidere deum scio nec umquam fuerit dies qui me ab hac sententiae ueritate depellat."

"Ita est," inquit. "Nam id etiam paulo ante cecinisti, hominesque tantum diuinae exortes curae esse deplorasti. Nam de ceteris quin ratione regerentur, nihil mouebare. Papae autem ! Vehementer admiror cur in tam salubri sententia locatus aegrotes. Verum altius perscrutemur; nescio quid abesse coniecto.

Sed dic mihi, quoniam deo mundum regi non ambigis, quibus etiam gubernaculis regatur aduertis ?" "Vix", inquam, "rogationis tuae sententiam nosco, nedum ad inquisita respondere queam." "Num me", inquit, "fefellit abesse aliquid, per quod, uelut hiante ualli robore, in animum tuum perturbationum morbus inrepserit ? Sed dic mihi, meministine, quis sit rerum finis, quoue totius naturae tendat intentio?" "Audieram," inquam, "sed memoriam maeror hebetauit. "Atqui scis unde cuncta processerint ?" "Noui," inquam, deumque esse respondi. "Et qui fieri potest, ut principio cognito quis sit rerum finis ignores ? Verum hi perturbationum mores, ea ualentia est, ut mouere quidem loco hominem possint, conuellere autem sibique totum exstirpare non possint.

Sed hoc quoque respondeas uelim, hominemne te esse meministi?" "Quidni," inquam, "meminerim ?" "Quid igitur homo sit, poterisne proferre?" "Hocine interrogas an esse me sciam rationale animal atque mortale ? Scio et id me esse confiteor." Et illa : "Nihilne aliud te esse nouisti ?" "Nihil."

"Iam scio," inquit, "morbi tui aliam uel maximam causam; quid ipse sis, nosse desisti. Quare plenissime uel aegritudinis tuae rationem uel aditum reconciliandae sospitatis inueni. Nam quoniam tui obliuione confunderis, et exsulem te et exspoliatum propriis bonis esse doluisti. Quoniam uero quis sit rerum finis ignoras, nequam homines atque nefarios potentes felicesque arbitraris. Quoniam uero quibus gubernaculis mundus regatur oblitus es, has fortunarum uices aestimas sine rectore fluitare—magnae non ad morbum modo uerum ad interitum quoque causae. Sed sospitatis auctori grates, quod te nondum totum natura destituit. Habemus maximum tuae fomitem salutis ueram de mundi gubernatione sententiam, quod eam non casuum temeritati sed diuinae rationi subditam credis. Nihil igitur pertimescas; iam tibi ex hac minima scintillula uitalis calor inluxerit. Sed quoniam firmioribus remediis nondum tempus est et eam mentium constat

mereri. Itaque non tam me loci huius quam tua facies mouet nec bibliothecae potius comptos ebore ac uitro parietes quam tuae mentis sedem requiro, in qua non libros sed id quod libris pretium facit, librorum quondam meorum sententias, collocaui. Et tu quidem de tuis in commune bonum meritis uera quidem, sed pro multitudine gestorum tibi pauca dixisti. De obiectorum tibi uel honestate uel falsitate cunctis nota memorasti. De sceleribus fraudibusque delatorum recte tu quidem strictim attingendum putasti, quod ea melius uberiusque recognoscentis omnia uulgi ore celebrentur. Increpuisti etiam uehementer iniusti factum senatus. De nostra etiam criminatione doluisti, laesae quoque opinionis damna fleuisti. Postremus aduersum fortunam dolor incanduit conquestusque non aequa meritis praemia pensari. In extremo Musae saeuientis, uti quae caelum terras quoque pax regeret, uota posuisti. Sed quoniam plurimus tibi affectum tumultus incubuit diuersumque te dolor, ira, maeror distrahunt, uti nunc mentis es, nondum te ualidiora remedia contingunt. Itaque lenioribus paulisper utemur, ut quae in tumorem perturbationibus influentibus induruerunt, ad acrioris uim medicaminis recipiendum tactu blandiore mollescant.

## VI

Cum Phoebi radiis graue
Cancri sidus inaestuat,
Tum qui larga negantibus
Sulcis semina credidit,
Elusus Cereris fide
Quernas pergat ad arbores.
Numquam purpureum nemus
Lecturus uiolas petas
Cum saeuis aquilonibus
Stridens campus inhorruit,
Nec quaeras auida manu
Vernos stringere palmites,
Vuis si libeat frui;
Autumno potius sua
Bacchus munera contulit.
Signat tempora propriis
Aptans officiis deus
Nec quas ipse coercuit
Misceri patitur uices.
Sic quod praecipiti uia
Certum deserit ordinem
Laetos non habet exitus.

polluisse mentiti sunt. Atqui et tu insita nobis omnem rerum mortalium cupidinem de nostri animi sede pellebas et sub tuis oculis sacrilegio locum esse fas non erat. Instillabas enim auribus cogitationibusqe cotidie meis Pythagoricum illud. Nec conueniebat uilissimorum me spirituum praesidia captare quem tu in hanc excellentiam componebas ut consimilem deo faceres. Praeterea penetral innocens domus, honestissimorum coetus amicorum, socer etiam sanctus et aeque ac tu ipsa reuerendus ab omni nos huius criminis suspitione defendunt. Sed, o nefas, illi uero de te tanti criminis fidem capiunt atque hoc ipso uidebimur affines fuisse maleficio, quod tuis inbuti disciplinis, tuis instituti moribus sumus. Ita non est satis nihil mihi tuam profuisse reuerentiam, nisi ultro tu mea potius offensione lacereris. At uero hic etiam nostris malis cumulus accedit, quod existimatio plurimorum non rerum merita sed fortunae spectat euentum eaque tantum iudicat esse prouisa quae felicitas commendauerit. Quo fit ut existimatio bona prima omnium deserat infelices. Qui nunc populi rumores, quam dissonae multiplicesque sententiae, piget reminisci. Hoc tantum dixerim ultimam esse aduersae fortunae sarcinam, quod dum miseris aliqued crimen affingitur, quae perferunt meruisse creduntur. Et ego quidem bonis omnibus pulsus, dignitatibus exutus, existimatione foedatus ob beneficium supplicium tuli.

Videre autem uideor nefarias sceleratorum officinas gaudio laetitiaque fluitantes, perditissimum quemque nouis delationum fraudibus imminetem, iacere bonos nostri discriminis terrore prostratos, flagitiosum quemque ad auendum quidem facinus impunitate, ad efficiendum uero praemiis incitari, insontes autem non modo securitate, uerum ipsa etiam defensione priuatos. Itaque libet exclamare :.............

V

Haec ubi continuato dolore delatraui, illa uultu placido nihilque meis questibus mota : "Cum te," inquit, "maestum lacrimantemque uidissem, ilico miserum exsulemque cognoui. Sed quam id longinquum esset exilium, nisi tua prodidisset oratio, nesciebam. Sed tu quam procul a patria non quidem pulsus es sed aberrasti; ac si te pulsum existimari mauis, te potius ipse pepulisti. Nam id quidem de te numquam cuiquam fas fuisset. Si enim cuius oriundo sis patriae reminiscare, non uti Atheniensium quondam multitudinis imperio regitur, sed qui freqeuntia ciuium non depulsione laetetur; cuius agi frenis atque obtemperare iustitiae summa libertas est. An ignoras illam tuae ciuitatis antiquissimam legem, qua sanctum est ei ius exulare non esse quisquis in ea sedem fundare maluerit ? Nam qui uallo eius ac munimine continetur, nullus metus est ne exul esse mereatur. At quisquis eam inhabitare uelle desierit, pariter desinit etiam

opera cessauit. An optasse illius ordinis salutem nefas uocabo ? Ille quidem suis de me decretis, uti hoc nefas esset, effecerat. Sed sibi semper menti ens inprudentia rerum merita non potest inmutare nec mihi Socratico decreto fas esse arbitror uel occuluisse ueritatem uel concessisse mendacium. Verum id quoquo modo sit, tuo sapientiumque iudicio aestimandum relinquo. Cuius rei seriem atque ueritatem, ne latere posteros queat, stilo etiam memoriaeque mandaui.

Nam de compositis falso litteris quibus libertatem arguor sperasse Romanam quid attinet dicere ? Quarum fraus aperta patuisset, si nobis ipsorum confessione delatorum, quod in omnibus negotiis maximas uires habet, uti licuisset. Nam quae sperari reliqua libertas potest ? Atque utinam posset ulla ! Respondissem Canii uerbo, qui cum a Gaio Caesare Germanici filio conscius contra se factae coniurationis fuisse diceretur : 'Si ego,' inquit, 'scissem, tu nescisses.' Qua in re non ita sensus nostros maeror hebetauit ut impios scelerata contra uirtutem querar molitos, sed quae sperauerint effecisse uehementer admiror. Nam deteriora uelle nostri fuerit fortasse defectus, posse contra innocentiam, quae sceleratus quisque conceperit inspectante deo, monstri simile est. Vnde haud iniuria tuorum quidam familiarium quaesiuit : 'Si quidem deus,' inquit, 'est, unde mala ? Bona uero unde, si non est ?' Sed fas fuerit nefarios homines qui bonorum omnium totiusque senatus sanguinem petunt, nos etiam quos propugnare bonis senatuique uiderant, perditum ire uoluisse. Sed num idem de patribus quoque merebamur ? Meministi, ut opinor, quoniam me dicturum quid facturumque praesens semper ipsa dirigebas, meministi, inquam, Veronae cum rex auidus exitii communis maiestatis crimen in Albinum delatae ad cunctum senatus ordinem transferre moliretur, uniuersi innocentiam senatus quanta mei periculi securitate defenderim. Scis me haec et uera proferre et in nulla umquam mei laude iactasse. Minuit enim quodam modo se probantis conscientiae secretum, quotiens ostentando quis factum recipit famae pretium. Sed innocentiam nostram quis exceperit euentus uides; pro uerae uirtutis praemiis falsi sceleris poenas subimus. Et cuius umquam facinoris manifesta confessio ita iudices habuit in seueritate concordes ut non aliquos uel ipse ingenii error humani uel fortunae condicio cunctis mortalibus incerta submitteret ? Si inflammare sacras aedes uoluisse, si sacerdotes impio iugulare gladio, si bonis omnibus necem struxisse diceremur, praesentem tamen sententia, confessum tamen conuictumue punisset. Nunc quingentis fere passuum milibus procul muti atque indefensi ob studium propensius in senatum morti proscriptionique damnamur. O meritos de simili crimine neminem posse conuinci !

Cuius dignitatem reatus ipsi etiam qui detulere uiderunt, quam uti alicuius sceleris admixtione fuscarent, ob ambitum dignitatis sacrilegio me conscientiam

dae rei publicae necessariam causam esse monuisti, ne improbis flagitiosisque ciuibus urbium relicta gubernacula a pestem bonis ac perniciem ferrent.

Hanc igitur auctoritatem secutus quod a te inter secreta otia didiceram transferre in actum publicae administrationis optaui. Tu mihi et qui te sapientium mentibus inseruit deus conscii nullum me ad magistratum nisi commune bonorum omnium studium detulisse. Inde cum inprobis graues inexorabilesque discordiae et quod conscientiae libertas habet, pro tuendo iure spreta potentiorum semper offensio.

Quotiens ego Conigastum in inbecilli cuiusque fortunas impetum facientem obuius excepi, quotiens Triguillam regiae praepositum domus ab incepta, perpetrata iam prorsus iniuria deieci, quotiens miseros quos infinitis calumniis inpunita barbarorum semper auaritia uexabat, obiecta periculis auctoritate protexi! Numquam me ab iure ad iniuriam quisquam detraxit. Prouincialium fortunas tum priuatis rapinis tum publicis uectigalibus pessumdari non aliter quam qui patiebantur indolui.

Cum acerbae famis tempore grauis atque inexplicabilis indicta coemptio profligatura inopia Campaniam prouinciam uideretur, certamen aduersum praefectum praetorii communis commodi ratione suscepi, rege cognoscente contendi et ne coemptio exigeretur, euici. Paulinum consularem uirum cuius opes Palatinae canes iam spe atque ambitione deuorassent, ab ipsis hiantium faucibus traxi. Ne Albinum consularem uirum praeiudicatae accusationis poena corriperet, odiis me Cypriani delatoris opposui. Satisne in me magnas uideor exaceruasse discordias ? Sed esse apud ceteros tutior debui qui mihi amore iustitiae nihil apud aulicos quo magis essem tutior reseruaui. Quibus autem deferentibus perculsi sumus ? Quorum Basilius olim regio ministerio depulsus in delationem nostri nominis alieni aeris necessitate compulsus est. Opilionem uero atque Gaudentium cum ob innumeras multiplicesque fraudes ire in exilium regia censura decreuisset cumque illi parere nolentes sacrarum sese aedium defensione tuerentur compertumque id regi foret, edixit : uti ni intra praescriptum diem Rauenna urbe decederent, notas insigniti frontibus pellerentur. Quid huic seueritati posse astrui uidetur ? Atqui in eo die deferentibus eisdem nominis nostri delatio suscepta est. Quid igitur ? Nostraene artes ita meruerunt ? An illos accusatores iustos fecit praemissa damnatio ? Itane nihil fortunam puduit si minus accusatae innocentiae, at accusantium uilitatis ? At cuius criminis arguimur summam quaeris ? Senatum dicimur saluum esse uoluisse. Modum desideras ?

Delatorem ne documenta deferret quibus senatum maiestatis reum faceret impedisse criminamur.

Quid igitur o magistra censes ? Infitiabimur crimen, ne tibi pudor simus ? At uolui nec umquam uelle desistam. Fatebimur ? Sed impediendi delatoris

uictoriam mortisme adstante promeruit ? Cuius hereditatem cum deinceps Epicureum uulgus ac Stoicum ceterique pro sua quisque parte raptum ire molirentur meque reclamantem renitentemque uelut in partem praedae traherent, uestem quam meis texueram manibus, disciderunt abreptisque ab ea panniculis totam me sibi cessisse credentes abiere. In quibus qoniam qaedam nostri habitus uestigia uidebantur, meos esse familiares inprudentia rata nonnullos eorum profanae multitudinis errore peruertit.

Quod si nec Anaxagorae fugam nec Socratis uenenum nec Zenonis tormenta quoniam sunt peregrina nouisti, at Canios, at Senecas, at Soranos quorum nec peruetusta nec incelebris memoria est, scire potuisti. Quos nihil aliud in cladem detraxit nisi qued nostris moribus instituti studiis improborum dissimil imi uidebantur. Itaque nihil est quod admirere, si in hoc uitae salo circumflantibus agitemur procellis, quibus hoc maxime propositum est pessimis displicere. Quorum quidem tametsi est numerosus exercitus, spernendus tamen est, quoniam nullo duce regitur, sed errore tantum temere ac passim lymphante raptatur. Qui si quando contra nos aciem struens ualentiror icubuerit, nostra quidem dux copias suas in arcem contrahit, illi uero circa diripiendas inutiles sarcinulas occupantur. At nos desuper inridemus uilissima rerum quaeque rapientes securi totius furiosi tumultus eoque uallo muniti quo grassanti stultitiae adspirare fas non sit.............

## IV

Sentisne, "Inquit", haec atque animo inlabuntur tuo, an onos luras ? Quid fles, quid lacrimis manas ?

Si operam medicantis exspectas, oportet uulnus detegas."

Tum ego collecto in uires animo : "Anne adhuc eget admonitione nec per se saits eminet fortunae in nos saeuientis asperitas ? Nihilne te ipsa loci facies mouet ? Haecine est bibliotheca, quam certissimam tibi sedem nostris in laribus ipsa delegeras ? In qua mecum saepe residens de humanarum diuinarumque rerum scientia disserebas ? Talis habitus talisque uultus erat, cum tecum naturae secreta rimarer, cum mihi siderum uias radio describeres, cum mores nostros totiuspue uitae rationem ad caelestis ordinis exempla formares? Haecine praemia referimus tibi obsequentes ? Atqui tu hanc sententiam Platonis ore sanxisti : beatas fore res publicas, si eas uel studiosi sapientiae regerent uel earum rectores studere sapientiae contigisset. Tu eiusdem uiri ore hanc sapientibus capessen-

Agncscisne me ? Quid taces ? Pudore an stupore siluisti ? Mallem pudore, sed te, ut uideo, stupor oppressit. "Cumque me non modo tacitum sed elinguem prorsus mutumqe uidisset, admouit pectori meo leniter manum et : "Nihil", inquit, "pericli est; lethargu patitur communem inlusarum mentium morbum. Sui paulisper oblitus est; recordabitur facile, si quidem nos ante cognouerit. Quod ut possit, paulisper lumina eius mortalium rerum nube caligantia tergamus." Haec dixit oculosque meos fletibus undantes contracta in rugam ueste siccauit.

III

Tunc me discussa liquerunt nocte tenebrae
    Luminibusque prior rediit uigor,
Vt cum praecipiti glomerantur sidera coro
    Nimbosisque polus stetit imbribus,
Sol latet ac nondum caelo uenientibus astris,
    Desuper in terram nox funditur;
Hanc si Threicio Boreas emissus ab antro
    Verberet et clausam reseret diem,
Emicat ac subito uibratus lumine Phoebus
    Mirktes oculos radiis ferit.

Haud aliter tristitiae nebulis dissolutis hausi caelum et ad cognoscendam medicantis faciem mentem recepi. Itaque ubi in eam deduxi oculos intuitumque defixi, respicio nutricem meam cuius ab adulescentia laribus obuersatus fueam Philosophiam. "Et quid", inquam, "tu in has exilii nostri solitudines o omnium magistra uirtutum supero cardine delapsa uenisti ? An ut tu quoque mecum rea falsis criminationibus agiteris ?

"An," inquit illa "te alumne desererem nec sarcinam quam mei nominis inuidia sustulisti, communicato tecum labore partiter? Atqui Philosophiae fast non erat imcomitatum relinquere iter innocentis; meam scilicet criminationem uererer et quasi nouum aliquid acciderit, perhorrescerem? Nucn enim primum censes apud inprobos mores lacessitam periculis esse sapientiam ? Nonne apud ueteres quoque ante nostri Platonis aetatem magnum saepe certamen cum stultitiae temeritate certauimus eodemque superstite praeceptor eius Socrates iniustae

uultus, oculis ardentibus et ultra communem hominum ualentiam perspicacibus colore uiuido atque inexhausti uigoris, quamuis ita aeui plena foret ut nullo modo nostrae crederetur aetatis, statura discretionis ambiguae. Nam nunc quidem ad communem sese hominum mensuram cohibebat, nunc uero pulsare caelum summi uerticis cacumine uidebatur; quae cum altius caput extulisset, ipsum etiam caelum penetrabat respicientiumque hominum frustrabatur intuitum. Vestes erant tenuissimis filis subtili artificio, indissolubili materia perfectae quas, uti post eadem prodente cognoui, suis manibus ipsa texuerat. Quarum speciem, ueluti fumosas imagines solet, caligo quaedam neglectae uetustatis obduxerat. Harum in extrema margine. II. Greaecum, in supremo uero, legebatur intextum. Atque inte utrasque litteras in scalarum modum gradus qidam insigniti uidebantur quibus ab inferiore ad superius elementum esset ascensus. Eandem tamen uestem uiolentorum quorundam sciderant manus et particulas quas quisque potuit abstulerant. Et dextera quidem eius libellos, sceptrum uero sinistra gestabat.

Quae ubi poeticas Musas uidit nostro adsistentes toro fletibusque meis uerba dictantes, commota paulisper ac toruis inflammata luminibus: "Quis," inquit, "has scenicas meretriculas ad hunc aegrum permisit accedere quae dolores eius non modo nullis remediis fouerent, uerum dulcibus insuper alerent uenenis? Hae sunt enim quae infructuosis affectuum spinis uberem fructibus rationis segetem necant hominumque mentes assuefaciunt morbo, non liberant. At si qem profanum, uti uulgo solitum uobis, blanditiae uestrae detraherent, minus moleste ferendum putarem; nihil quippe in eo nostrae operae laederentur. Hunc uero Eleaticis atque Academicis studiis innutritum ? Sed abite potius Sirenes usque in exitium dulces meisque eum Musis curandum sanandumque relinquite."

His ille chorus increpitus deiecit humi maestior uultum confessusque rubore uerecundiam limen tristis excessit. At ego cuius acies lacrimis mersa caligaret nec dinoscere possem, quaenam haec esset mulier tam imperiosae auctoritatis, obstipui uisuque in terram defixo quidnam deinceps esset actura, exspectare tacitus coepi. Tum illa propius acedens in extrema lectuli mei parte consedit meumque intuens uultum luctu grauem atque in humum maerore deiectum his uersibus de nostrae mentis perturbatione conquesta est. ..............

## II

Sed medicinae," inquit, "tempus est quam querelae." Tum uero totis in me intenta luminibus, : "Tune ille es," ait, "qui nostro quondam lacte.... nutritus nostris educatus alimentis in uirilis animi robur euaseras? Atqui talia contuleramus arma quae nisi prior abiecisses, inuicta te firmitate tuerentur.

## ANICII MANLII SEVERINI BOETHII

## PHILOSOPHIAE CONSOLATIONIS[1]

### LIBER I

CARMINA qui quondam studio florente peregi,
Flebilis heu maestos cogos inire modos.
Ecce mihi lacerae dictant scribedna Camenae
Et ueris elegi fletibus ora rigant.
Has saltem nullus potuit peruincere terror,
Ne nostrum comites prosequerentur iter.
Gloria felicis olim uiridisque iuuentae
Solantur maesti nunc mea fata senis.
Venit enim properata malis inopina senectus
Et dolor aetatem iussit inesse suam.
Intempestiui funduntur uertice cani
Et tremit effecto corpore laxa cutis.
Mors hominum felix quae se nec dulcibus annis
Inserit et maestis saepe uocata uenit.
Eheu quam surda miseros auertituru aure
Et flentes oculos claudere saeua negat.
Dum leuibus male fida bonis fortuna faueret,
Paene caput tristis merserat hora meum.
Nunc quia fallacem mutauit nubila uultum,
Protrahit ingratas impia uita moras.
Quid me felicem totiens iactastis amici ?
Qui cecidit, stabili non erat ille gradu.

I

Haec dum mecum tacitus ipse reptuarem qerimoniamque lacimabilem stili officio signarem, adstitisse mihi supra uerticem uisa est mulier ruerendi admodum

(1) Loeb Classical Library, London, 1968, pp. 128 - 170.

oderim insigne capitis mei) (hoc est diadema, quo utebatur quasi regina) (et tantae ducam inmunditiae, uelut pannum mulieris menstruatae). Aiunt sanctae et nobiles feminae, quae eam uidere, quae norunt, quas de litore Galliarum ad habitationem santorum locorum, hostium per Africam conpulit saeua tempestas, noctibus et secreto, consciis tantum uirginibus Dei, quae in matris et auiae comitatu erant, numquam eam linteamine, nunquam plumarum usam mollitie; sed ciliciolum in nuda humo habuisse pro stratu, iugibus faciem rigasse lacrimis, Saluatoris genibus mente aduolutam, ut suum reciperet propositum, ut inpleret desiderium, ut auiae animum matrisque molliret.

Quid ultra differo ? Cum iam nuptiarum adpropinquaret dies, et futuro matrimonio thalamus pararetur, secrete et absque arbitris, noctemque habens pro solatio, talibus fertur se armasse consiliis: Quid agis, Demetrias? cur pudicitiam tanto pauore defendis ? Libertate opus est et audacia. Quae sic in pace metuis, quid faceres in martyrio perpetrando ? Quae tuorum uultum ferre non potes, quomodo sustineres tribunalia persecutorum ? Si te uirorum exempla non prouocant, hortetur faciatque securam beata martyr Agnes quae et aetatem uicit, et tyrannum, et titulum castitatis mrtyrio coronauit. Nescis misera, nescis cui debeas uirginitatem tuam. Dudum inter barbaras tremuisti manus, auiae matrisque sinu et palliis tegebaris. Vidisti te captiuam, et pudicitiam tuam, non tuae potestatis. Horruisti truces hostium uultus, raptas uirgines Dei gemitu tacito conspexisti. Urbs tua, quondam orbis caput, Romani populi sepulchrum est; et tu in Libyco litore exulem uirum, ipsa exul accipies ? Quam habitura pronubam ? quo deducenda comitatu ? Stridor linguae punicae procacia tibi fescennina cantabit. Rumpe moras omnes. (Perfecta dilectio, foras mittit timorem.) Adsume scutum fidei, loricam iustitiae, galeam salutis, procede ad proelium. Habet et seruata pudicitia martyrium suum. Quid metuis auiam? quid formidas parentem ? Forsitan et ipsae uelint, quod te uelle non credunt. His inflamata stimulis, omnem corporis cultum, et habitum saecularem, quasi propositi sui inpedimenta, proiecit : pretiosa monilia, et graues censibus uniones, ardentesque gemmae, redduntur scriniis; uili tunica induitur, uiliori tegitur pallio, et insperata auiae genibus repente prouoluitur, fletu tantum et planctibus quae esset ostendens. Obstipuit sancta et grauis femina, alienum habitum in nepte conspiciens. Mater gaudio stabat adtonita. Vtraque uerum non credere, quod uerum esse cupiebant. Haesit uox faucibus, et inter ruborem atque pallorem metumque ac laetitiam, cogitationes uariae mutabantur.

## SANCTI HIERONYMI EPISTULA

## AD DEMETRIADEM :[1]

Rhetorum disciplina est, abauis et atauis, et omni retro nobilitate, ornare quem laudes, ut ramorum sterilitatem, radix fecunda conpenset, et quod in fructu non teneas, mireris in trunco. Scilicet nunc mihi Proborum et Olybriorum clara repetenda sunt nomina, et inlustre Anicii sanguinis genus, in quo aut nullus, aut rarus est, qui non meruerit consulatum. Aut proferendus Olybrius, uirginis nostrae pater, quem inmatura morte substractum Roma congemuit. Vereor plura dicere, ne sanctae matris uulnus exasperem, et uirtutum eius recordatio fiat doloris instauratio. Pius filius, uir amabilis, clemens dominus, ciuis affabilis, consul quidem in pueritia, sed morum bonitate senator inlustrior. Felix morte sua, qui non uidit patriam corruentem; immo felicior sobole, qui Demetriadis proauiae nobilitatem insigniorem reddidit, Demetriadis filiae perpetua castitate.

Verum quid ago ? Oblitus propositi, dum admiror iuuenem, laudaui aliquid bonorum saecularium, cum in eo mihi uirgo magis nostra laudanda sit, quod haec uniuersa contempserit, quod non se nobilem, non diuitiis praepotentem, sed hominem cogitarit. Incredibilis animi fortitudo, inter gemmas et sericum, inter eunuchorum et puellarum cateruas, et adulationem ac ministeria familiae perstrepentis, et exquisitas epulas, quas amplae domus praebebat abundantia, appetisse eam ieiuniorum laborem, asperitatem uestium, uictus continentiam. Legerat enim Domini uerba dicentis : (Qui mollibus uestiuntur, in domibus regum sunt.) Stupebat ad conuersationem Heliae et Ioannis Baptistae, quorum uterque zona pellicia adstrinxit et mortificauit lumbos suos : alter uenisse narratur in spiritu et uirtute Heliae, praecursor Domini, in utero prophetans parentis, et ante diem iudicii, iudicis uoce laudatus. Annae filiae Fanuelis mirabatur ardorem, quae orationibus atque ieiuniis usque ad ultimam senectutem in templo Domino seruiebat. Quattuor uirginum filiarum Philippi desiderabat chorum, et unam se illarum esse cupiebat, quae pudicitia uirginali, prophetiae gratiam consecutae sunt. His et huiusce modi cogitationibus pascebat animum, nihil ita metuens, quam auiam matremque offendere. Quarum cum incitaretur exemplo, uoluntate et studiis terrebatur; non quo displiceret eis sanctum propositum, sed quod pro rei magnitudine, optare id et appetere non auderent. Aestuabat Christi tiruncula. Oderat ornatum suum; et cum Hester loquebatur ad Dominum : (Tu nosti quod

(1) Ibid., tom. VII, pp. 168 - 171.

Post aliquot menses, sana, integra, uegetoque corpusculo, dormiuit in Domino; et te paupertatulae suae, immo per te pauperes reliqit heredes, claudens oculos in manibus tuis, reddens spiritum in tuis osculis, dum inter lacrimas tuas illa rideret, conscientia uitae bonae et praemiis futurorum. Haec tibi, Marcella uenerabilis, et haec tibi, Principia filia, una et breui lucubratione dictaui, non eloquii unenustate, sed uoluntate in uos animi, et Deo, et legentibus placere desiderans.

## SANCTI HIERONYMI EPISTULA AD PRINCIPIAM VIRGINEM :[2]

Dum haec aguntur in Iebus, terribilis de Occidente rumor adfertur, obsideri Romam, et auro salutem ciuium redimi, spoliatosque rusum circumdari, ut post substantiam, uitam quoque amitterent. Haeret uox, et singulus intercipiunt uerba dictantis. Capitur Urbs, quae totum cepit orbem; immó fame perit antequam gladio, et uix pauci qui caperentur, inuenti sunt. Ad nefandos cibos erupit esurientium rabies, et sua inuicem membra laniarunt, dum mater non parcit lactanti infantiae, et recipit utero, quem paulo ante effuderat. (Nocte Moab capta est, nocte cecidit murus eius.) (Deus, uenerunt gentes in hereditatem tuam, polluerunt templum sanctum tuum. Posuerunt Hierusalem in pomorum custodiam; posuerunt cadauera seruorum tuorum escas uolatilibus caeli, carnes sanctorum tuorum bestiis terrae; effudenrunt sanguinem ipsorum sicut aquam in circuitu Hierusalem, et non erat qui sepeliret)

(Quis cladem illius noctis, quis funera fando explicet, aut possit lacrimis aequare dolorem ? Urbs antiqua ruit, multos dominata per annos; plurima, perque uias sparguntur inertia passim corpora, perque domos, et plurima mortis imageo.)

Cum interim, ut in tanta confusione rerum, Marcellae quoque domum cruentus uictor ingreditur: (Sit mihi fas audita loqui), immo a sanctis uiris uisa narrare, qui interfuere praesentes, qui te dicunt in periculo quoque ei fuisse sociatam. Intrepido uultu excepisse dicitur introgressos : cumque posceretur aurum, et defossas opes uili excusaret tunica, non tamen fecit fidem uoluntariae paupertatis. Caesam fustibus flagellisque aiunt non sensisse tormenta; sed hoc lacrimis, hoc pedibus eorum egisse prstratam, ne te a suo consortio separarent; ne sustineret adulescentia, quod senilis aetas timere non poterat. Christus dura corda molliuit, et inter cruentos gladios inuenti locum pietas. Cuque et illam et te ad beati apostoli Pauli basilicam barbari deduxissent, ut uel salutem uobis ostenderent, uel sepulchrum in tantam laetitiam dicitur erupisse, ut gratias ageret Deo, qod te sibi integram reseruasset; quod pauperem illam non fecisset captiuitas, sed inuenisset; quod egeret cotidiano cibo: quod saturata Christo, non sentiret esuriem; quod et uoce et opere loqeretur : (Nuda exiui de uentre matris meae, nuda et redeam. Sicut Domino uisum est, ita et factum est. Sit nomen Domini benedictum.)

---

(2) Ibid., tom VII, pp. 146 - 148.

Gallorum solum, et Gallograeciam'in qua consederant Occidentis Orientisque uictores, suo imperio subiugasset. Hannibal, de Hispaniae finibus orta tempestas, cum uastasset Italiam, uidit urbem, nec ausus est obsidere. Pyrrhum tanta tenuit Romani nominis reuerentia, ut deletis omnibus, e propinquo recederet loco nec auderet uictor aspicere, quam regum didcerat ciuitatem. Et tamen prc hac-iniuria (non enim dicam superbiam quae bonos exitus habuit) alter toto orbe fugitiuus, tandem Bithyniae mortem ueneno repperit; alter reuersus in patriam, in suo regno occubuit; et riusque pruinciae populi Romani uectigales sunt. Nunc ut omnia prospero fine eueniant, praeter nostra quae amisimus, non habemus quod uictis hostibus auferamus. Potentiam Romanae urbis, ardens poeta describens, ait : (Quid satis est, si Roma parum est ?) Quod nos alio mutemus elogio (Quid saluum est, si Roma perit ?)

(Non mihi si linguae centum sint, oraque centum. Ferrea uox, omnes captorum dicere poenas,
Omnia caesorum percurrere nomina possim.)

Et haec ipsa quae dixi, periculosa sunt, tam loquentibus, quam audientibus, ut ne gemitus quidem liber sit, nolentibus, immo nec audentibus nobis flere quae patimur.

Responde mihi, carissima in Christo filia, inter ista nuptura es ? quam acceptura uirum, credo fugiturum, aut pugnaturum ? Quid utrumque sequatur intellegis.

## SANCTI HIERONYMI EPISTULA
## AD GERUCHIAM :[1]
## pp. 91, 92, 93, 94.

Verum quid ago ? Fracta naue de mercibus disputo. Qui tenebat, de medio fit, et non intelligimus adpropinquare Antichristum, quem Dominus Iesus interficiet spiritu oris sui. (Vae praegnantibus, et nutrientibus in illa die); quorum utrumque de fructibus nuptiarum est. Praesentium miseriarum pauca percurram. Quod rari hucusque residemus, non nostri meriti, sed Domini misericordiae est. Innumerabiles et ferocissimae nationes uniuersas Gallias occuparunt. Quidquid inter Alpes et Pyrenaeum est, quod Oceano Rhenoque includitur, Quadus, Vandalus, Sarmata, Halani, Gepides, Heruli, Saxones, Burgundiones, Alemanni, et, o lugenda respublica ! hostes Pannonii uastarunt. (Etenim Assur uenit cum illis.) Moguntiacus, nobilis quondam ciuitas, capta atque subuersa est, et in ecclesia multa hominum milia trucidata. Vangiones longa obsidione finiti. Remorum urbs praepotens, Ambiani, Atrabatae, (extremique hominum Morini), Tornacus, Nemetae, Argentoratus, translatae in Germaniam. Aquitaniae, Novemque populorum Lugdunensis, et Narbonensis prouinciae, praeter paucas urbes cuncta populata sunt. Quas et ipsas foris gladius, intus uastat fames. Non possum absque lacrymis Tolosae facere mentionem, quae ut hucusque non rueret, sancti episcopi Excuperii merita praestiterunt. Ipsae Hispaniae iam iamque periturae, quotidie contremescunt, recordantes inruptionis Cymbricae, et quidquid alii semel passi sunt, illae semper timore patiuntur.

Cetera taceo, ne uidear de Dei desperre clementia. Olim a mari Pontico usuqe ad Alpes Iulias, non erant nostra, quae nostra sunt. Et per annos triginta fracto Danubii limite, in mediis Romani imperii regionibus pugnabatur. Aruerant uetustate lacyrymae. Praeter paucos senes, omnes in captiuitate et obsidione generati, non desiderabant, quam non nouerant libertatem. Quis hoc crederet ? quae digno sermone historiae comprehenderent ? Roman in gremio suo, non pro gloria, sed pro salute pugnare ? immo ne pugnare quidem, sed auro et cuncta superlectili uitam redimere ? Quid non uitio principum, qui uel religiosissimi sunt, sed scelere semibarabari accidit proditoris, qui nostris contra nos opibus armauit inimicos. Aeterno quondam dedecore Romanum laborabat imperium, quod Gallis cuncta uastantibus, fusoque apud Alliam exercitu Roman Brennus intrasset. Nec pristinam abolere poterat ignominiam, donec et Gallias, genitale

(1) Les Belles Lettres, tom. VII, Paris, 1961, pp. 91 - 94.

souhait ? A-t-elle besoin, pour ne pas souffrir, que les hommes lui fassent accueil ? C'est auprès de Dieu qu'elle réside; même lorsquelle est ici-bas, c'est surtout de Dieu qu'elle s'occupe encore : et si, quand elle descend sur la terre, on ne s'empresse pas de la recevoir, elle retourne auprès de son père, et peut alors nous dire en toute vérité :

*............. Cet honneur, qui m'est cher,*
*Je l'attends, non de vous, mais du seul Jupiter*[1].

La Philosophie, selon qu'elle est présente ou absente, influe en bien ou en mal sur les choses humaines; c'est par là que s'expliquent les prospérités et les revers. C'est donc pour l'Etat, et non pour la Philosophie, que je forme des vœux. Je fais les mêmes souhaits que Platon[2]; mais puissé-je, plus heureux que lui, les voir exaucés ! Oui, puissé-je le voir associer la Philosophie à la royauté, et désormais personne ne m'entendra plus disserter sur les devoirs de la royauté ! Mais il est temps de me taire; car ce précepte, sois philosophe, résume tout ce que j'ai dit. Si tu le deviens, j'ai accompli l'œuvre que je me proposais en commençant. Je voulais que mon discours mît sous tes yeux la statue du roi; mais le discours n'est que l'ombre de la réalité; et je te demandais de me faire voir à ton tour cette statue animée et agissante. Je la verrai bientôt; tu nous montreras dans ta personne un roi véritable; car mes paroles n'auront pas en vain frappé tes oreilles; elles vont pénétrer, elles vont se graver dans ton cœur. Si la Philosophie est venue te faire entendre ses conseils, c'est qu'elle était sans doute poussée par Dieu qui veut, nous pouvons aisément le croire, te donner un règne glorieux. Et moi, c'est à juste titre que je jouirai le premier des heureux fruits de mes leçons, quand je trouverai vivantes en toi les royales qualités que j'ai retracées, le jour où je viendrait'entretenir des demandes que nos cités t'adressent.

(1) *Iliade*, IX, 603

(2) *République*, V.

regarder, non pas à la fortune, comme on le fait maintenant, mais à la vertu. Quand nous avons besoin d'un médecin, ce n'est pas au plus riche que nous nous adressons, mais au plus habile. Lorsqu'il faut choisir un magistrat, à celui qui n'a que son opulence on doit préférer celui qui connaît l'art de gouverner; car de ce choix dépend la prospérité ou le malheur des cités. Eh quoi ! parce qu'un homme s'est enrichi à force de bassesses, est-il juste qu'on l'appelle aux magistratures, plutôt que le citoyen qui est resté pauvre, pour avoir toujours été fidèle aux lois et à la vertu, et qui ne rougit point de son honorable pauvreté ? Mais de quelque façon qu'on ait acquis sa fortune, si l'on achète les fonctions publiques, on ne saura comment rendre la justice; on n'aura dans le cœur ni la haine de l'iniquité ni le mépris des richesses; on transformera le prétoire en un marché où se vendent les arrêts. Car comment pourrait-on regarder la fortune d'un œil de dédain ? N'est-il pas naturel au contraire d'avoir de la vénération, de la faiblesse, de la tendresse enfin pour un ami précieux, auquel on doit une autorité payée comptant, et le droit de trafiquer des intérêts publics comme de toute autre marchandise ? C'est grâce à l'or, en effet, que l'on se voit un personnage élevé en dignité, et que l'on attire l'attention, non-seulement du vulgaire, mais aussi de ces hommes d'élite, justes et pauvres.

31. Pour toi, relève et mets en honneur la vertu, même indigente; ne permets point que la prudence, la justice, et toutes les qualités de l'âme, échappent à tes regards, cachées sous d'humbles vêtements. Aie soin de produire la vertu en public; qu'elle se révèle à tous les yeux : au lieu de rester oisive et méconnue, elle doit se montrer au grand jour, elle doit agir. N'en doute pas, si aujourd'hui tu appelles aux dignités les gens de bien, nos descendants proclameront ta gloire, car tu laisseras dans la postérité le souvenir d'un règne fortuné. N'accorde tes faveurs qu'au mérite, et bientôt tu verras la richesse devenir un sujet de honte; on recherchera volontairement la pauvreté. Les hommes reviendront à des idées plus justes, dès le jour où le prince regardera l'amour du gain comme une bassesse, et tiendra la médiocrité en grand honneur. La royauté a de magnifiques priviléges; mais le plus beau de tous, celui qu'on ne saurait trop admirer, trop célébrer, c'est le pouvoir que le souverain possède sur les âmes de ses sujets : pour changer leurs opinions et leurs habitudes les plus invétérées, il lui suffit de montrer tout le prix qu'il attache à des qualités jusque-là négligées; toutes les idées du roi sont bientôt adoptées par la foule, qui s'efforce de les mettre en pratique.

32. Arrivé au terme de mon discours, qu'il me soit permis d'exprimer un vœu pour la Philosophie que j'aime. Puisses-tu, ô Roi, ressentir un vif amour pour elle et pour ses généreux enseignements, et que cet amour soit partagé par ceux dont je parlais tout à l'heure, et que tu emploies dans les fonctions publiques. A voir comme on néglige aujourd'hui ces nobles études, n'est-il pas à redouter qu'on les laisse s'éteindre, sans conserver même une étincelle qui serve plus tard à les rallumer ? Est-ce dans l'intérêt de la Philosophie elle-même que je forme ce

de rien entreprendre, le secours divin. Eh ! peut-on rien voir, rien ouïr de plus beau, qu'un roi s'associant à ses sujets pour lever les mains vers le ciel, et adorer le maître commun des princes et des peuples? Sans doute la Divinité se réjouit des pieux hommages que lui rend un souverain, et elle entretient avec lui une sorte de mystérieux commerce. Aimé de Dieu, le roi à son tour aime les hommes; il est pour ses sujets ce que le Roi du ciel est pour lui; et quelles faveurs n'a-t-il pas le droit d'attendre ? J'en reviens au sujet que je traitais un peu plus haut.

29. Le signe distinctif de la royauté c'est, comme nous le disions, de faire des heureux. Que le prince soit généreux et libéral, et il méritera, nous l'avons reconnu, quelques-unes des qualifications que nous donnons à Dieu. Rassemblons toutes les vertus dont nous avions déjà parlé avant d'annoncer que nous allions faire la statue royale; disposons-les de manière à présenter une œuvre bien ordonnée et complète. Mais la qualité par excellence, c'est de prodiguer les bienfaits, sans jamais se lasser, pas plus que le soleil qui envoie ses rayons aux plantes et aux animaux; il brille, sans fatigue; car son essence même c'est de resplendir; il est la source de la lumière. Le roi ne voudra vivre que pour manifester, comme le soleil, son influence salutaire. Tout ce qu'il pourra faire par lui-même pour le bonheur de ses sujets, il le fera. Les grands qui l'entourent et qui tiennent au-dessous de lui le premier rang s'inspireront des sentiments dont le souverain est animé; et chacun, dans la mesure de son pouvoir, s'efforcera de contribuer à la félicité publique. Il s'établit ainsi une noble émulation entre tous ceux qui sont chargés de veiller aux intérêts des peuples.

30. Quand un empire est aussi vaste que celui-ci, il faut bien envoyer des gouverneurs dans les provinces éloignées; mais le choix de ceux qui auront mission d'appliquer les lois doit être l'objet d'un soin scrupuleux : il exige une sagesse supérieure et un discernement parfait. Vouloir connaître par soi-même toutes les bourgades, tous les habitants, toutes les contestations, c'est une tâche impossible : Denys ne put y suffire, bien qu'il n'eût asservi à son autorité qu'une seule île; encore ne régnait-il pas sur l'île tout entière. Avec le concours de quelques administrateurs habiles, le bien public est assuré. On appelle divine et universelle cette providence qui dirige l'ensemble de l'univers sans s'occuper des détails; mais dans les moindres détails pourtant son action se fait encore sentir. Dieu donc ne prend pas un soin minutieux des choses d'icibas; mais sans descendre des hauteurs où il réside, il fait de la nature l'exécutrice de ses conseils; et jusque dans les régions inférieures il est ainsi la cause de tous les biens, puisqu'il est la cause des causes[1]. Voilà comment le roi doit régir ses Etats : il n'a qu'à déléguer une part de son autorité aux gouverneurs qu'il pourra trouver les plus justes et les plus vertueux; il lui sera plus facile d'avoir seulement quelques hommes à connaître, et plus facile aussi de savoir s'ils s'acquittent bien ou mal de leurs fonctions. S'il s'agit de nommer aux magistratures, on doit donc

(1) Ces idées, simplement indiquées ici, sont développées longuement dans *La Providence*.

28. Un roi ne doit pas écraser ses sujets d'impôts; car pour un bon prince qu'est-il besoin de tant de richesses, quand il ne songe pas à élever, par ostentation, de somptueux édifices; quand il préfère la simplicité à l'étalage d'une ruineuse magnificence; quand il ne veut pas, jeune et avide de plaisirs, employer follement pour les jeux du théâtre le travail de beaucoup de bras ? D'ailleurs, comme il n'a que rarement des ennemis à combattre, il n'est pas entraîné à ces dépenses que l'on ne peut calculer d'avance, quand il s'agit, comme disait un Lacédémonien, de nourrir la guerre[1]. Un bon roi n'a pas à craindre, nous le disions tout à l'heure, qu'on lui tende des piéges, ni qu'on l'attaque. Il faut lever des impôts pour satisfaire à de réelles nécessités, mais rien au delà. Les collecteurs qui les recueillent cessent d'être odieux quand ils font remise au malheureux de l'arriéré qu'il ne peut solder, et quand ils mesurent aux ressources de chaque citoyen la contribution qu'il doit payer. Un roi qui a l'amour de l'argent est au-dessous d'un vil trafiquant : car celui-ci cherche à pourvoir aux besoins de sa famille; mais pour le roi cupide il n'est point d'excuse. Pour moi, quand j'observe les effets des différentes passions sur les hommes, je crois voir que, même parmi les simples particuliers, ceux qui ne songent qu'à s'enrichir se font remarquer par la grossièreté de leurs habitudes et par la bassesse de leurs sentiments; et ce n'est que dans une société déjà corrompue qu'ils peuvent échapper au mépris. Eh ! ne sont-ils pas les premiers à se ravaler quand ils intervertissent l'ordre établi par la nature ? En effet elle a placé au premier rang l'âme, qui gouverne le corps; au second le corps, qui doit s'assujettir les choses du dehors : mais à ces choses, inférieures en dignité ils subordonnent, eux, et l'âme et le corps. Quand ils se sont ainsi dégradés en faisant une esclave de la partie la plus élevée de leur être, serait-il encore possible d'attendre d'eux une action, une pensée grande et généreuse ? Si je dis qu'ils méritent moins d'estime, qu'ils ont moins de sens que la fourmi, je n'exagère point; car la fourmi n'amasse que pour vivre, et eux ne vivent que pour amasser. Un souverain, qui veut être vertueux et régner sur des sujets vertueux, doit repousser loin de lui, loin de ses peuples, ce fléau de l'avarice; il doit exciter l'émulation de tous pour le bien, noble lutte où il est tout à la fois chef, combattant et juge. C'est une honte, dit un ancien, qu'il y ait des jeux publics où l'on dispute d'adresse à lancer le javelot ou de force dans les exercices du corps, et que des couronnes soient décernées aux vainqueurs, tandis qu'on n'a point institué de concours de sagesse et de vertu[2]. Il est vraisemblable, plus que vraisemblable, il est certain que les hommes avaient un roi tel que je le dépeins, et le prenaient pour modèle, lorsqu'ils vivaient heureux, à cette époque reculée, appelée l'âge d'or, âge célébré par la poésie. Etrangers au mal, ils ne songeaient qu'à pratiquer le bien, et plaçaient en première ligne la piété, cette vertu dont le roi doit donner l'exemple en invoquant, avant

(1) Ce Lacédémonien est Cléomène (voir dans Plutarque sa vie, ch. 27).

(2) C'est à peu près la pensée que Diogène Laërce, VI, 27, attribue à Diogène le Cynique.

lorsque, ne voulant attaquer personne, il s'est mis en état de repousser toutes les attaques; pour qu'on ne songe pas à le combattre, il faut qu'il soit tout prêt à se battre. La paix est de beaucoup préférable à la guerre, car on ne fait la guerre que pour voir la paix; l'objet que l'on poursuit est plus précieux que les moyens mis en œuvre pour l'atteindre. L'Empire comprend deux populations, l'une armée l'autre sans armes, : le souverain se doit à l'une et à l'autre. Après s'être mêlé aux soldats, qu'il parcoure les provinces, les cités; qu'il se montre à ceux qui peuvent, en toute sécurité, grâce à nos guerriers, vaquer aux travaux des champs et jouir des bienfaits de la vie civile; qu'il visite autant de contrées, autant de villes qu'il lui sera possible. Même les parties de l'Empire qu'il ne pourra voir devront encore ressentir les effets de sa sollicitude; voici surtout comment il peut la témoigner.

26. Les ambassadeurs ont un caractère sacré; mais de quel secours précieux ils sont en outre pour un prince ! En conversant avec eux il se rendra présentes les choses lointaines; ses soins vigilants ne se renfermeront pas dans les étroites limites qui bornent ses regards; sans avoir vu de ses propres yeux les misères qu'il soulage, il relèvera tout ce qui tombe, il adoucira par ses largesses les besoins des populations souffrantes, il allégera les charges de ceux qui succombent sous le poids de l'impôt; il préviendra la guerre avant qu'elle n'éclate; ou, si elle a éclaté, il la mènera promptement à bonne fin; en un mot il prendra toutes les mesures nécessaires au bien public. Ainsi, par l'intermédiaire des ambassadeurs, il pourra, comme un dieu,

............. *tout voir et tout entendre*[1].

Qu'il se laisse aisément aborder; qu'ils se montre, pour les députés des villes lointaines aussi bien que pour ceux des cités voisines,

............. *facile comme un père*[2]:

ce sont les expressions dont se sert Homère quand il fait l'éloge d'un roi pacifique.

27. Tout d'abord il faut habituer, obliger les soldats à épargner l'habitant des villes et des campagnes; ils doivent se souvenir que leur profession n'a d'autre objet que de le protéger; car c'est pour défendre et sauver nos cités et nos champs que le roi prend les armes et rassemble des combattants. Mais celui qui ne repousse les ennemis du dehors que pour nous traiter au gré de ses caprices me paraît ressembler au chien qui ne chasserait les loups que pour dévorer à son aise les brebis, ne se contentant plus de recevoir, pour prix de sa vigilance, le lait qui doit le nourrir. Il n'y a de véritable paix que si le soldat, accoutumé à regarder comme un frère le citoyen désarmé, n'exige rien de plus que la solde promise à ses services.

(1) *Iliade*, III, 277.

(2) *Odyssée*, II, 47, 234; V, 2; XV, 152.

avec son aliance, une place dans l'Etat, il leur ouvrit l'accès aux honneurs; des terres furent assignées à ces mortels ennemis de l'Empire par un prince que son courage même et sa magnanimité rendaient trop facile. Mais des barbares ne comprennent rien à la vertu : depuis ce temps-là jusqu'aujourd'hui ils n'ont cessé de rire de nous, en songeant au chàtiment qu'ils méritaient et à la récompense qu'ils ont reçue. Le bruit de leur fortune a engagé leurs voisins à suivre leurs traces; et voici qu'abandonnant leurs contrées, des hordes de cavaliers armés d'arcs viennent nous demander, à nous qui sommes d'humeur trop faible, que nous les recevions en amis : et leur prétention se justfie par l'accueil que nous avons fait à la dernitre des nations. Nous sommes forcés de leur faire, quoiqu'à contre cœur, bonne mine : l'expression est vulgaire; mais le philosophe, pour se faire comprendre, n'est pas difficile sur le choix des mots; il use même de locutions triviales, pourvu qu'elles rendent clairement sa pensée.

24. Comment donc ne trouverions-nous point de difficulté, aujourd'hui qu'il faut, pour reconquérir notre gloire passée,

Chasser ces chiens maudits qu'amena le Destin(1)?

Mais si tu veux m'en croire, cette œuvre qui paraît si difficile deviendra aisée; il suffit d'accrcître le nombre de nos soldats, et de leur rendre la confiance. Puis, quand nous aurons une armée indigène, ajoute à ta puissance une force qi lui manque aujourd'hui, et dont Homère a fait le signe distinctif des grands cœurs, quand il a dit :

Terrible est le courroux des rois, enfants des dieux(2).

Ton courroux ! déploie-le contre ces barbares; et bientôt, soumis à tes ordres, ils laboureront la terre, comme jadis les Messéniens, après avoir mis bas les armes, servirent d'Ilotes aux Spartiates; ou bien, reprenant la route par laquelle ils sont venus, ils fuiront, ils iront annoncer au delà de l'Ister qu'aujourd'hui les Romains ne sont plus aussi faciles, et qu'à leur tête est un prince jeune, vaillant,

Sevère, et devant qui l'innocent même a peur(3).

25. Mais assez sur ce sujet. Jusqu'ici nous avons fait l'éducation du roi belliqueux; nous avons maintenant à former le roi pacifique. Mais, disons-le d'abord, un roi belliqueux peut, mieux que tout autre, être pacifique. En effet celui-là seul conserve aisément la paix qui a la force nécessaire pour faire repentir un ennemi de ses injustes agressions. Un prince s'est assuré un règne tranquille

(1) *Iliade*, VIII, 527.

(2) *Id.*, II, 196.

(3) *Id.*, XI, 653.

tenons contre nous ! Car aujourd'hui il ne s'agit plus seulement d'une révolte commencée par deux hommes, tous deux méprisés. Des armées tout entières, de même race que nos esclaves, peuplades sanguinaires reçues, pour notre malheur, dans l'Empire, comptent des chefs élevés en dignité parmi leurs compatriotes et parmi nous.

*Quelle erreur est la nôtre !*

Indépendamment des soldats qui leur obéissent, ces chefs n'auront qu'à le vouloir, n'en doute point, pour voir accourir sous leurs ordres nos esclaves les plus résolus, les plus audacieux,disposés à commettre totues sortes de brigandages pour se rassaiser de liberté. Il faut renverser cette force qui nous menace, il faut étouffer l'incendie encore caché. N'attendons point que ces étrangers laissent éclater leur haine : le mal, qu'on détruit aisément dans son germe, s'enracine avec le temps. L'Empereur doit épurer son armée, comme on nettoie le blé, en séparant les mauvaises graines et les semences parasites qui étouffent dans sa croissance le pur froment. Si tu trouves mes conseils difficiles à suivre, c'est que tu oublies sur quels hommes tu règnes, et de quelle race je parle. Les Romains ont vaincu cette race, et le bruit de leur gloire s'en est accru; ils triomphent , par le conseil et par la valeur, de tous les peuples qu'ils rencontrent, et, comme ces dieux dont parle Homère, ils ont parcouru le monde.

*Pour juger les vertus et les crimes des hommes*(1).

23. Les Scythes, au contraire, sont ces peuplades dont Hérodote nous raconte et dont nous-mêmes nous voyons la lâcheté. C'est chez eux que de tous côtés on va se fournir d'esclaves: errants et sans patrie, ils changent constamment de contrée; de là cette expression passée en proverbe, *la solitude des Scyhtes*. Comme l'histoire nous le rapporte, les Cimmériens d'abord, puis d'autres peuples, ensuite des femmes, plus tard nos ancêtres, et enfin les Macédoniens, les ont tour à tour mis en fuite; renvoyés d'un côté, ils allaient de l'autre, pour être chassés de nouveau nomades qui ne s'arrêtent que quand l'ennemi qui les poursuit les a poussés sur un autre ennemi. Jadis leurs irruptions subites effrayèrent quelquefois certains peuples, comme les Assyriens, les Mèdes, les Palestins. Mais dans leurs récentes émigrations, quand ils sont venus vers nous, c'est en suppliants, et non en ennemis. Ils trouvaient dans les Romains des hommes qu'il était facile, non pas de vaincre, mais d'émouvoir, et qui devaient se laisser toucher par leurs prièrers : alors, comme on pouvait s'y attendre, cette nature sauvage commença à s'enhardir et à se monter ingrate. Aussi ton père s'arma contre eux; punis bientôt, ils vinrent se jeter à ses genoux, priant et gémissant ainsi que leurs femmes. Ton père avait vaincu dans les combats; il céda a la compassion : il les fit relever; il leur accorda,

(1) *Odysée*, XVII, 487.

rougirais encore de leur devoir de tels services. Mais

*Je le sens, je le vois* ,..............[1],

et il ne faut pour le comprendre qu'un peu d'intelligence, lorsque entre deux races que je puis appeler l'une virile, l'autre efféminée, il n'existe aucune communauté d'origine, aucun lien de prenté, il suffira du moindre prétexte pour que la race armée veuille asservir la race pacifique : énervée par le repos, celle-ci aura un jour à lutter contre des adversaires aguerris. Avant d'en arriver à cette extrémité vers laquelle nous marchons, reprenons des sentiments dignes des Romains; accoutumons-nous à ne devoir qu'a nousmêmes nos triomphes; plus d'alliance vec les barbares ! Qu'aucune place ne leur soit laissée dans l'Etat !

22. D'abord il faut leur fermer l'entrée des magistratures et les exclure du sénat, eux qui n'avaient que du dédain pour les honneurs que les Romains sont si fiers, et à juste titre, d'obtenir. A voir ce qui se passe aujourd'hui, le dieu de la guerre et la déesse qui préside aux conseils, Thémis, doivent souvent, j'imagine, détourner la tête de honte : des chefs, habillés de peaux de bêtes, commandent à des soldats vêtus de la chlamyde. Des barbares, dépouillant leur grossier sayon, se couvrent de la toge, et viennent avec les magistrats romains délibérer sur les affaires publiques, assis au premier rang après les consuls, au-dessus de tant d'illustres citoyens! Puis, à peine sortis du sénat, ils reprennent leurs habits de peaux, et se moquent avec leurs compagnons de cette toge, incommode vêtement, disent-ils, pour des hommes qui veulent tirer l'épée. L'étrangeté de notre conduite m'étonne souvent; mais voici surtout ce qui me confond. Dans toutes les maisons qui jouissent de quelque aisance, on trouve comme esclaves des Scythes : pour maître d'hôtel, pour boulanger, pour échanson, on prend des Scythes; les serviteurs qi portent ces lits étroits et pliants sur lesquels les maîtres peuvent s'asseoir dans les rues sont encore des Scythes, race née de tout temps pour l'esclavage, et bonne seulement à servir les Romains. Mais que ces hommes blonds et coiffés à la manière des Eubéens soient, dans le même pays, esclaves des particuliers et maîtres de l'Etat, c'est quelque chose d'inouï, c'est le plus révoltant spectacle. Si ce n'est pas là une énigme, je ne sais où on en pourra trouver une. Autrefois en Gaule de vils gladiateurs, Crixus et Spartacus, destinés à servir dans l'amphithéâtre de victimes expiatoires pour le peuple romain, prirent la fuite, et, s'armant pour renverser les lois, ils suscitèrent cette guerre servile, la plus terrible qu'eurent à soutenir les Romains; il fallut des généraux, des consuls, et la fortune de Pompée pour sauver la république d'une ruine imminente. Les fugitifs qui allaient rejoindre Spartacus et Crixus n'étaient pas du même nation. Mais la similitude de leur fortune et l'occasion favorable les unirent dans une même entreprise; car natrellement tout esclave est, je crois, l'ennemi de son maitre, quand il espère le vaincre. Ne sommes-nous pas aujourd'hui dans des circonstances analogues ? Et même combien plus désastreux encore sera le fléau que nous entre-

(1) *Odyssée.* XVII, 193.

état de choses ? La Philosophie nous apprenait tout à l'heure qu'un roi doit venir souvent au milieu de son armée, et ne point se renfermer dans son palais; car c'est, disait-elle, en se laissant approcher familièrement tous les jours qu'un souverain obtient cette affection, qui est la plus sûre de toutes les gardes. Mais quand le philosophe qui aime le roi lui prescrit de vivre avec les soldats et de partager leurs exercices, de quels soldats entend-il parler ? De ceux qui sortent de nos villes et de nos campagnes, de ceux que les pays soumis à ton autorité t'envoient comme défenseurs, et qui sont choisis pour protéger l'Etat et les lois auxquels ils sont redevables des soins donnés à leur enfance et à leur jeunesse. Voilà ceux que Platon compare aux chiens fidèles. Mais le berger se garde bien de mettre les loups avec les chiens; car, quoique pris jeunes, et en apparence apprivoisés, un jour ils seraient dangereux pour le troupeau : dès qu'ils sentiraient faiblir la vigilance ou la vigueur des chiens, aussitôt ils se jetteraient sur les brebis et sur le berger. Le législateur ne doit point fournir lui-même des armes à ceux qui ne sont point nés, qui n'ont point été élevés sous l'empire des lois de son pays; car quelle garantie a-t-il de leurs dispositions bienveillantes ? Il faut ou une témérité singulière ou le don de la divination pour voir une nombreuse jeunesse, étrangère à nos institutions et à nos mœurs, s'exercer chez nous au métier des armes, et pour ne point s'en effrayer : car nous devons croire, ou que ces barbares se piquent aujourd'hui de sagesse, ou, si nous désespérons d'un tel prodige, que le rochr de Tantale, suspendu au-dessus de nos têtes, ne tient plus qu'à un fil. Ils fondront sur nous dès qu'ils espéreront pouvoir le faire avec succès. Voici déjà que quelques symptômes annoncent la crise prochaine. L'Empire, semblable à un malade plein d'humeurs pernicieuses, souffre en plusieurs endroits; les parties affectées empêchent ce grand corps de revenir à son état de santé et de repos. Or, pour guérir les individus comme les sociétés, il faut faire disparaître la cause du mal : c'est un précepte à l'usage des médecins et des empereurs. Mais ne point se mettre en défense contre les barbares, comme s'ils nous étaient dévoués; mais permettre que les citoyens, exemptés, quand ils le demandent, du service militaire, désertent en foule, pour d'autres carrières, les rangs de l'armée, qu'est-ce donc, si ce n'est courir à notre perte ? Plutôt que de laisser chez nous les Scythes porter les armes, il faudrait demander à nos champs les bras qui les cultivent et qui sauraient les défendre. Mais arrachons d'abord le philosophe à son école, l'artisan à son atelier, le marchand à son comptoir; crions à cette foule, bourdonnante et désœuvrée, qui vit aux théâtres, qu'il est temps enfin d'agir si elle ne veut passer bientôt des rires aux gémissements, et qu'il n'est point de raison, bonne ou mauvaise, qui doive empêcher les Romains d'avoir une armée nationale. Dans les familles comme dans les Etats, c'est sur l'homme que repose la défense commune; la femme est chargée des soins domestiques. Pouvons-nous admettre que chez nous les hommes manquent à leur devoir ? N'est-ce pas une honte que les citoyens d'un empire si florissant cèdent à d'autres le prix de la bravoure guerrière ? Eh ! quand même ces étrangers remporteraient pour nous de nombreuses victoires, moi je

ne fera par là qu'ajouter à l'admiration qu'il inspire. Agésilas, ce roi dont Xénophon fait un si grand éloge, était boiteux; jamais nul ne pensa à rire de lui, ni parmises soldats, ni chez les alliés, ni chez les ennemis; et pourtant, dans les villes où il s'arrêtait, on le voyait sur les places publiques; il vivait sous les yeux de ceux qui voulaient connaître le général des Spartiates. Pénétrant en Asie à la tête d'une faible armée, pour aller combattre un roi qu'adoraient des populations innombrables, il faillit abattre son trône; il abattit du moins son orgueil. Lorsqu'il dut, rappelé par les magistrats de la cité, renoncer à poursuivre ses succès en Asie, il remporta de nombreuses victoires en Grèce et le seul qui vainquait Agésilas sur les champs de bataille fut le seul qui pouvait l'emporter sur lui en simplicité : c'était cet Epaminondas qui, ne pouvant, en sa qualité de général, se dispenser, sans exicter le mécontentement, d'assister aux banquets où l'invitaient les villes, n'y buvait que d'une aigre piquette. «Il ne faut pas, disait-il qu'Epaminondas oublie ses habitudes domestiques.» Un jeune Athénien riait en regardant son épée dont la poignée n'était qu'en bois grossièrement travaillé. «Quand nous combattrons, dit Epaminondas, ce n'est pas la poignée que tu sentiras, mais le fer, et tu seras bien forcé de reconnaître qu'il est d'assez bonne qualité.»

20. Si le rôle du roi c'est de commander, et si, pour commander comme il convient, il faut agir et vivre à la manière de ceux qui ont excellé dans l'art de gouverner, nous voyons que ce n'est pas en déployant un luxe extraordinaire, mais avec des habitudes sages et réglées, que l'on consolide surtout les empires. Que le roi bannisse donc le faste et la somptuosité : ce sont des ennemis avec lesquels il ne doit avoir rien de commun. C'est l'idée que j'exprimais au commencement de ce discours. Retournons donc en arrière, moi pour en revenir à mon point de départ, toi pour ramener la royauté à ses antiques vertus. Il ne s'agit que de réformer nos défauts et de reprendre des mœurs plus sévères, pour reprendre en même temps le cours de nos prospérités passées, et voir disparaître tous les maux qui nous menacent. C'est à toi, ô Prince, le faire renaître des temps heureux; donne-nous dans ta personne un souverain qui administre la chose publique : car, où nous en sommes arrivés. la mollesse ne sarait aller plus loin tous sont sur le tranchant du rasoir. Il nous faut aujourd'hui un dieu et un vaillant empereur pour étouffer, avant qu'ils n'éclatent, les périls qui depuis longtemps déjà se préparent pour l'Empire. Tout en continuant mon discours, et en m'efforçant d'achever cette royale et splendide statue que je veux placer sous tes yeux, je vais montrer que ces périls sont tout près de fondre sur nos têtes, s'il ne se trouve un prince pourvu d'assez de sagesse et d'énergie pour les écarter. Je veux travailler de toutes mes forces à faire de toi ce prince. Toujours et partout Dieu vient en aide aux gens de cœur, et leur est propice.

21. Comment donc, laissant de côté les considérations générales à propos de l'idée que nous devons nous faire d'un roi, arrivons-nous à parler du présent

de longues années, abdiqua, pour jouir au moins dans sa vieillese des loisirs de la vie privée. Ce titre de roi, il n'y a pas longtemps que nous l'avons fait revivre; il était tombé en désuétude à Rome depuis l'expulsion des Tarquins. Maintenant, en vous parlant et en vous écrivant, nous vous qualifions de rois. Mais vous, soit avec intention, soit tout simplement par habitude, vous semblez repousser cette dénomination comme trop orgueilleuse. Jamais, dans les lettres que vous adressez à une cité, à un simple particulier, à un gouverneur de province, à un prince barbare, vous ne vous parez du nom de rois, vous ne vous appelez qu'empereurs. Empereur est le terme qui désigne un chef militaire, revêtu de pleins pouvoirs. C'est en qualité d'empereurs qu'Iphicrate et Périclès commandaient les flottes qui partaient d'Athènes. Ce titre n'avait rien qui pût choquer un peuple libre; car c'était le peuple même qui conférait par ses suffrages cette légitime autorité. Un des magistrats d'Athènes s'appelait roi; mais il n'avait que des attributions limitées et inérieures[1]; c'est par une sorte d'ironie qu'il recevait ce nom dans une république qui ne connaissait aucun maitre. Empereur, pour eux, ne signifiait pas souverain; mais la chose, comme le nom, était ce qu'il y avait de plus élevé. Eh ! veut-on un témpignage évident de la sagesse des Romains ? La monarchie qui s'est établie chez eux, a tellement en aversion les maux enfantés par la tyrannie, qu'elle s'abstient, qu'elle se fait scrupule de prendre le nom de royauté. La tyrannie fait détester la monarchie, mais la royauté la fait aimer. La royauté ! Platon l'appelle un bien vraiment divin, donné aux hommes[2]. Mais le même Platon dit aussi que la simplicité convient à tout ce qui est divin[3]. Dieu n'agit pas d'une manière théâtrale, il n'étonne pas par des prodiges; mais

> . . . . . . . . . . . . , par ses conseils secret
> Il sait, comme il convient, régler nos intérêts[4].

Toujours et partout il est prêt à se révéler à l'âme digne de le recevoir. J'estime donc que le roi doit se montrer simple et bienveillant pour tous. Les tyrans, pour mieux frapper les esprits,aiment à s'envelopper de mystère ou à n'apparaitre qu'avec une pompe saisissante. N'est-il pas naturel qu'ils tâchent de se donner une majesté d'emprunt, à défaut de la vraie ? Quand on ne possède en soi rien de bon, et qu'on le sait on sent le besoin de se soustraire à la lumière pour se soustraire au mépris. Mais personne jamais n'a songé à dédaigner le soleil; et pourtant ne se montre-t-il pas tous les jours ? Un roi qui ne craint pas qu'on puisse le trouver indigne de ce titre doit se monter à tous; il

---

(1) Synésius exagère l'infériorité des fonctions de l'archonte-roi, qui présidait aux affaires de la religion.

(2) *Le Politique*, vers la fin.

(3) *Phèdre*, au commencement.

(4) Euripide, *Les Troyennes*, 897.

fussent admis en présence de l'Empereur; et voici qu'ils le rencontrent, prenant son repas. Car on ne voyait pas alors cette multitude de gardes qui forment dans l'armée une autre armée; tous choisis pour l'éclat de leur jeunesse et pour la beauté de leur taille, flers de leur chevlure blonde et touffue,

*Le visage et le front ruisselants de parfums*[1];

ils portent des boucliers d'or, des lances d'or; leur présence nous annonce l'apparition du prince, comme les premiers rayons du jour annoncent l'approche du soleil. Mais là, point de corps d'apparat; c'était l'armée tout entière qui gardait et l'Empereur et l'Empire. Rien n'était donné à la pompe; ce qui distinguait les grands, ce n'était point le costume, mais l'élévation de l'âme; ils ne différeaient du vulgaire que par les vertus intérieures; à leur habillement on les aurait pris pour de simples soldats. Tel parut Carin[2] aux yeux des ambassadeurs. Sa tunique de pourpre était jetée sur l'herbe; pour tout mets il avait des pois cuits de la veille, avec un peu de pore salé. Sans se lever, sans changer de posture à la vue des députés, il les fait approcher. «Je sais, dit-il, que vous êtes venus pour me parler, car c'est moi qui suis Carin. Retournez de ce pas dire à votre jeune roi que s'il ne se hâte de me satisfaire il peut s'attendre à voir, avant qu'un mois soit écoulé, tout son pays ravagé et plus nu que ma tête. » Et en achevant ces mots il ôte son bonnet et leur montre sa tête aussi unie que le casque qu'il avait déposé à côté de lui. Puis il leur dit que s'ils ont faim ils peuvent, comme lui, prendre dans la marmite; sinon, quils s'en aillent aussitôt, hors de l'enceint du camp romain, car ils n'ont plus rien à faire comme ambassadeurs. Quand les députés, de retour chez eux, eurent raconté au peuple et au roi ce qu'ils avaient vu, ce qu'ils avaient entendu, tous, comme on pouvait s'y attendre, furent saisis de crainte et d'épouvante, à la pensée qu'ils auraient à combattre des hommes conduits par un empereur qui ne rougissait pas, tout empereur qu'il fût, d'être chauve, et qui invitait des convives à manger avec lui à la marmite. Ce roi orgueilleux, vaincu par la peur, vint dispcsé à tout céder, lui si fier de sa tiare et de sa robe magnifique, à un ennemi qui se contentait d'une tunique de laine commune et d'un méchant bonnet.

19. Tu connais sans doute un ature fait encore plus récent; car il est impossible que tu n'aies pas entendu parler de cet empereur qui, s'exposant lui-même, alla, sous les dehors d'un ambassadeur, explorer le pays ennemi[3]. Commander aux villes et aux armées, c'était remplir une dure fonction : aussi vit-on plus d'une fois refuser une souveraineté aussi laborieuse. Un prince[4] après avoir régné

(1) *Odyssée*, XV, 331.

(2) Nous avons déjà signalé, page 114, l'erreur commise par Synésius.

(3) Synésius désigne sans doute Galère, qui, rapporte Eutrope, alla, avec deux ou trois cavaliers explorer le pays ennemi, dans une guerre contre les Perses.

(4) Dioclétien, qui abdiqua en 305.

pompe, ils se coiffaient du bonnet de laine des Lacédémoniens, comme les représentent encore leurs statues, qui excitent le rire des enfants, et font croire au peuple vielli que ces héros, loin d'être heureux, menaient une existence misérable, si on la compare à la vôtre. Mais ils n'avaient pas besoin, ces guerriers, d'entourer de remparts leurs cités pour les protéger contre les ivasions des barbares d'Europe et d'Asie. Par leurs exploits, au contraire, ils avertissaient l'ennemi d'avoir à défendre ses propres foyers; souvent ils franchissaient l'Euphrate pour poursuivre les Parthes, l'Ister pour attaquer les Gètes et les Massagètes. Mais voici qu'aujourd'hui ces mêmes peuplades, jadis vaincues, après avoir changé les unes leur nom, les autres la couleur de leur teint, pour simuler des races terribles nouvellement sorties de terre, viennent à leur tour nous apporter l'épouvante; elles traversent les fleuves, et pour nous laisser en paix elles exigent un tribut. *Allons, revêts ta force*(1)!

17. Mais laissons de côté, si vous le voulez, cette comparaison du passé et du présent. A Dieu ne plaise que sous l'apparence d'une exhortation je songe à vous tenir un langage blessant, quand j'essaie de montrer que le faste dont s'entoure un roi n'a qu'un éclat trompeur. Mais après m'être arrêté à décrire la magnificence que vous étalez, si je rappelle en quelques mots les habitudes simples ou grossières, comme on aimera le mieux, des anciens rois, nous allons voir se dresser en face l'une de la'autre la prodigalité et l'économie. En les considérant ainsi de près toutes les deux, tu dédaigneras tout ce qui n'a qu'un faux lustre, pour t'attacher uniquement à ce qui fait la véritable gloire d'un prince. La première nous apparaissait tout à l'heure peinte surtout de couleurs d'emprunt; il n'en est pas ainsi de la seconde; ses traits sont tout autres : elle n'a point de fard, elle n'en veut point; on la reconnaît à ses vetus natives. L'activité marche de pair avec une vie simple. Je vais te citer un exemple de courage et de frugalité donné par un empereur : ce court récit est à lui seul tout un enseignement.

18. L'empereur dont je parle ne vivait pas dans un siècle éloigné du nôtre; l'aîeul d'un de nos vieillards, à moins d'avoir été père de fort bonne heure, ou d'avoir eu des fils qui, de fort bonne heure aussi, l'eussent rendu aîeul, pouvait le voir et le connaître. Ce prince, dit l'histoire, allait en guerre contre un des rois Arsacides qui avait insulté l'empire romain. Il venait de franchir les montagnes de l'Arménie; avant d'entrer sur le territoire ennemi, comme il se sentait faim, l'heure du repas arrivée, il ordonna à ses soldats de sortir des bagages toutes les provisions, toutes, car ils trouveraient maintenant dans le pays de quoi se nourrir; et il montrait de la main les campagnes des Parthes. Sur ces entrefaites se présentent des ambassadeurs envoyés par l'ennemi : ils s'attendaient à être d'abord reçus par les grands de la cour, entourés de leur suite, avec tout le cérémonial d'une audience, et pensaient qu'ainsi plusieurs jours s'écouleraient avant qu'ils

(1) *Iliade*, IV, 221.

un fardeau plus lourd que le plomb : on ne peut la supporter sans en être accablé, à moins d'avoir une âme forte. Pour donner à cette force d'âme, que la nature ébauche en nous, son complet achèvement ,il faut une activité soutenue. La Philosophie, ô Prince, te convie à d'énergiques efforts, pour éviter de fatales conséquences. Toute chose périt sous l'influence de causes contraires à celles qui l'ont faitvivre. Je crois que l'Empereur doit respecter les institutions de la patrie. Mais n'appelons point de ce nom des habitudes de luxe introduites d'hier dans la république dégénérée : nos véritables institutions sont les règles de conduite qui servirent à établir la puissance romaine.

16. Au nom de la Divinité qui gouverne les rois, tâche de m'écouter patiemment, si dures que soient mes paroles : à quelle époque, selon toi, l'empire romain a-t-il été le plus florissant ? Est-ce depuis que vous portez des habits de pourpre et d'or, depuis que des pierres précieuses, tirées du sein des montagnes ou des profondeurs d'une mer lointaine, chargent vos têtes, couvrent vos pieds, brillent à vos ceintures, pendent attachées à vos vêtements, forment vos agrafes, resplendissent sur vos siéges ? Aussi, par la variété et par l'éclat de vos couleurs, vous devenez, comme les paons, un spetacle curieux à voir; et vous réalisez contre vous-mêmes cette imprécation d'Homère : *Porter une tunique de pierre*(1). Encore ne vous suffit-il point de cette tunique : quand vous avez le titre de consul, vous ne pouvez plus enter dans la salle où le sénat se réunit, soit pour nommer des magistrats, soit pour délibérer, sans être couverts d'un autre vêtement de même espèce. Alors ceux qui vous contemplent s'imaginent que seuls, entre tous les sénateurs, vous êtes heureux, que seuls vous exercez de réelles fonctions. Vous êtes fiers de votre fardeau; vous ressemblez au captif qui, chargé de liens dorés, ne sentirait point sa misère; séduit par l'éclat magnifique de ses chaînes, il ne regardera point comme triste la vie de la prison : et cependant sera-t-il plus libre que le malheureux dont les membres sont retenus dans des entraves du bois le plus grossier? Voici que le pavé et la terre nue sont trop durs pour vos pieds délicats; vous ne pouvez marcher que sur une poussière d'or : des chariots et des vaisseaux vous apportent à grands frais de contrées éloignées cette précieuse poussière; une nombreuse armée est occupée à la répandre : en effet il faut bien qu'un roi trouve des jouissances partout, et jusque sous ses pas. Mais quand donc surtout a-t-on vu prospérer les affaires de l'Etat ? Est-ce maintenant, depuis que les empereurs s'enveloppent de mystère, depuis que, semblables aux lézards qui fuient la lumière dans leurs trous, vous vous cachez au fond de vos palais, afin que les hommes ne voient point que vous êtes des hommes comme eux ? N'était-ce pas plutôt quand nos armées étaient conduites par des chefs qui vivaient de la vie du soldat ? Noircis par le soleil, simples et sévères dans leurs habitudes, ennemis du faste et de la

(1) Lainon essi Kitwna (*Iliade*, III, 57.) — *Tu aurais revêtu une tunique de pierre*, c'est-à-dire *tu aurais été lapidé*, ou *tu aurais été enseveli*.

15. Si maintenant je fais l'application de ces généralités au sujet particulier que je traite, peut-être atteindrai-je le but.

*Qu'un Dieu vienne m'aider à toucher vos esprits !*
*Un sincère conseil a toujours quelque prix*[1]

Rien jadis n'a été plus fatal à l'Empire que le luxe théâtral déployé autour de la personne du Prince. On prépare dans le mystère un faste pompeux, dont vous faites ensuite étalage à la manière des barbares. Mais l'ostentation cache la faiblesse sous des dehors trompeurs. Que mon lanagage ne te blesse point; la faute n'est pas à toi, mais à ceux qui, les premiers, introduisirent ces habitudes pernicieuses et les transmirent à leurs successeurs. Le mal n'a fait que s'accroître avec le temps. Votre majesté même, et la crainte qu'en vous laissant voir souvent vous ne soyez l'objet de moins de respect, vous retiennent enfermés dans vos palais. Là, devenus vos propres captifs, privés de voir et d'entendre, vous perdez les leçons pratiques de l'expérience; vous ne vivez plus que pour les plaisirs du corps et pour les plus grossiers d'entre ces plaisirs, ceux du goût et du toucher; votre existence est celle d'un polype. Ainsi, pour vouloir être plus que des hommes, vous tombez même au-dessous de l'homme. Tandis que vous ne laissez pas pénétrer jusqu'à vous les centurions et les généraux, pour vous égayer vous faites votre société habituelle d'êtres à tête petite, à intelligence bornée, vrais avortons, produits imparfaits de la nature, semblables à de la fausse monnaie. Un fou devient un don digne d'être offert à un roi, et plus il est fou plus ce don est précieux. Incertains entre la joie et le chagrin, ils pleurent et rient tout à la fois; leurs gestes, leurs cris, leurs bouffonneries de toute espèce vous aident à perdre le temps. L'esprit aveuglé pour n'avoir pas vécu conformément à la nature, vous cherchez un remède encore pire que le mal; de sottes idées, de ridicules propos vont mieux à vos oreilles que les sages pensées sorties de la bouche éloquente d'un philosophe. L'unique avantage de cette existence clôturée, le voici : c'est que si un citoyen se distingue par son intelligence, vous vous défiez de lui, vous ne vous laissez voir qu'à grand'peine; mais un insensé, au contraire, vous le faites venir, vous révélez entièrement à ses yeux. Il ne faut pas l'oublier cependant, les mêmes moyens par lesquels un Etat s'est formé servent à l'agrandir. Parcours toute la terre par la pensée; vois les empires des Parthes, des Macédoniens, des Perses, des anciens Mèdes, vois le nôtre : toujours tu trouveras que les Etats n'ont dû leur grandeur qu'à des guerriers, chers à leurs compagnons d'armes, partageant avec eux la rude vie des camps, couchant comme eux sur la dure, se soumettant aux mêmes fatigues, ne s'accordant que les mêmes plaisirs. C'est par leurs travaux qu'ils élevaient si haut leur fortune; et une fois au faîte de la puissance, ils ne s'y maintenaient que par la sagesse de leurs conseils; car la prospérité est comme

(1) Ces deux vers, à part une légère vriante, sont tirés de *l'Iliade, XV*, 403.

les soldats : non-seulement son armée ne fera, pour ainsi dire, avec lui qu'un seul corps animé d'un même espirt; mais dans les exercices variés des camps il pourra tantôt faire l'apprentissage de la guerre, tantôt s'initier à la science du commandement : c'est une école qui le prépare et qui l'excite aux œuvres sérieuses et considérables. Il n'est pas indifférent de pouvoir, quand le jour des batailles sera venu, appeler par leurs noms un général, un commandant de légion, un chef de cohorte ou d'escadron, un porte-enseigne à l'occasion, et même quelques-uns des vétérans les plus connus, les plus estimés parmi les cavaliersou les fantassins. C'est par là qu'on les encourage. Homère, en nous montrant l'un des dieux présent au milieu des Grecs pendant la mêlée, nous dit que d'un coup de son sceptre il donne aux jeunes guerriers

.............. *une force invincible*(1);

et qu'ainsi dans leur cœur

*La fureur du combat plus vive encore s'allume*(2).

Ils frémissent d'impatience dans tout leur corps; car ce vers :

*Leur pied veut avancer, leur bras veut se lever*(3),

nous marque qu'il leur tarde de se précipter sur l'ennemi. Cette ardeur, un prince saura l'inspirer à ses soldats en les appelant par leurs noms; chez celui-là même que le son de la trompette laisserait insensible, il éveillera l'amour de la gloire, il excitera son courage. On s'expose volontiers au danger sous les yeux de son roi. Pacifique ou belliqueux, un roi ne saurait avec trop de soin entretenir cette noble emulation. Telle est la pensée du poète; comme il estime que, pour animer surtont la valeur des soldats, il faut les connaitre tous, jusqu'aux derniers, il nous fait voir Agamemnon, qui non-seulement s'adresse à chaque guerrier en le nommant, mais qui recommande à son frère d'en faire autant, de rappeler les noms des pères et des ancêtres de ceux auxquels il parle, de traiter chacun avec honneur, et de se montrer affable(4). Or on traite surtout un homme avec honneur quand on cite, pour le louer, un de ses actes de courage, un de ses succès. Vois Homère, il fait du roi le louangeur de ses sujets. Et qui donc hésitera à prodiguer son sang pour obtenir les éloges du prince ? Voilà ce que tu gagneras à venir souvent au milieu des soldats. J'ajoute qu'ainsi tu connaitras leurs caractères, leur habitudes; tu sauras quelle place il convient d'assigner à chacun selon les circonstances. Fais encore cette réflexion : le roi est l'artisan de la guerre, comme le cordonnier est l'artisan de la chaussure; le cordonnier serait ridicule s'il ne connaissait pas les instruments de son métier : comment le roi pourra-t-il donc se servir des soldats, qui sont ses instruments, sans les connaitre ?

(1) *Iliade*, XIII, 60.

(2) *Id.*, *ib.*, 74.

(3) *Id.*, *ib.*, 75.

(4) *Iliade*, X, 67 et seq.

Pour remédier à l'infirmité de sa nature, il s'aide de ses amis, et avec leur concours il se multiplie; il voit avec leurs yeux, il entend avec leurs oreilles, il délibère avec leurs pensées qui viennent toutes n'en faire plus ainsi qu'une seule.

12. Mais il faut surtout éviter, et c'est un danger contre lequel on ne saurait être à la cour trop bien armé, que l'adulation ne vienne à se glisser sous le voile de l'amitié. A elle seule l'adulation, malgré la vigilance des gardes, peut faire du prince sa proie. Si on ne la chasse bien loin, elle pénètre jusqu'au fond du palais, elle s'attaque à ce que les souverains ont de plus précieux, à leur âme même. L'affection pour ses amis n'est pas la moindre vertu d'un prince. C'est là ce qui a fait du fameux Cyrus et d'Agésilas les rois les plus renommés chez les Barbares et chez les Grecs. Faut-il agir ? Le roi délibérera d'abord, puis il arrêtera sa décision avec ses amis; mais, pour exécuter ses desseins, il a besoin de beaucoup de bras.

13. Poursuivons notre discours. Il faut que le prince sorte de son palais, qu'il aille, en quittant ses amis, se mêler aux soldats, qui sont, eux aussi, à un moindre degré, des amis. Il doit descendre dans la plaine, tout inspecter par lui-même, hommes, chevaux, équipements; il doit se livrer à l'équitation avec le cavalier, à la course avec le fantassin, partager les exercices de l'hoplite pesamment armé, du peltaste armé à la légère, lancer la flèche avec l'archer. En s'associant à leurs occupations, il leur inspire un vif attachement; s'il les appelle ses compagnons, ce n'est une vaine manière de parler; et, quand il leur donne ce nom dans ses harangues, ils sont là pour attester que c'est l'expression même de la vérité. Tu écoutes peut-être avec impatience l'énumération des labeurs que je réclame de toi; mais, crois moi, la fatigue n'a pas de prise sur un roi : quand on a de nombreux témoins de ses fatigues on devient infatigable. Un roi ne peut s'endurcir aux rudes travaux, vivre au grand air, s'exercer au maniement des armes, sans être en spectacle à ses peuples; tous les yeux se tournent vers lui, on ne peut se lasser de le contempler; au loin, si on ne le voit pas, on l'entend célébrer. C'est ainsi qu'en se montrant souvent aux regards de ses soldats, le roi fait naitre dans leurs cœurs une prfonde affection pour sa personne. Et quel empire est plus solide que celui qui est défendu par l'amour de tous ? Quel particulier, dans une humble condition, est plus en sûreté contre les embûches qu'un prince qui n'est un objet de crainte pour personne, mais pour qui tout le monde a des craintes ? Le soldat est naturellement simple, ouvert; il se livre aisément à ceux qui vivent avec lui. Platon donne à ceux qu'il destine au métier des armes le nom de gardiens, et il les compare au chien[1], c'est-à-dire à l'animal qui sait le mieux discerner les amis ou les ennemis. Quoi de plus méprisable qu'un roi qui ne serait connu de ses défenseurs mêmes que par ses portraits ?

14. Le roi retirera de nombreux avantages de ses rapports fréquents avec

(1) *République*, II.

et de ses qualités il fait les qualités de tous. Son cœur doit rester calme; sur ses traits mêmes doit siéger une auguste sérénité. Qu'il est doux et magnifique le spectacle offert par un roi qui, dans sa tranquille majesté, fait l'admiration de ses amis, je veux dire des gens de bien, et l'effroi de ses ennemis et des méchants ! Le repentir ne peut enterer dans son âme, car il ne fait rien où ne concourent les différentes parties de cette âme; une autorité supérieure établit entre toutes l'harmonie; chacune remplit ses fonctions, et elles s'accordent toutes pour un but unique. Mais si on leur donne libre carrière, si on leur permet d'exercer des actions opposées, et de tirailler ainsi l'âme en sens contraires, alors vous verrez l'homme, tantôt humble, tantôt superbe, devenir tour à tour le jouet du désir, de la crainte, de la tristesse, du plaisir, et de toute espèce d'affections. Il est sans cesse en contradiction avec lui-même.

*Oui, je vais m'attirer des maux de toute sorte;*
*Mais la colère en moi sur la raison l'emporte*[1]

a dit un poëte qui connaissait les luttes que se livrent en nous les passions.

11. La première qualité d'un roi, c'est donc de régner sur lui-même, et de subordonner à l'intelligence les grossiers penchants qui sont au fond de notre nature. Conviendrait-il que celui qui doit commander à des millions d'hommes fût l'esclave des maitres les plus indignes, le plaisir, le chagrin, et tous les monstres de même espèce qui habitent dans l'âme ? Après être ainsi réglé, que le prince, sortant de lui-même, fasse d'abord sa société de ses ministres et de ses amis, pour s'entretenir avec eux des affaires de l'Etat. Mais que ce nom d'amis ne soit pas donné comm par ironie, et pour dissimuler, avec des expressions douces et mensongères, la réalité d'un despotisme dur et rigoureux. Pour un prince, quoi de plus précieux qu'un ami fidèle ? Est-il un compagnon plus agréable dans le bonheur, un aide plus sûr dans les revers ? Qui peut louer avec plus de sincérité, blâmer avec moins d'amertume ? Pour le peuple le témoignage le plus certain de la bonté d'un roi, n'est-ce pas le dévouement qu'il inspire à ceux qui l'entourent ? Il s'attire ainsi l'attachement même de ceux qui vivent loin de lui, et les gens de bien n'ont pas de plus vif désir que d'être un jour honorés de son affection. C'est tout le contraire avec les tyrans; avec eux le proverbe a raison, *se tenir loin de Jupiter et de sa foudre.* Comme il n'y a point de sûreté dans leur commerce, une condition modeste où l'on vit en sécurité vaut mieux que les hatures dignités, exposées à trop de dangers. A peine si l'on commence à être heureux aux yeux de la foule et à jouir de la faveur du tyran, que souvent on est déjà digne de pitié pour avoir encouru sa haine. Mais le roi sait que Dieu seul se suffit a lui-même, et qu'il n'y a que cet être éternel pour dominer de bien haut tout ce qui est au-dessous de lui. Mais quand c'est un homme qui commande à une multitude d'hommes, ses semblables, il ne peut suffire à tous les soins, à tous les travaux.

(1) Je ne sais quel est ce poète cité par Synésius.

même de Dieu; elle se révèle par ses effets : car la bonté ne s'entend pas comme quelque chose d'absolu en soi; elle n'existe que par rapport à ceux sur lesquels elle s'exerce, et qui lui doivent des jouissances. Quand nous disons que Dieu est bon, cela signifie qu'il est l'auteur de tous les biens. Les prières sacrées que nos pères nous ont appris à envoyer, dans les augustes cérémonies, à celui qui gouverne le monde, ne célèbrent pas son pouvoir; elles sont un hommage à sa providence. Tout ce qu'il y a d'excellent, c'est Dieu qui le donne, la vie, l'être, l'âme, et tous les biens assez estimables pour être regardés comme émanant du principe suprême. Pour toi, reste à la hauteur durang élevé où tu es placé; montre-toi digne de ce nom de roi que tu portes, ainsi que Dieu; imite ce souverain maître en comblant de bienfaits toutes les villes, en répandant autant de bonheur que tu le peux sur chacun de tes sujets : alors nous pourrons en toute vérité t'appeler grand roi; ce titre, nous te le donnerons, non pour t'honorer suivant l'usage, ni pour capter ta faveur, ni pour conjurer ta colère, mais pour déclarer notre intime conviction, et notre langue ne sera que l'interprète exact de notre pensée. Ecoute : pour te montrer ce que c'est qu'un roi, je vais en faire devant toi la statue; ce sera à toi d'animer ensuite cette statue, et de lui donner la vie. Pour exécuter cette œuvre, je m'aiderai, autant qu'il le faut, des idées qu'ont exprimées d'illustres anciens; et qu'elles n'aient pas à tes yeux moins de valeur que les autres; au contraire. Les qualités qu'il faut surtout rechercher, et qui, sans contestation, conviennent le mieux à un roi, sont celles que recommandent également les sages des temps passés et du temps présent.

10. Tout d'abord c'est sur la piété, comme sur un ferme piédestal, que doit être solidement placée notre statue; les tempêtes ne l'ébranleront point, établie sur ce piédestal. La piété montera avec toi sur le trône; e le brillera à tous les regards, de ces hauteurs où elle résidera. Ainsi je dis que le roi, sous la conduie de Dieu, doit d'abord régner sur lui-même, et commander à son âme. Sache en effet que l'homme n'est pas un être simple et sans mélange; c'est un composé dans lequel Dieu a fait entrer toutes sortes de penchants et de facultés. Nous sommes, j'ose le dire, plus monstrueux que l'hydre : elle avait un moins grand nombre de têtes; car la pensée, le désir, la tristesse, la colère, la joie, la crainte n'ont pas le même siége. Ajoute la diversité qui provient des sexes, le mâle plus audacieux, la femelle plus timide. Les sentiments les plus opposés se liverent combat; mais il y a, pour servir d'arbitre, cette faculté que nous appelons la raison c'est elle qui doit régner dans l'âme d'un roi, et asservir à son autorité la tourbe tumultueuse des passions. On apprend vraiment à régner, si l'on commence par gouverner ses penchants naturels. L'homme qui a su dompter et rendre dociles les parties déraisonnables de l'âme, qui les a soumises au joug de la sagesse, qui les a toutes contraintes d'obéir à cette maîtresse unique, cet homme-là, simple particulier ou roi, a quelque chose de divin; mais surtout s'il est roi, car alors il communique sa vertu à des nations entières,

toi, combattre avec toi.

8. Ce que je vais dire semblera peut-être étrange, mais c'ést l'expression même de la vérité. Quand je compare la faiblesse à la force, le dénûment à la richesse, tout ce qu'il y a de petit à tout ce qu'il y a d'élevé, si des deux côtés la prudence fait défaut, la pauvreté, l'impuissance, une humble condition valent bien mieux que le rang suprême pour ceux qui sont dépourvus de raison et de sagesse : car ils commettront moins de fautes si leur folle incapacité ne trouve pas un libre champ. Tous les avantages extérieurs, qui ne sont que des instruments, comme disent Aristote et Platon, mes maitres, peuvent servir pour le mal comme pour le bien. Ainsi ces deux philosophes, et tous ceux qui procèdent de leur école, n'ont pas voulu employer une dénomination qui impliquât l'éloge ou le blâme : ces instruments, pour parler comme eux, sont tantôt bons, tantôt mauvais, selon le caractère de ceux qui en usent. Souhaitons de voir ces avantages échoir, non pas au méchant, il faut que sa perversité soit impuissante, mais à celui qui saura en tirer parti dans l'intérêt des particuliers et des villes; souhaitons que sa vertu ne languisse pas inutile, inactive et obseure, mais se déploie efficace pour le bonheur des hommes. Voilà comment tu dois user du pouvoir que tu possèdes, et c'est à cette seule condition que tu en jouiras véritablement. Il faut que le repos des familles, des cités, des peuples, des nations, des continents, soit assuré par la prévoyance et la sollicitude éclairée du prince, qui doit reproduire comme une image de la divine Providence. Dieu, cet archétype intellectuel de tout bien, veut que les choses d'ici-bas soient réglées à l'imitation des choses d'en haut. Il est l'ami du roi de l'urives, l'homme qui porte dans ce monde ce même nom de roi, si toutefois il est vraiment digne de ce nom; et il en est digne quand on peut lui appliquer quelqu'une des qualifications qui conviennent à Dieu. Avant d'aller plus loin, il est à propos d'exposer quelques idées philosophiques pour mettre en pleine lumière ce que je veux dire.

9. Jamais encore aucun nom n'a été trouvé qui pût faire connaitre Dieu dans son essence même. Désespérant de pouvoir atrement le définir, les hommes l'ont désigné d'après ses attributs. Père, créateur, principe, cause des choses, de quelque manière qu'on l'appelle, toutes ces expressions n'indiquent que les relations de Dieu avec les êtres qui lui doivent l'existence. Quand on dit de lui qu'il est roi, on le considère par rapport à ceux sur lesquels il règne, mais on ne le saisit pas dans sa nature intime. J'arrive maintenant, suivant ma promesse, aux autres noms, dont j'ai différé un instant à parler. Quelle est la qualité dont la présence, chez le roi qui la possède ici-bas, prouve le mieux qu'il est vraiment roi, et digne d'être ainsi appelé ? Dieu est bon, voilà ce que partout proclame l'universalité des hommes, sages ou ignorants; ils n'ont tous à cet égard qu'une même pensée, qu'une même voix, quoiqu'ils ne s'accordent plus dans leurs autres opinions sur Dieu, dont l'essence pure et indivisible est l'objet de leurs controverses et de leurs disputes. Mais cette bonté, que personne ne conteste, ne se déduit pas de la nature

brebis, je le déclare tyran quand sa domination s'exerce sur des êtres doués de raison. Tel est le caractère distinctif de la royauté. Examine-toi d'après ce que je viens de dire. Si ce portrait du roi est le tien, alors tu peux justement te glorifier du titre auguste que tu portes; sinon corrige-toi pour ressembler à ce modèle. Je ne désespère pas de la jeunesse : elle peut toujours s'avancer dans le sentier de la vertu, pourvu qu'on l'aiguillonne; suivant qu'on la pousse, elle se jette aisément d'un côté ou de l'autre, comme ces fleuves qui se précipitent dans le chemin qui leur est ouvert. Un jeune prince a donc besoin que la Philosophie le tienne par la main, et l'empêche de s'écarter de la droite voie. Chaque vertu est tout près d'un vice, et l'on glisse aisément de cette vertu dans le vice qui l'avoisine. La tyrannie confine et touche à la royauté, comme la témérité au courage, et la prodigalité à la générosité. La fierté, lorsqu'elle n'est pas contenue par la Philosophie dans les limites de la vertu, devient, en s'exagérant, arrogance et présomption. La tyrannie n'est rien autre chose que l'excès de la royauté ; prends-la en aversion; tu peux la reconnaitre aisément aux traits sous lesquels je la représente. Mais voici surtout ce qui la distingue : le roi règle ses penchants d'après les lois; le tyran érige en lois ses penchants : mais si opposée que soit leur vie, ils ont cela de commun qu'ils possèdent l'un et l'autre tout pouvoir.

7. Il est au comble de la prospérité et de la fortune celui dont la volonté est partout obéie; mais la volonté elle-même obéit à la prudence : maîtresse des choses du dehors, elle se soumet à la direction plus élevée de sa compange, et reçoit d'elle le signal pour agir. L'empire ne donne pas à lui seul le bonheur, et Dieu n'a pas placé la félicité dans le pouvoir suprême : il faut aussi, il faut surtout la prudence, pour bien user de la souveraineté. Je ne reconnais de vie parfaite que chez l'homme qui joint la puissance à la prudence, qui a cette double supériorité de régner et de savoir régner. Quand la force et la sagesse sont unies, rien ne peut leur résister; mais séparées, la puissance et la prudence, l'une aveugle, l'autre débile, sont aisément vaincues. Voici l'une des choses que j'ai admirées chez les sages Egyptiens : ils donnent au divin Hermès deux faces; il est tout à la fois jeune et vieux. Si l'on pénètre le sens de ce symbole, cela signifie qu'il faut joindre l'intelligence à la vigueur, et que chacune des deux, privée de l'autre, est inutile. C'est encore cette même association de qualités que représente le Sphinx sacré, placé sur le parvis des temples, bête par la force, homme par la raison. La force que ne guide pas la sagesse s'emporte, s'égare, jette partout le trouble et le désordre; et l'intelligence ne sert de rien pour l'action lorsqu'elle est privée du secours des mains. Un cortége de vertus, voilà ce qui fait la gloire d'un roi; mais la vertu royale entre toutes, c'est la prudence. Prends-la donc pour compagne : les trois autres sœurs[1] suivront leur ainée, et toutes ensemble vont habiter avec

(1) Ces trois soeurs sont la force, la tempérance et la justice, qui forment, avec la prudence, les quatre vertus cardinales de la philosophie ancienne.

en ta qualité d'empereur que tu es général; tu dois à la Fortune de pouvoir te signaler par des exploits. La puissance qu'il a conquise par ses travaux est venue t'échoir par héritage; mais tu ne peux la garder sans peine. C'est là, je ne saurais trop le répéter, une tâche difficile, qui exige une singulière vigilance, si l'on ne veut pas que la Fortune tourne le dos au milieu de la route, comme un infidéle compagnon de voyage; car c'est à de faux amis que les sages comparent cette inconstante. Vois ton père lui-même : quoiqu'il ne dût le rang suprême qu'à ses glorieux faits d'armes, l'envie n'a pas voulu que sa vieillesse restât en repos : aussi Dieu lui a maintenu sa couronne. Marchant contre deux usurpateurs, il les défait l'un et l'autre, et aussitôt après son second triomphe il quitte la vie[1]; invincible dans les combats, il n'est vaincu que par la nature, à laquelle ne peuvent résister ni la vaillance ni le génie. Ensefeli dans sa vertu, il vous a laissé[2] un empire incontesté : puissent votre propre vertu, et Dieu venant en aide à cette vent résister ni la vaillance ni le génie. Enseveli dans sa vertu, il vous a laissé en aide à cette vertu, vous le conserver ! Si la protection de Dieu est nécessaire à tous, elle l'est surtout à ceux qui, sans lutte et sans travaux, n'ont eu, comme vous, qu'à recevoir la fortune en héritage. L'homme que Dieu a comblé de ses faveurs, et qui, dès l'âge le plus tendre, a été honoré du titre magnifique de roi, doit accepter toutes les fatigues, renoncer au rpos, se refuser le sommeil, s'imposer les soucis, s'il veut être réellement digne du nom de roi. Il est bien vrai, cet ancien proverbe, que ce qui fait la différence entre le roi et le tyran ce n'est point le nombre de leurs sujets, pas plus que le nombre de brebis ne sert à distinguer le berger du boucher, qui pousse devant lui le troupeau pour le dépecer, pour s'en rassasier et en rassasier les autres à prix d'argent.

6. Il en est de même du roi et du tyran : également favorisés par la Fortune, tous deux exercent leur autorité sur des miliers d'hommes. Mais celui qui cherche le bien de ceux qu'il gouverne, qui sacrifie son repos pour leur épargner des souffrances, qui s'expose au péril pour qu'ils vivent en sécurité, qui supporte les veilles, les soucis, afin que jour et nuit ils soient exempts d'inquiétudes, c'est vraiment celui-là qui mérite le nom de berger, s'il conduit des troupeaux, et le nom de roi, s'il commande à des hommes. Mais pour celui qui, s'abandonnant à ses désirs déréglés, n'use de sa puissance que pour jouir; qui, se croyant le droit de satisfaire ses passions, opprime ceux qui lui sont soumis, et prétend n'avoir des sujets que pour en faire des esclaves dévoués à tous ses caprices; pour celui, en un mot, qui veut, non point engraisser son troupeau, mais s'engraisser de son troupeau, je l'appelle boucher quand son pouvoir porte sur des

---

(1) Ces deux usurpateurs sont Maxime et Eugène, vaincus par Théodose, l'un en 388, l'autre en 391. Théodose mourut au commencement de 395, moins de cinq mois après la défaite d'Eugène.

(2) *A vous*, c'est-à-dire à Arcadius et à Honorius.

que parmi vous quelques-uns s'émeuvent, blessés de la liberté de ces paroles. Mais n'ai-je pas annoncé ce que j'allais faire ? C'était à ceux qui le savaient de se mettre sur leurs gardes pour soutenir mes attaques.

4. Tes oreilles sont agréablement chatouillées quand tous célèbrent ta grandeur. Et moi aussi je dis que jamais à personne n'a été donné un aussi vaste empire, des monceaux d'or tels que n'en possédait point l'ancien Darius, d'innombrables chevaux, et pour les monter, des archers, des cuirassiers, auxquels rien ne peut résister, lorsqu'ils ont un chef. Des villes que l'on ne saurait énumérer te vénèrent, toi que pour la plupart elles n'ont point vu, qu'elles ne verront point, privées du plus doux de tous les spectacles. Oui, voilà ce que nous pourrions, nous aussi, dire en toute verité. En quoi donc ne sommes-nous pas d'accord avec tes courtisans ? C'est qu'ils te font de ta puissance un sujet d'éloge; ils t'appellent heureux. Pour moi, me refusant à te louer, je me contenterai de te féliciter; car la félicitation est tout autre que la louange. Les avantages extérieurs peuvent nous valoir des félicitations; la louange n'est due qu'aux mérites intérieurs, unique fondement du bonheur. Les uns sont un don accidentel de la fortune, les autres sont le bien proper de l'âme. Aussi, tandis que la vertu reste ferme et inébranlable, la prospérité est chancelante, incertaine, et souvent l'adversité prend sa place. Pour conserver la puissance, il faut la protection de Dieu; il faut de la prudence, de l'habileté; il faut des circonstances favorables; il faut une activité constante, multiple, variée, qui s'exerce dans des conjonctures souvent impréveues, et toujours difficiles. On peut trouver la puisance tout acquise, mais on ne la garde pas sans peine. Considère en effet quels sont les personnages dont la tragédie met sous nos yeux les infortunes : de simples particuliers, des indigents ? Non, mais des puissants, des princes, des tyrans. L'humble toit n'est pas menancé d'une grande ruine, la médiocrité ne connait pas l'excès des revers. Celui-là seul dont le sort est brillant sera célèbre par ses malheurs et les catastrophes de sa destinée. Mais il est souvent arrivé que le mérite appelait la prospérité; les louanges avaient justement devancé les félicitations : la Fortune sans doute aurait rougi de ne pas rendre témoignage à des vertus éclatantes. S'il faut citer des exemples, n'allons pas les chercher hors d'ici : songe à ton père, et et tu verras que l'empire a été le prix de sa vertu. La Fortune ne produit pas la vertu mais par de glorieux exploits plusieurs se sont assujetti la Fortune. Puisse-t-il en être ainsi de toi, ô Prince ! Puisse la Philosophie ne pas ici te parler en vain ! Que la royauté te soit précieuse uniquement parce qu'elle excite et anime la vertu, en lui ouvrant une vaste carrière où elle peut s'exercer mieux que dans les étroites limites d'une condition privée.

5. Il faut élever ton âme au niveau de ta puissance; il faut justifier la Fortune, et prouver qu'elle n'a pas été aveugle en t'accordant, plus qu'à ton père, ses faveurs à l'entrée de la vie. Ton père est devenu, d'illustre général, empereur; toi c'est

de se corrompre; des avertissements sincères arrètent un jeune prince, prompt à s'égarer au gré de ses fantaisies. Ecoutez donc tous avec patience ce discours d'une nouvelle espèce; ne l'accusez point de grossièreté. Laissez la Philosophie s'expliquer; ne la condamnez pas au silence, parce qu'elle ne cherche pas à plaire, et qu'au lieu de flatter les jeunes gens en caressant leurs goûts, elle leur apporte d'austères préceptes et de graves enseignements. Si vous savez supporter sa présence, si les louanges que vous entendez tous les jours n'ont pas entièrement fermé vos oreilles,

Me voici parmi vous[1].

3. Cyrène m'envoie couronner ta tète avec de l'or, et ton âme avec la philosophie; Cyrène, ville grecque, nom antique et vénérable, jadis l'objet des chants de mille poëtes : mais aujourd'hui, pauvre et désolée, amas de ruines, elle a besoin des secours d'un roi pour recouvrer un peu de son ancienne splendeur. Tu peux soulager sa misère dès que tu le voudras, et il dépen de toi que je revienne un jour, au nom de ma patrie alors heureuse et florissante, t'apporter une autre couronne. Mais aujourd'hui même, quelle que soit la fortune présente de mon pays, j'ai le droit de parler librement, en face de l'Empereur : la vérité seule ! il ne faut point à un discours d'autres titres de noblesse. Jamais la patrie d'un orateur n'a rien ajouté, rien retranché à l'autorité de sa parole. Marchons donc, avec l'aide de Dieu, et entreprenons le plus beau de tous les discours, ou, pour mieux dire, de tous les travaux. Aider à développer la vertu dans l'âme d'un seul homme, quand cet homme est le Prince, c'est assez pour accomplir une œuvre utile à toutes le familles, à toutes les cités, à toutes les nations, petites ou grandes, au loin aussi bien que de près; car tout se ressent du caractère du Prince, que ! qu'il soit. Si tu le veux bien, voici ce que je vais faire d'abord, afin que tu m'écoutes jusqu'au bout; car l'habile chasseur ne commence pas par effrayer la proie qu'il poursuit. Disons ce qu'il convient qu'un roi fasse ou ne fasse pas : opposons la glorie à la honte. Et toi, attentif à ce qui va passer sous tes yeux et prenant pour juge la Philosophie, discerne le bien pour l'aimer, le mal pour le hair, en te promettant de toujours rechrcher l'un, de toujours fuir l'autre. Mais si, dans la suite de ce discours, tu reconnais avec nous que parfois tu as failli, sache t'indigner contre toi-même, et rougir d'avoir été ce que tu ne devais pas étre. La rougeur causée par le repentir est une promesse de vertu; la honte est divine, selon l'expression d'Hésiode[2]. Mais s'obstiner dans ses fautes, craindre d'avouer ses erreurs, c'est ne point accepter la leçon du repentir : les discours sont alors impuissants à procurer la guérison; le sage dira qu'il faut des châtiments. La Philosophie peut-être dès l'abord vous tient un langage rude et sévère. Je m'aperçois

(1) *Odyssée*, XXI, 207.

(2) *Les Travaux et les Jours*, V. 195.

**SYNESIUS**

**EVEQUE DE CYRENE**

**DE LA ROYAUTE.**[1]

1. Faudra-t-il, à moins d'être envoyé par une riche et puissante cité, et d'apporter de lâches et flatteurs discours, serviles produits d'une rhétorique et d'une poétique serviles, faudra-t-il, en entrant ici, haisser les yeux ? Sera-t-on condamné à ne point ouvrir la bouche dans ce palais, si l'on n'est protégé par l'illustration de sa patrie, si l'on ne sait, par les grâces de son langage et les adulations ordinaires, enarmer les oreilles de l'Empereur et de ses conseillers ? Voici la Philosophie qui se présente: ne la receverez-vous pas volontiers ? Quand elle reparait après une longue absence, qui pourrait se refuser à la reconnaitre, à lui faire obtenir ici l'accueil hospitalier qu'elle mérite ? Si elle réclame cette faveur, ce n'est pas pour elle, mais pour vous; car vous ne ponrriez la dédaigner sans nuire à vous-mêmes. Dans le discours qu'elle va vous tenir, rien ne sera donné au désir de plaire; elle ne cherchera point à séduire de jeunes cœurs par des impressions vaines et passagères, par l'étalage des ornements d'une fausse éloquence; mais au contraire, à ceux qui sauront la comprendre, grave et comme inspirée par les dieux, elle fera entendre un langage digne et viril, et dédaignera de capter par de basses flatteries la faveur des grands. Dans son austère franchise, étrangère au palais des rois, elle n'ira point prodiguer au hasard et sur toutes choses des louanges à la cour impériale et à l'Empereur; mais cela ne lui suffit point; elle blessera s'il le faut; elle veut, non pas seulement froisser un peu les esprits, mais les heurter avec force, pour les redresser en les choquant.

2. Les rois doivent tenir en grande estime un discours libre et indépendant. L'adulation séduit, mais elle perd; c'est le poison contenu dans une coupe dont les bords sont enduits de miel, et que l'on offre aux condamnés. Ne sais-tu pas[2] que l'art du cuisinier, qui provoque en nous, par des mets recherchés et des assaisonnements trop délicats, des appétits factices, nuit à la santé, tandis que la gymnastique et la médecine, au prix de quelques instants de souffrance, fortifient le corps ? Pour moi je veux ton salut, quand même, en voulant ton salut, je devrais exciter ton courroux. Le sel, par son amertume, empèche les viandse

(1) Druon, H., Oeuvres de Synesius, Eveque de Ptolemais, das la Cyrenaique au commencement du Ve Siécle. pp. 199 - 235.

(2) Synésius s'adresse tantôt à l'Empereur, tantôt à la cour tout entière. Pour marquer cette différence, j'ai dû employer le tu quand il parle à Arcadius, le vous qand il parle aux grands.

رقم الإيداع ١٩٧٧/٢٨٦٣

الترقيم الدولى ٥ - ٧٢٧ - ٢٤٦ - ٩٧٧ ISBN

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)